
الفلسطينيون
الجدد
الجيل الناشئ من القادة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥



ترجمة : هيثم علي حجازي



المؤلـف : جـون والاش
جانيت والاش
المترجم : هيثم علي حجازي
الطبعة : الاولى ١٩٩٤
الناشر : الاهلية للنشر والتوزيع/عمان
هاتف ٦٣٨٦٨٨
ص.ب ٧٧٧٢
فاكس ٦٥٧٤٤٥

المحتويات

الفلسطينيون الجُدُد

مقدمـــة

حـينما كتبنا عام ١٩٨٨ كـتـابـنا الأول الذي يحمل عنوان (أصـوات مـا تزال خـفـيـضة) كانت أصوات الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة ما تزال فعلاً خـفـيـضة وقد كانت كذلك بسبب من الاسرائيليين والعرب على حد سواء . وكل ما كـان يُسـمع آنذاك هو ذلك الضـجـيج الصـاخب للتطرف ، وصرخـات صـفارات سيارات الاسعاف التي تندب ضحايا الانتفاضة : الثورة الفلسطينية ضد الاحتلال الاسرائيلي . ولم تكن منظمـة التـحرير الفلسطينية قد اعترفت بعد بحق اسرائيل في الوجـود ، كما أنها (المنظمـة) لم تكن قـد اعلنت تخليـهـا عن اسـتـخدام الارهاب كـسـلاح ضد الدولة اليهودية . وعلى الرغم من حقيقة أن فلسطينيي (الداخل) هم الذين كـانوا يقاتلون ويموتون في الانتفاضة ضد الحكم الاسرائيلي ، فان بضعة من هؤلاء الفلسطينيين برزوا كـقـادة سـيـاسـيين . كـذلك ، فان الحكومة اليمينية في اسرائيل كـان تصم آذانها عن الاستماع الى أصوات معاناة الفلسطينيين وصرخاتهم الغـاضـبـة . وبدا العـالم الخـارجي كله منهـمكا ومستغرقا في التفكير في الانهيار الشيوعي ، وتحطم الاتحاد السوفييتي وامبراطوريته في اوروبا الشرقية .

لقـد تغير الكثير منذ ربيع عام ١٩٨٨ ، ولكن الناس الذين كـتبنا عنهم ـ أعني فـلـسـطينيي «الداخل» الذين كـانوا يعبرون عن مطالبـهم للاعتراف بالفلسطينيين كـشعب ـ بقوا الى حد بعيد على ما كانوا عليه : جيل قادة من ذوي الثقافة العالية ، بعـيـدون عن التـعـصب الديني بشكل عام ، وعلى استعداد تام لقبول بقاء الدولة اليهودية شريطة أن يعطى الفلسطينيون الفرصة لتحقيق استقلالهم وإقامة دولتهم . ولكن حـتى تاريخ انعـقـاد مـؤتمر مـدريد للسلام في شهر تشرين الأول من عام ١٩٩١ لم يـكن العـالم يعطي الكثير من الاهتمام لهؤلاء الفلسطينيين . فـالصـورة الفظة لحرب العصابات ، والوجه المغطى بالكوفية والقبضة الممسكة بقنبلة يدوية ، حـجـبت حقيقة وجود جيل ناشـىء اكثر اعتدالاً ، وبراغماتية ، بل وحتى جيل من الفلسطينيين في الضـفـة الغـربيـة وقطاع غزة مؤيد للغرب . ان مُشاهِد التلفزيون رأى ويرى المواجـهـات اليـومـيـة المتكررة بين الشـبـان الفلسطينيين وامثالهم من الاسرائيليين المدججين بالسلاح .

كـان مـؤتمر مـدريد نقطة التـحـول كما أشـارت صحيفة الواشنطن بوست : فـعـوضـاً عن ارتداء البـزة المـوهة وأحزمة المسدسات ، رأى العالم الفلسطينيين يرتدون البـذلات الرسـمـيـة ومـعهم الكمبيوترات المحمولة ؛ وعوضاً عن التحدث بنبرات صـوتيـة مـتـقطعـة يسـتخدمها الارهابيون ، فانهم تكلموا بنبرة بريطانية مـسـتـخدمين النبرات التي تعلموها في جامعة اكسيتر وجامعة ايتون بالاضافة الى جـامـعاتهم في الضفة الغربية وقطاع غزة . وعلى الرغم من ان هذه الاصوات كانت هنا وهناك لفترة تزيد على الحـقـبـة ، فانها سمعت لاول مرة في مدريد تتحدث عن نفسـها بصوت عال ، وبعقلانية ، وببلاغة . ورسم فيصل الحسيني ، حيدر عبد الشـافي وحنان عشراوي بشكل مـؤثر صورة لشعبهم تبعث على الشفقة ، وبحيث اصبح من المستحيل على العالم أن يتجاهلها .

وفي كـتـاب (الفلسطينيـون الجدد) نلقي نظرة أقرب على جيل القادة هذا ، وهو جيل لديه الكثير ، الامر الذي يجعله فريدا فعلاً . انه جيل وصل الى مرحلة النضج السـيـاسي تحت الاحـتـلال الاسرائيلي . وعلى المرء ان يفكر فقط في النفي الاجباري لمئات الآلاف من الفلسطينيين من الكويت بعـد حـرب الخليج : لقد كانوا المهندسين المعماريين ، وعمال البناء الذين حـولوا صـحـراء بدائيـة الى واحـات يانعة لمجتمع معاصر .

في حـزيران ١٩٩٢ سـجل فلسطينيـو الضـفـة الغربية وقطاع غزة نهاية عصر تمثل في ربع قـرن من الحـيـاة تحت الحكم الاسرائيلي . وهم لم يعـرفوا أي محتل آخـر تركـيـاً كـان أم بريطانيـاً ، ولا حـتى غير ذلك ، بل شاهدوا عمليات الضرب الاسرائيليـة المتكررة ، وقـتل جيرانهم ، وهدم بيوتهم بالجرافات ، والفقدان المستمر لأراضـيـهم لصـالح المسـتوطنين الاسرائيليين . ولكنهم أيضاً رأوا نظاما ديمقراطيا داخل اسرائيل يتـوق الى المسـاواة وحقوق الانسان . فمع عبور اكثر من مائة الف فلسطيني «الخط الأخضر» كل يوم للعـمل داخل اسرائيل ، كـانوا يرون مشـهدا فذاً لمجـتـمع يحاول احترام حـقـوق أقلياته بما فيهم تسعمائة الف عربي يعيشون في اسرائيل . ولقـد أعطى ذلك الفلسطينيين منظورا جـديدا لحياتهم وللأنظمة العربية المـحـيطة بهم ، والتي عـملت على قـمـعـهم لسنوات طوال . ان جـيل الفلسطينيين الناشـئ ـ الذي يتـضـمن هذا الكتاب لمحة عن حياة أفراده ـ عاش على الحدود بين بلدين ، في أرض مـقـدسة متنازع عليها ، حيث تتقرر وقائع وجودهم اليومي من

خلال عيشهم داخل اسرائيل وداخل المناطق التي تحتلها اسرائيل . وفيما يتعلق بكبريائهم وهويتهم وشعورهم فان اخلاصهم وولاءهم لكيان لم يولد بعد هو دولة فلسطين الجديدة ، هو الذي يقرر ذلك .

ان سيرة حياة اثني عشر فلسطينيا تهدف الى أخذ المراقب خطوة أقرب نحو تحسس واقع الحياة في المناطق المحتلة ، ونحو المشاركة في بعض خيبات الامل ، بالاضافة الى الانتصارات البسيطة ، ونحو فهم الاقتناع الراسخ الذي يأتي حينما يكون النضال شخصياً جداً . ان هؤلاء الفلسطينيين الاثني عشر قضوا فترة يفاعتهم كلها تحت الحكم العسكري الاسرائيلي ، وبالتالي فانهم يختلفون عن أهلهم الذين يتذكرون الحياة قبل اقامة دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، ويختلفون عن أبنائهم الذين لم يعرفوا أي واقع آخر غير الاحتلال الاسرائيلي ، فبعضهم (مثل فيصل الحسيني ، زهيرة كمال ، سري نسيبة ، رياض المالكي ، وحنان عشراوي) من منطقة مثلث القدس ـ رام الله ـ بيت لحم ، وبعضهم (مثل سامي الكيلاني ، ممدوح عكر ، سامح كنعان ، وغسان الخطيب) من نابلس وشمال الضفة الغربية، في حين ان (عبد العزيز الرنتيسي) من قطاع غزة .

وهؤلاء أيضاً يحتلون مواقع مختلفة على الخريطة السياسية ، فكل واحد منهم يميل الى اتجاه سياسي معين ، إما الى التيار الرئيسي (فتح) أو الى الاتجاه اليساري للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، التي يتزعمها ياسر عبد ربه ، واما الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، أو حزب الشعب (الحزب الشيوعي الفلسطيني سابقا) . وهناك البعض ممن يؤيدون حركة المقاومة الاسلامية المعروفة باسم (حماس) . في الوقت ذاته ، هناك البعض ممن يؤيد عملية السلام ، وهم اعضاء في الوفد والمجموعات الفلسطينية المفاوضة ، في حين يحتج آخرون على الشروط التي دخل الفلسطينيون بموجبها المفاوضات في مدريد ، ويفضلون ايقاف العملية كلها .

ولكن هناك الكثير مما يشترك فيه الاثنا عشر هؤلاء . فمعظمهم في منتصف سنوات الاربعين من العمر ، وهناك ثلاثة منهم في مرحلة الثلاثينات ، وهناك واحد في بداية الخمسين من العمر . ومعظمهم ولد بعد الحرب العالمية الثانية ، وجميعهم يشتركون في خبرة أحداث ما بعد الحرب التي شكلت حياتهم : الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، خمسة حروب عربية ـ اسرائيلية ، اتفاقيات

كـامب ديفـيد وتوقيع معاهدة سلام بين مصر واسرائيل ، الغزو الاسرائيلي للبنان ، والغـزو العـراقي للكويت . ولقـد عـانوا الكثير لان مـسـتـقـبلهم ومصير الشعب الـفلسطيني ككل لم ينفـصل عن الصراع العـربي ـ الاسرائيلي الواسع ، وبالتـالي ـ مكرهين ام راغـبين ـ كانوا في غالبية الاحوال تحت رحمة الزعماء العرب الآخرين .

لقـد عـملت الانتـفاضة على انهاء مرحلة الصمود ، أو المقاومة السلبية ، اذ انها سـجلت نهضة ، واحتجاجاً ضد عجزهم المزعوم عن تقرير مصيرهم ومستقبلهم . فالانتفاضة الفلسطينية التي بدأت في شهر كانون الاول من عام ١٩٨٧ هـي الحدث الاكـثـر اهميـة في حـيـاتهم ، اذ أثبت فلسطينيـو «الداخل» للعالم أن باستطاعتهم المقـاومـة بمـواردهم الذاتيـة وبشـجـاعـتهم . وكانت الانتفاضة رسالة الى العالم الخارجي مفادها انهم لن يحتملوا بعد ذلك تجاهل طموحاتهم لتقرير المصير وانهم ـ فـعـلا ـ على استعداد للموت من أجل ذلك . وقد كانت الانتفاضة سلطة مفوضة ذاتيـة ، اذ كـانت تمثل توكـيد واصرار الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال وداخل المناطق على انهم لن ينتظروا أحـداً بعد ذلك (القوى العظمى ، الامم المتحدة، الزعماء العـرب ، وحـتى قـيـادة منظمـة التحرير الفلسطينية) لانقاذهم من القمع الاسرائيلي .

لهذه الاسـبـاب اخترنا الكتـابة عن فلسطينيين من داخل المناطق . فهم الجيل ، الذي سـيـقـرر كـيف ومـتى سيحقق الفلسطينيون في النهاية استقلالهم الحقيقي ويقـيـمون دولتهم . ان الفلسطينيين الاثنى عشر الذين نكتب عنهم هنا هـم من بين اولئك الذين برزوا كقيادة جديدة . وهـم جزء من الجيل الذي القيت عليه مسؤولية تحـويل تضـحـيـات الماضي الى انتـصـارات الغد على طاولة المفاوضات ، وما يزال يتـوجب عليـهم اجتياز طريق شائك بين اعدائهم الاسرائيليين ومعارضيهم سواء في داخل المناطق ام خارجها . لذلك ، فان من الضروري بالنسبة اليهم تمتين علاقاتهم وروابطهم مع القـيـادة الخـارجية . فمن تلك القيادة ـ من م. ت. ف. ـ يستمدون شرعـيـتهم ، ويضمنون مصداقيتهم كونهم في الداخل . انهم ، وباختصار ، وسط اولئك الذين برزوا كزعامات محتملة لهوية او حالة فلسطينية جديدة .

لقـد كـتـبنا هذه التتمة لكتاب (أصوات ما تزال خفيضة) و (عرفات : في عيون الآخـرين) لاننا نعـتـقـد أن الاثنى عشر شـخـصـا هؤلاء بحـاجـة الى ان يُسمعوا ويُفْهَـموا . فهم يمثلون اتجاهات الشعب الفلسطيني كافة في الضفة الغربية وقطاع

غزة . وعلى الرغم من أنهم غير أبرياء كليـة من تورط سابق في عمليات الارهاب ، فـان غـالبـيـتهم الآن على استعداد لوقف النضال المسلح ضد اسرائيل اذا اعترفت الاخيرة ان حـقـوق المولد المكتـسـبـة التي تتـمـتع بها تنطبق ايضـا على الشـعب الفلسطيني . ومن وجـهة نظرنا ، فانه ليس هناك من خيار آخر اذا أرادت اسرائيل العـيش كمجتمع مدني ، وكدولة يهودية . ان استمرار الاحتلال سوف يقوض قوة اسرائيل كـدولة ديمـقراطية ، والاكثر من هذا ـ ومع نهوض الاصولية الاسلامية ـ فان عواقب التأخير المستمر ستكون أسوأ بكثير من مخاطر تفويض سلطة حقيقية ومـسـؤولة الى الجـيل الحـالي من الزعـامـات الفلسطينيـة . ونعـتقد ان الحكومة الاسرائيليـة الحالية التي يرئسها اسحق رابين تدرك هذه الضرورة التاريخية .

ان اسرائيل محظوظة لان جـيـلا من الفلسطينيين نشأ خلال فترة ربع قرن من السـيطرة والاحـتـلال ، هو الآن على اسـتـعداد لقبول الشروط التي ستعمل على حماية الامن الاسرائيلي . وكلما تم الاسراع باعطاء هذه المجـمـوعـة من الفلسطينيين تفـويضـا حـقيقيا من أبناء شعبهم ـ من خلال اجراء انتخابات ديمقراطية عامة في الضـفـة الغـربيـة وقطاع غـزة ـ فـانه سرعـان مـا ستجد اسرائيل حليفا لها ضد التعصب الذي أخذ يكتسح بشدة بقية منطقة الشرق الاوسط .

حينما كتبنا (أصوات ما تزال خفيضة) فان الانتفاضة لم يكن قد مر على بدئها سـوى بضـعـة شهور ، وكانت صور تيار العنف المستمر التي تظهر على شاشات التلفـزيون تجـرد النزاع من صـفاته الانسانية ، وتقلل من حجم ضحاياه من أجل تجـريد وتشويه القضايا التي كانوا يحاربون من أجلها . وقد حل الحقد والكراهية مكان العـقل ، وحـجـبت الانفـعـالات كل صورة مشرقة للقوى المعتدلة التي كانت مـوجـودة لدى طرفي النزاع . من المحـتـمل أن لا تدوم الانتـفاضة ، ولكنها حققت هدفـهـا الرئيس : فـقـد بينت للعـالم ان فلسطينيي «الداخل» يفـضلون الموت على مـواصلة العـيش تحت الاحتلال الاسرائيلي ، وقد برز من خلالها جيل جديد نعتقد انه مـسـتـعـد لقـيـادة الفلسطينيين الى سـلام دائم مع اسرائيل . لقـد حـاولنا في (الفلسطينيـون الجـدد) رواية قصتهم من أجل تعزيز فهم القضايا الانسانية التي دعـمت هذا النضال ، ومن أجل الاقتراب اكثر من هؤلاء الناس الذين سيكونون في المستقبل من قادة الفلسطينيين .

شكر وتقدير

خلال العمل على انجاز هذا المشروع كنا سعيدي الحظ بحصولنا على مساعدة منى غالي (عربية) وأوري نمير (اسرائيلي) . ومنى غالي خريجة جامعة جون هوبكينز ، وقد كانت معنا منذ البداية ، وخدمتنا كموجهة لافكارنا ، وشاركتنا في العديد من المقابلات التي أجريناها . كما قامت باجراء عدد منها بنفسها سواء أكان في واشنطن دي. سي. أم في الضفة الغربية وقطاع غزة . ولم تتردد منى ـ بطريقتها المهذبة الصريحة ـ في اعلامنا عن أماكن الخطأ التي كنا نقع فيها ، أو في ان توحي إلينا ان هناك معاني أعمق تختبيء خلف حادثة مألوفة . ان تفانيها من أجل الناس الذين نكتب عنهم قد تجلى بقرارها الشخصي بالعودة الى الضفة الغربية للعمل كصحفية ، وسوف تكون مفيدة لطاقم أي صحيفة أو مجلة تعمل فيها .

وعلى امتداد العِقد الماضي قضينا عدة شهور في الشرق الاوسط ونحن نعمل على انجاز كتابنا الأول (أصوات ما تزال خفيضة) الذي يتحدث عن فلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة ، وكذلك كتابنا الثاني (عرفات : في عيون الآخرين) وهو محاولة للنظر الى تلك الشخصية المثيرة للجدل من خلال عيون اولئك المعجبين به واولئك الماقتين له . فاذا كان هناك صحفي اسرائيلي واحد كان يحثنا على ذلك فانه (داني روبنشتاين) الذي قضى ساعات لا حصر لها معنا يشرح لنا تعقيدات الحياة الفلسطينية ، فليس هناك اسرائيلي لديه فهم أعمق لمأزق الفلسطينيين أو تعاطف معهم اكثر مما لديه .

لكن اسرائيليا آخر هو أوري نمير ـ مراسل صحيفة هارتس في واشنطن ـ كانت حكمته وحساسيته تنافس تلك التي لدى زميله السابق . لقد قضى أوري أربع سنوات كمراسل في المناطق ، وبلغته العربية الطليقة أقام علاقات صداقة مع الفلسطينيين ، وكوّن معرفة فذة بالعوامل الداخلية للمجتمع الفلسطيني . ولم يكن بمقدورنا إكمال هذا الكتاب بدون توجيهه ؛ فبصبر وأناة أجاب على استفساراتنا طوال ساعات الليل والنهار ، وقام بمراجعة مسودات سيرة حياة كل شخصية ، مقدما لنا بصيرة قيمة وحكايات آسرة .

كذلك حصلنا على مساعدة هيلل كتلر ، وهو صحفي موهوب ، اذ قام بتفريغ

كـثير من المواد من بين مئات الســاعــات من المقــابلات ، وســاهم باعداد مسودات لسير أربع من الشــخصيات . أما الصور الرائعة فهي من عمل رلى حلواني ، وهي فلسطينية ، كانت على أهبة الاستعداد دائما للسفر ـ لدى أدنى اشارة ـ الى غزة او الى مناطق بعــيــدة في الضــفــة الغربية من أجل اكمال هذه المهمة . وقدم لنا مبارك عــواد مــادة خلفــيــة قــيمة ، كما اننا نشكر العديد من الفلسطينيين الآخرين الذين أعطوا الكثير من وقــتــهم بســخاء : نبيل شعث ، حيدر عبد الشافي ، رجا شحادة ، صــائب عــريقــات ، زكــريا الاغا ، حسن أبو لبة ، فريح أبو مدين ، نظمي جبيه ، واكرم هنيه .

أمــا لورنس جــردم ـ وهو طالب دراســات عليــا في جــامــعة لويس فيل ـ فقد ســاعــدنا ايضــا في مجال البــحث من أجل تأليف هذا الكتــاب . فاهتمامه الحقيقي بالشرق الاوسط ونصيحته الحكيمة ، قدما مساهمة قيمة لهذا الكتاب .

اخيراً ، نود ان نتــقــدم بالشكر الى مــعــهــد الشرق الاوسط ، ومــعهد واشنطن لســيــاســات الشرق الادنى على فــتح أبواب مكتــبــتــيهما القيمتين أمامنا . أما ليلى الانصــاري ـ كاتبة موهوبة جدا ، وطالبة في كلية سارة لورنس ـ فقد قرأت الكثير من سير حــياة الشخصيات ، واقترحت تغييرات اسلوبية نأمل ان تكون قد جعلتها اكــثــر قــابليــة للقراءة . كذلك ، فان جنيفر باسيي ، محررتنا في دار بريما للنشر ، وإليــوت ســيــمــون محرر النســخة ، كانا سعيدين بالعمل . ودائما ، كان ولدانا : ميشال وديفيد يشجعاننا على المثابرة .



● حنان عشراوي في الخامسة من عمرها .



● عائلة ميخائيل عشراوي (من اليسار إلى اليمين) : ناديا ، داوود (الاب) منى (واقفة) هدى (جالسة) عبلة (واقفة) وديعة (الام) وحنان (في الثامنة من عمرها).

حنان عشراوي



● حنان عشراوي يوم زفـافـها إلى إميل عشراوي في الثامن من شهر آب عام ١٩٧٥ ، في كاتدرائية سانت جورج في القدس . وقد ولدت حنان يوم ٨/ ١٠/١٩٤٦ ، وتقول ان رقم الحظ لديها ٨ .



● حنان عشراوي وشـقـيـقاتها الاربع يقدمن لوحة ذهبية إلى امهن (وديعة) ووالدهن (داوود مـيـخـائيل) في الذكـرى الخـمسين لزواجهما . والوالد طبيب ، وقد توفي بعد مـرور بضـعة شهور على ذلك التاريخ . من اليسار إلى اليمين : منى ، حنان ، هدى ، داوود ، وديعة ، ناديا ، وعبلة.



● الاب سـمير قـفعيتي يصافح حنان عشراوي وزوجها اميل وابنتهما زينة بعد صلاة عيد الفصح في كاتدرائية سانت جورج في القدس الشرقية .

حنان ميخائيل عشراوي

مـن بين مجمـوعـة تتكون من ثلاثة فلسطينيين جلسـوا بجـانب بعـضــهم في البرنامج التلفـزيوني لمحطة ABC (نايت لاين) في شــهـر نيـسان ١٩٨٨ ، بـدت قـسمات وجه حنان عشراوي الحادة منتعشة على شاشة التلفزيون . وفي حين كان مـلايين الامـريكيين يشاهدونها للمرة الاولى ، تحدثت امرأة عربية سوداء الشعر ، ترتدي الزي الحـديث ، بوضوح وباختصار ، وبعبارات منظمة وسهلة ، معلنة «ان هذا ليس إجـلالاً للديمـقـراطيـة الاسرائيلية» على الرغم من انه من الواضح ان هذه هي المرة الاولى التي تقـوم فـيـها مجموعة مهمة من زعماء الفلسطينيين في الضفة الغـربيـة وقطاع غـزة بمناظرة مـسؤولين اسرائيليين على مستوى عال على شاشة تلفـزيون عـالمي الانتشار . وقد ركزت هذه المناظرة التلفزيونية على إصرار حنان ، الذي يذكّـر بانه ـ على الرغم من ان الطرفين كـانا مـقـيدين على الخشبة الصغيرة لمسرح القـدس ـ كـان مـا يزال هناك بينهم فـجوة واسعة ، وانقسام سياسي نفسي عاطفي .

وأعلنت حنان عشراوي «اننا قـررنا المجيء الى هنا لا من أجل إجـراء حـوار مع الاسرائيـلـيـين لأن العنوان الصـحـيح كما قلت هو م. ت. ف. ولكن أتينا من أجل التعبير عن آرائنا بوضوح . فعلى امتداد سنوات عديدة ، اعتمدنا على عدالة قضيتنا من أجل جـعل أهدافنا واضـحـة . لكن من الواضح أن على الامريكيين وبقية الرأي العـام ان يعرفوا ان العدالة لا تكفي لاعطائنا حقوقنا . لذلك ، نحن هنا من أجل أن نخـاطبكم مـباشرة ، ونعلمكم اننا نريد ان يتم الاعتراف بحقوقنا الاسـاسية . نريد الاعتراف بنا كشعب» .

بهذه الملاحظات الافـتتاحية أمام جمهور يتكون من مئات الاسرائيليين في الجزء الاسرائيلي من مـدينة القـدس (الجـزء الغـربي) كانت حنان تقوم بما كان الزعماء الفلسطينيـون في الداخل يقـومـون به لمدة طويلة من حيث اقناع رئيس م. ت. ف. ياسر عـرفـات بضرورة القـيـام به ، أي التـوجـه بقـضـيـتهم مباشرة الى الشعب الاسرائيلي . فـبـالنسبة الى الامريكيين ـ على بعد ستة آلاف ميل ـ فان ذكاء وبلاغة وحـجج حنان كـانت بمـثابة صدمة ومفاجأة سارة في آن واحد . فهنا امرأة تشبه

جيرانهم سكان الضواحي ، اكثر منها فدائية ترتدي اللباس الخاكي وتحمل المسدس وهنا كان صوت اعتدال ، وبلاغة لطيفة تتناقض تماماً مع لغة الارهاب الطنانة المتقطعة .

بالنسبة الى أحد الفلسطينيين ، والذي كان يجلس وحيداً في سجن اسرائيلي (فيصل الحسيني) بدا وجه حنان مألوفا على نحو غير واضح . لقد كان يعرف من هي بالطبع من خلال سمعتها ، لكن شيئا ما يتعلق بها جال في ذهنه . اصغى بعناية واهتمام في حين كانت المرأة ذات الصوت الاجش تتمسك بموقفها بحزم ، تقاوم سخرية اسرائيلي متشدد هو إلياهو بن اليسار «قوليها ، قوليها» للتخلي عن موقف م. ت. ف . المتشدد والاعتراف بوجود اسرائيل . «انها عظيمة ! انها عظيمة!» هكذا هتف فيصل الحسيني من زنزانة سجنه . وكلما شاهدها اكثر ، جالت في ذاكرته اكثر . في مخيلته ، تحولت من مدرّسة أنيقة في جامعة بير زيت الى تلميذة شابة ترتدي التنورة القصيرة في الجامعة الامريكية في بيروت ، والتي كان من المفروض ان تنضم الى مجموعة التدريب الفدائية التابعة له ، وذلك قبل اكثر من عشرين عاما .

فبعد حرب ١٩٦٧ ، كان فيصل مسؤولاً عن تجنيد جيش فلسطيني للمساعدة في خوض الحرب الجديدة ، فأقام مخيما للتدريب في لبنان ـ في مزرعة أحمد الشقيري الذي كان آنذاك رئيس م. ت. ف. ـ بالقرب من بلدة كيفون عند سفوح جبال الشوف . وكان ذلك المعسكر أول معسكر يقام لتجنيد الرجال والنساء على حد سواء ، اذ بلغ عدد الملتحقين به ١٢٠٠ متطوع فلسطيني . وكان من المفروض ان تكون حنان عشراوي بين هؤلاء . يقول فيصل : «كنا نفكر في تدريب الفلسطينيين لمدة شهر كل سنة من أجل ايجاد جيش دائم ... كنت بانتظارهما ... كانت حنان في الجامعة الامريكية في بيروت ، أما الفتاة الاخرى فكانت ليلى شهيد». في معسكر التدريب ذاك ، وعند فجر كل يوم ، وبينما كان يقوم بجمع المجندين «حسب أطوالهم لا حسب الجنس» كان يقرأ اسم هاتين الفتاتين اللتين اختيرتا لتكونا في مجموعته . وكل صباح ، وحينما كان ينظر في قائمة الاسماء ، كان يسأل نفسه : «أين حنان ميخائيل ؟ أين حنان ميخائيل؟» .

بعد مرور أسابيع عدة على اذاعة برنامج «نايت لاين» وحينما قابلها فيصل في

النهاية ، اعترفت حنان أنها لم تحضر نهائيا الى مخيم تدريب الفدائيين التابع لفتح الذي كان يشرف عليه . وتقول انها لم تتهرب من الواجب العسكري : «فقد ذهبت الى سوريا عوضاً عن ذلك» . فعبر الحدود السورية ، أقام الفدائيون الفلسطينيون مواقع تجمّع لهم من أجل مواصلة شن الهجمات على مرتفعات الجولان . وتستذكر حنان انه بعد أن تأخر كثيرا اجتماع شملهما من جديد ، فان فيصلا لم يستطع إلا ان يمازحها ، حين يقول : «كما تعلمين ، فان لقاءنا قد تأخر لفترة طويلة . كان من المفروض ان تحضري الى معسكري ، وها أنت بعد عشرين سنة تحضرين !» .

ومنذ ذلك الحين وهي تظهر على شاشات التلفزيون في مختلف أنحاء الكرة الأرضية ، وفي المؤتمرات الصحفية ، وفي مسيرات السلام باسم اعضاء الوفد الفلسطيني الاربعة عشر المفاوضين لاسرائيل ، واصبحت هي وفيصل الحسيني فريقا محبوك النسج : الرجل المسلم المتحفظ الذي تولى زمام القيادة في الضفة الغربية ، والمرأة العربية المسيحية ذات الثقافة الغربية القادرة على نقل آلام شعبها الى التلفزيون الاجنبي . لقد أصبح عرّابها ، وحاميها من الانتقادات الحادة الموجهة اليها من قبل أبناء وطنها الذين يجادلون بان هذه المرأة المدنية ، أنيقة الثياب ، المغربية ، وابنة واحدة من اقدم الطوائف المسيحية ، لا حق لها بتمثيل الفلسطينيين. لقد بدأت صداقتهما خلال لقاءاتهما مع ممثلي الحكومة الامريكية ، وتطورت حينما اعلنا احتجاجهما على المذبحة التي قتل فيها سبعة من العمال من أبناء قطاع غزة على يد الجندي الاسرائيلي آمي بوبر من ريشون لتسيون ـ بلدة جديدة الى الجنوب من تل أبيب ـ في حزيران ١٩٨٩ . يقول فيصل الحسيني : «بدأنا نتحدث في اجتماعاتنا في القنصلية [القدس] ... قضينا اثني عشر يوما أو ثلاثة عشر تحت خيمة للصليب الاحمر خلال الاضراب عن الطعام . وهناك أيضا أثبتت وجودها ... كانت صلبة العود ، قوية ، مستعدة للمضي في الاضراب عن الطعام لمدة عشرة أيام أخرى !» . وهو يعتمد على حنان في أشياء عديدة أخرى خارج نطاق دورها كناطق رسمي . فحيثما التقى الاثنان مع وزير الخارجية الامريكية جيمس أ. بيكر الثالث كانت حنان هي التي تجد العبارات لفيصل في الغالب باعتبار ان لغته الانكليزية ليست جيدة بما فيه الكفاية للتغلب على الفروق الدقيقة في المعاني الدبلوماسية والدقائق والتفاصيل القانونية . ولقد شعر بيكر أنّ باستطاعته التواصل معها

بســهـولة ، ويقـول مـسؤول امريكي معبراً عن اعجابه : «يناضل فيصل من أجل كلمة ، فتلتقطها ومن ثم يتابعان !» .

بينما كـانت تنفث بعصبية بضع نفخات من سيجارة (سالم لايت) التي لا تكاد تفارق يدها ، ثم تنقر باصبعها الرماد وهي تنحني على الاريكة في جناحها في فندق جـراند ، تقاوم حنان عشراوي الحديث عن نفسها : «هذه هي أسوأ مقابلة ... انني اكـره الـتـحـدث عـن نـفسي . ان كل شـخص الآن يريد ان يكتب لمحـة عن سيرة حـيـاتي!» هكذا تقول محتجة . وبعد مرور بضع ثوان ، تبدو كأنها وطنت نفسها على مـا هي فـيـه ، فـتقول : «حسنا ، اوكي ، سأخبرك ... كان لدي الكثير ... آه ، انتظر» وتتوقف اذ شاهدت لقطة لها على شاشة تلفزيون CNN .

كـانت نشرة الاخـبار تسرد تقريراً مفاده ان الجولة الاولى من المحادثات الثنائية العـربيـة ـ الاسرائيليـة المقـرر لها أن تبـدأ في ذلك اليوم من شـهر كانون الاول قد أخـفـقت بسـبب خـلاف اجرائي . فالفلسطينيون يصرون على أن يُعامَلوا على انهم مجموعة منفصلة وليست مجموعة ضمن الوفد الاردني . ويشجب بنيامين «بيبي» نتنياهو ـ نائب وزير الخارجية الاسرائيلي السابق ، والتي تُقارَن معه دائمًا ـ بحدة الرصاصة الفلسطينيـة الاخيرة . وبدت انها تسـتـمتع بالمقارنة مع نتنياهو ، الذي كان في السابق قائداً لمجموعة القوات الخاصة ، ثم سفيرا . وللحظة تلاشت ، فَقَـدَ نتنيـاهو قـدرته الخـرافية لتصوير اسرائيل على انها الضحية المحاطة بجيران عرب معادين لها .

وبينما كـان يهاجم الفلسطينيين بعنف بسبب مطالبتهم بوضع مستقل ، تحول الضحية الى بُلْـدُغ* . وقـالت حنان سـاخـرة : «لا يمكنهم العودة الى الوراء ، ففي مـدريد كـانت لنا صورة كبيرة ، والآن يريدون بروفيلاً منخفضا . لقد اكتشفوا ان هناك فلسطينيين !» .

شـيئا فـشـيئاً ، وبشكل نظامي ، وبدقـة محسوبة ، بدأت تسترخي ، لكن من الواضح انها كـانت تتـحـدث بعدم ارتياح عن طفولتها : «أقول صراحة انها سارت على عكس مـا أريد . لقد كنت دائما انسانة خاصة جدا . أصور ذلك كأنه جزء من مـسؤولياتي للعمل بهذه الطاقة ، لأفسر ، لأقدم ، ولأبين الموقف الفلسطيني . كنت

---

* البلدغ : كلب قوي ضخم الرأس قصير الشعر .

أفضل البقاء والقيام بدور وراء الكواليس ، ولكن ـ للأسف ـ كانت هناك ضرورة وكان عليّ القيام بذلك» .

وبينما كانت تتحدث ، بدت كأن لا شيء مشتركا بينها وبين الفدائيين الذين يشنون المعارك ضد الاحتلال الاسرائيلي . ومع ذلك ، واذ بدأت ترسم بالتفصيل نشأتها ، كان يبدو من الواضح اكثر فأكثر ان حنان ميخائيل عشراوي ليست الوجه الفلسطيني الاكثر جاذبية ووضوحا فقط ، بل انها صلبة العود قاسية ، مقاتلة . وفي حين انه من المحتمل انها لا تعبر عن الدور الذي تقوم به ، فان استاذة الادب المقارن تتمتع بحماية م. ت. ف. : «اولئك المطلعون يعرفون ان لي روابط عميقة الجذور بالنضال الوطني الفلسطيني» . وكمؤمنة حقيقية ، امتهنت العمل في المخيمات ، فهي ترى نفسها ضحية للقمع الاسرائيلي .

وقد سئلت عما زعمه فيصل الحسيني حينما قال انه اكتشفها من خلال برنامج (نايت لاين) فقالت : «لا أريد الاستمرار في التركيز على (نايت لاين) فهذا البرنامج ليس مَعْلَما ونقطة تحول» ومن الواضح انها انزعجت مما يعنيه ذلك من ان مواهبها الصالحة للعرض على شاشات التلفزيون ـ وليس نشاطاتها المبكرة كنشيطة ـ قادته الى الطلب منها ان تكون عضواً في الوفد الفلسطيني . تقول حنان مصرة على انها كانت مشاركة بشكل بارز في عملية صنع القرار منذ فترة طويلة وقبل ان يكتشفها فيصل : «إنها ليست قضية تجنيد ... لقد شكلنا لجنة التنسيق حينما كان فيصل في السجن ، وبالتالي حينما خرج من السجن كانت اللجنة قد بدأت العمل» .

لقد قاد اللجنة ـ التي كانت عضويتها غير مسموح قانونيا بها من قبل الاسرائيليين ، وقد تصل عقوبة الانتساب اليها الى عشر سنوات من السجن ـ الدكتور سري نسيبة من بير زيت ، وممدوح عكر وهو طبيب جراح من نابلس ، وغسان الخطيب ، وزهيرة كمال ، ورياض المالكي . وهم مجموعة صغيرة من : فتح ، الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ومؤيدي الحزب الشيوعي . وتقول حنان أن هذه المجموعة هي التي اتخذت الخطوة الجريئة لمناظرة الاسرائيليين في (نايت لاين) . وتضيف : «لقد قررت اللجنة اننا سنقوم بهذا الامر على انه بمثابة اختراق . وفي المقام الاول ، فان

المحـادثات كـانت داخل [المناطق]» . وهكذا ، فـان نقطة التـحول الحقيقية لم تكن برنامج تلفزيون ABC أمـام جمهـور من مـلايين الامريكيين ؛ والحقيقة ان قرار الظهـور في البرنامج ـ حـينما كان عمر الانتفاضة أقل من أربعة شـهور ـ قد اتخذ من قـبل القـيـادة الفلسطينية الجديدة التي كانت قد تشكلت داخل الضفة الغربية وقطاع غزة ، وبعدئذ تم اقناع قيادة م. ت. ف. في تونس .

ولـدت حنان في مـدينة نابلس في ٨/ ١٠/ ١٩٤٦ وهي أصـغر أخواتها الخمس وجميـعـهن من البنات . كـانت عـائلتها تنتقل من مكان لآخر كل سنتين ، وبالتالي فان اولئك البنات ولدن في أنحاء مختلفة من فلسطين . فناديا ـ مثل حنان ـ ولدت في مـدينة نابلس ، وعـبلة ومنى في مـدينة القدس ، وهدى ـ وهي الآن نحاتة ـ في مدينة الخليل .

في مطلع سنوات الاربعـينات ، وقبل أن تولد حنان ، كان والدها داوود ميخائيل ـ وهو طبيب ـ غالبا ما يعمل مع زملاء له من اليهود . وعلى الرغم من ذلك ، فانه كـان يشـعـر بالقلق والانزعـاج بسـبب الغارات التي كانت تشنها منظمة الارغون وعـصـابة شـتيرن ، والمليشيات الصهيونية الاخرى السرية . تقول هدى : «ولكنه حـاول البـقـاء على الحـيـاد لأنه كان له أصدقاء يهود كثيرون أطباء أيضاً» وكان داوود قـد تخرج من كليـة الطب في الجـامعة الامريكية في بيروت ، وكان يعود الى بيروت كـثيرا لقـضاء عطلة نهاية الاسبوع من أجل التسوق والانسجام ، اذ كانت المسـافة تستغرق بالسيارة أقل من ساعتين . في تلك الأيام ، عاشت عائلة ميخائيل في بيت فسيح على تلة في بلدة طبريا له منظر رائع يطل على البحيرة . كانت الفتيات يعـملن على عصر الجـوز ذي الجـذور الجـافـة من شجرة الخروب الضخمة أمام منزلهن ، واسـتـخـلاص دبس السكر منها . ومن بين رفاقهن كان هناك يهود من أبناء المهـاجرين الذين أتوا الى طبريا خلال سنوات العشرينات والثلاثينات الهاربين من المذابح المنظمـة في روسـيـا ، واوكـرانيـا ، وبولندا . تقول هدى : «كانت لدينا مجموعة أصدقاء من اليهود . لقد فتحنا بيوتنا وقلوبنا لهم ، كانوا جيراننا» .

لكن بعـد مـولد حنان بفترة قـصيرة ، ازدادت الاضطرابات السـيـاسية شدة ، وأصـبح داوود مـيـخـائيل ـ الذي كـان قـد تطوع كطبيب في الجيش البريطاني ـ منخـرطا في النشـاطات السرية ، يحضر الطعـام الى الثـوار في الجـبـال . وحـينما

انسحب البريطانيون بسرعة سنة ١٩٤٨ وأعلن قيام دولة يهودية ، اضطرت العائلة الى مغادرة طبريا . تقول هدى : «بطريقة ما ، أخرجنا والدي جميعا» . فقد أرسل زوجته وبناته الخمس الى عمان «وبقي هو هناك لانه كان ما يزال في الجيش» . وفيما بعد ، انضم داوود الى عائلته في عمان ، حيث عمل مفتشا صحيا لدى حكومة إمارة شرق الاردن .

باعتبارها أصغر بنات ميخائيل الخمس ، فإن الطفلة حنان كانت مدللة ومبكرة النضج العقلي . وحينما أصبح عمرها ثلاث سنوات كان باستطاعتها القراءة والكتابة . ومع ذلك ، وكما تقول هدى ، فانها لم تحظ بنفس القدر من الاهتمام الذي نلنه أخواتها الاكبر منها ومن والديهن . فقد كان ذلك مستحيلا لاننا كنا دائمي التنقل جيئة وذهابا من بيت عم الى بيت عم آخر» .

قضت الفتيات غالبية وقتهن في منزل خالهن وديع أسعد ، وهو ضابط في قوات الفدائيين الفلسطينية التي قاتلت في حرب سنة ١٩٤٨ . كان لأسعد ابنتان وكان المنزل المزدحم يقع عند حافة محطة السكة الحديدية ، وهو مكان مفعم بالضجيج الذي يزداد حدة بسبب صراخ وزعيق سبعة أطفال مفعمين بالنشاط ، ونادرا ما يسمح لهم بالخروج من المنزل . وكي تزداد الأمور سوءاً ، فان تعليمات صارمة أصدرت الى الفتيات بأن لا يسئن التصرف ، فكلمات الام ما تزال ترن في آذان الفتيات . تقول هدى : «انه ليس بيتكن ! انه منزل عمكن ، ولذلك أحسنّ التصرف!» . ومع الكثير من هذا الجيشان في حياتهن ، ولانه لا مكان فعلاً يمكن ان يسمى منزلهن ، فان حنان «أصبحت تشعر بشيء من العزلة» .

في عام ١٩٥٠ ، وبعد أن تشكلت لديه قناعة بان الوضع لن يتحسن ، قرر داوود بدء حياة جديدة ، فعاد مع عائلته الى رام الله ، حيث مارس الطب لفترة قصيرة قبل ان يهاجر الى الأردن ، وخلال شهور استقال من منصبه الحكومي . كان منزل ميخائيل في قلب المدينة ، على بعد ستة أميال شمالي القدس ، على الطريق العام وفي الجانب المقابل لبقالة عائلة زبانة . كان هناك مدخل مستقل للعيادة خلف المنزل حيث زاول ميخائيل عمله . في تلك السنوات المبكرة ، وحينما كانت حنان تبلغ من العمر أربع سنوات ، كان لجدتها أم أمها ـ التي عاشت معهن ـ أثر عميق في العائلة . فقد كانت مبشّرة ، وكان زوجها قسيساً انجليكانيا .

بعد أن تجمع الفتيات الخمس حول سريرها ، كانت تلك المرأة المسنة تضع وسادة خلف ظهرها ، وتجلس على السرير ، ثم تقوم بسرد قصص من الكتاب المقدس على الفتيات . وبعد رواية القصص ، كانت الجدة تقوم بشرح المعاني والاهداف الدينية لتلك القصص . ولما كانت جلسات ما حول السرير هذه تسبق الصلاة ، فانها لم تكن شيقة دائما . وتستذكر هدى قائلة : «في حين كانت جدتي تقوم بالقاء مواعظها والصلاة ، كنت أتسلل خارج الغرفة ، وبعد مرور ساعة أتسلل مرة ثانية الى الغرفة ، زاحفة ، متظاهرة انني لم أغادر الغرفة ... لكن حنان وعبلة تبقيان . ومن المحتمل ان كل واحدة منهما كانت تفكر بشيء مختلف تماما ، ولكنهما كانتا تبقيان» .

في أيام الطفولة تلك ، لم تكن حنان مهتمة بالسياسة . فكما تقول هدى : «كانت حنان مجرد طفلة صغيرة جذابة ، كل ما تريده هو أن تلبس الملابس الجميلة وأن تبدو جميلة» . كانت الفتيات يذهبن مع بعضهن الى فريندس جليرز أكاديمي ، وهي مدرسة ابتدائية خاصة في رام الله ، وكانت شقيقتها الكبرى تتحدث عن القضايا التي كان والدهن قد «بحثها خلال العشاء في الليلة الماضية» .

خلال مرحلة المدرسة ، كانت هدى تخرج وحدها في المظاهرات المعادية للبريطانيين ولغلوب باشا ، اذ تقول : «لم تكن لدى حنان أي فكرة عما كان يجري على الصعيد السياسي . فقط أعطها كتابا وكيسا من الجوز ، وستغلق غرفتها على نفسها وتقرأ الى الأبد ... كانت الطفلة تقرأ كتابا كل يوم : قصص قصيرة باللغة الانكليزية ، كتب ورقية الغلاف ، وكلام هراء واضح ، وأدب خالص . أي شيء مطبوع كانت تقرأه !» وقد أخذت حب القراءة عن والديها ، اللذين كانا قد حصلا على تعليم جامعي . كانت الفنون محور زواجهما ، فوالد حنان كان طبيبا ، ووالدتها (وديعة) كانت ممرضة في دائرة العيون في احدى المستشفيات علاوة على ذلك ، فان وديعة كانت قارئة نهمة .

ولكن كانت هناك أيضا نقاط اختلاف لدى والديها : فقد كانت وديعة ممارسة للطقوس الدينية المسيحية ، وحثت الفتيات على الذهاب الى مدرسة الأحد (وحضور دروس البيانو) في حين كان داوود ملحداً . وكانت وديعة نظامية انضباطية ، بعكس زوجها . وأخيراً ، فان وديعة كانت ـ كما تقول حنان ـ سياسية بكل ما في الكلمة من معنى باستثناء «ما ينطبق على المستوى الانساني ، فقد كانت دائمة

القلق والخوف من آثار السياسة في الناس ، فالسياسة كانت ميدانا خطيراً جداً» .

واليوم ، فان والدة حنان البالغة من العمر خمسة وثمانين عاما ما تزال تشعر بالخوف على حنان . تقول هدى : «كل مرة أتحدث فيها معها ، فانها تقول [ليحمي الله تلك الفتاة ، آمل أنها على ما يرام] ... فأقول لها : [أمي ، اذا كان هناك من سيحمي تلك الفتاة فانه الله لانها فتاة حكيمة ، وهي ليست كبقيتنا]» . تقول حنان : «كان هاجس أمي الأساسي دائما انها تأمل [أن لا تسجن الفتاة لانها ستشعر ببرد شديد] . وفيما بعد أصبحت تقول دائما : [من المحتمل انها فكرة جيدة ان تسجن . آمل أن يسجنوها لانها ستكون بأمان أكثر في السجن] . ان ذلك يعني انها كانت قلقلة وخائفة فعلاً ، فبالنسبة اليها كان السجن هو افضل شيء» .

تتذكر حنان أن والدها كان غير مؤمن ، ولم يكن أبداً صارما جداً مع بناته ؛ كان عقلانيا ومثاليا حاول ان يزرع في بناته احترام كل الديانات والعقائد وكان نشطا . تقول حنان : «كان دائما بالنسبة الي شخصا خاصاً جداً ، تقدميا ، سابقا لأوانه . وعلى الصعيد السياسي كان نشطا جداً ، ولكنه ايضا متواضع جدا ، لطيف مكبوت» . واكثر من أي شيء آخر ، فانه كان يحترم دور المرأة في المجتمع . لقد توفيت والدته حينما كان يافعا ، فتعهدته ورعته أخواته . ولذلك ، حينما نضج وكبر كان يكنّ الاحترام والاعجاب للمرأة . وقد أخذت حنان عن والدها العديد من الميزات ، وبخاصة قوة الاقناع على حد اعتقاد هدى : «كان قويا ولكنه رقيق القلب جداً جداً . لم يصدر الينا أوامره على الاطلاق . كان يقول شيئا ومثل حنان : فانك لا تجادله وتسأله في ذلك لانه كان مقنعا جداً» .

كطبيب ، كان داوود يصل الى الضحايا حيثما كانوا . تقول : ذات مرة ، وحينما كان يعمل مع مجموعة مقاومة فلسطينية في منطقة نابلس ، شاهد والدها كمينا عربيا لعدة جنود اسرائيليين . كان داوود مع سائقه «فترجل من السيارة ، وأخذ في سيارته اليهود الجرحى كلهم وعالجهم في المنزل ، ثم أرسلهم الى المستشفى ، وطلب من السائق ان يذهب لايصالهم الى منازلهم . كان سيفعل الشيء نفسه مع أي جريح أو شخص متضرر آخر بعض النظر عن خلفيته العرقية أو طائفته الدينية» .

لكن داوود ميخائيل كان يؤمن ايضاً ان على كل فلسطيني الالتزام بالقضية ، فانخرط في العمل الوطني حال عودته عام ١٩٥٠ من عمان الى رام الله .

في رام الله ، بدأ داوود ميخائيل تأليف كتيبات تناصر وتدعم الحزب الاشتراكي الوطني ، ومع منتصف سنوات الخمسينات أصبح أحد قياديي الحزب في الضفة الغربية والذي تشكل على يد سليمان النابلسي ـ وهو محام فلسطيني ـ وذلك للاحتجاج بقوة على السياسة الاردنية .

وكجزء من جهوده الرامية الى توحيد البلاد بعد وفاة جده الملك عبد الله بن الحسين ، فان الملك الشاب الحسين بن طلال تعرض لانتقادات العديد من زعماء الضفة الغربية . وفي حين كان الملك يعاني من هذه الانتقادات الصاخبة فان المزيد من الغارات الفلسطينية المسلحة كان يتم شنها ضد المزارعين الاسرائيليين في محاولة لمقاومة المزارعين اليهود الذين تجاور حقولهم منطقة الحدود .

وأصبح الاردن ضحية لعمليات انتقامية اسرائيلية جماعية . وعلى الرغم من ان الفدائيين الفلسطينيين كانوا يهاجمون المزارع الاسرائيلية ، الا ان الجيش الاسرائيلي سعى وراء قرى اردنية بأكملها ، مدمرا قبية وغيرها من القرى الاخرى . وسعى الملك حسين ـ الذي كان بحاجة ماسة الى السلاح لحماية بلاده ـ للحصول على المساعدة من تركيا وبريطانيا ، فاقترحوا عليه الانضمام الى مجموعة دفاع مناهضة للسوفييت ـ شكلت في شهر شباط عام ١٩٥٥ حينما قام كل من العراق ، وتركيا ، وبريطانيا بتوقيع معاهدة حلف بغداد ـ وذلك مقابل حصول الاردن على المساعدة البريطانية .

كان الاردن مستعدا للموافقة على ذلك ، لكن الفلسطينيين ، وبخاصة اولئك الميالين لجمال عبد الناصر ، عارضوا هذا الامر بشدة . فبالنسبة اليهم ، مثلت بريطانيا ضعف العرب تحت القمع الاستعماري ، في حين ان الاشتراكي عبد الناصر الذي كان يدعو الى عدم الانحياز نحو الغرب كان رمز القوة العربية . واعتقدوا ان الرئيس المصري سيقود الطريق بهم نحو فلسطين من خلال توحيد العالم العربي وبقوته العسكرية من السوفييت . وحينما قدم اربعة وزراء من الضفة الغربية استقالاتهم في شهر كانون الاول ١٩٥٥ معلنين احتجاجهم ، أدرك الملك الحسين انه سيكون هناك تمرد اذا انضم الى حلف بغداد . وفي حين ان الاتجاه العام للبلد كان معاديا للبريطانيين ، عمل الملك حسين على ابقاء الفلسطينيين هادئين .

في شـهر آذار ١٩٥٦ طلب الملك حسين إقـالة القـائد البريطاني للجيش العربي الليفـتنانت جنرال غلوب (غلوب باشـا) والذي كـانت غالبية الفلسطينيين تعتبره رمـز السـيطرة البريطانيـة الاسـتعمارية . وبدا ان الفلسطينيين يريدون شـيئا بطريقـتين : فقد أصروا على ان لهم الحق في حكم أنفسهم ضمن ما يعتبرونه جزءا من فلسطين رغم انهم يعـيشـون في الاردن كـمـواطنين يتمتعون بالحقوق كلها . وأرادوا من الملك أن يدافع عنهم ، وهم في الوقت نفسـه يتـحدّون سلطات الحسين ويطالبون بحمايته لهم .

في شهر تشرين الاول ١٩٥٦ ـ وقد كانت هناك اضطرابات بسبب عملية انتقام اسرائيليـة أخـرى ضـد بلدة قلقـيلية في الضفة الغربية ـ جرب الملك حسين سبيلا آخـر. فـفي هذه المرة ، عـقـد اول انتـخـابات نيـابيـة حـقـيقية خلال فترة حكمه الدستوري . وقد فاز في هذه الانتخابات يساريو الضفة الغربية ـ بما فيهم داوود مـيخائيل ـ الذين كان يقودهم سليمان النابلسي والحزب الاشتراكي الوطني . وقد كـانت مـواقف النابلسي الموالية للسوفييت تشكل تناقضا مباشرا مع آراء ومعتقدات الاسـلامـيين والملك الحسين . وكان رئيس الوزراء الفلسطيني يميل لقبول تعليمات عبد الناصر او الحاج امين الحسيني في القاهرة اكثر من قبولها من الملك الحسين .

وأوصلت الغـارات الاسرائيليـة حـالة الغـضب في الأردن الى أقـصى مدى ، وقد سُمـعت أصـوات مطالبـة بالحـرب ضد الدولة اليهودية من سوريا ومصر ، فعقد الملك اتفاقا مع سوريا ومصر ، مشيرا الى ان ذلك خطوة نحو الوحدة العربية . غير انه لم يكتب لهذه الاتفاقية ان تعمر طويلا .

حـينما شن الاسرائيليون والبريطانيون والفرنسيون هجومهم على قناة السويس في ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٦ ، عـرض الملك حـسين ارسال قوات الى مصر لمساعدة عـبد الناصر ، غير ان الزعيم المصري اعرب عن تفضيله للحل السياسي على معركة عـسكرية يدرك انه لن يتـمكن من كـسبها . ومع هذا ، وبعد طرد البريطانيين من الاردن ، دعـا الملك حسين الجنود السوريين والعراقيين والسعوديين الى بلاده . غير ان النابلسي عـارض ذلك ، مـعـتبرا هذا الامر بمثابة اختبار لقوته . وتصاعد النزاع اكـثـر ، واصبح اشد حدة حينما اقام رئيس الوزراء ـ بعد ايام من ذلك ـ علاقات ديلومـاسـيـة مع الاتحاد السوفييتي ومع الصين الشعبية . وفي الوقت نفسه فان

حكومة الولايات المتحدة الامريكية ابان عهد الرئيس ايزنهاور اصدرت اعلان مبادىء يعلن انها سترسل قواتها الى أي مكان في الشرق الاوسط لايقاف العدوان الشيوعي .

وأصيب الملك بالذهول لأن هؤلاء الفلسطينيين اليساريين ـ أمثال النابلسي وداوود ميخائيل ـ يشكلون تهديدا للأردن كله . فقد تآمروا مع المصريين والسوريين ، وعقدوا اجتماعات مع مسؤولين عسكريين سوفييت ، واخترقوا أجهزة المخابرات الاردنية ، ورشوا ضباط الجيش ، واستمالوا الى جانبهم قائد الجيش اللواء علي أبو نوار صديق الملك . وناشد الملك النابلسي ، لكن مناشداته ذهبت أدراج الرياح . وفي شهر نيسان ١٩٥٧ قامت اعمال عنف وشغب تأييدا للنابلسي في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، ترافقت مع تمرد الجيش الذي كان تحت قيادة علي أبو نوار ، مما ادى الى مكاشفة وحسم قاسيين . واعلن الملك حسين انه اكتشف وجود مؤامرة سورية ـ مصرية ضده فأقال حكومة النابلسي .

وقاد هذا الامر الى مزيد من اعمال العنف في مخيمات اللاجئين ، وتم حل الاحزاب السياسية كلها ، كما تمت اقالة اللواء علي أبو نوار الذي فر من البلاد .

غير ان واحداً من هؤلاء الذين وقعوا في شرك الشغب ـ بهدف وصول النابلسي بسرعة الى السلطة ، وسرعت على نحو مماثل في اقالته ـ كان ميخائيل داوود . فالحزب الاشتراكي الوطني أصبح محظورا الآن . وباعتباره أحد مؤسسيه البارزين ، فان والد حنان القي القبض عليه ، وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات . وبعد ان بدأ تنفيذ الحكم بفترة قصيرة ، أخذت صحته بالتدهور ، وحاولت عائلة داوود اقناع الجهات الاردنية بتخفيف مدة سجنه . وبعد جهود قام بها وديع أسعد (خال حنان) تم نقله الى المستشفى ، حيث بقي هناك تحت الحراسة ، الى ان أطلق سراحه بعد مرور شهر على ذلك .

في عام ١٩٦١ قام داوود ببناء منزل جديد لعائلته في رام الله ، اذ كان حلمه ان يبني منزلا حديثا من الحجر والرخام ، له شبابيك زجاجية على الواجهة الامامية ، مكونا من أربعة أدوار ، وسلم دائري عريض مزين بالنباتات ، يقود الى غرف النوم والمعيشة في الطوابق العليا ، وفي أعلى المنزل ، حديقة يشاهد منها منظر فسيح لرام الله . تقول هدى : «أقنعت وناديا والدنا اننا نريد الطابق العلوي . وقد

بنى لي استـديو هناك» وأقيـمت عـيادة طبية للطوارىء في الطابق الأرضي ، أطلق عليـها اسم مستعار هو «طابق الحديقة» . وقد تعرض البيت للقصف خلال حرب ١٩٦٧ ، الامـر الذي اضطر العـائلة الى أن تستبدل بالنوافذ الزجاجية الموجودة في الطابق الارضي الالواح الاسـمنتية . وفيما بعد ، وحينما أصبح من العسير بالنسبة الى أمـهن المسنة صـعود الدرج للوصول الى غرف النوم ، تم تحويل الطابق الاول الى جناحين منفـصلين ، كما تم توسـيع المطبخ الصـغير . وتعـيش حنان اليوم في الطابق الثاني من المنزل الذي ما يزال واحدا من أكثر المنازل مهابة في رام الله .

وعلى الرغم من ان داوود قـد حـقق أحـد طمـوحـاته ، وهو منزل جـديد رائع لعائلته ، فانه واصل العمل لتحقيق حلمه الحقيقي ، وهو دولة فلسطينية . وفعلا ، فـان ظهـور حنان في سن الثـامنة عشرة كنشطة في النضـال الفلسطيني ترافق مع انخراط والدها في مجال آخر . ففي عام ١٩٦٤ ، وهو السنة نفسها التي بدأت فيها حنان دراستها الجامعية في الجامعة الامريكية في بيروت ـ وهي مركز بروتستانتي شهير للتعليم ، أنتج نخبة القيادة في العالم العربي ـ كان داوود ميخائيل يساعد في تشكيل مجموعة جديدة في القاهرة .

تقول حنان : «كان أحد الذين عملوا من أجل انشاء م. ت. ف.» وتضيف هدى : «كان مع أحمد الشقيري ، أول مؤسس لمنظمة التحرير الفلسطينية في مصر . وكان ذلـك حـينما أدرك ان لا شيء يمكن انجـازه مـا لم تكن لدينا منظمـة تعبر عن آراء الفلسطينيين ، وتحـاول اقناع البـلاد العربية ان علينا القيام بدور سياسي ، واعتقد اننا يمكن ان نحرر البلاد بالعقل والمنطق» .

لقـد كـان الهدف الاساسي الذي انشئت م. ت. ف. من أجله هو احتواء مواصلة غـارات الفدائيين ضد اسرائيل وشن حرب عصابات واسعة لتدمير الدولة اليهودية. فـالـعـالم العـربي لم يكن يريد ان ينجـر الى حـرب جـديدة مع اسرائيل من قـبل الفلسطينيين الثـائرين . فـان لم يكن بالإمكان تجنب الحـرب ، فان مصر هي التي ستـخـتار المكان والزمان . وفي شهر كانون الاول ١٩٦٤ دعـا الرئيس جمال عبد الناصر ثلاثة عشر زعـيما عـربيا لحضور أول قمة عربية في القاهرة . وقد استغل الرئيس عبد الناصر قيام اسرائيل بتحويل المياه من بحيرة الجليل الى صحراء النقب ـ الامـر الذي قـد يؤدي الى زيادة ملموسة في عدد سكانها ـ فاعلن ضرورة وجود

مجموعة فلسطينية رسمية لمحاربة الاسرائيليين ، يكون ذراعها السياسي م. ت. ف. في حين ان الجانب العسكري ـ الذي لن يكون جيشا مستقلا وانما كتائب تحت قيادة الحكومات العربية ـ سيسمى جيش التحرير الفلسطيني . اما كلمات ميثاقها الجديد الذي أقر بالاجماع حينما عقدت م. ت. ف. مؤتمرها التأسيسي في القدس في شهر ايار ١٩٦٤ فقد كانت لاذعة قاسية مثل نبرة الشقيري الطنانة ، وكانت جزءا من محاولة عبد الناصر لتأسيس منظمة تتحدث باسم الفلسطينيين ولكن تحت السيطرة العربية .

وفي حين كان داوود ميخائيل يساعد الشقيري على اقامة المجموعة الجديدة ، كانت حنان تمرّ في تجربة تحولها السياسي . فقد بدأت دراستها الجامعية في الجامعة الامريكية في بيروت ، وتستذكر «كانت هناك يقظة طبيعية عام ١٩٦٤ حينما ذهبت الى لبنان . لقد عشنا حياة آمنة ولم أر مثل هذه القذارة والالم والمعاناة والرثاء الكبير» . ومثل المئات من رفاق الدراسة ، التحقت حنان بالاتحاد العام لطلبة فلسطين .

مع ذلك ، فان نماذج حنان ورفاقها لم تكن الشقيري ورفاقه ، بل قادة مجموعة جديدة تشكلت كرد على م. ت. ف. التي أنشأها الشقيري ، أي منظمة فتح . لقد اشتق هذا الاسم من عكس الكلمة العربية حتف التي ترمز الى (حركة التحرير الوطني الفلسطيني) .

كانت قوة فتح تتمثل في قدرتها العسكرية ، فاذا رمزت فتح الى شيء ما ، فانما الى استقلالها عن الدول العربية . وقد ازدرى قادة فتح م. ت. ف. المعتمدة على مصر ، الامر الذي قادهم الى تخطيط أول عمل عسكري لهم ضد اسرائيل ، والمتمثل في تخريب تمديدات مائية اسرائيلية عام ١٩٦٥ ، وهو ما جعلهم وبسرعة ابطال جيل جديد من الطلبة الفلسطينيين .

في أواخر سنوات الستينات ، بدأ الفلسطينيون في مخيمات اللاجئين في بيروت بالثورة ضد الحكومة اللبنانية التي كانت سنة ١٩٤٨ تفرض عليهم حظر تجول ليلي وتخضِع المخيمات تحت سيطرة بوليسية سرية صارمة . يقول نبيل شعث مستذكرا : «لقد طرحوا كل قيود البوليس اللبناني ، وتوقفوا عن اطاعة الاوامر ، وبين عشية وضحاها ، قاموا ببناء بيوت حجرية واسمنتية بدلاً من خيامهم

والبراكسات المصنوعة من الصفيح» . ونبيل كان استاذا لادارة الاعمال في الجامعة الامريكية في بيروت ، وهو اليوم مستشار سياسي لرئيس م. ت. ف. ياسر عرفات . ويضيف نبيل شعث ان البناء المفاجيء للمباني الدائمة «ليس اشارة الى أننا نريد العيش هناك الى الأبد ، ولكنه توكيد بطريقة ما لهويتنا» . وقد أجبرت الثورة القيادة الوطنية الجديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية على تحمل مسؤولياتها لادارة المخيمات ، ويضيف : «كما انها عملت ايضا على ترويج الثقافة الفلسطينية» وذلك حينما اكتشف الكتاب المسرحيون ، والشعراء ، والفنانون تراثهم الفلسطيني فجأة. ومع تحرير المخيمات بدأت مسؤوليات جديدة ، وكان متوقعا من كل الطلبة الاعضاء في الاتحاد العام لطلبة فلسطين ان يسجلوا في مكتب فتح في بيروت للقيام بالاعمال التطوعية في المخيمات . وقد اشتملت المهام الموكولة اليهم التدريب على الصناعات اليدوية ، التدريس في المدارس ورياض الاطفال ، وتعريف النساء بحقوقهن ومسؤولياتهن الجديدة ، ومرافقة الطواقم التلفزيونية الاجنبية لزيارة المخيمات المحررة حديثا .

عملت حنان كمتطوعة في مخيمي برج البراجنة ، وتل الزعتر ، اكبر مخيمات اللاجئين في بيروت ، فقامت بتدريس «ما نسميه تنمية الشعور والوعي السياسي» كما اسندت اليها مهمة مرافقة الصحفيين في المخيمات . يقول شعث : «كانت فتاة الطبقة الارستقراطية المتوسطة النموذجية ، لديها أموال تصرفها ، وتعيش في مباني الطلبة ، وتستمتع بالحياة الجامعية» ومثل العديد من طلبة الجامعة الامريكية «بدأت تدريجيا تدرك الشعور بهويتها الفلسطينية» كما يقول شعث . ويستذكر باري دنزمور مراسل تلفزيون ABC الامريكي ان حنان عينت لمساعدة طاقم فيلم «فلسطين : دولة جديدة في الذاكرة» وهو برنامج انتجه مع بيتر جيننغز المشرف الحالي لـ "The ABC Nightly News" . وكان هذا الفيلم الوثائقي ـ ومدته ساعة ـ أول فيلم امريكي يعرض على شاشات التلفزيون الامريكي ويظهر نظرة تعاطف مع الفلسطينيين ، ويذهب الى ما هو أبعد من الصورة الشائعة عن الفلسطينيين كارهابيين ولاجئين . وقد قُدم نبيل شعث في الفيلم ـ وهو ابن مصرفي مصري ـ كواحد من ثلاثة فلسطينيين . ويستذكر دنزمور حنان : «كان دورها في المشروع مساعدتنا في مقابلة الشخصيات الفلسطينية الهامة ، وأخْذنا الى بعض مخيمات اللاجئين ، وبشكل أساسي العمل معنا كضابط ارتباط» .

ويضيف : «كانت بيروت في تلك الأيام باريس الشرق وكانوا جميعهم يرتدون اكثر الازياء فتنة وسحراً» . ويقول جيننغز ان بيروت : «كان يعيش فيها كل الفلسطينيين الانيقين ، في حين ان عمان كانت تعتبر مكانا عاديا جدا للعيش فيه» . وتوافق حنان على انه ، وعلى الرغم من القذارة والمجاعة ، فان بيروت برومانسية مينائها على البحر المتوسط ، وأبهة متاجرها ، أصبحت مغناطيسا لن تتحرر منه . وحتى بعد حصولها على شهادة البكالوريوس عام ١٩٦٨ ، تقول : «لم أستطع العودة الى الوطن . أحسست انه يجب اكمال العمل ، وببساطة ، لم أدرك كم كانت تعني فلسطين حتى رأيت الناس الذين جردوا من كل شيء . لقد أحسست ان القضية الفلسطينية لم تعد فكرة تجريدية او جزءا من ماضي والديّ ، فقد أصبحت قضيتي . لقد أدركتها شخصيا» .

في خريف ١٩٦٩ حضرت حنان المؤتمر الأول للاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي انعقد في عمان : «اذكر انه كان هناك ما بين مائتي الى ثلاثمائة شاب ، وكنت الانثى الوحيدة بينهم» . وكانت ردة فعل الرجال متوقعة ، اذ كانوا يهمسون خلفها : «آه ، اتكلوا على فلسطينيي لبنان فقد احضروا امرأة معهم !» . ان كونها امرأة – والناطقة باسم فرع لبنان للاتحاد العام لطلبة فلسطين – ألقى عليها عبئاً جديدا . وتستذكر قائلة : «كان عليّ أن أثبت انني جادة . لقد انتخبت لعضوية مختلف اللجان ، وذلك كي اثبت لهم انه ليس من التفاهة ان تكون هناك امرأة» . وفي ذلك المؤتمر الذي انعقد في عمان التقت حنان للمرة الأولى بياسر عرفات ، القائد الجديد لمنظمة فتح . وظهرت صورتها معه في صحيفة النهار اللبنانية «ثم جلسنا وتحدثنا . وفي المقام الأول ، كانت هناك قضية الكفاح المسلح» .

كانت تلك الايام أياما جامحة بالنسبة الى م. ت. ف. ففي ١٩٦٨/٣/٢١ حققت انتصارها الهام . مستخدمين كامل قوتهم المدرعة ، والمدفعية ، والمشاة ، قامت القوات الاسرائيلية وكذلك سلاح الجو الاسرائيلي بمهاجمة بلدة الكرامة الاردنية ، التي كانت تستخدم كنقطة تجمع لشن غارات الفدائيين ضد الدولة اليهودية . وعلى الرغم من ان الاسرائيليين دمروا البلدة ، إلا أنهم واجهوا قوة فلسطينية كبيرة جداً في وادي الاردن ، كانت غالبيتها تعمل تحت حماية الجيش الاردني النظامي ، وبشكل لم يكونوا يتوقعونه . وحينما انسحبوا في النهاية ، فان ميدان

المعـركـة كـان مـفـروشا بهياكل الدبابات الاسرائيلية وجثث الشبان الاسرائيليين ؛ فوفق حساباتهم كانت خسائرهم ٢٨ قتيلا و ١٠٠ جـريح ، في حين اعلن الجيش الاردني انه قتل ٢٠٧ جنود و٩٧ فـدائيا فلسطينيا . وعلى الرغم من ضريبة الموت غير المتوازنة ، فانه نُـظِرَ الى المعركة على انها انتصار كبير للفلسطينيين ، ثم حولت الى انتـصـار اعـلامي اكبر حينما أقام ياسر عرفات مأتما شعبيا في عمان للفدائيين المتـوفين . فـقد اصطفت عشرات الآلاف من الفلسطينيين في الشوارع ، صابين جام غضبهم على الاسرائيليين .

وخـلال بـضـعـة شـهـور ، أصـبـح من الواضـح ان الفلسطينيين داخل الاردن أصـبـحـوا يشكلون قـوة لا يمكن ضبطها ولا السيطرة عليها . وحينما قام الجنود الاردنيـون يوم ١٩٦٨/١١/٤ بمـهـاجمة جـبل الاشرفـية وجبل الحسين ـ وهما مخيما تدريب يعـودان للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ كان ذلك بمثابة البرهان الدامغ على أن عـدوهم الحـقيقي كان الاردن وليس اسرائيل . وحتى على الرغم من ان المعـركـة تلك كـانت بين الجـبـهة الشعبية لتحرير فلسطين وبين الجيش ، فان عـرفات هو الذي نظر اليه على انه صاحب الدور الرئيسي في المعركة . وموقفه كان قـد أصـبـح أكـثر قوة من حيث ان فتح لديها عدد كاف من الاصوات للسيطرة على الحـركـة . وفي شهر شباط ١٩٦٩ ، سـمي ياسر عـرفـات رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينيـة ، تلك المنظمـة التي تحولت من كونها أداة بليدة بيد الدول العربية الى سلاح مميت بيد الفدائيين .

تقـول حنان مـسـتـذكرة راديكاليتها المبكرة : «كان التركيز على هذا . الى حد ما كنت محبـة للغير جـدا ومثالية» . ومثل آلاف الفلسطينيين الشبان الآخرين ، آمنت حنان أن واجـبها يتمثل في استعادة كل فلسطين . ففي سن الثانية والعشرين كانت حساسة وسريعة الانفعال مثل رفاقها الفلسطينيين الذكور المقاتلين .

وتذكـر انه في المؤتمر الاول للاتحـاد العـام لطلبة فلسطين كان هناك قائدان ما يزال لهما اثر كـبير عليها بل واكثر من عرفات ، لانهما أقسما على تدمير اسرائيل : «الشـخـصـان اللذان كان لهما اكبر الاثر في نفسي هما أبو اياد (صلاح خلف) وأبو جـهـاد (خليل الوزير) . ابو عمار (عـرفات) كان له هذا النوع من الهالة كرمز» . وتعترف حنان انها كـانت عضوا في منظمة فتح ، لكنها اليوم لا ترتاح حينما تطرح

قـضـية العضوية تلك ، وتشير اليها بصعوبة ، وتقول بوضوح : «كنت عضواً ثم تركت ... لقد قررت العمل بشكل مستقل ، ولكنني كنت معهم لفترة طويلة» .

حـينما عـادت حنان الى بيروت في ذلك الخـريف ، حـدث شيء مـا بحـيث لفت انتـباهها الى الكفاح المسلح بطريقة اكثر شخصانية وموجعة للنفس ، وربما قادها فـيما بعد الى التحرر من سحر فتح ، وتغيير موقفها تجاه استخدام السلاح . ومع ذلك ، فـانها ليـست ضد الحرب والعنف . تقول : «حتى لو انك شعرت بطريقة ما انه يجب عليك اجـتـيـاز مرحلة من المراحل ، فانني لا أحب ان تستخدم السلاح ، فلدي اشـمئزاز شخصي منها ، وأكره رؤيتها ، بل وأكره التعامل معها» .

أظهـرت حنان إحـساسـها ومشاركتها في المعاناة في مخيمات اللاجئين ، ولكن لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالاثر الذي سيتركه لديها اختفاء ابن عمتها اذ كان نموذجها وقـدوتها بعـد والدها . كـان اسمه حنا ميخائيل ، وكان مستنفذ القوى هائما بين توأمين هما الثـقـافة والسياسة ، ويعيش الصراع المؤلم المتواصل للاختيار بينهما . وهو الابن الوحـيـد لشـقـيقة والدها ، ويكبر حنان بستة أعوام . كان قصير القامة ونـحـيف البنيـة ، أصلع الرأس قليـلا ويضع نظارات. غـادر رام الله سنة ١٩٥٥ حـينما كـان يبلغ السادسة عشرة من العمر للدراسة في الولايات المتحدة الامريكية حـيث عُرف هناك باسم جـون حنا ، وسرعـان مـا أصـبح في طليـعة ابناء صفه . وسيرة حـيـاته المهنيـة كـانت نمـوذجـا لقصة النجاح الفلسطيني : فقد تزوج من أمـريكيـة ، وحـصل على شـهـادة الدكتوراة من جامعة هارفارد ، وتخرج بامتياز فائق ، فعرض عليه منصب تدريسي في جامعة برينتسون .

كـان هيـوم هوران ـ وهو دبلومـاسي امريكي ـ صديقا لحنا حينما كانا كلاهما طالبين في مـرحلة الدراسـات العليـا ، وكـان الفلسطيني يعـمل مـساعد تدريس في مـركـز الشرق الأوسط في جـامـعـة هارفارد . ويستذكر هوران : «كان من نوعية الانسـان الساحر جداً ، كان مرحاً وصادقا يتمتع بالصراحة والاستقامة والحيوية» وعلى النقـيض من المثـقفين العرب الآخرين ـ الذين اصبحوا متطرفين بفعل أحداث الفترة ما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٠ ، بما في ذلـك الثـورة التي أطاحت بالنظام الملكي في العـراق ـ فـان حنا ، وكما يذكـر هوران «لم يكن الرجل السياسي ، ولم يكن هناك تكشير عن الاسنان ، ولم تكن لديه مـشكلة شـخصية كتلك التي كانت لدى بعض العرب الموجودين في الجامعة» .

في برينســتــون ، قــام حنا بتــدريس مــســاقات في العلوم السياسية والعلاقات الدولية ، والتي كانت من بين المساقات الاكثر شـهرة في الجامعة ، وسرعان ما طلب اليــه الظهــور كـضــيف مشارك في البرنامج التلفزيوني (The Advocates) وهو برنامج تلفــزيوني يعــرض مناظرات ومناقــشــات حول قضايا عالمية ، بما في ذلك الصراع في الشرق الاوسط . وسرعــان مــا أثبت وجــوده ومصداقيته كمتحدث فعال باسم الفلسطينيين . تقول هدى : «كان يشبه حنان ، أو أن حنانا تشبهه ... كان لا يمــتلك الا الحقائق فقط ، وكان جيداً جداً في عرض القضايا على التلفزيون في وقت لم يكن يسمح فيه أحد لفلسطيني ان يقول شيئاً» .

في أواخر سنوات الستينات ، بدأ حنا ميخائيل بالسفر بشكل منتظم الى بيروت ، حــيث أصــبح من الصعوبة اكثر فأكثر بالنسبة اليه الحفاظ على الانفصال الفكري عن التدريس في جامعة برينستون .

ويستذكر نبيل شعث ـ الذي كان استاذاً في الجامعة الامريكية في بيروت في ذلك الوقت ـ ان الحــالة النفسية في بيروت في أواخر سنوات الستينات كانت في حالة من النشــاط: «كانت هاتان السنتان [١٩٦٨ و ١٩٦٩] سنتين من الرومــانس بالنسبة الى الــفــلسطينيين الآتين مــبــاشرة بعــد هزيمــة العــرب سنة ١٩٦٧ . لــقــد أحس الفلسطينيــون بحــالة انبــعــاث ، وظهــور جــديد ، وولادة جديدة ، وشعروا كأنهم مــســؤولون عن تحــرير العــالم العــربي كله وليس فلسطين فقط . كما أحسوا أن فلسطين كــانت مــركــز الاشــيــاء ، وفي قلبــها ، وكانوا فخورين من جديد بكونهم فلسطينيين» .

وقــرر حنا أن مكانه هناك ، مع شــعبه في مخيمات اللاجئين الخربة ، وليس في رابطة زمــلائه الجــامــعيين الاكثر تهذيبا وثقافة . تقول هدى : «كان معروفا تماما لــدى الاوســاط الاكــاديــمــيــة لــكنه ترك ذلك كله وذهب الى لبنان . أراد ان يخدم القــضــيــة وان يعيشها» . في بيروت كان حنا ميخائيل انموذجا للتضحية بالذات . كــان يمــتلك فــقط بذلتين كلتــاهما من البــذلات الكاكــية ، وعاش في غرفة صغيرة بالقــرب من المخــيم . وطلق زوجته الامريكية الشقراء وتزوج [فتاة من الحركة] . ويســتــذكــر شــعث : «لقــد ســاعدنا جميعا بتقديم قطع بسيطة من الأثاث» لبيته المصنوع من الصفيح . توجه حنا للعمل في مركز التخطيط التابع للدائرة السياسية

في م. ت. ف. الذي يرئسه شعث ، لكنه قضى معظم وقته في مخيمات اللاجئين حيث كان يساعد في تنظيم وتعليم الفدائيين .

وخلال أسابيع من توليه مهامه الجديدة ، أصبح حنا واحداً من المستشارين الاساسيين لرئيس م. ت. ف. ياسر ، آخذاً على عاتقه مهمة الناطق الصحفي ورئيس التخطيط السياسي . ومثل الكثيرين ، عمد الى تمويه هويته الحقيقية ، فدعا نفسه باسم (ابو عمر) . يقول نبيل شعث : «كان انموذجاً واضحا للنقاء والتفاني ... لم يكن فريدا في ذلك ، ولكنه انموذج رئيس للطبقة الارستقراطية المتوسطة : فلسطيني ذو ثقافة امريكية تخلى عن كل شيء ليعود الى وطنه للعمل من أجل شعبه . ولم يعرف أحد ـ من خلال الطريقة التي كانت يتحدث بها ومن خلال هيئته ـ انه هو جون حنا ميخائيل من جامعة برينستون» ويؤكد شعث ان إخلاصه للقضية كان كاملا : «لم يساوم أبدا ، ولم يشتر سيارة قط ، وحتى حينما تزوج فانه لم يأخذ مرتبا قط ، بل كان يأخذ مكافأة فقط كلما احتاج» . وتقول هدى موضحة : «كان يشعر أنك اذا أردت النضال والعمل من أجل القضية، فان من الواجب عليك أن تعيش مثلهم من أجل أن تفهم ما يحدث لهم . كان مصروفه اليومي عشرة قروش (عشرة سنتات) . هذا كل ما في الأمر» . وتستذكر حنان ان ابن عمتها كان «جائعا معظم الوقت لانه رفض ان يأخذ اي أموال من الثورة . وكطالبة ، كان لدي طعام أفضل وشقة أفضل ، ولذلك اعتدت البحث عن أي ذريعة من أجل إحضاره الى بيتي في شارع بليس واطعامه» .

لم ير هيوم هوران صديقه القديم خريج جامعة هارفارد منذ ما يزيد على عقد من الزمن الا حينما عاد هذا الدبلوماسي الامريكي الى الاردن : «لقد سمعت انه التحق بالثورة الفلسطينية» هكذا يستذكر ، ولكنه لم يعرف اين كان . ففي ذلك الوقت ، عين هوران كموظف سياسي في سفارة الولايات المتحدة الاميركية في عمان وكانت مهمته تعقب ومتابعة الفلسطينيين : «كانت تلك الأيام أياماً متهورة بالنسبة اليهم قبل صدام ايلول ١٩٧٠ بين الجيش والفدائيين» هكذا يقول هوران متحدثا عن سلسلة من المعارك التي أصبحت تعرف في التراث الفلسطيني باسم «ايلول الاسود» . وعلى الرغم من ان مهمته كانت الاحتفاظ باتصالات هادئة مع «الجهات المتطرفة في م. ت. ف.» الا ان هذا الدبلوماسي الامريكي تعمد أن لا يقوم بأي محاولة للعثور على حنا ميخائيل ، اذ يقول : «لقد كان آخر شيء أردت القيام به

هو زيارة شخص مثله ، لأنني أخذت في اعتباري ان ذلك الأمر سيؤدي الى احراجه مع رؤسـائه . لقـد تحمل ما فيه الكفاية من عبء مع زوجة امريكية سابقة وكونه مسيحيا ، وذهابه الى جامعتين امريكيتين رئيستين» .

لكن بعـد الانفـجـار الكبير الاول للقتال في عمان ، تمكن الرئيس المصري جمال عـبـد الـنـاصر من ترتيب وقف لاطلاق النار ، وأراد وصـفي التل ، رئيس وزراء الاردن الجـديد انذاك ان يتأكد من تعاون م. ت. ف. لذلك ، وفي مطلع شهر تشرين الاول طلب من منيب المصري ـ وهو نابلسي مـوال للأردن وصـديق مـقرب لياسر عـرفـات ـ ان يعـمل على ترتيب لقاء بينهما . ولما شاع خبر ذلك الاجتماع ، توجه هوران بسـيارته مع أحد مساعديه ، من أجل إعداد تقرير عن لقاء التل ـ عرفات . وعـقـد ذلك اللقـاء في فـيـلا في ضواحي عمان ، ويستذكر هوران : «لم يكن المكان فـاخـراً على الاطلاق ، وانما يشبه أرضا لا صاحب لها ، مع وجود مجموعات من رجـال الامن على كـلا الجـانبين» . واذ أشـار بجواز سفره الدبلوماسي الامريكي ، فـانه تمكّن من الدخول إلى الفيلا لحضور المؤتمر الصحفي الذي ترافق مع توقيع «واحدة من اتفاقاتهم الكثيرة الخاصة بوقف اطلاق النار» .

ويسـتـذكـر هوران : «وحـالما جلس المسؤول الاردني وعرفات ، جلت بعيني ، وهناك كـان حنا مـيـخائيل» وتسمرت أعينهما ، وعرف كل منهما الآخر ، غير أن أحـداً منهما لم ينبس ببنت شفة : «وفكرت في أن أتصرف بهدوء . وقلت في نفسي : انها قضية انسان» . ومع ذلك ، وحينما غادرت مجموعة م. ت. ف. الغرفة متجهة نحـو مـوكب السـيـارات ، توقف حنا مـيـخائيل قبالة هوران مباشرة ، و«باندفاع تـقـريـبـا ، صـافـحني ، وقـال : دعني أتمنى لك حظا جـيـداً يا هيـوم بقـدراتك الشخصية» . ولقد تأثرت فعلا . فمصافحة امريكي ، وبوجه خاص ضابط سياسي في السـفـارة ، تحـتـاج الى الكثير من الشـجـاعـة . وقلت : «حنا ، دعني اتمنى لك كصديق ، لقدراتك الشخصية ، وسعة صدرك ، افضل حظ وسعادة» .

ولم ير الصـديقـان بعضهما مرة أخرى . وبعد مرور أسابيع عديدة ، طُلب الى هوران أن يعـد تقـريرا الى وزارة الخارجية الامريكية عن صديق الدراسة الحميم : «لقـد قـيل لي : [لماذا لا نلقي نظرة على أحـوال حنا ميخائيل؟] كنت أعتقد أن هناك اتصـالات أخرى ، فرجال م. ت. ف. هؤلاء يخرجون من الجدران ، ولم أكن أرغب فعلا في مضايقته ، فقلت لهم : دعوه وشأنه» .

لا أحـد في عـائلة ميخائيل يعرف على وجه الدقة ما حدث لحنا ميخائيل . تقول هدى : «لقد اختفى تماما . يقولون من المحتمل ان يكون قد قتل على يد اللبنانيين ، وربما الاسرائيليين» ويقـول نبـيل شـعث أن آخـر مرة رآه فيها كانت سنة ١٩٧٦ وخلال الشهور الاولى من بدء الحرب الاهلية اللبنانية . كان في مهمة الى طرابلس ـ عـاصـمة مسلمي شمال لبنان ـ لمساعدة الفلسطينيين على تنظيم أنفسهم من أجل مـقـاومـة حصار متوقع سيفرض عليهم . ويضيف شعث : «كان دائما يذهب الى مخيمات اللاجئين التي تكون في مأزق» . كـان من المفـروض ان يسافر من بيروت بالقـارب ، لأن قوات حزب الكتائب كانت تحاصر الطريق الذي يوصل الى طرابلس، ولم يعد أحد من الفلسطينيين الاثني عشر الذين كانوا معه على متن القارب . ورغم ذلك فـان زوجـته الفلسطينية جيهان الحلو لم تفقد الأمل ، اذ يقول شعث : «فهي ترعى الحلم بانه وقع في أيدي قـوات حـزب الكتـائب ، الذي سلّـمـه الى جهة ما ، لدرجـة انها مـا تزال غير متزوجة منذ عشر سنوات» . اما الدبلوماسي هوران الذي أصـبح فـيما بعـد سفيرا للولايات المتحدة الامريكية لدى المملكة العربية السعودية والسـودان فقال : «لم نتسلم جثته أبداً ... هناك شخص واحد يعرفه ـ صديق من الكويكر ـ أخبرني انه بعد القاء القبض عليه عذب حتى الموت» . لقد نشأ جون حنا مـيخائيل ، وحنان ميخائيل معاً وكبرا مع بعضهما عن قرب خلال تلك السنوات في بيروت . ولن تنسى المثل والقدوة التي رسمهما للفلسطينيين أو العمل الذي قام به كناطق شخصي باسم عرفات .

ومنعت حنان من العـودة الى الضـفة الغربية ، فتركت بيروت سنة ١٩٧٠ لتبدأ دراسـاتها العليـا في أمريكا ، اذ انها لم تعد تستطيع العودة الى وطنها لأن اسرائيل منعت الفلسطينيين الذين كـانوا خـارج وطنهم خـلال حـرب حـزيران ١٩٦٧ من العـودة الى وطنهم . تقـول حنان : «لقـد أجبروا على المغادرة لانه لم يكن لديهم ما تسـمـيـه اسرائيل تصـاريح الدخـول للعيش في المناطق المحتلة . هذا هو ما نسميه التهجير الخفي ... الترانسفير الصامت» .

حـصلت حنان على درجـة الماجـستير في نقد نصوص أدب عصر النهضة ، وتم قـبولها في برنامج الدكتوراة لدراسات العصور الوسطى في جامعة فيرجينيا . ومع مـرور الـوقت ، عـادت الى رام الله سنة ١٩٧٣ بعـد إجـراء إحصاء اسرائيلي جديد لعـدد السكان ، واقرار قانون جمع شمل العائلات ، وكانت حنان قد تغيرت كلية .

تقـول هدى : «لقد توقفت عن الاهتمام بالشكل الذي سيبدو عليه مظهرها . كانت ترتدي اكـثـر الملابس تواضـعـا : بنطالاً من القطن المخـملي ، وحذاء منبسطا . ان الفتاة الساحرة أصبحت طالبة وقورة ونشطة متفانية» .

في السنوات الثـلاث التي قضتها في امريكا درست حنان الاعمال الادبية الرائعة لأدب العـصـور الوسطى الانكليـزية . فقد درست (حكايات كانتربري) لتشوسر ، والملحـمـة الانكليـزية القـديمة (بيوولف) . وبجانب سريرها كانت تحتفظ بأشعار (ييـتس) و(أودن) وكتابات العلماء الماركسيين . وكانت بداية سنوات السبعينات في امـريكا سنوات ثورة الطلبـة ضد حرب فيتنام ، فأضحت حنان جزءاً منها . كانت نشطة في اتحـاد الطلبـة السـود ، وغـالبـا مـا كانت تنضم الى مسيرات الاحتجاج وتتكلم جهاراً ضد القمع الاستعماري لشعبها وكذلك للفيتناميين . كذلك ، أصبحت مدافعة صريحة عن نظرية المساواة بين الرجل والمرأة ، وبدأت تكتب الشعر . يقول هويت ن. دوغان المشرف على أطروحتها متحدثا الى مجلة People : «في البداية كنت أشـعـر بالخوف من ان لا تعمل بشكل جيد بسبب اهتماماتها الخارجية كلها ، ثم اكتشفت انها تدرّس بعض طلبة الصف في اوقات فراغها» .

ويتـحـدث زمـيلهـا مارتين كنغ الى صحيفة الواشنطن بوست ، فيقول : «كانت تأخذ أصدقاءها الى واشنطن دي. سي. بسيارتها القديمة ، وتجلس معهم لتناقشهم سـاعـات في مـقـهى كـريسـتال سيتي في شارع كونيكتيكت» . ويضيف : «كانت اسـتـفـزازية على الصـعيد الفكري ، وتتحدى أي شخص لمناظرة سياسية جيدة ، تسـتطيع دائما أن تربحـهـا بقوة الاقناع ، أو باللباقة ، أو بسحر لا يصدق . ومع هذا ، فـانه كان ما يزال لديها متسع من الوقت لتمتع نفسها ، وتأخذ الاصدقاء في رحلات لتسوق الملابس والمجوهرات التقليدية» .

في عام ١٩٧٣ حـينما اقـرت الحكومـة الاسرائيليـة قانونا جديدا يسمح بجمع شـمل العـائلات ، أصـبح باسـتطاعـة حنان العـودة لأول مرة بعد ست سنوات . وهناك في رام الله ، تسلمت الفـتـاة البـالغـة من العـمـر خمسـة وعشرين عـاما ، والمرشـحـة للحـصول على شهادة الدكتوراة ، منصب رئيس دائرة اللغة الانكليزية في جـامعة بير زيت ، حتى أصبحت في آخر الامر عميدة كلية الآداب . وعلى الفور ، وكما يقـول بيتر جـيننغـز : «أحـست بضغط الاحتلال لانها حينما كانت تعود الى

البيت في الليل ، كان الاسرائيليون الموجودون في السجن الكائن قبالة منزلها يتبعونها الى داخل البيت بالاضواء الكشافة وتسليطها على غرفتها» . وفي شهر تشرين الاول اندلعت حرب جديدة حينما شنت القوات المصرية هجوما على اسرائيل عشية أقدس أيام أعياد اليهود ، وهو يوم الغفران . وكانت الحالة النفسية في اسرائيل حالة انتقام وغضب ضد الفلسطينيين الذين ابتهجوا للانتصارات الاولى التي أحرزتها الجيوش المصرية . ومع ذلك ، وبالنسبة الى حنان ، فان ذلك الصراع الجديد عزز المعتقدات الحمائمية التي طرحتها في الخارج ، اذ تقول : «اتذكر بدء التحدث الى الاسرائيليين في سنوات السبعينات ، واتذكر بدء التفكير آنذاك في حل يتمثل في دولة مزدوجة الجنسية : إذا اردت مستقبلا لفلسطين فعليك قبول وجود اسرائيل» .

تمحور عملها المبكر حول ايقاظ وعي المرأة نحو التحدي الثنائي الذي يواجهها والمتمثل في نبذ نير الاضطهاد الاسرائيلي ، بالاضافة الى الكبت الذي تعانيه المرأة العربية على يد العالم العربي : «ان التحرر وتقرير المصير ليسا فقط مظهرين من مظاهر الوطنية الفلسطينية ، وانما ايضا لهما معنى شخصي بالنسبة الى آلاف النسوة اللواتي يكاد دورهن يتحدد كلية على يد القوى الذكورية المسيطرة باكثر مما ينبغي» .

ان العديد من الفتيات اللواتي نشأت حنان معهن لهن حياة اسلامية انموذجية ، فهن لم يتلقين على الغالب الكثير من التعليم ، تزوجن في سن تبلغ الثامنة عشرة تقريبا ، وأنجبن الكثير من الأطفال ، ويتمحور عالمهن حول البيت . وفي حين أن أزواجهن يذهبون لتحصيل قوت حياتهم أو القتال ، تجلس اولئك النسوة في البيت يصلين ، ويذرفن الدموع . وقد أخذت حنان تبشر برسالة جديدة عن التعايش مع اسرائيل والتحرر الشخصي ، ولم يكن ذلك الامر من النوع الذي أراد الأصوليون الاسلاميون سماعه : «لقد اعتدنا وجود هذه الندوات ، حيث كنت ومجموعة من الاصدقاء نذهب الى غزة ، جنين ، نابلس ، والى أماكن أخرى لنعطي هذه المحاضرات . في غزة ، وحينما تحدثنا عن حقوق المرأة ، هوجمنا بشراسة من قبل شيخ من المسجد قال ان هؤلاء الناس يدافعون عن الفسق» .

ان التزام حنان بتحرر المرأة كان نتيجة الحب الشديد لقضايا التحرر التي

اعـتنقـها والدها . تقول هدى موضحة ذلك : «لقد أصبح اكثر تحررا بعد أن أنجب الفـتاة تلو الأخرى ... ولما لم يكن له ولد ، فقد عاملنا وكأننا كنّا ذكورا» . ويتذكر بيتر جـيننغـز أيضـا انه قـضى الكثير من الوقت مع داوود مـيـخائيل حينما قام بزيارة حنان ، فـيـقـول : «لقـد اعتدت الذهاب وزيارة والدها كثيرا لانه كان طبيبا مـهما جـداً في رام الله ... كـان سـاحـراً بكل مـا في الكلمة من معنى ... لقد أصبت بالمرض حـينما كنت ذات مـرة هناك ، فـاعـتنى بي عناية مـدهشـة في عـيادته» . وحـينما توفي داوود سنة ١٩٨٨ عـثـرت حنان وشقيقاتها على دفتر مذكراته التي كـان يدونها خـلال دراسـتـه في الجامعة ، فاقترحن ان يقوم المطران بقراءة مقاطع منهـا في حـفل تأبينه في شـهـر كـانون الأول . ومن بين تلك المواد المدونة ، تقول واحدة :

> «يجب ان لا تكون هناك جـوازات سـفـر ولا حـدود ولا جـنسـيـات مختلفـة لاننا جميـعـا لدينا جـواز سـفـر الانسانية» .

وتقول واحدة أخرى :

> «للمـرأة الحق في المسـاواة . انها ليـست هبة ان الرجال يمنحـون المرأة حـقـوقـهـا ، وإن لم يدرك الرجال هذه الحقيقة ، فان المرأة في كل مكان سوف تنهض وتناضل لتكسب المسـاواة ... وحـالما ينجـزن ذلك فـان الرجـال سـوف يحـذرون من الظلم الذي عـانينه طويلا جـدا ، وبخاصة حينما تتسلم مقاليد السلطة !»

تقول حنان : «كان اول نصير لحقوق المرأة عرفته» .

خـلال أسـابيع من عـودتها الى رام الله تعـرفت حنان بواسطة شقيقتها ناديا ـ وهي ممثلة مسرحـيـة ـ على إمـيل عشراوي ، وكان طبّالا في فرقة لموسيقى الروك تدعى (بلومز) . يقول اميل الذي يعزف الغيثار أيضاً : «لقد عزفنا موسيقى الروك مع الانغام العربية . لم نكن فعلا نعلم كيفية عزف الموسيقى العربية» . وفيما بعد أصـبح إمـيل مـصور أفلام سينمائية ، وممثلا مسرحيا ، وهو اليوم يكتسب رزق عـيـشـه من عمله كمصور فوتوغرافي لدى وكالة الامم المتحدة لانعاش اللاجئين في

القـدس . كان إميل أصغر من حنان بأربع سنوات ، غير انهما إنجذبا الى بعضـهما البعض بالحال . تقول حنان لمجلة People انها تأثرت بطلعـته ، وعلى نحو خاص بوجـهـه الوسـيم الأخـاذ ، وبلحيته القصيرة الناعمة ، وبشعره الطويل . وتتابع : «كـان من الواضح أنه يعـيش مع فنه ... وبقـينا مع بعضنا منذ ذلك الحين» وبعد مرور سنتين ، أي في عام ١٩٧٥ ، تزوجا .

في ذلك الوقت ، أصـبـحت حنان مـعـتـادة على التـوقيف والاستجواب من قبل السلطات الاسرائيليـة في السـجن الواقع قـبـالة منزلهم . وتتحدث حنان عن ذلك ، فـتـقـول : «في بعض الأحـيـان كـانوا يأتون ويأخذونني في سيارة عسكرية . وفي أحـيـان أخـرى كـانوا يرسلون اسـتـدعـاء للمثول أمامهم . وذات مرة جمعونا في سـيـارة شـاحنة . وقـد اعـتادوا تسمية ذلك بـ (إجراءات احترازية) . ففي ذكرى المناسـبات الوطنية الخاصة بالفلسطينيين ، مثل : ذكرى يوم الخامس من حزيران أو الثـاني من شـهـر تشرين الثـاني ، كانوا يقومون بأخذ الفلسطينيين وتوقيفهم للحـيلولة دون القـيـام بأي نشـاطات . وقـد اعتدت الذهاب الى هناك ومعي كتاب وسجائر وشوكولاته في حقيبتي لاننا كنّـا نصر على أن لا نأكل شيئا يقدمونه الينا وان يكون لدينا شيء لنقرأه» .

مع بدء الانتفاضة ضد الاحتلال الاسرائيلي في شهر كانون الاول ١٩٨٧ ، قامت حنان بتـشكيل صفوف سرية للطلبة في جامعة بير زيت ، وهي تلك الجلسات التي اتهمت بسـبـبها من قبل الاسرائيليين بانها تستخدم لتعليم أساليب المقاومة . يقول مـسـؤول اسرائيلي رفيع المستوى في الضفة الغربية : «حنان عشراوي ليس لها أي اتصـال بالميـدان ، وليـست لديها مجموعات ضاربة مثل فيصل ، ولم يكن لها أي اتصـال مـباشر مع منظمي أعمال العنف والشغب . ان أهميتها كانت تبدو اكثر في استراتيجية حرب الصور : كيفية تنظيم وسائل التحايل الجديدة لبيعها الى وسـائل الاعـلام» . ومع ذلك ، فان مدى تورطها المباشر في الانتفاضة يبقى قضية خلافية الى حد ما .

في ظـل الـقـانـون العـسكري الاسرائيلي الذي يحكم الاراضي المحـتلة ، فـان أي فلسطيني يمكن ان يعـتـقل وان يوضع قـيـد التـوقيف الاداري لمدة سنة دون أن توجـه اليـه تهمة ودون أي محاكمة . ومع ذلك ، فان التهم كانت توجه عادة ضد

حنان بسبب مزاعم مختلقة مثل الاخلال بسلامة الأمن ، وخرقها لبنود جمع الشمل ، والتحريض على التظاهر ، بل وحتى تهديد أمن الدولة . تقول حنان هازئة: «أحسست انني انسان خطير جداً» . ومع ذلك ، فانها إن لم يتم ترحيلها مع حلول منتصف الليل من سجن تاغارت الكائن قبالة بيتها الى سجن آخر ، كان يطلق سراحها ، لأن سجن تاغارت كان للرجال ولا يمكن ان تحتجز النساء فيه طوال الليل . لكن التجربة الاكثر إذلالاً وخزيا لها حصلت صبيحة اليوم التالي لعرسها ، اذ تقول : «أرسلوا الاستدعاء الى بيت والدي الذي حضر اليّ عند الساعة السابعة صباحاً وقال : [خلال نصف ساعة ، فهناك استدعاء لك]» . وفي مناسبة ثانية ، تم تحديد موعد محاكمتها يوم الخامس والعشرين من كانون الأول: «كنا نتناول طعام غذاء عيد الميلاد وكان عليّ أن أغادر كي أقسم اليمين أمام القاضي» . وسأل القاضي الاسرائيلي حنان من أين أنت ، وحينما قالت له من رام الله ـ مدينة مسيحية كبيرة ـ أعطاها الانجيل ـ العهد الجديد ـ لتقسم يمينها عليه وقال : «[ما الذي يفعلونه : يعينون موعد سماع إفادتك يوم عيد الميلاد؟] ثم أصدر حكمه بالسجن لمدة ستة شهور أو دفع غرامة . وقام الاساتذة في بير زيت ـ نحو ثلاثة عشر منهم ـ بتقديم المال المطلوب لدفع الغرامة» .

ورغم انها كانت قد قضت في السجن فترة أقل بكثير مما قضاه آخرون عديدون فان التجربة لم تكن سهلة : «اليوم الذي كان هو الأسوأ بالنسبة إليّ كان حينما لم يتحدث أحد إليّ . وضعت في غرفة بلا شيء ، وجلست هناك طوال اليوم من الساعة السابعة والنصف صباحاً ، وحتى الثانية عشرة ليلاً من غير اتصال بالآخرين نهائيا . كان المحقق يقف عند الباب ، وينظر إليّ وهو يهز رأسه فقط دون أن يتفوه بكلمة . كان البرد قارساً ، ولم يكن معي كتاب ، ولهذا السبب نقول الآن دائما حينما يكون هناك شيء خطير ، جهز قائمة الكتب التي تريد ان تكون معك» . ولدى حنان الآن حقيبة صغيرة جاهزة لأخذها معها . وفي داخل الحقيبة يوجد عدد من الروايات التي تتحدث عن المساواة بين الجنسين وتصور المرأة على انها قوية وحازمة ، كما يوجد في الحقيبة ايضا كتاب للفيلسوف الامريكي هيربرت ماركوز الذي تجمع نظرياته بين الماركسية وعلم النفس الفرويدي ، بالاضافة الى كتاب للكاتب الكولومبي المفضل لديها والحائز على جائزة نوبل : الروائي غابرييل غارسيا ماركيز .

لا تدعي حنان انها عاشت الالم والمعاناة اللذين عاشهما العديد من الفلسطينيين الذين قضوا سنوات في مخيمات الاعتقال الصحراوية ، ولكنها تؤكد انها أدت واجبها . لقد نجت من الرصاص الذي أطلق في حرم جامعة بير زيت ، وشاهدت أربعة من تلامذتها يسقطون أرضا برصاص جنود الجيش الاسرائيلي . تقول : «سأخبرك عما هو الأسوأ في هذا ... انها القسوة ، فعلى الدوام لم يكن الامر ليتوقف عند المعاناة والألم ولكن كان هناك الاستفزاز ، والإثارة ، وانعدام الحرية وانعدام أي شعور بالأمن ، وانتقاص الحقوق . في أي يوم ، لا تستطيع أن تخطط لأي شيء ، لا يمكنك ضمان أي شيء ، تستيقظ وأنت لا تعرف اذا كنت تحت حظر التجول أم لا ، اذا كان ابناؤك سيذهبون الى المدرسة أم لا ، اذا كنت ستعتقل أو توقف أم لا ، أو من الذي سيقتل اليوم» .

وعلى الرغم من التهور والطيش في عمليات القتل بين الفلسطينيين انفسهم على ايدي بعضهم ، والهجمات الكلامية المتزايدة ضدها من قبل الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وحماس كيفما اتفق ، فان حنانا ، كما تقول : «تشعر أنها مرتاحة جداً ، وآمنة جداً بين أبناء شعبها» . وتعترف أن التجربة الاكثر رهبة تمت في شهر تشرين الثاني ١٩٩١ حينما تم استجوابها وفيصل الحسيني عن لقاءات «غير مشروعة» زعم انها قد تمت مع ياسر عرفات في الجزائر قبل شهر من ذلك . وقد جرى التحقيق في مقر الشرطة المركزي في بتاح تكفا ، وهو مركز يتمتع بأقصى درجات الأمن والحماية ، ويقع بالقرب من محطة الباصات الرئيسية في ضواحي تل أبيب . حينما وصلا ، كان بانتظارهما متظاهرون تابعون لثلاث مجموعات اسرائيلية مسلحة : (رحافام زيفي مولدت) التي تؤيد ترحيل الفلسطينيين كلهم من الضفة الغربية وغزة ، و(تسومت) التي تؤيد ضم اسرائيل للمناطق ، و(كاخ) التي يترأسها مئير كاهانا وهي مجموعة عرقية تعادي العرب بشكل واضح ، وتؤمن بانه يجب عدم السماح لهم بالعيش في أي منطقة داخل الدولة اليهودية .

وبينما كانت حنان وفيصل يجيبان عن الاسئلة شاهدا بشكل مفاجىء عدداً كبيراً من المدنيين الاسرائيليين المسلحين بالاسلحة الرشاشة المعلقة فوق اكتافهم وهم يدخلون الى الغرفة مهددين متوعدين . وقفت حنان ، وطالبت بمعرفة من الذي سمح لهم بالدخول ، فقيل لها ان هؤلاء ايضا تم استدعاؤهم للتحقيق ،

فتساءلت متشككة : «بأسلحتهم ؟!» . وتقول عن تلك الليلة : «ثم اتضح الأمر لي ، فقد عرفتهم . لقد شاهدتهم من قبل على شاشة التلفزيون ، انهم أعضاء حركة كاخ ، انهم سفاحو كاخ» . وتقول انها وثبت عن كرسيها «بعيداً عن اتجاه اطلاق النيران» مطالبة ثانية بمعرفة كيفية دخول هؤلاء هذه الغرفة بالذات حيث كان يتم استجوابها وفيصل : «لا أحد يستطيع الدخول الى دائرة الجرائم الخطرة عبر نطاقات من الشرطة والجيش وحرس الحدود ، وعبر طابقين ذوي أبواب كهربائية مراقبة الكترونيا ، وممرات سفلية تؤدي الى الطابق الثاني» . وأخيراً ، قامت الشرطة بمرافقة اولئك المقتحمين الى الخارج .

يقول مسؤول اسرائيلي عن تلك الحادثة ومرتكبها : «لم يُطلق النار ، وقد أتى فقط ليلتقط صوراً ليتباهى بانه هدد وأخاف فيصل الحسيني !» لكن حنان تقول : «لقد فهمت معنى الرسالة ، وقد كانت رسالة متعمدة . لقد كان الخطر الحقيقي انهم كانوا قادرين على الدخول ، وانهم مسلحون ببنادقهم واسلحتهم الاوتوماتيكية . ومما يدعو الى السخرية أن زوجي ومحاميّ لم يتمكنا من الدخول معي في حين ان عناصر حركة (كاخ) تمكنوا من ذلك وهم يحملون أسلحتهم» . وحينما غادرت هي وفيصل مركز البوليس ، كانا عرضة لعرض آخر لاستياء (كاخ) اذ تستذكر حنان : «بدأوا يضربون بعنف على السيارة ويبصقون على النوافذ» . وقد عملت هذه الحادثة على حث الرئيس جورج بوش ان يقدم متطوعا الى مجموعة من الامريكيين العرب التعليق القصير التالي : «حنان في ذاكرتي» . ولما كانت هذه الحادثة قد حصلت عشية سفر رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق شامير الى الولايات المتحدة ، فان ذلك ساعد على ابعاد حنان عن المضايقات الرسمية اللاحقة بسبب اجتماع مزعوم مع عرفات .

وعلى الرغم من ذلك الصدام المزعج ، فان حنان اجتمعت مع عرفات مرة ثانية ، ولكن هذه المرة كعضو في الوفد الفلسطيني في الاردن . وقد كان ذلك الوقت وقتا في غاية الحساسية ، اذ كان عشية انتخابات شهر حزيران ١٩٩٢ في اسرائيل ، وقبل أسابيع قليلة من قيام حكومة رابين الجديدة بتغيير قانون يسمح بالاجتماع مع مسؤولي م. ت. ف. وقد سمحت حنان بأن تُلتقط لها صورة ورأسها ملقى على كتف عرفات . أما بالنسبة الى غالبية أعضاء الوفد ، فان الاعلان عن الاجتماع في عمان كان أمراً في غاية الاهمية وذلك من أجل إرباك حكومة شامير . وعلى الأقل ،

فـقـد تم تفسير ذلك بهذه الطريقة في اسرائيل . ولكن بالنسبة الى حنان وعرفات ، فـقـد كـانت هناك أهميـة ودلالة شـخصية أخرى لهذا اللقاء على ضوء شعبيتهما الآخـذة في الانحـسـار في ميدان التنافس الفلسطيني . فقد كان كلاهما يكافح ضد اتهامـات السلوك الوقح واللاأخـلاقي الموجهة اليهما . فالحركة الاسلامية المتطرفة (حماس) أصـدرت منشـورا في الضـفـة الغـربية وقطاع غزة تتهم فيه حنان بانها امـرأة «منحلة» في حين اتهم عـرفـات من قـبل حماس ، وعلى نحو خاص من قبل بعض مـؤيديه ، بانه كان انسانا غير مسؤول وطائشا لزواجه من أمرأة مسيحية ، تبلغ من العـمـر الثـامنة والعشرين ، وهي ابنة ريمـوندا الطويل التي كـانت هدفاً مـتكرراً للاصـوليين الاسـلامـيين . وبالنسبة الى الكثيرين في المناطق المحتلة ، فقد اعـتبر الزواج على انه خيانة للقسم الذي كان عرفات قد أقسمه بانه لن يتزوج أبدا لانه كان متزوجا من الثورة الفلسطينية .

في جناحـهـا في فندق غـراند ، وإحـدى عينيها تراقب شاشة التلفزيون ، تؤدي حنان دورها على أحـسن وجـه ، مـعبرة عن ألم المعـاناة ، وتخلق النص المكتـوب المنحوت جيدا . تقول حنان : «نفسيا لا تستطيع أن تحلم ... لا تستطيع أن تخطط بحـرية . ان اكـثـر ما يزعجني انك لا تستطيع حتى ضمان أشعة الشمس والهواء النقي . انه لأمـر مذهل» وتضيف : «اننا نسمح للحريات ان تدخل الى حياتنا ، الى اكـثـر تفـصـيلات حياتنا صميمية . هذا ما يجعلني مجنونة ، بمعنى انك لا تملك عـقـلا ، ولا عـواطف ، ولا سرية شـخـصـية ، ولا مكانا : هناك يتدخل الاحتلال ، يدخل نفـسـه في كل مستوى ، وبكل طريقة . لهذا السبب قلت اننا نريد انهاء هذا الوضـع . اننا بحـاجـة الى التـحـرر من هذا الوضـع غير المتوازن من أجل ان نعود للمـشـاركـة بحـرية وعلى قـدم المسـاواة . لكن هذا الوضـع من التطفل ، والقسر ، والتلاعب ، هو وضع غير صحي لكلا الطرفين» .

وقـد سـعت حنان نحو التعاطي مع المرأة الاسرائيلية التي يمكن ان تؤيد حركة السـلام في الدولة اليـهودية . تقول حنان : «لقد رأيت كيف يؤيد أصحاب المبادىء مبادئهم ويناضلون الى جانبك حتى ولو انه لا يوجد شيء يكسبونه ، بل يخسرون كل شيء . انهم يقـومـون بمـجـازفـات ضـخـمـة ، وعـومل العديد منهم معاملة الفلسطينيين» .

ومن بين أصدقائها الاسرائيليين المقربين هناك ليح تسيميل ، وهي محامية دافعت عن حنان مراراً في قاعة المحكمة على الجانب الآخر من الشارع قبالة بيتها في رام الله . ان ليح - فعلا - واحدة من عائلة عشراوي ، كما تقول حنان ، التي تركت «تعليمات سارية المفعول» للمرأة اليهودية لتأكل أو لتنام معهم كلما أتت الى رام الله . وفي عام ١٩٨٢ ، وحينما أنجبت ليح مولودها الاول ، أعطتها وديعة واحداً من خواتم عائلة ميخائيل . وحينما دعيت ليح للدفاع عن بعض طلبة حنان فان الثدي الفلسطيني أطعم طفل صديقتها الاسرائيلية . تقول حنان عن ذلك : «وهكذا فان ابنتها ابنتي بالرضاعة ... هناك حب كبير جداً في تلك المرأة ، انها حميمة وانسانة وأصيلة جداً» . وفي شهر تشرين الاول ١٩٨٩ كتبت حنان قصيدة بعنوان (نساء وأشياء) أهدتها الى صديقتها ليح لأن تلك الصديقة الاسرائيلية «تشعر ان الطريق الوحيد الذي يمكن لاسرائيل ان تتحرر بواسطته هو تحرير الشعب الفلسطيني» .

حين أطلق سراح فيصل الحسيني ، في حزيران ١٩٨٨ بعد ان قضى في السجن عشرة شهور ، طلب الى حنان ان تنضم الى مجموعة من الفلسطينيين كانوا يقومون باعداد أوراق عمل لعقد مؤتمرات في الخارج ، وعقد محادثات مع مبعوثين غربيين . وفي شهر نيسان عام ١٩٩١ أصبحوا المجموعة الرئيسة التي مثلت الضفة الغربية وقطاع غزة في محادثات استمرت ثمانية أشهر متلاحقة مع وزير الخارجية الاميركية بيكر ، وكانوا القناة الرئيسة للحوار غير الرسمي الذي أجراه بيكر مع م. ت. ف. .

لقد كانت حنان ، هي التي أدخلت عادة جديدة الى هذه المحادثات ، اذ قالت ان ملاحظات دقيقة يجب ان تدون عن تلك الاجتماعات وبذلك يكون هناك سجل حرفي لما قاله بيكر ومسؤولو وزارة الخارجية الآخرون . ويعتقد بعض الفلسطينيين ان هذا الامر كان وسيلتها للتأكد من انها ستكون موجودة في كل الاجتماعات التي ستعقد مع بيكر ومع كبار المسؤولين الامريكيين الآخرين . يقول أحد الناقدين : «كانت هي الوحيدة التي يمكنها تدوين الملاحظات بشكل جيد» . ويسلّم هذا الناقد بان فكرة الاحتفاظ بوقائع اجتماعاتهم كانت بمثابة ابتكار في السياسة الفلسطينية .

وعلى الرغم من ان حنانا لم تكن عضوا في الوفد الفلسطيني الى مؤتمر السلام العربي ـ الاسرائيلي الذي انعقد في خريف عام ١٩٩١ ، فهي غير مؤهلة لذلك باعتبارها تحمل بطاقة زرقاء تحددها على انها من سكان القدس ـ الاّ ان وجودها في الفريق (الاستشاري) المكون من سبعة أعضاء في مدريد ألقى ظلا على رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق شامير والرئيس بوش . فقد أسرت الهيئات الصحفية العالمية بمناقشاتها وحججها المقنعة ، عاملة وبشكل متكرر على تحويل الدعاية المبتذلة الى استغاثات براغماتية للتعاطف . وبين عشية وضحاها ، اكتسب الفلسطينيون ـ الذين عانوا الذل والخزي لعقود عديدة ، وصوروا على انهم ارهابيون ـ وجهاً انسانيا دافئا ، وحيثما مشت حنان داخل الغرفة ، كانت تحاط بمجموعات من المصورين والمراسلين المنتظرين لكل كلمة تقولها . واعطت مقابلات لا انقطاع لها لشبكات تلفزيون : ABC و CBS و NBC و CNN و BBC و PBS ، وظهرت في برامج «غود مورننغ اميركا» و «نايت لاين» و «ذ توداي شو» و «ذ ماك نيل ـ ليهرر نيوز أور» ومجموعة تقارير خاصة لا نهاية لها . فقط بيتر جيننغز ـ صديقها القديم ـ صمم ان لا يستغلها وبحيث لا يظهر هناك صراع مصالح : «لم أحجزها مقدما أبدا لبرنامج (نايت لاين) ولم أستفد منها في هذا البرنامج [ABC نايتلي نيوز] . كنا نصورها اذا كانت جزءا من القصة الاخبارية ، ولكنني لم أستفد منها أبدا كمتخصصة» .

تقول حنان انها لم تنم اكثر من أربع ساعات خلال الايام الثلاثة لمؤتمر شهر تشرين الثاني . ووفقا لما يقوله رشيد الخالدي مدير مركز دراسات الشرق الاوسط في جامعة شيكاغو ، فان حنانا لعبت «دورا رئيسيا» في وضع مسودة الخطوط الاساسية للخطاب الذي ألقاه حيدر عبد الشافي رئيس الوفد الفلسطيني . ويضيف : لقد كان الخطاب جهداً مشتركا ، فاللغة السياسية فيه وضعت من قبل آخرين بمن فيهم ممدوح عكر ، ونبيل شعث «أما الصيغ التي يذكرها الناس فقد كتبتها هي» .

مغرقا في الواقعية والشفقة ، انهمر ذلك الخطاب الذي كان بمثابة اقتحام بالنسبة الى الفلسطينيين . فقد ساوى معاناتهم بالآلام المبرحة للامهات والآباء الاسرائيليين الذين «طالما تبادلنا معه الالم ... ان أمنكم وأمننا يعتمد كل منهما على الآخر ويتداخلان كتداخل مخاوف وكوابيس اطفالنا» . كانت الرسالة بسيطة وبليغة ، فالتجربة الفلسطينية عكست تلك اليهودية : «لقد رأيناكم تنظرون باعمق

الأسف الى الخلف الى مأساة ماضيكم وتنظرون في ذعر الى تشويه الضحية الذي يتحول الى ظالم . لم يكن هذا هو ما رعيتم من أجله آمالكم وأحلامكم وذريتكم» . ان انسانية ندائه قزمت السياسة ، فبالنسبة الى ملايين مشاهدي التلفزيون ظهر الفلسطينييون على الفور على انهم ضحايا . هكذا كان الامر حينما قال عبد الشافي: «وقد حان الوقت لكي نحكي قصتنا بانفسنا وان ندلي بشهادتنا دفاعا عن حقيقة طالما ظلت مدفونة في وعي وضمير العالم» . وهكذا ، فان الكلمات التي دبجتها حنان كان لها رنين خاص . لم يعد باستطاعة الاسرائيليين بعد هذا ان يقولوا : «ليس هناك فلسطينيون» لنتحدث معهم . هنا كانوا باشكالهم الحية ، وتضخمت واقعيتهم بواسطة قوة التلفزيون ، بلقاء الملوك ورؤساء الوزارات ، والرؤساء ، ولم يعد بالامكان انكار وجودهم بعد هذا . وفي عيون العالم ، فان تحولهم من الارهاب الى التكتيك كان تحولا تاما . يقول الصحافي الفلسطيني رضوان أبو عياش : «لقد أثبتنا ان لدينا ممثلين باستطاعتهم الظهور بمظهر مبجل أمام العالم كله» .

وحتى شامير ساهم بشكل غير مقصود في نجاح الفلسطينيين في مدريد ، اذ قال : «القضية ليس قضية مناطق ولكنها قضية وجودنا» . هكذا قال مدافعا ، مشددا على الحاجة الى اعتراف الشعبين ببعضهما : الفلسطيني والاسرائيلي . وبجلوسه تجاه عبد الشافي في مؤتمر السلام وإذعانه للضغط الامريكي للسماح لعبد الشافي بالقاء خطاب مستقل ، فان شامير قدم اعترافاً بندّه الفلسطيني . وحينما صادق الياكيم روبنشتاين ـ أحد مساعدي شامير المقربين ـ على بلاغ رسمي يدعو الى محادثات مستقبلية على مسارين منفصلين ـ مسار اسرائيلي فلسطيني ، وآخر اسرائيلي اردني ـ فان الدولة اليهودية كانت في نهاية المطاف وبشكل رسمي ترفع الفلسطينيين الى درجة مساوية لاطراف الصراع الآخرين كافة . ويعترف فيصل الحسيني قائلا : «لقد فاجأنا انفسنا في مدريد ... وبعد ذلك لن تكون هناك مفاجآت» .

وعاد الوفد الفلسطيني عودة الابطال الى الضفة الغربية وقطاع غزة . وعلى الرغم من اجراءات الامن الاسرائيلية الاضافية ، ونقاط التفتيش التي اقيمت حيث سيتوقف الباص المقل للوفد وهو في طريقه عبر جسر اللنبي وعبر أريحا ، فان آلاف الفلسطينيين تحدوا أوامر الجيش ، وأحدقوا بمبعوثيهم الى العالم . وقام

اطفـال صغار بوضع أغصان الزيتون على نوافذ سيارات الجيب وسيارات الشرطة الاسرائيليـة ، في حين حمل رجل مـسن حمامـة بيـضاء على رأسه . وحينما توقف البـاص لفترة قصيرة عند نقطة تفتيش ، دفعت زينة ابنة حنان ، البالغة من العمر تسـعـة أعـوام ، المصـورين مـتـجاوزة اياهم ، وقفزت الى ذراعي امها التي كانت بانتظارها . وقـالت حنان للصحافيين : «انني مغمورة ، من غير ريب انني مغمورة انها عـودة رائعـة الى الوطن» . وسـالت الدمـوع على وجهها . فبالنسبة الى أجيال عـديدة ، كـان الاحتفال اكثر من مجرد عودة فلسطينية الى الوطن . فبعد مرور ما يزيد على حقبتين من الاحتلال ، آمنوا انهم سيعودون الى وطنهم .

وبالطبع ، كـان ذلك هو التـهـديد والخطر الذي تخشاه اسرائيل كثيرا : فأحلام الفلسطينيين بدولة مـستقلة ، والتي تولدت من خلال نجاحهم في مدريد لن تنتهي بما هو أقل من ذلك . وناح أحـد مـسـاعدي شامير قائلا : «اين كان ياسر عرفات حينما كنّا بحاجة ماسة اليه؟» .

ولم يمض طويل وقت حـتى بدأ الهجـوم الاسرائيلي المعاكس ، وكان أحد أهدافه الرئيـسـة تلك المرأة التي أثبـتت أنها سـلاح فلسطيني اكثر قوة وفعالية من ياسر عـرفات : حنان عشراوي . فمن أجل التشهير بها والانتقاص من سمعتها ، تناولها ناطق اسرائيلي من حـيث ثروة عـائلتـها ، وديانتها ، ومعارضتها المزعومة للحرب والعنف ، بل وحـتى انهماك زوجـهـا في اعداد الطعام . ويتساءل يوسي أولمرت : «هل لاحظت التـغير الكبير فـيها ؟ ... انها تكاد تكتسب سلوكيات ملوكية ، فتذهب ومـعـهـا هذه الفـتـاة الشابة التي هي سكرتيرها ؛ انها تشبه الوزراء الاسرائيليين الذين يحيط بهم الصـبـيان ... مثل [بيبي] نيتنياهو . ويعمل فيصل مع حنان عن قـرب لانه يدرك مـيزاتها ويمكن له ان يستفيد منها بشكل جيد . لكن كل شـخص آخـر ينهـمك في القـيل والقـال عنهـا : [يقـولون] انها بشـعـة ، انها معقدة ، انها مـسـيـحـية ، انها امرأة ، انها تَـمْثُـلُ أمام القضاء كثيرا ... انها ليست مؤثرة على الاطلاق . انها مجرد ناطق فقط ، انها لا شيء» .

من غير ريب ، فـان لحنان أعـداء بين العـرب والاسرائيليين المعـارضين لعـملية السـلام . وحـينما توفي مصطفى عكاوي ـ من الجبهة الشعبية ـ مؤخراً نتيجة ما زعـمـتـه تلك المنظمـة الفلسطينيـة من انه توفي بسبب التعذيب الاسرائيلي ، أعلمت الجـبـهة الشعبية لتحرير فلسطين حنانا انه غير مرغوب في وجودها في المأتم الذي

حضره فيصل الحسيني فقط . كذلك ، فان الفصيل النسائي في الجبهة الديمقراطية التي يتـزعـمـها نايف حواتمه هاجم حنانا متهما اياها بانها ولدت وفي فمها ملعقة من ذهب وانها لم تدفع مـا يتـوجب عليـها دفعه من الدم والعرق . وتقول حنان : خلال مؤتمر صحفي عقد في شهر كانون الثاني عام ١٩٩١ للاحتجاج ضد تهجير أحـد عشر فلسطينيـا صرخت خـالدة جرار ـ زوجة أحد المبعدين ـ بغضب قائلة : «انت لا تمثلين عـائلات المبـعـدين ...» وتضـيـف حنان : «لقـد دعـوت الى مـؤتمر صـحفي ، وقلت فيه ان غسان جرار كان أحد طلبتي . لم يمتدح الهجوم ، وأرسل لي اعـتذاراً من السجن» . ومن الصعوبة بمكان معرفة الى أي حد جعلتها صورتها هذه هدفـا طبـيـعـيـا للجماعـات السرية الفلسطينية ، وكم صبت عليه من الوقود اجهزة الاعلام الاسرائيلي المضاد .

ان حـنـانـا لا تـتـلـفظ بأي كلمـة عن الاسرائيليين ، على الرغم من انها تصف اسرائيل نفـسها على انها دولة عنصرية . وحتى بعد أن تم الغاؤه ، فانها لم تحاول جـاهدة ان تخفي تأييـدها لقـرار الامم المتـحـدة الذي يدين الصـهـيـونية كحركة عنصرية . تقـول في حـديث الى مجلة ميرابيللا : «لقـد حـولوا الديانة اليـهودية الى هوية وطنيـة في اسرائيل ... ان أي يهودي يمكنه بصـورة تلقائية ان يصبح مواطنا ولذلك فانني اتساءل فيما اذا كانت هذه عنصرية ام لا . ما رأيك ؟ أرى أن اسرائيل دولة عنصرية وان الطريقـة التي عـومل بها الفلسطينيـون تحت الاحتلال عنصرية على نحو واضح» .

بعد مرور عدة أشهر ، وحينما اقترح الوفد الاسرائيلي في البداية اجراء انتخابات بلدية كـاخـتـبـار لتـقـرير فيما اذا كان الفلسطينيون قادرين على تنظيم انتخابات سلمـية ، اتهمت حنان الدولة اليهودية بانها كانت تستخدم كلمة «[رعاية].أريد أن اقـول حـتى لو كـانت مـدخـلا عنصريا فاننا لن نوضع موضع الاختبار أو تحت التـدقـيق لاكـتـشـاف فـيما اذا كنا جـديرين بذلك ام لا !» . وحينما تحداها أحد الصـحـفـيين فـيما بعـد لاسـتخدامها عبارة «[رعاية] على انه مصطلح للعنصرية» ارتدت الى الوراء مـتهمة الاسرائيليين باطلاق وصف المتطرفين والعنيفين على شعبها وبالتـالي فـانه من غير اللائق ان يقوموا بادارة انتخاباتهم الوطنية الشاملة : «ليس هناك من شـعب يمكن وصفه بانه عنفي ومتطرف.هذا مثال جيد لقضية لماذا نحن بحاجة الى فترة بعيداً عن القسر والرعب» .

وبين الفينة والأخرى تفقد حنان صبرها مع مراسل ما ، كما حدث حينما أنبّت في مدريد مراسلا يمثل شبكة تلفزيون أميركان كريستشان برودكاستنغ . فقد سألها كيف تطلب من اسرائيل أن «تبادل بالارض السلام» لاقامة وطن للفلسطينيين لانه «حينما كانت يهودا والسامرة بأيدي العرب هوجمت اسرائيل ثلاث مرات؟» . وأجابته حنان : «قبل كل شيء أجد أن اشارتك الى [يهودا والسامرة] تعبيرا عن تحيز متطرف واكثر عدوانية» مشيرة بذلك الى الاسماء التوراتية القديمة للضفة الغربية التي تستخدمها اسرائيل لتبرير مطالبتها بالمناطق. وتابعت : «انني فلسطينية مسيحية وأعرف ما هي المسيحية . انني سليلة اول المسيحيين في العالم ، وقد ولد عيسى المسيح في بلادي ، في أرضي . ان مدينة بيت لحم مدينة فلسطينية ، ولذلك ، فانني لن أقبل هذه الفوقية على المسيحية . لا أحد يحق له احتكار ذلك» .

وتسلّم هدى ان حنانا «خطيرة بشكل واضح أو واضحة بشكل خَطر» . فاستاذة جامعة بير زيت تستطيع أن تفهم حقيقة كون الناس متشابهين ولكنها لا تستطيع احتمال التجاهل المقصود : «انها تشعر وكأنها قالت هذا الامر مرة ومرة أخرى فكيف يأتي صحفي ويسألها نفس السؤال الغبي؟» .

ان اندفاع حنان عمل ايضا على كشفها لحقيقتها دونما ضرورة . فحينما اختفت طائرة ياسر عرفات في شهر نيسان ١٩٩٢ ، وتم الافتراض بان أبي الثورة الفلسطينية مات ، قالت حنان لبرنامج «نايت لاين» ان وفاته لن تسجل نهاية م. ت. ف. لأن لهذه المنظمة مؤسساتها الدستورية التي ستختار خليفة له . ومرة بعد أخرى تجنبت محاولات تيد كوبل لحثها على افتراض أن ياسر عرفات قد مات . ومع ذلك فان اقوالها فجرت عاصفة نارية من الانتقاد ،وصبت عليها الوقود نشرة أخبار باللغة العربية من راديو اسرائيل ذكرت ما قالته حنان عن الحاجة الى اجراء انتخابات جديدة في م. ت. ف. وبسرعة رد مركز الاعلام العربي ـ وهو وكالة أنباء فلسطينية مركزها القدس ، ويديرها رضوان ابو عياش ـ قائلا : «ان سكان المناطق المحتلة امتعضوا من تصريحها» .

وقد طلب اليها فلسطينيون آخرون ان تتنحى بعد أن أصبح من الواضح ان عرفات قد نجا فعلا باعجوبة من حادث الطائرة في الصحراء الليبية . ويسلّم نبيل

شعث بانها : «هوجمت في الضفة الغربية وكأنها فعلا دفنت الرجل قبل أوانه لانها قالت ما قالته قبل ان تعرف أنه حي . لكن ما قالته فهم بعيداً عن سياق الكلام ... لقد قالت شيئين : ان منظمة التحرير الفلسطينية لن تموت اذا مات عرفات لان هناك سبلا واجراءات لخلافته . وفي الوقت نفسه قالت انه الأب والقائد وان فقده سيكون خسارة كبيرة . لقد أخذوا الجملة الاولى التي كانت تعني في الواقع [لا ، لن نطوي خيمتنا ، وسنواصل] . لم تقصد أبداً ان تقول ذلك بالمعنى الذي فهم عليه . ولكن بسبب أخذ الكلام من سياقه قبل ان يعرف الناس انه حي ، بدا الامر وكأنها كانت تدفن الرجل قبل أوانه» .

وتبدو حنان نفسها غير قلقة ، فتصف الامر كله بانه : «تحريف تحريضي متعمد» قام به راديو اسرائيل العربي الذي تديره الحكومة بهدف زرع الخلاف ، وتقويض فعاليتها بين ابناء شعبها . وتقول ان مجموعة من الفلسطينيين الذين تصرفوا بطريقة تعود بالفائدة على الاسرائيليين من خلال توجيه النقد اليها علانية قد تم تأنيبهم . وتضيف ان الشيء المهم هو أن فيصلا الحسيني قد وقف مباشرة الى جانبها ، وان منظمة التحرير الفلسطينية أصدرت في اليوم التالي بيانا يبرئها من أي نية خبيثة ، اذ تقول : «لم يكن هناك أي انتقاد لما قلته من قبل م. ت. ف. نفسها» .

لكن عدداً من الاسرائيليين يعتقدون ان تلك الحادثة ، حتى وان كانت لم تسبب أذى دائما لسمعتها ، الا انها تشير الى كم هو مزعزع يبقى وضع حنان داخل اوساط قيادتها المحلية . وكتبت يائيل دايان ـ ابنة موشى دايان وعضو حزب العمل في الكنيست ، والتي تؤيد الحقوق الفلسطينية ـ ان تأييد حنان ودفاعها عن الاسلوب الديمقراطي الغربي ذكّر اناساً كثيرين بالصفات التي جعلتها تبدو شاذة بين أوساط القيادة الفلسطينية المحلية . فذكاؤها الحاد لم يأخذ بالاعتبار قوة الوجدان الشرقي . وكتبت دايان في صحيفة عل همشمار : «لو كان لديها مستشار مهتم بسعادتها ، فانه كان سيعطيها كيلو من البصل لتظهر وهي تبكي وتنوح قائلة بالعربية ـ وليس بلهجة اوكسفورد ـ ان العاطفة والامل قد جعلاها مضطربة لدرجة انها لم تكن قادرة على التعبير عن نفسها ، وكانت ستدعو الى الصلاة في المساجد من أجل الرئيس ... لكنها مسيحية ، مدنية ، اوروبية الاتجاهات والمفاهيم ، وامريكية في احساسها بالوقت . ان الدعوة التى انطلقت من

المناطق من أجل عـزلها ، حينما تحدثت بصراحة في قضية انتخاب خليفة لعرفات ، كانت ايضا متوقعة» .

ويتحدث مسؤول اسرائيلي رفيع المستوى عن السبب الذي جعل أقوال حنان تبدو تحريضية جدا ، فيقول ان دعوتها الى اجراء انتخابات ديمقراطية لم تكن مجرد رد فعل متنبأ به ، ولكنها ايضا هجمة مضادة على القرارات التي تتخذ سراً في صالونات القيادة الفلسطينية في تونس والقدس . ويفسر ذلك المسؤول هذه الحقيقة فيقول انه قبل حادث تحطم الطائرة «لم يكن من المسموح به خلف الابواب المغلقة طرح أي سؤال عمن سيخلف عرفات ، فطرح هذا السؤال بهذه البساطة كان يعتبر خيانة وطنية ! ان اختفاءه للمرة الأولى قد حلّل النقاش علنا فيما اذا كان يجب أم لا ان يكون هناك رجل ثان في القيادة» .

ومع بدء الجولة السادسة من المحادثات العربية ـ الاسرائيلية في واشنطن في أواخر شهر آب من عام ١٩٩٢ كانت الحالة النفسية قد تغيرت . فالحكومة الاسرائيلية الجديدة بقيادة اسحق رابين أعلنت سلسلة من اجراءات «حسن النية» : عرض اجراء انتخابات للفلسطينيين ، انهاء عمليات الابعاد وهدم المنازل الفلسطينية ، واطلاق سراح ٨٠٠ سجين سياسي فلسطيني . تقول حنان : «ان حقيقة ان رابين اختار افتتاح هذه الجولة بتنفيذ بعض الايماءات الرمزية تشير الى انه يستجيب ، وانه يستمع» . وعلى الرغم من ذلك ، فان حنانا متشائمة : «ان المحك الاكثر أهمية هو النشاط الاستيطاني المستمر . هناك شيزوفرانيا حقيقية ، وهناك اختلاف حقيقي بين ما يقولون وبين ما يحدث . ان الفلسطينيين لا يمكن ان يشعروا بالرضى لصدور اعلانات نوايا في حين يرون أراضيهم تصادر . يجب ان يكون هناك تعهد واضح بوقف المستوطنات» .

ومع ذلك ، فهناك مناخ مختلف فيما يتعلق بالمحادثات . فللمرة الاولى ، يبدو أن كل شخص يريد لهم النجاح . لقد تأكدت المصلحة الفلسطينية في المحادثات من خلال مكالمة هاتفية تلقتها حنان ونحن في منتصف مقابلتنا الاخيرة معها في جناحها في فندق غراند . فأحد مساعديها اراد الحصول على خطوط عريضة للاجابة عن سؤال للصحافة يتعلق ببدء الولايات المتحدة الاميركية باسقاط طائرات عراقية في جنوب العراق : لقد أصدرت م. ت. ف. بيانا تؤيد فيه العراق ، فما الذي يقوله الوفد الفلسطيني ؟ وقالت حنان للمتحدث على الهاتف : «ان الوفد

الفلسطيني لا يصدر بيانات كهذه ، ويجب أن لا يُقْحَمَ هذا الوفد بقضايا تتعلق بالسياسة العليا الآن» . وبعد أن أغلقت السماعة ، سألناها فيما اذا كانت تبذل جهدا عظيما لتجنب الخطأ نفسه الذي ارتكبه الفلسطينيون خلال حرب الخليج حينما أيدوا عناق عرفات لصدام حسين ، فألمحت الى ان المحادثات أصبحت اكثر أهمية من التبجح المنمق : «ان المحادثات يجب ان لا تكون أسيرة أي تطورات خارجية الا اذا كانت مرتبطة مباشرة بالمفاوضات» . ان فلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة كانوا يتحدثون بانفسهم .

وعلى الرغم من اعجابها بياسر عرفات ، فان حنانا لا تتردد في الحديث عن معلّمها الخاص ، فيصل الحسيني ، كرجل دولة فلسطيني مستقبلا ، وربما كرئيس للوزراء أو كرئيس لدولة فلسطين . تقول : «اعتقد انه الآن زعيم ... استطيع أن أرى ان لفيصل دوراً هاما . انه رجل مبادىء واستقامة وهو صادق . ولهذا السبب ، فانني احترمه ، وعلاقتنا ترتكز على الاحترام المتبادل . ان دورينا متممان لبعضهما» . وتضيف ان اكثر ما تحبه فيه هو : «ان فيصلا ليست لديه أجندة شخصية ، وهو لا يمارس السياسة الجهورية ، فهو ملتزم التزاما عميقا بالقضية الفلسطينية ، وهو ما لديّ أنا أيضا ، اذ ليست لدي أجندة شخصية ، أريد أن أعمل من أجل الشعب الفلسطيني» .

فاذا كان يفترض أن فيصلا الحسيني سيكون له دور قيادي جديد ، فان حنانا ستكون الى جانبه على الارجح . ومثل فيصل : من القدس ، مجسدة العلاقات بين الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال وبين فلسطينيي المهجر ، تبدو حنان جسرا طبيعيا يصل الى الغرب : فلسطينية تفكر وتتكلم بمفاهيم تفهم بسهولة على الموجات الهوائية التي لا حدود لها ، والتي هي الناقل والوسيط الجديد للدبلوماسية. وسيبقى لحنان دائما نقّادها . يقول زميل لها واضح الغيرة والحسد: «لقد بدأت كمترجمة لفيصل ، ثم أصبحت الناطق بلسان الوفد ، والآن هي الناطق باسم الشعب الفلسطيني كله!» .

ولكن بالنسبة الى ملايين الفلسطينيين فانها تمثل ما كان مطلوبا وجوده لنقل آمالهم وطموحاتهم الى العالم الخارجي . ومع سياسة النضال الفلسطيني المتحول عن الحرب والعنف الى معركة مماثلة من حيث القسوة مع الرأي العام ، فان حنانا عشراوي سلاح جديد فعال في الترسانة الفلسطينية .

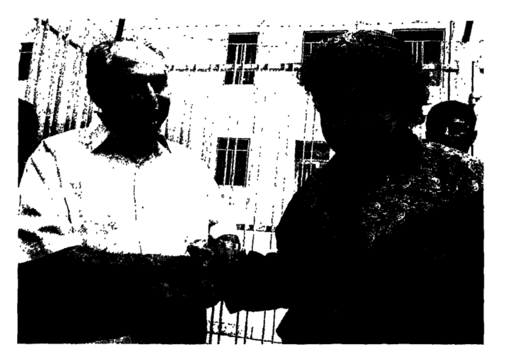


● فيصل الحسيني في العشرين من عمره ، وإلى جانبه زوجته نجاة .

فيصل الحسيني



● فـيـصل الحـسيني جالسا في شرفة منزله في منطقة وادي الجوز ، المطل على القدس الشرقية .



● فـيـصل الحـسـيني يشد على يد دافيد شلومو من نشطاء السلام بعد ان حكم عليه الاسرائيليون بالسجن بسبب اجتماعه مع رئيس م. ت. ف. ياسر عرفات.

فيصل الحسيني

حينما تحطمت الطائرة روسية الصنع التي كانت تقل ياسر عرفات بالقرب من بلدة الكفرة في الصحراء الليبية ، بدأ معظم العالم يكتب نعيه . وحينما مر ما يزيد على تسع ساعات على الحادث ولم تسمع كلمة من الطائرة أو من ركابها ، فان اولئك الناعين بدوا واجمين . غير أن شخصا فلسطينيا لم يصدق خبر الموت ، وقال فيصل الحسيني ـ المؤيد المشهور لحركة فتح الموالية لعرفات في المناطق المحتلة ـ لراديو اسرائيل ان عرفات قد نجا باعجوبة .

كانت نبرة صوته تدل على الثقة ، غير ان قلبه كان يضرب بعنف . وقد أراد ان يصدق ما قاله له القنصل الامريكي في القدس من ان قائد الفدائيين البالغ من العمر اثنتين وستين سنة ما يزال حيا ، وانه قد نجا من حادث الطائرة ، وتحدى الموت مرة أخرى . لقد بدا ياسر عر فات دائما اكبر من الحياة ؛ وغالبا ما يقارن نفسه بطائر العنقاء الذي ينهض من رماده . وبالنسبة الى فلسطينيين امثال فيصل الحسيني ، فان عرفات التجسيد المعاصر لحلمهم المستمر ، وعنقاؤهم ، وأملهم ، وحقهم الذي لن يضيع .

وحينما تأكد لهم ان قائدهم ما يزال فعلاً على قيد الحياة ، ابتهج الفلسطينيون لذلك . ففي (ناشيونال بالاس اوتيل) ارتدى الموسيقيون بنطلوناتهم السوداء ، وقمصانا بيضاء ، واربطة قبات (ببيونات) حمراء ، وأحزمة خضراء ـ الوان العلم الفلسطيني ـ وعزفوا ألحانا عربية مثيرة ، في حين قام شاب آخر باخراج علم فلسطيني من تحت قميصه ، ولوح به لفترة قصيرة ، مضفيا على تلك اللحظات البهجة والانتعاش . وفي الشوارع ، قام آخرون بتوزيع الحلويات ، ورقصت النسوة «احتفاء بعودة عرفات سالماً» .

مع ذلك ، ففي ساعات التوتر تلك من صباح ذلك اليوم من أيام شهر نيسان حينما بدا أن عرفات مات ، بدأت واقعية جديدة : إحساس بمناقبه ، وإحساس بان هذا الثائر قصير القامة ، الاصلع ، الملتحي ، الذي بدا لحقب يشبه التمثال الضخم على مسرح العالم ، قد تقلص فجأة الى حجمه العادي . فقد قدم مساهماته الى التاريخ ويبدو الآن انسانا عاديا ، فحتى لو نجا من الحادث فان الاسطورة انتهت

اذ امـتـزج مع الابتـهـاج احساس سريع الانتشار بانتهاء التاريخ . بل ان مسؤولا اسرائيليـا اوحى انه تم اخـتـيـار ثلاثة من اعضاء الحكومة سرا لخلافة أبي عمار الاسطورة ، وهم : فـاروق القـدومي (ابو اللطف) ومحمـود عـبـاس (ابو مـازن) وفيصل الحسيني .

رغم ذلك ، وحـينما وصلت الى فـيصل الحسيني الانباء التي تقول ان ياسراً قد نجـا ، أبدى ارتيـاحـه ، وقـال للفلسطينيين المبتهجين المحتشدين في غرفة المعيشة الواسـعـة في بيـته في وادي الجوز : «ان شعبنا شعب عظيم ، قادر على التغلب على مشكلاته كلها . ان الشعب القادر على انجاب ابي عمار يمكن أن ينجب واحداً آخر. ومع ذلك ، نشكر الله انه وفّـر علينا ذلك الامتحان» . ولم يكن على فيصل ان يعقد مـقـارنة بين نفـسـه وبين قـائد م. ت. ف. فالفروقات كانت واضحة . فأبو عمار مسرحي ومـتبجح ، عالي الصوت ، في حين ان فيصلا رقيق الصوت ، بل وأضعف مما يقتضيه الواقع ، وصاحب اسلوب معتدل . وعرفات هو المتشرد ، يرتدي دائما وعلى نحـو تام ثيـاب المقـاتلين زيتـوني اللون ، المجـسـد للحلم الفلسطيني الدائم بالعودة ذات يوم الى فلسطين . اما فيصل الحسيني فهو المجسد للتخلي عن الحلم، المذكّـر بالواقع اليـومي الذي يواجه الشعب الفلسطيني من حيث انهم قد لا يكونوا قـادرين أبداً على العـودة الى بيـوتهم في يافـا ، وتل أبيب ، وحيفا ، ومن حيث انه يجب عليهم بناء بيوت جديدة لهم جنبا الى جنب مع الدولة اليهودية .

فـاذا كـان عـرفات يمثل صورة البطل القومي ، فان فيصلا بعكس ذلك . فهو يتـمـتع بجـاذبيـة هادئة وهيئة رسمية ، يرتدي في الغالب بذلة أو قميصا مفتوحا للقـاء الضـيوف في منزله أو في مكتبه . وطوال سنوات عديدة ، وفي حين كان ياسر عـرفـات يطير بطائرات مـستعارة من الزعيم الليبي معمر القذافي أو الملك فهد ملك العـربيـة السعودية ، فان فيصلا كان يستخدم سيارة فيات مستعملة صغيرة جداً من طراز اوتوبيـانكا . ويبـدو ذلك الامر مناسبا لعرفات ـ الذي يقضي معظم وقته في الجـو لانه ليس لديه بيت ـ الذي نجـا من الموت من حـادث تحطم الطائرة . ان مـاضي ياسر عـرفـات يتناقض على نحـو مـفـاجىء مع الحاضر المتواضع لفيصل الحـسـيني : فـفـيـصل فلسطيني تعـود جذوره الى القدس الشرقية ، وكدح تحت الاحـتلال الاسرائيلي مدة ربع قرن ، في حين ان عرفات رجل يستطيع السفر بحرية

وهو سليل عـائلة غنيـة ، وقـد غـرست قـدماه في ارض جيل فلسطيني لن ينسى التاريخ ابدا .

بـالنسـبـة الى العـديد من الفلسطينيين ، وعلى وجـه الخـصـوص اولئك الذين ترعـرعـوا تحت الاحـتلال وهم الآن في أواخر العشرينات والثلاثينات ، فان فيصلا الحـسـيني يمثل ألم ماضيهم ، وحاضرهم ومستقبلهم . وعلى الرغم من الاختلاف بينهما ، فـان فـيصلا حليق الذقن ، والذي يتكلم بصوت رقيق يصل في الغالب الى حـد الهمس ، يشترك كـثيرا في التاريخ نفسه لأبي عمار المتكلم المندفع . وبالفعل ، مـثل عـرفـات ، فـان عائلة الحسيني كانت محور النضال المعاصر من أجل الهوية الفلسطينيـة . وفـيـصل الحـسيني ـ سليل النبي محمد ، وابن اكبر بطل عربي في حرب عام ١٩٤٨ العـربيـة الاسرائيليـة ، وابن أخ المفـتي الاكبر للقدس الذي جعله حماسه المتواصل من أجل القضية العربية اسطورة حتى بين اوساط كارهيه ـ هو الجـيل الوريث . ولك ان تسأل أي فلسطيني في الضـفـة الغـربية ، وسيخبرك ان فـيـصلا وطني براغماتي ، وارستقراطي . طويل القامة ، عريض المنكبين ، مشيته الهادئة تتناقض مع منزلتـه الرفيعة ، لكن جذوره تضرب عميقا في اسطورة وثقافة وديانة فلسطين ، وتعـود الى الوراء الى بداية القرن السابع عشر ، حينما تسلم عبد القـادر بن كـريم الدين الحـسيني منصب مفتي القدس . ومع ان عبد القادر توفي دون أن يكون له ولد ، فـان عائلة الحسيني تسلمت مناصب دينية رفيعة أخرى ، بما فـيـهـا منصب نقـيب الاشراف ، ومنصب شـيخ الحرمين ، واستمر ذلك حتى نهاية القـرن الثـامن عشر . ثم اسـتـعـادت العـائلة منصب المفتي ، والذي بقي في حوزتها بشكل يكاد يكون مستمراً حتى القرن العشرين .

منذ نهاية القـرن التـاسع عشر كـانت اسرة الحسيني تمتلك الثروة . فقد كانت تمتلك اراض لها في منطقـة وادي الجـوز احـدى ضواحي القدس الشرقية . كذلك ، فـان (اميركان كولوني أوتيل) والذي كان فيما مضى المنزل الخرافي للباشا التركي وزوجـاته الثـلاث ، مقام على ارض يمتلكها جد فيصل . اما (نيو اورينت هاوس) المجـاور للفندق المذكـور ، فـقد قامت عائلة الحسيني ببنائه قبل عدة عقود ، وهو الآن مـركز مؤسسته المسماة مركز الدراسات العربية . وبالقرب منه ، تقع المقبرة الصـغيرة التي تضم قبور أفراد من عائلة الحسيني . كذلك فان نسب فيصل يعود الى مـؤسس دينه . فـعلى عكس معظم الفلسطينيين الذين يرجعون أصلهم الى زمن

الكنعانيين الذين تعربوا بعد الغزو العربي لفلسطين سنة ٦٣٨م ، فان عائلة الحسيني تدعي ان نسبها ينحدر مباشرة من النبي محمد . وفي الواقع ، فان الفلسطينيين اللذين اشتهرا كثيرا بسبب مقاومتهما للتهديد الصهيوني في منتصف القرن العشرين ، هما من عائلة الحسيني : الحاج أمين الحسيني ، وعبد القادر الحسيني ، في حين ان شخصا ثالثا ستصبح كنيته مرادفة لكفاح الفدائيين في العصر الحديث ضد اسرائيل ، هو ايضا ابن عم لهما : انه محمد عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني ، ولقبه (ياسر) .

ويتذكر فيصل ان ابن عمه كان واحداً من الشباب المجندين في جيش الفدائيين الذي يقوده والده ، وكان في بعض الأحيان يقوم بزيارتهم في بيتهم في ضاحية شبرا في القاهرة . هناك ـ في مطبخ بيت والده ـ كان الشباب الفلسطينيون يتعلمون صنع القنابل ، وكذلك نزع فتيلها ، وفي مناسبات مختلفة ، كان ياسر وطلبة آخرون يتدربون سراً على أعمال الكوماندوس على يد ضابط ألماني كان قد سافر مع عمه الاكبر الحاج أمين الى مصر . ويستذكر فيصل قائلا : «بدأنا نفهم ماذا يجري في فلسطين ، وبدأنا نرى آباءنا وهم يغادرون ، ويرتحلون ، ويعودون» . كان فيصل يبلغ من العمر السابعة ، وكان يقلب النظر في ابن عمه (ياسر) الذي كان يبلغ السابعة عشرة من عمره في ذلك الحين .

في بعض الأحيان ، كان الوالد يسمح لفيصل بمشاركة الأولاد الاكبر منه سنا في عملية مسح صدأ البنادق والاسلحة الأخرى . ومثل والدهم وأصدقائه ، كان الاولاد يزيلون الاوساخ عن مدافع التومي ، وبنادق الستين ، ورشاشات البرن حتى تصبح تلك الاسلحة تلمع مثل جزمة والدهم . يقول فيصل : «كان امراً مثيراً رؤية اننا كنا نقوم بعمل شيء كان يفترض ان يقوم به الاولاد الاكبر سنا منا» . كانت لعبتهم المفضلة ان ينظفوا بعناية وحذر الاسلحة القديمة ، ثم التظاهر باطلاق النار منها «بالطبع ، دون أن يكون فيها أي رصاص ، وبذلك لا يكون هناك أي خطر» . كانت السنة هي سنة ١٩٤٧ ، وكان والده عبد القادر ما يزال يقضي الكثير من وقته في البيت . كان يغادر الى فلسطين ، حيث يقود قوات الفدائيين في هجمات ضد اليهود ، ثم يعود الى القاهرة ليدرب المتطوعين الشباب . وكان وجوده في القاهرة ضروريا لأن الفدائيين كانوا بحاجة الى الاسلحة قدر حاجتهم الى الفدائيين ، لا سيما وان الفيلق العربي المشكل من الدول العربية

المجاورة لم يكن يتشارك في السلاح مع قوات الفدائيين غير النظامية .

وعلى الرغم من أن قوات الحلفاء وقوات دول المحور تركت وراءها كميات كبيرة من اسلحة الحرب العالمية الثانية ، الا أن الحصول على السلاح كان اصعب بكثير من تدريب الرجال . فشراء السلاح كان ممنوعا ، وكانت اسعاره باهظة . كانت هناك بعثات سرية ، تلتقي عملاء يصلون من فلسطين ، وجيوبهم مليئة بالاموال ، ليلتقوا مع موردي السلاح السريين في القاهرة والاسكندرية . ومن القاهرة ، كان يتم تهريب الاسلحة في طائرات كان يمتلكها إمام اليمن الى قاعدة جوية بريطانية قديمة في منطقة أريحا هناك ، وبعد منتصف الليل ، كانت الاسلحة تعبأ من قبل رجال عبد القادر في الشاحنات .

وفي مرات كثيرة ، أخبر والد فيصل أبناءه عن مآثر رجاله وانتصاراتهم ... عن المغامرة وعن الاسرار . ومع ذلك ، فان القصص التي تتحدث عن المصادمات ضد اليهود سرعان ما توقفت عن ان تكون قصصا ملسية لفيصل . بدأ والده يقضي وقتا اكثر في فلسطين ، ولم يمض طويل وقت ، حتى بدأ أقرباؤه يحتشدون في منزل الحسيني ، وقد بدوا قلقين . ويستذكر فيصل : «لقد قتل أحد أبناء عمومة والدتي خلال الحرب ، وبذلك بدأنا ندرك معنى الحرب ، وثمن الحرب . ليس من بعيد ولكن عن قرب : انه أحد أقربائنا ... ابن عم والدتي وهو شخص نعرفه جيداً» .

وبالفعل ، ومع حلول خريف سنة ١٩٤٧ اشتدت حدة القتال بين العرب واليهود ، واتسع نطاقها ، بحيث أصبح من الواضح بالنسبة الى البريطانيين ان عليهم ان يتخلوا عن السلطة في فلسطين . وفي شهر تشرين الثاني اعلن البريطانيون انهم يسحبون ادارتهم من الانتداب ، وطلبوا من هيئة الامم المتحدة الاضطلاع بالمسؤولية . وفي يوم ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧ وبمساعدة الخبير القضائي السويدي إميل ساندستروم ، صوتت الجمعية العامة للامم المتحدة ، التي اجتمعت في منطقة لايك سكسس في مدينة نيويورك ، الى جانب انهاء الانتداب البريطاني وتقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية . وبعد مناقشة ساخنة ، قبل اليهود الخطة ، في حين رفضها العرب المحنقون الذين كان عليهم التخلي عن جزء من أرضهم ، كجزء من الخطة . وأخذ الطرفان يستعدان لتصعيد النزاع ، والاستعداد لحرب مفتوحة .

بناء على توجيهات عبد القادر ـ الذي ترأس القيادة المركزية والتي اتخذت مقرها في مدينة بير زيت شمال القدس ، ونائبه حسن سلامه في الرملة ـ حصّن الفدائيون العرب مواقعهم . وبالاضافة الى تهريب الاسلحة من مصر ، قاموا بشراء اسلحة من شرقي الاردن ، والعراق ، وسوريا ، ولبنان . ومع اشتداد القتال ، تمكنوا من السيطرة على مناطق استراتيجية هامة . وبحلول منتصف شهر آذار عام ١٩٤٨ عانى اليهود من نكستين خطيرتين لا تقلان عن خطر أي هزيمة في ميدان أي معركة . فقد أعلن البريطانيون موافقتهم على توريد سلاح الى امارة شرق الاردن وذلك للعشرين سنة القادمة . ثم ، وفي ١٩/ ٣/ ١٩٤٨ اقترحت الولايات المتحدة الامريكية على هيئة الامم ، وعلى ضوء القتال الضاري المتزايد في فلسطين بان يتم التخلي عن خطة التقسيم ، وان تفرض الوصاية على البلاد كلها . وقد طرحت هذه الفكرة بسبب الاعتقاد المتنامي بان اليهود غير قادرين على هزيمة العرب ، وانهم لن يكونوا قادرين على حماية انفسهم كدولة حينما يغادر البريطانيون .

وكانت هناك القدس حيث كان اليهود يقاتلون بيأس . فقد كان لدى العرب الكثير من السلاح والمؤونة ، وكان لديهم الوفير من المياه ، بالاضافة الى السيطرة على محطات الكهرباء . وقد سيطروا على المدينة في الواقع . مع بداية شهر نيسان ١٩٤٨ كان عبد القادر ورجاله يسيطرون على الطريق العام الرئيسي الواصل بين تل أبيب والقدس . وقام البريطانيون بتفتيش الطريق ، واعتقدوا ان اليهود لن يكونوا قادرين على ايصال قوافل امداداتهم عبر الحصار الذي يفرضه العرب على الطريق ، وكان ذلك يعني بوضوح ان القدس أصبحت معزولة .

واذ أدركوا انهم سيخسرون الحرب اذا حوصرت القدس ، واصل اليهود الهجوم ، بعد ان تسلموا شحنتين كبيرتين من السلاح ـ عدة مئات من الاسلحة الرشاشة وآلاف البنادق ـ ارسلتا سراً لهم من تشيكوسلوفاكيا . ولم يعد هناك مجال لاضاعة المزيد من الوقت . ففي بداية شهر نيسان شنوا عملية Nachshon التي هدفت الى احتلال القرى العربية التي تستخدم كنقاط انطلاق لشن هجمات ضد قوافل الإمداد . وعلى الجانب الشرقي قام مقاتلو الهاغاناه بتفجير مقر القيادة في الرملة ـ مقر قيادة المفتي في المنطقة ـ فقتلوا عددا من رجاله المهمين . وبعد

مـرور يومين ، وفي الثـالث من نيـسـان ، نقل عـربي من قرية أبو غوش أخباراً مـفـادها انه تم إجـلاء النسـاء والاطفـال من منطقـة القـسطل ، وانه بقـيت هناك مجمـوعـة صـغيرة من المقاتلين فقط . وقد كانت القسطل ـ وهي قرية عربية تقع عند حـصن رومـاني قديم فوق التلال وتبعد خمسة أميال الى الغرب من القدس ـ ذات أهميـة وحـيـوية لانها تتـحكم في مدخل المدينة . وقد حاول اليهود الاستيلاء عليـهـا ذات مـرة ، غير أنهم أخفقوا في ذلك حينما زلت قدم قائد الهاغاناه المهاجمة بحجر ، فانطلقت النيران من سلاحه ، وشعر العرب بانه هناك هجوما ما ضدهم .

وسعيا منهم لاستغلال ضعفهم المؤقت ، صدرت التعليمات الى مقاتلي البالماخ ـ وهي قـوة يهودية كانت جزءاً من الجيش البريطاني ـ الذين كانوا في كريات انافيم بشن هجـوم على قـرية القسطل في الليلة ذاتها . وقد فاجأت قوات البالماخ مجموعة من المقـاتلين الفلسطينيين ، وأجبرتهم على الانسـحـاب من القـرية . لكن في صباح اليـوم التـالي بدأ العـرب بشن هجـوم مـعـاكس شديد ، استمر طوال اليوم وحتى الليل. كـان العرب واثقين من النصر وراقبوا ، مستمتعين ، اليهود وهم ينسحبون . في الصباح التالي ٥ / ٤ ومع الخـيوط الاولى لفجر ذلك اليوم ، قام مئير ـ أحد القادة اليهود ـ وبصحبة اثنين من رجاله ـ مستغلا توقف القتال ـ بتفتيش موقع القيادة في المنطقـة . كـان يرتدي مـعطفـا بريطانيا . وفجأة ، بدأ ثلاثة رجال بالمرور من خلف خطوط العـدو . كـانوا يرتدون خوذا ، ويلبسون الزي الكاكي ، ومسلحين . واذ اعـتـقـد انهم جـزء من تعـزيزات قـوات الهاغاناه ، نادى عليهم مئير بالعبرية والعربية قائلا : «تعالوا يا جماعة» فرد عليه أحد العرب بالانكليزية : «هالو تومي» مـعـتقدا ان مئير جندي بريطاني . واذ شعر أن هناك لبسا ما ، رفع مئير رشاشه من طراز سـتين ، وصـاح : «ارفـعوا أيديكم!» غير ان الرجال لم يستجيبوا لذلك ، وواصلوا تقـدمـهم ، فـبدأ مئير باطلاق النار عليهم ، وليسقط أحدهم على الفور في حين فـر الآخـران . وتوجه بعض من رجال مئير لسحب جثة الرجل العربي الذي قـتل . كـان مـصـابا بوجـهـه جراء واحدة من الرصاصات التي أطلقها مئير . اما قـسمات الوجه فقد كان بالكاد يمكن تمييزها . لكن الملفت للنظر ان هذا الرجل لم يكن مـقـاتلا عـاديا ، اذ كـان مـسلحـا بمـسـدس امريكي ، وببندقية بريطانية ، وبرشاش امريكي . وفي إحدى جيوبه ، عثر مئير على محفظة جلدية بداخلها بطاقة هويتـه . كـان الرجل هو عـبـد القـادر الحـسـيني ، ابن أخ المفـتي الأكبر والقائد

العسكري للفلسطينيين . لقد تباهى بأنه أوقف القوافل المتجهة الى القدس ، وانه سيطر على القسطل التي كانت بمثابة «السكين على عنق اليهود» .

أدرك مئير ان العرب سيأتون لأخذ جثة قائدهم ، ولذلك استدعى تعزيزات لاقامة خط دفاعي للسيطرة على القرية . غير أن أحداً لم يأت ، ولكن في اليوم والليلة التاليين جاء العرب جماعة تلو الاخرى لاستعادة القسطل . وقتل مئير خلال القتال . وأخيراً ، وفي التاسع من شهر نيسان استعيدت جثة عبد القادر . وبناء على أوامر قيادة الهاغاناه قامت قوات البالماخ بشن هجوم جديد على القسطل وفي هذه المرة ، لم تكن المقاومة شديدة ، فاعتقد اليهود ان هناك قتالا بين العرب حول خلافة عبد القادر ، وان جيوشهم تفرقت بغضب . وفي الحقيقة ، فانهم تركوا القسطل لحضور مراسم دفن بطلهم الكبير في المدينة القديمة من القدس . في اليوم نفسه ، دخل سبعون عضوا من اعضاء الجماعة اليهودية المتطرفة (عصابة شتيرن) قرية دير ياسين العربية التي تبعد بضعة أميال الى الجنوب الغربي من القدس ، وكان اليهود يعتقدون ان العرب يخفون هناك أسلحة ، وفدائيين ، ورجال المفتي . في هذا اليوم ، كانت غالبيتهم يحضرون دفن عبد القادر ، فقامت عصابة شتيرن باطلاق النار على أي شخص يجدونه في القرية ، وكانت نتيجة ذلك ٢٥٤ قتيلا معظمهم من النساء والاطفال . وأصبحت المجزرة هذه رمزاً للوحشية ، وقد دفعت المخاوف من امكانية تكرارها ٢٥٠,٠٠٠ عربي للهروب من منازلهم ، فكانوا بذلك أول اللاجئين الفلسطينيين .

وقد خُلد عبد القادر الحسيني في كتب التراث الفلسطيني لوقفته الشجاعة ضد اليهود ، ومنح لقب «شهيد فلسطين الأول» . لكن فيصلا يذكر حينما أدرك للمرة الأولى معنى موت والده ، اذ يقول : «كنت في البيت حينما أتى أخي الأكبر (موسى) الىّ ومعه الجريدة المصرية» وطلب اليه أخوه البالغ من العمر انذاك عشر سنوات أن «إقرأ العنوان» . وحينما فعل فيصل ما طلب أخوه منه سأله موسى : «هل تدرك ماذا يقول العنوان؟» وأجابه فيصل : «نعم أفهم ذلك ، انه عن معركة القسطل» فقال موسى : اذن ، اذهب وأخبر أخاك الأصغر ، فذهب فيصل البالغ من العمر ثماني سنوات لاخبار شقيقه الأصغر (رضا) بانه والدهم مات . ويتذكر فيصل ان والدتهم (وجيهة) لم تنتحب : «على الأقل ليس أمامنا ، ولذلك

فانـنا لم ننتـحب» . ولكن بعـد مـرور ثلاثة ايام تقـريبـا ، حـينما عـرض أحـد الاشـخـاص على فـيـصل قـصة مكتوبة في الصحيفة مفادها ان الحكومة المصرية قـررت رعـاية عـائلتـه ، وتدريسهم مجانا ، بدأ الصبي الصغير بالبكاء : «في تلك اللحظة ، أحـسست بأول شيء واقعي ، بأنني فقدت شيئا ، ليس لان والدي قتل في الحرب ، فهو شخص وطني ، أو بطل ، ولكن لانني فقدت أبي» .

في اليـوم ذاته الذي وصلتـهم فيه أخبار موت والدهم ، تحرك موسى البالغ من العـمـر عشر سنوات ليـحل مكانه على رأس الطاولة . ويسـتـذكـر فـيـصل : «بدأ التصرف وكأنه أصـبح هو المسؤول . فـعلى سبيل المثال . لم يسمح لأي شخص فـيما عـداه بالذهاب ودفع أجرة البيت . واذ فرض عليه دوره الجديد ، فان موسى توقف عن اللعب مع أشقائه «غير انه بهذه الطريقة حافظ على طفولتنا ، اذ أتاح لنا فرصة أن نعيش هذه المرحلة» .

في يوم ١٥/٥/١٩٤٨ حـينما انسـحب البريطانيون من فلسطين وأعلن اليهود قـيـام دولتـهم ، شنت القـوات العـربية من مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرقي الاردن هجـومـهـا ، ولم يطل أمـد الحرب . وخلال فترة الحرب غادر ٧٠٠,٠٠٠ فلسطيني بيوتهم ، اذ هرب بعضهم شمالاً باتجاه سوريا ولبنان ، وآخرون جنوبا باتجاه غزة ، وقسم آخر عبر نهر الاردن باتجاه شرقي الاردن . وبعد مرور عشرة شـهور ـ في شباط ١٩٤٩ ـ تـوصلت هيئة الامم الى اتفـاقـيـة هدنة بين اسرائيل والدول العـربيـة المجـاورة لها : مصر ، ولبنان ، والاردن ، وسوريا . وهكذا انتشر الفلسطينيـون وتشـتـتـوا في مختلف أنحاء المنطقة ، وأصبحوا شعبا بلا مأوى ولا وطن ، وكل مـا يريدونه هو العـودة الى فلسطين ، وبالتـالي فـانهم لن يسـمـحـوا لاخوانهم العرب ان ينسوا مأزقهم ، ولن يسمحوا لعدوهم بالعيش في سلام .

انتـقلت عـائلة الحـسيني من ضاحية شبرا الى ضاحية الزيتون ، غير ان منزل القـاهرة بقي يجتـذب الوطنيين المغـضـبين . كـان الحـاج أمين يأتي بشكل منتظم للعناية بعـائلة الحـسـيني ، وكـان يأتي معه الشاب عرفات ، الذي كان قد انتخب رئيـسـا للاتحـاد العام لطلبة فلسطين في جامعة القاهرة . كان ياسر قد عمل بتفان مع والد فـيـصل ، اذ شارك في تنظيم الشباب بعد ان ترك الجامعة ، وتدرب تحت قـيـادته في القـاهرة . كـان فـيـصل آنذاك يبلغ التاسعة من عمره ، لكنه يتذكر ان عرفات كان يأتي الى بيتهم ليدربه على كيفية التحدث الى الجماهير الفلسطينية التي

ستأتي من مسافات بعيدة لاحياء ذكرى والده المتوفي . لقد قرأ عليه فيصل حكاية شعرية كان والده قد كتبها ، ونظمت على شكل محادثة بين طفل وامه ، اذ يقول الطفل لامه حدثيني عن الارض ، هل حقا اغتصب الصهاينة ارضنا ؟ أعطني سيفي يا أماه ، وسأذهب واقاتل من أجل أرضنا .

وعلى مدار السنوات الست التالية ، والى أن بلغ الخامسة عشرة من عمره ، تنقل فيصل في أنحاء مصر ، ليقف أمام حشود الوجهاء المصريين ومئات اللاجئين الفلسطينيين ، ويقودهم مغنين كلمات والده . يقول هذه الايام ضاحكا : «حينما كنت أبلغ التاسعة من عمري ، كنت اكثر شجاعة مما كنت عليه في الثلاثين او الاربعين من العمر!» ومع مرور الزمن ، وحينما بلغ الخامسة عشرة من عمره كان فيصل يكتب الشعر ، مبتدئا باكتشاف هوية له بعيداً عن كونه ابن عبد القادر . يستذكر : «قررت أنني أصبحت كبيرا بما فيه الكفاية الآن ، ولا أريد الاكتفاء فقط بما كتبه والدي ... وبشكل معتاد ، وبعد هذه الحادثة في اليوم التالي في القاهرة ، كان أناس كثيرون يحضرون الى بيتنا ليقضوا الامسيات معنا بما فيهم ياسر عرفات والحاج أمين الحسيني» ويتابع : ان ياسر عرفات كان يعمل بشكل وثيق مع جماعة الاخوان المسلمين في القاهرة «على الرغم من انني لا أعتقد انه كان عضواً فيها» .

ويقول : كان عرفات متعاطفا على نحو خاص مع الحاج أمين الحسيني الذي حاول سنة ١٩٤٨ ـ وحينما أعلن اليهود استقلالهم ـ اقامة حكومة فلسطينية مستقلة في غزة ، والتي سميت (حكومة عموم فلسطين) وطالبت بفرض سيطرتها على فلسطين كلها . وقد ترأس الحاج أمين ستة وثمانين عضو برلمان ، غير ان هذا الوليد الجديد لم تعط له سلطة فعلية من قبل المصريين الذين كانوا يحكمون غزة .

ان فيصلا الحسيني معتاد على شجار العائلات والمنازعات بين العائلات المتناحرة في هذا الجزء من العالم . وهو ابن عائلة من مجموعة العائلات ـ الحسيني ، النشاشيبي ، الدجاني ، الخالدي ـ التي اطلق عليها اسم عائلات «الوجهاء» والتي كانت على مدار عدة قرون في مواقع الحكم والسيطرة في السلطتين : السياسية والدينية في القدس ، ثالث الحرمين الشريفين في الاسلام . وعلى امتداد فترة الحكم التركي العثماني ومن بعده البريطاني ، فان هذه العائلات

كانت ممزقة بين الحاجة الى التعاون مع مستعمريهم وبين معركتهم لتحقيق الاستقلال عن حكامهم العرب والاوروبيين على حد سواء .

لقد أنهى البريطانيون والعرب اربعمائة سنة من الحكم التركي لفلسطين لكن الخضوع البريطاني فيما بعد للضغط الصهيوني ـ الذي سمح بزيادة عدد اليهود المهاجرين الى فلسطين من ٤٠٧٥ مهاجرا سنة ١٩٣١ الى نحو ٦٢٠٠٠ مهاجر عام ١٩٣٥ ـ ادى الى قيام نزاع جديد اكثر عنفا ، واضعا العرب الفلسطينيين ضد البريطانيين واليهود . ففي عام ١٨٨٢ كان هناك ٢٥٠٠٠ يهودي يعيشون بين المسلمين والمسيحيين سكان فلسطين ، فكانوا يمثلون ٥٪ فقط من عدد السكان البالغ آنذاك ٥٠٠,٠٠٠ نسمة . وحينما وصل البريطانيون سنة ١٩١٧ كان اليهود ما يزالون يشكلون أقل من ٢٠٪ من عدد سكان فلسطين . ولكن مع حلول عام ١٩٣٦ ، كان الوجود الاسرائيلي قد أخذ بالازدياد بشكل ملحوظ ، اذ اصبح اليهود يشكلون نحو ثلث عدد السكان جميعهم الموجودين في فلسطين ، وكانوا يشكلون الاكثرية في القدس ، مع ٤٠٠,٠٠٠ يهودي يعيشون وسط مليون عربي.

خلال الفترة الواقعة بين ١٩٢١ ـ ١٩٣٧ كان الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ، ومؤسس الهيئة العربية العليا ، ورئيس المجلس الاسلامي الأعلى . وباعتباره الوطني الفلسطيني المعترف به الى حد كبير خلال حقبته (توفي في شهر تموز ١٩٧٤) فانه كان له أثره العميق على فيصل ليس فقط بسبب الموت المبكر لوالد الشاب ، ولكن أيضا بسبب الانخراط الطويل للحاج امين في النشاطات العسكرية ضد اليهود . وقد وصلت تلك الاعمال العسكرية الى مداها خلال ثورة الثلاث سنوات العربية ، والتي كانت عبارة عن سلسلة من اعمال العصيان والتمرد التي بدأت حينما تم اعلان الاضراب العام من قبل الهيئة العربية العليا في ١٩/ ٤/ ١٩٣٦ والذي تلته سلسلة من الحوادث مثل شن الهجمات والهجمات المضادة الى أن أشعلت الانتفاضة الفلسطينية في شهر كانون الاول ١٩٨٧ .

وباعتباره رئيسا للهيئة العربية العليا ، واستجابة للضغط الذي تعرض له من قبل اللجنة الوطنية العربية التي دعت الى اعلان الاضراب في نابلس ، اصدر الحاج امين تعليماته باعلان الاضراب العام . وكانت أهداف الاضراب الموجهة بشكل واضح ضد البريطانيين من أجل وقف الهجرة اليهودية ، ووقف نقل الأراضي الى

اليـهود ، ومن أجل أقامة حكومة وطنية مع وجود تمثيل برلماني . ويستذكر محي الدين الحـسـيني ابن المفتي : «كان كل فلسطيني يعرف انها ثورة ، كذلك فان كل طفل صـغير كـان يؤمن اننا كنا نحـارب الصهاينة والبريطانيين ، وان علينا الحاق الضرر بهم بأي وسـيلة نسـتطيعـها» . وعلى غرار مجموعات الشباب الآخرين في حي المغـاربة في القـدس ، كـان ياسر عرفات ـ البالغ من العمر آنذاك سبع سنوات فـقط ـ يضع المسـامير في الشـوارع لتـمـزق اطارات سيارات البريطانيين كما كان يقذف الحجارة .

اسـتـمـر الاضراب مدة ستة شهور لكن أثره استمر طويلا . ففي شهر تشرين الاول ١٩٣٦ طلب زعماء العـربية السعودية ، والعراق ، وشرقي الاردن ، واليمن ـ بناء على طلب بريطانيـا ـ من الحاج امين ورفاقه انهاء ثورتهم . وفي الصيف التالي استجاب البريطانيون لتوصية لجنة لتقصي الحقائق ترأسها اللورد بيل . فقد أيدت لجنة بيل تقسيم فلسطين الى ثلاث مناطق : دولة يهودية ، وأخرى عربية يمكن ان تتـحـد مع شرقي الاردن ، ومنطقـة منفـصلة تحت السـيطرة البريطانيـة ، وتضم القـدس وبيت لحم . وعلى الرغم من وجـود انقسام بين الصهاينة وغير الصهاينة في الوكـالة اليـهـودية ، فـان القـادة اليهود وافقوا في النهاية على الخطة شريطة ان يحصلوا على منطقـة كـبيرة على نحـو كاف . ومع ذلك ، رفض العرب فكرة أرض مقسمة ، وردوا على ذلك بتصعيد أعمال العنف .

هاجم العـرب المسـتـوطنات اليـهـودية ، وقطعـوا أسـلاك الهواتف ، وفـجروا الجـسـور ، وأخـرجـوا القطارات عن خطوطهـا ، وهاجموا مـراكز الشرطة . كذلك عـملت المقـاطعـة العـربيـة للمنتوجات الاسرائيلية على تردي دخول التجار اليهود بشكل ملحـوظ . وسرقت الاسلحـة من مـراكز الشرطة ، في حين تم شن المزيد من الهجمات من قبل الفدائيين الوطنيين ضد المباني المدنية والحكومية . وعمت الثورة، وحـظـيـت بـاعتراف واسع ، حـتى انها حـصلت على التأييـد المادي والمعنوي من سـوريـا ، ولبنان ، وشرقي الاردن ، والعـربيـة السـعـودية ، ومصر ، والعـراق ، واليـمن . ومن أجل الاعـلان عن اخـلاصـهم وولائهم لقـادة الثـورة ، الذين كانوا يرتدون الكوفـيـة على رؤوسـهم ، بدأ الفلسطينيـون كلهم بارتداء الكوفـيـة والتي أصـبـحت فـيما بعد السمة المميزة لياسر عرفات . وفي محاولة منهم لاحتواء أعمال العنف ، عـمل البريطانيـون على مـساعدة قوات الدفاع اليهودية من خلال التدريب

والتسليح ، وحل المجلس الاسلامي الأعلى ، وحظر الهيئة العربية العليا ، واعتقال وسجن عدد من قادة الاضراب ، بل وطرد بعضهم . وخوفا على حياته ، غادر الحاج أمين ورفاقه المقربون فلسطين ـ خلال الأيام الأولى من شهر ايلول ١٩٣٧ ـ الى لبنان أولاً ، ثم الى سوريا ، حيث واصل من هناك توجيه وادارة الثورة الفلسطينية ، وبعد ذلك ـ في عام ١٩٣٩ ـ توجه الى العراق . وهناك ـ بعد مرور سنة ـ ولد فيصل الحسيني .

ولكن حتى في العراق ، فان الحاج أمين وعبد القادر لم يستطيعا مقاومة النشاط السياسي ضد البريطانيين ، وسرعان ما اضطر كلاهما الى الهروب مرة ثانية ، فذهب الحاج أمين الى ايران حيث منحه رضا شاه حق اللجوء السياسي ، في حين ان عبد القادر لم يكن محظوظا ، اذ ان الايرانيين سمحوا له فقط بالدخول ، فرفض قبول اللجوء السياسي دون ان يكون له حق إحضار رجاله معه . وحينما رفض الايرانيون طلبه ، عاد مع رجاله الى بغداد حيث اعتقل وسجن . وفي عام ١٩٤٤ ـ حينما كان فيصل الحسيني يبلغ من العمر الرابعة من عمره ـ اطلق سراح والده ، وفرت العائلة ـ الزوجة والابناء الثلاثة ، وابنة ـ عبر الحدود الى المملكة العربية السعودية ، ويستذكر ذلك فيصل ، فيقول : «كانت تلك الفترة هي الفترة الوحيدة التي أذكر انني رأيت فيها والدنا كثيرا . انها الفترة التي كنا خلالها في العربية السعودية . وقد رفض النظام السعودي ـ الذي كان على رأسه آنذاك الملك ابن سعود ، والذي كان تواقا للبقاء على الحياد خلال الحرب العالمية الثانية ـ تأييد الثورة المناوئة للبريطانيين في العراق . ويستذكر فيصل ـ الذي كان قد بلغ آنذاك الخامسة من العمر ـ أن أيّاً من أخويه الكبيرين ـ هيفاء وموسى ـ ولا حتى شقيقه الاصغر رضا لم يُسمح لهم بالذهاب الى المدارس السعودية ، ولذلك فان والدهم عبد القادر «كان يعلمنا القراءة والكتابة والحساب في البيت» . وأخيرا ، وفي الاول من شهر كانون الثاني ١٩٤٦ ، منح الملك فاروق العائلة حرية الدخول الى مصر .

وهناك في القاهرة اجتمع شملهم مع المفتي . فبعد فترة قصيرة من الأقامة في ايران ، انتقل المفتي الى ايطاليا ، وليقيم صداقة مع بينيتو موسوليني . وقد وعد المفتي قوات المحور بامدادهم بالمقاتلين وغالبيتهم من المسلمين الذين يعيشون في يوغسلافيا ، للقيام بعمليات تخريبية عسكرية ذات طابع حيوي ، مثل قطع خطوط

اتصـــالات البريطانيين ، وقطع امــدادات النفط عنهم . وافق مــوسوليني على ذلك ، وفي عام ١٩٤١ ، اســتـجــاب لطلب المفــتي حين أعلن أنه «اذا كان اليهود يريدون [دولة] فان عليهم إقامة تل أبيب في امريكا» . ومع حلول شـهر نيسـان ١٩٤٢ كان المفــتي قــد تمكن من اقناع كل من هتلر ومــوسوليني بدعمه ، والموافقة على وثيقة سرية . فــفي رســالة موجهة الى الحاج أمين ، وموقعة من وزير الخارجية الألماني يواشــيم فــون ريبنتروب ، ومن وزير الخــارجية الايطالي الكونت غاليزو سيانو ، وعدت دول المحور الدول العربية «بكل مساعدة ممكنة في نضالهم من أجل الحرية ... بالاضـافة الى إلغاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين» .

وفي شـهر أيار ١٩٤٢ ، بعــد مرور أسابيع قليلة فقط على تسلمه المذكرة السرية أقــام المفــتي ومــســاعــدوه في ألمانيــا ، وأخذوا يعملون على مساعدة النازيين . وفي برنامج اذاعي تبـثه اذاعة برلين وموجه الى العالم العربي ، دعا الحاج أمين اخوانه المسلمين الى تقــديم المســاعــدة : «أيها العرب ، اثأروا لشـهدائكم . اثأروا لشرفكم . قــاتلوا من أجل استقلالكم . أعلن انا مفتي فلسطين هذه الحرب حربا مقدسة ضد نير الظلم والبذاءة والطغيان البريطاني» .

كــان الحــاج أمين مصمما أيضاً على إيقاف نقل اليهود الالمان الى فلسطين . فقد عــقــد النازيون ـ الذين كــانوا معنيين بحياة المواطنين الالمان المقيمين في فلسطين ـ صــفــقــة لمبــادلة مواطنيهم باليهود الالمان والاوروبيين الشرقيين . ولكن في رسـالة مــوجهة الى وزير الخــارجية الالماني ، طلب المفتي من الالمانيين عدم ارسال ٤٠٠٠ طفل يهودي و٥٠٠ شــاب يهــودي الى فــلسطين . كما أرسلت رســائل مماثلة الى رومانيا حيث كان هناك نحو ١٨٠٠ طفل يهودي و٢٠٠ شاب يهودي على وشك التوجه الى فلسطين ، وكذلك الى هنغاريا حيث كان هناك ٩٠٠ طفل يهودي و١٠٠ شاب يهودي على وشك تسفيرهم الى فلسطين .

مع حلول عام ١٩٤٥ ـ وحينما انتهت الحرب بهزيمة النازيين ـ كانت محـاولات ومــســاعي الحــاج أمين قــد آلت الى اخــفاق تام . غير انه تمكن من الفرار من تهم رســمــيــة وجــهت اليــه من الســوفــيــيت واليوغوسلاف ، بالاضافة الى محـاولات مجمــوعــات من اليــهــود لتــقديمه الى المحاكمة في نورمبرغ ، وتمكن من الهرب الى مصر مــتــخــفيا . وباقامته بالقرب من فلسطين ، وبعد اجتماعه مرة ثانية مع عبد

القـادر وعـائلته ، بدأ الحاج امين العمل من جديد لاقامة دولة فلسطينية مستقلة . وقد رأى الفلسطينيون ـ مثل الكثير من المصريين الذين كانوا يعيشون تحت الحكم البريطاني ـ الانكليـز على انهم قـوة اسـتـعمارية قمعية ، كما رأوا في النظام الملكي المصري الفـاسـد الموالي للبريطانيين ، الذي كـان على رأســه الملك فاروق ، انه يمثل صورة زائفة عن العالم العربي . غير ان طاقاتهم الآن اصبحت موجهة نحو الخطر الكبير المباشر ، وهو خطة تقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية .

ومن قـاعـدتهم في مصر ، بدأ اعـضـاء الهيئة العربية العليا حملة جديدة لتجريد البريطانيين من الانتـداب الذي عـهـد به اليـهم من قبل عصبة الامم . كان هدفهم المبـاشر والفوري بناء قوة عسكرية لمواجهة المجموعات اليهودية السرية التي كانت قـادرة على الحـصـول على الاسلحة لتحقيق هدفها لطرد البريطانيين من فلسطين . وقـام صـهـاينة امـثال دافيد بن غوريون بتأسيس منظمة الهاغاناه ، في حين قام اخـرون مثل مناحيم بيغن بالمساعدة على تشكيل منظمة اكثر تطرفا هي الارغون ، كما قـام البـعض الآخر امثال اسحق شامير بالبدء بتشكيل منظمة أخرى متطرفة هي ليـحي . وخـلال السنوات التي تلت الحـرب العـالمية الثانية ـ حينما وصل الى فلسطين وبصـورة غير مشروعـة عشرات الآلاف من المهاجرين اليهود ـ لجأ المفتي ورفـاقـه الى الضرب على الوتر الاسـلامي لطرد الصـهـاينة ، فلم يكتـفـوا بتجنيد الفلسطينيين المقـيـمين في القـاهرة فـقط ، ولكنهم أيضـا استثاروا تأييد الاصولية الدينية في مصر التي تنتمي الى جماعة الاخوان المسلمين السرية .

وأيد فـيـصل الحسيني حركة القومية العربية التي اعتنقها جمال عبد الناصر ، معتقدا انها افضل وسيلة لدفع القضية الفلسطينية الى الامام . فقد عارض الفلسفة الاسـلامـيـة المتطرفـة جـداً التي ينادي بها الاخـوان المسلمـون ، والذين كانوا قد أرسلوا فـرقـا عديدة من المتطوعين للقتال الى جانب العرب في فلسطين عام ١٩٤٨ واسـتـخدموا العنف والاغتيال السياسي ضد نظام الملك فاروق الموالي للبريطانيين . ولكن في عام ١٩٦١ وبعد أن انسحبت سوريا من الجمهورية العربية المتحدة ، فان فـيـصـلا ـ ويعترف بذلك ـ لم يعـد مـتـمسكا بنفس الاوهام عن استعداد الدول العربية لدعم القضية الفلسطينية : «بدأت أفكر بنفس طريقة عرفات لأنني اكتشفت فجأة ان عملنا كله نحو الوحدة العربية ـ التي اعتقدنا انها ستقودنا نحو فلسطين ـ قـد انهار . لقـد كنت أعـمل من أجل المصريين من خـلال بنية مصرية ، ومن أجل

الســوريين من خــلال بنيــة ســورية ، ولكن أين كنا نحن الفلسطينيين؟» . ويقول الحــســيني اليـوم ان عـرفـات كان محقا خلال سنوات الخمسين بتأييده للاخوان المسلمين : «لقـد فـهم عـرفات الحاج أمين . كان عرفات الجيل الجديد والحاج أمين الجيل القديم» .

وواصل فيصل التردد على القدس اذ كان يقضي أوقات الصيف فيها : «في بعض الاحــيـان برفـقة أمي وأحيانا وحيداً» وكان يتلهف للعودة ليتمكن من ادارة املاك العـائلة هناك . وأنهى المدرسة العليا سنة ١٩٥٨ ، وهي السنة نفـسـها التي قامت بها الوحـدة بين مصر وســوريا ، وكـذلك السنة نفـسـها التي بدأت تتشكل خلالها منظمــة جـديدة هي حـركة التحرير الفلسطيني (فتح) ويتذكر فيصل : «ذهبت الى العـراق ، الى جـامـعـة بغـداد ، لدراسة الجيولوجيا» . ومع هذا ، فان نيّته الفعلية كـانت للانخـراط في الاكـاديمية العسكرية العراقية ، وهي الكلية التي تخرج والده منهـا . لكن بعد مرور تسعة أشهر ، وحينما اندلعت الثورة هناك للاطاحة بالنظام الملكي في العـراق ، اضطر فـيـصل للعـودة الى القـاهرة لاستئناف محاولاته لاثارة الوعي بين الطلبة الفلسطينيين «فيما يتعلق بوطننا ، وبآمالنا ، وبتاريخنا» .

ولم يكن من الممكن بعد ذلك تجاهل مطالب اللاجئين . ونتيجة القلق من حقيقة ان الاســاليب [الارهابيــة] لمنظمــة فتح والجماعات الفدائية الاخرى سوف تقودهم الى حــرب غير مــرغـوب فيها مع اسرائيل ، فان الجامعة العربية قامت آنذاك بخلق جــهــاز جـديد كـانوا يأملون منه ان يعمل على توجيه طموحات الفلسطينيين نحو العــمل الســياسي لا العسكري . وقد دعي هذا الجهاز الجديد باسم منظمة التحرير الفلسطينية .

عـقد المؤتمر التأسيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية في مدينة القدس في شـهر ايار ١٩٦٤ ، وقـد دعـا مـيـثـاقـه الى تدمير الدولة اليهودية واقامة وجود فلسطيني . وأصرت كل من مصر ودول عـربية اخرى على استخدام كلمة (وجود) لانها كانت تتخوف من ان اقامة دولة فلسطينية مستقلة يمكن ان تهدد وجودها . وعلى الرغم من انه لم يحضر المؤتمر الاول ، الا ان فـيصلا الحسيني قام مباشرة بفتح مكاتب للمنظمة في فندق الأمبسادور ، ثم في مبنى الاونروا فيما بعد .

مع هذا ، وبعـد مـرور سنتين ، أصـيب فيصل بالاحباط بسبب اللهجة النارية

التي كـان يتـحدث بها احمد الشقيري رئيس م. ت. ف. آنذاك . فقد ألقى الشقيري خطبـا مـثيرة للعـواطف ، دعا فيها الى ابادة الدولة اليهودية ، في حين لم يكن يبدو عليـه ان باستطاعته فعل الكثير . وقرر فيصل استكمال تدريبه العسكري ، فتوجه الى سـوريا حـيث التـحق بكلية الضباط العسكرية ، وسرعان ما أصبح قائد سرية صـغيرة مـؤلفـة من ثلاثين جنديا . يقـول فـيـصل : «لقد كان ذلك رغبة والدي ، وطريقه» .

وحـينما اندلعت الحـرب العـربيـة الاسرائيلية عام ١٩٦٧ ، أرسل السـوريون فـيـصـلا الى لـبنان من أجل تجنيـد جنود لجـيش التـحـرير الفلسطيني ، الذراع العـسكري الرسـمي لمنظمـة التحرير الفلسطينية و ـ كما يعترف ـ «لمحاولة البدء بشيء مـا هناك» من المحـتـمل ان يكون فـتح جـبـهة أخرى ضد اسرائيل . وخول الشـقيري فيصلا استخدام مزرعته الموجودة قرب بيروت في جبال الدروز بالقرب من كيفون ، وذلك من أجل اقامة معسكر للتدريب هناك ، حيث قام فيصل بتجنيد وتدريب اكـثـر من الف ومـائتي رجل . غير ان الانتصار الذي حققته اسرائيل على الجـيـوش العربية خلال ستة أيام ، كان بمثابة ضربة لآمال العرب . ومرة ثانية ، اضطر فـيـصل الى ان يختـار بين حياة رئيس مجموعة من الفدائيين ، وبين المهمة العـاجلة للمـسـاعـدة على إيجاد قيادة فلسطينية محلية داخل المنطقة التي احتلتها اسرائيل من الاردن ، أي الضـفـة الغـربية : «اذا بقيت في الخارج ، فمن المحتمل أن أصل الى مـرتبـة عـاليـة في الجـيش السوري ، لكنني شعرت أنني افتقد القدس ، ولذلك قـررت العـودة» . وبعـد مـرور شهر على وصوله الى لبنان ، كان في طريق عودته الى وطنه .

وبواسطة جـواز سـفره الاردني ، فانه لم تكن لدى فيصل أي مشكلة في السفر الى الاردن ، ولكن لما كـانت القـدس كلهـا ـ بل وحـتى الجـزء العـربي من المدينة القـديمـة ـ قـد أصـبـحت الآن بأيدي الاسرائيليين ، فـانه لم تكن هناك الا وسيلة وحـيـدة للعـودة ، وهي التسلل الى الضفة الغربية بشكل غير قانوني . بدأ رحلته بالسـيـارة ، وحـينما وصل الى الضـفـة الشرقية لنهر الاردن ، نزل من السيارة ، ورفع بنطاله ، وحـاول الخـوض عبر الجزء الضحل من الممر المائي الضيق ، الذي كان عبارة عن جدول اكثر من كونه نهراً . سار مسافة مائة قدم ، ثم رفع رأسه ، وقد روعه جندي اسرائيلي وقف في طريقه : «قف» صاح به الجندي باللغة العبرية.

كـان ذلك الجندي اول اسرائيلي التقاه فيصل منذ أن بدأ تدريب الفدائيين : «حاولت أن أتحدث معه» لكن ذلك الجندي كانت لديه تعليمات ، ولذلك حينما واصل فيصل تقـدمـه ، بدأ الجندي باطلاق النار بين سـاقيه ، وقال له : «الطلقة التالية ستكون بين عـينيك» . تراجع فـيـصل منسـحبا ، وانتظر عدة ساعات ، وجرب حظه للمرة الثـانيـة في مـوقع آخـر على امتداد النهر ، غير انه فشل . وأخيراً ، وبعد محاولتين أخـريين ، تمكن من العـبـور الى الضـفـة الغـربيـة ، وبعد مرور خمسة أيام على مغادرته ، وصل الى القدس .

مع أواخـر أيام شـهـر تموز من عام ١٩٦٧ ، تمكن ياسر عـرفـات ايضـا من التـسلل الى الضفة الغربية . ويستذكر عمر الخطيب ـ ممثل منظمة فتح في عمان ـ ان عـرفـات في تلك الايام لم يكن مـعـروفـا جداً ، ولم يكن ايضا قد ارتدى بذلته زيتـونية اللون ، وكوفيته سوداء اللون ، وكذلك الامر بالنسبة الى مسدسه : «كان يرتدي كـوفية بيضاء وبنطالا عاديا وقميصا ، بل ولم يكن ملتحيا» . وعلى امتداد بضـعـة شـهـور ، طاف عـرفات خلسة أنحاء الضفة الغربية ، متنكراً أحيانا بزي راعي ، وأحـيانا أخرى بهيئة طبيب ، مستخدما اسماء مستعارة مثل (أبو محمود) و(الدكتور فوزي عرفات) وأحيانا بكل بساطة (الدكتور) . ويقول الخطيب ان عمل عـرفـات كان يتمثل في «اقامة وتنظيم البنية التحتية لمنظمة فتح . فقد نظم المهمات العـسكرية ، وكان ينتقل من بيت الى آخر ، يلتقي مع الناس ، ويخبرهم بما عليهم ان يفعلوا» .

وقـد كـان في إحـدى تلك المهمات ـ في شهر آب ١٩٦٧ ـ حـينما التقى عرفات بالطالب الذي دربه في القـاهرة . يقـول فـيـصل : «رآني ، كان في السيارة ورآني ، فـتـوقف وطلب الـيّ ان أركب مـعــه في سيارته . وسـألني عما أفعله هناك ، وقال [من أرسلك ؟] فـقلت [لم يرسلني أحـد . انني هنا لأنني أريد أن أكون هنا . هذه أرضي وأمـلاكي هنا ، وعـائلتي هنا]» . وأخذ عرفات الحسيني معه الى البيت الذي كـان الاول يختـبيء فـيـه في رام الله . وأخـذا يتـحـدثان عن الاحتلال الاسرائيلي . وتحـدث عـرفـات ـ الذي كان مقر قيادته في بناء مهجور في حي القصبة في مدينة نابلس ـ عن مـهمته المتمثلة في استئناف النضال الفدائي لانه وللمرة الأولى «يواجه الفلسطينيـون بانفـسـهم ومـباشرة الشعب اليهودي» . وتابع يقول لفيصل : «لقد أنهيت تدريبك العـسكري ، ولذلك يمكنك البدء بتدريب أبناء شعبنا هنا فوراً» . لم

تكن الفكرة هذه ما كان الحسيني البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً آنذاك يفكر فـيـهـا على وجـه الدقة ، وأشار الى ان مواهبه يمكن ان توظف بطريقة افضل من حـيث العـمل على تطوير اسـتراتيجية سياسية ضد الاحتلال . كان فيصل على ثقة بان ياسر عـرفـات كـان يفكر في قـرارة نفسه «هل كنت أتكلم بهذه الطريقة لانني كنت أؤمن بالنشـاط السـيـاسي ام لانني خـائف من النشـاط العسكري؟» . وبعد استجواب دقيق جدا ، توصل الرجلان الى حل وسط ، كانت خطوطه العريضة كما يقـول فـيـصل ، تتـمثل في : «انه اذا وجدنا ان هناك مشاكل في استخدام النشاط السـياسي ، فاننا سنقرر حينذاك البدء بالنشاط العسكري ... وحاولت اخباره انني لا أخاف من السلاح» .

حـينما سمع ذلك ، اقترح عرفات ان يقوم فيصل بتنفيذ مهمة يكلفه بها ، وهي مـهمة لاختبار شجاعته دون تعريضه لخطر حقيقي . فقد طلب عرفات من فيصل ان يخبىء بعض الاسلحة في بيته في وادي الجوز بالقرب من محطة اذاعة القدس . ووافـق فـيـصـل عـلى ذلـك : «أعـطاني رشـاشـين : الاول روسي الصنع من طراز كلاشنيكوف ، والثاني تشيكي من طراز ساموسار» . احضر الرشاشين الى المنزل، وببطء وحذر قام بتفكيكهما ، وخبأهما في مكان اعتقد انه لن يعثر أحد عليهما فيه، مؤملاً ان لا يضطر الى استخدامهما أبداً» .

مع منتـصف شـهر تشرين الاول عام ١٩٦٧ تصـاعدت وبشكل حاد ومتسارع نشاطات الفدائيين في الضفة الغربية . فقد نفذت منظمة فتح وحدها اكثر من ستين عـمليـة ضد أهداف اسرائيلية . وحاول فيصل الاتصال مع عرفات ، بهدف معرفة فـيما اذا كـان عرفات قد تخلى عن اتفاقهما السري أو انه بحاجة الى الاسلحة التي كـان يخبئهـا . وحـينما وصل الى الفـيلا التي قابل بها عرفات في مدينة رام الله ، اكـتـشف فـيـصل ان الجـيش الاسرائيلي موجود هناك ، وان زعيم منظمة فتح قد غـادر البلاد الى الاردن . ويستذكر فيصل : «بدأت أشعر انني تحت أنظار شخص مـا ... ان شـخـصا ما يراقبني» . وبعد مرور يومين ، وبينما كان يتمشى بالقرب من منزله في مدينة القدس ، قام رجال الشرطة بالقاء القبض عليه . وحينما فتشوا المنزل ، عـثـروا على الرشاشين المفككين . وتم احتجاز فيصل في سجن المسكوبية ، المجـمع الروسي القـديم بالقرب من الخط الاخضر الذي يفصل بين القدس الشرقية والغـربيـة . وبعـد ذلك طلب الاسرائيليـون من فيصل ان يأخذهم الى منزل رام الله

الذي كـان عـرفـات مختـبئا فـيـه . ولن ينسى أبداً تلك الرحلة في سـيارة الجيب الاسرائيلية .

واذ كانت يداه مقيدتين الى ظهره ـ يقول سليل عائلة الحسيني المعروفة ـ أحس بمـذاق العدالة . لقد ضرب على معدته ، ثم على صدره ، فعلى معدته مرة ثانية ، ثم صـفـعـوه المرة تلو الأخرى . ويستذكر : «حاولت الفرار ... كنت مصفد اليدين الى جنديين ، وقـفـزت من سيارة الجيب ، آخذاً الجنديين معي ، بل وحاولت أن أضع سـاقي على العـجـلات . لقـد كـانت عملية انتحار اكثر من كونها عملية هروب» . وخـلال اليومين الاولين في سجنه ، حاول الاسرائيليون إجبار فيصل على الاعتراف باسماء الفـدائيين الآخـرين من منظمـة فـتح ، وبانه كـان قـائد المجـموعة : «لقد ضربوني حتى أنني أصبحت أعرج» . وفجأة توقف ذلك كله «فقد أتى الـيّ ضابط وأخبرني ان الحكومـة قـررت انه يمنع على أي شـخص التـعـرض لي بالضرب أو التـهجم علـيّ ، وان من الواجب علـيّ التشكي اذا ما اجترأ أحد على القيام بذلك» . فـفي الصـبـاح المبكر من ثالث أيام السـجن ، اكـتشفت الحكومة الاسرائيلية هوية السجين الجديد .

كـان ذلك حـدثاً كـبيراً ، فـالرأي العام لم تكن لديه أي فكرة ان ابن ذلك البطل الفدائي المشهور كان يعيش بينهم . وظهرت عناوين الصحف الاسرائيلية صارخة: «السـجن لابن عـبـد القـادر الحـسـيني» و «الشرطة الاسرائيليـة تلقي القبض على كـولونيل» . وأشـارت قـصص تلك الصـحف الى انه القي القـبض عليـه مـتلبسا بالجـريمـة في مقر قيادته ، وانه كان يحتل إحدى الرتب في الجيش السوري ، وان العـديد من جنرالاته الفـدائيين ألقي القـبض عليـهم أيضـا ، وان كمية ضخمة من الاسلحة تمت مصادرتها . ويستذكر فيصل الحسيني بدهشة : «أصبحت كولونيلا ... الكولونيل فـيـصل الحـسـيني ، الذراع اليـمنى لاحمد الشقيري ، القائد الجديد لمنظمـة فتح في المنطقة ... في الواقع كنت ضابطا ، ولكنني كنت أنهي لتوي دراستي وكـانت رتبـتي بنجـمة واحدة فقط ، وهي أدنى رتبة عسكرية في الجيش السوري ولم أكن الذراع اليـمنى للشـقيري . كذلك ، فانني لم أكن قائد فتح في المنطقة ، ولم تـكن هناك خليـة . كنت اعـمل لوحـدي ، وكل مـا وجـدوه لدي هو الرشـاشـان القديمان ، وكانا مفككين» .

وحكم عليه بالسجن لمدة ستة شهور في ١٧/٣/١٩٦٨ وفيما بعد الى سنة سجن ووضع مدة سنتين تحت المراقبة بسبب «حيازة أسلحة وذخائر بصورة غير مشروعة» . وقد استغل محاميه شموئيل تامير ـ الذي أصبح فيما بعد وزيراً للعدل الاسرائيلي ـ عناوين الصحف من أجل اقناع المحكمة العسكرية الاسرائيلية ان فيصلا اعتقل ليس من أجل ما قام به ، وانما كانتقام من والده . وأخبر فيصل المحكمة انه احتفظ بالاسلحة في منزله في وادي الجوز حتى لا يفقد الاتصال مع أعضاء منظمة فتح الآخرين . وأدلى ببيان قال فيه ان السبل الوحيدة لتحقيق السلام هي اللاعنف . وقال المدعي العام انه على ضوء نسب فيصل ، والتزامه الظاهري بالمساعي السياسية ذات الطابع السلمي ، فانه يسقط التهمة الأخرى المتعلقة «بالعضوية في منظمة غير مشروعة» . وأشار الى ان مثل ذلك البيان الذي «يأتي من عضو عائلة عربية محترمة يجب ان ينظر اليه بعين الاعتبار ويجب ان يتم تشجيعه» .

وفعلا ، ما كاد يمر اسبوع على بدء تنفيذه للمدة المحكوم بها ، حتى قال فيصل لأمنون روبنشتاين ، مراسل صحيفة هارتس ، عن نيته ورغبته في الاعتراف بوجود حق للشعب اليهودي في اقامة وطنه في فلسطين شريطة اعتراف اليهود بوجود حق مماثل للفلسطينيين . كان ذلك بيانا غير عادي ، مع الأخذ بعين الاعتبار انه بعد أقل من أربعة شهور ، في تموز ١٩٦٨ ، سيقر المجلس الوطني الفلسطيني ميثاقه الحالي المعروف . فقد أعلن الميثاق ان خطة تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ واقامة دولة اسرائيل هي أمور «غير مشروعة كلية» ونادى بالقضاء على الصهيونية ، والتي وصفها بانها «عنصرية ومتعصبة بطبيعتها ، وعدوانية وتوسعية واستعمارية بأهدافها ، وفاشية بأساليبها» . ومن أجل تحقيق ذلك الهدف ، فان الميثاق دعا الفلسطينيين «لاستخدام كل الوسائل المتاحة» بما فيها «الكفاح المسلح»

في ٢٢/٣/١٩٦٨ ، وفي مقابلة أجريت معه ، طرح فيصل وجهة نظر تتناقض والمادة السادسة من الميثاق الوطني الفلسطيني التي تقول بان اليهود الذين كانوا مستوطنين بشكل طبيعي في فلسطين حتى بداية الغزو الصهيوني لهم الحق في البقاء ويعتبرون فلسطينيين ، اذ صرح فيصل الحسيني قائلا : «انه لمن السخف ان نفصل وان نميز بين اليهود الذين ولدوا هنا وبين اولئك الذين قدموا من الخارج .

اليهود مستقرون هنا بشكل طبيعي . لقد ولدوا هنا ، بل انهم يتصورون هذا البلد على انه وطنهم الطبيعي» .

وفيما يلي مقتطفات أخرى من هذه المقابلة التي أجريت قبل مرور أقل من سنة على الهزيمة العربية سنة ١٩٦٧ وتوحيد القدس .

س : ماذا كان رد فعلك حين شاهدت القدس ؟

ج : لقد شعرت بالغضب حين رأيت مدينتي القدس تحت حكم أجنبي ، الحكم الاسرائيلي . لقد أُخذ منها جزء كبير وهام في الماضي والآن أُخذ كل شيء ، بل وسميت اسما آخر (اورشليم) . ايضا فانهم يغيرون الاسماء العربية التي تسمى بها الشوارع . انهم يفرضون حكما أجنبيا علينا . انهم يفرضون نظام حياة أجنبي علينا .

س : من سيمثلكم ؟

ج : لا يمكننا السماح لمجموعة من الوجهاء ان يمثلونا حتى ولو انهم يريدون الأفضل لفلسطين . وحتى لو كانوا مجموعة جيدة ، فانهم سوف يخفقون في مهمتهم ، وستخلق سابقة خطيرة ، وعند ذاك ستظهر مجموعة من الانتهازيين والانهزاميين لتتكلم باسمنا . وهذا هو السبب الذي يوجب علينا منع تشكيل مثل هذه المجموعة .

س : لو التقينا منذ سنة ، هل كنت ستقول الاشياء نفسها التي تقولها اليوم ؟

ج : لا ، نحن نتغير في كل وقت ، والاوقات تتغير . في عام ١٩٤٨ كانت الحرب حرب شعب في بلدهم ضد مهاجرين أجانب ، ضد الصهاينة . لقد أتوا الى هنا وهم يعلمون اننا هنا . واليوم ، وبعد عشرين سنة ، تغير الوضع ، فاليهود مستقرون هنا بشكل طبيعي . لقد ولدوا هنا ، بل انهم يتصورون ان هذا البلد على انه وطنهم الطبيعي . انهم ليسوا صهاينة أتوا الى هنا ضد شعب آخر . اليوم لا نخوض حربا لتنتهي «بالقاء اليهود في البحر» . وانه لمن السخف ان نفصل وان نميز بين اليهود الذين ولدوا هنا وبين اولئك الذين قدموا من الخارج الى هنا . وكما ترى ، فانني اتخلى عن وطنيتي المسلحة ، واتوقع ايماءة مماثلة منك . فنحن كلانا لنا حقوق في هذه الارض . لقد فرض التاريخ حربا بيننا ، لكن الواقع يفرض علينا تعايشا سلميا .

في الواقع ، وحتى في سنة ١٩٦٨ ، وقد مر ربع قرن ، فان فيصلا الحسيني كان يعتزم ويعمل على تشكيل جهازه السياسي داخل المناطق لتمثيل الفلسطينيين هناك ، ليكون وجودا يمكن ان يكون مواليا لفتح ولكن يمكن له بحكم طبيعته الضمنية ان يعترض على مطالبة م. ت. ف. بالتحدث باسم الفلسطينيين . وقال فيصل لروبنشتاين «نحن ، عرب غزة والناصرة والمناطق جميعها الخاضعة للحكم الاسرائيلي ، ينقصنا التنظيم الذي يقودنا ويساعدنا على تجنب القبول بالهزيمة ، وقبول الامر الواقع الناجم عنها . ان هذا التنظيم يجب ان يقنع اليهود ان اعطاء الفلسطينيين حقوقهم لا يعني صداما مع اليهود . ان اقامة مثل هذا التنظيم سوف تخلق الفرصة لحل النزاع من خلال طرق سلمية . من المهم ان يكون لنا تنظيم خاص بنا» . وعلى الرغم من انه قضى عدة شهور في السجن بانتظار محاكمته ، الا ان سراحه لم يطلق الا بعد مرور سنة على اعتقاله ، فهو ما يزال يذكر التاريخ: ٢٤/١٠/١٩٦٨ .

وعلى امتداد السنوات الثماني التالية ، ابتكر الاسرائيليون طريقة أخرى للابقاء على فيصل الحسيني تحت المراقبة ، بحيث تكون أقل عقوبة من زنزانة السجن ، ولكن اكثر فاعلية . فقد رفضوا اصدار بطاقة هوية له . فمن ناحية ، هو إنسان مسجل في احصاءات السكان ، وبامكانه الحصول على لوحة سيارة اسرائيلية صفراء اللون يسمح له بموجبها بالتنقل عبر نقاط التفتيش العسكرية وبحد أدنى من المضايقة ، ومن ناحية ثانية ، باستطاعته التصويت في الانتخابات البلدية ، والحصول على الضمان الاجتماعي ، وتنظيم المؤتمرات ، والقيام بالنشاطات السياسية دون الحصول على تصريح من الحكم العسكري . وبموجب القانون الاسرائيلي الذي يطبق على مدينة القدس ، فانه سيكون بالنسبة للامور القضائية كلها تقريبا مواطنا اسرائيليا ، اذ لا يمكن إبعاده ، ولا يمكن هدم منزله ، ويمكنه ـ اذ أراد ـ أن يصبح مواطنا في الدولة اليهودية . وبدون بطاقة هوية ، أدرك فيصل ان ليس بامكانه مغادرة البلاد ، بل ولا يمكنه حتى السير بحرية في الشوارع متخوفا من حقيقة انه اذا اوقف في الشارع ، وطلب اليه ابراز هوية ، فانه سوف يعتقل ويرسل الى سجن المسكوبية مرة أخرى ، وهناك سيشرح لهم من هو ، ولماذا ليست لديه بطاقة هوية ، واخيراً «سيقول المسؤولون له : أجل ، نحن نعرف عنك ، لا بأس ، اذهب الى البيت» . ولم يكن ذلك بالأمر السهل :

«حيثما كنت أرى جنديا أو رجل شرطة أو نقطة تفتيش ، كنت أبدأ بحساب حساباتي والتفكير : [هل سيوقفوني أم لا ؟ هل سيفهمون قصتي أم لا ؟ هل سيعتقلوني أم لا ؟]» . لقد اعتقل ست مرات على الأقل ، وعلى الرغم من ذلك فقد عومل بطريقة أفضل من الطريقة التي عوملت بها غالبية السجناء الآخرين ، اذ كان يجبر في كثير من المرات على قضاء الليل تحت الاستجواب في مركز الشرطة .

كانت سنوات السبعينات سنوات قاسية بالنسبة الى فيصل ، فهو لم يكمل دراسته الجامعية ، ولا يحمل بطاقة هوية ، وبالتالي كان من المستحيل تقريبا ان يجد عملا . بالطبع ، فان عائلته تكسب دخلا مربحا من عوائد ما يمتلكونه من أراض وأطيان ، ومن الايجارات التي تحصل عليها ، لكن فيصلا لم يكن يريد الاعتماد على عائلته . عمل في البداية في تجارة بيع المربيات المصنوعة في البيت ، ثم حاول فتح وكالة لبيع الجرارات للمزارعين الفلسطينيين في غزة . ولكنه كان بحاجة الى زيادة رأس المال غير انه لم يستطع ذلك . ومع حلول عام ١٩٧٣ ، وكما يؤكد «فقد انكسرت» وكان عليه اللجوء الى عائلته . وعلى امتداد السنوات الخمس التالية عمل بوظيفة فني أشعة في عيادة في القدس يمتلكها أحد أقاربه . أما ابنه ـ الذي أسماه عبد القادر ـ فقد ولد عام ١٩٧٦ . ومنذ ذلك الحين ، وفيصل يحمل لقب (أبو العبد) . بعد مرور سنة ، أي في عام ١٩٧٧ ، حصل في النهاية على بطاقة الهوية مع الموافقة الرسمية للسلطات الاسرائيلية مدموغة على صورته . ان هذه الصورة ـ كما يعتقد ـ كانت المذكّر المناسب بالاحتلال . ولكن ـ في عيون الاسرائيليين الرسميين على الاقل ـ فانه في النهاية أصبح موجوداً ، وأصبح باستطاعته ان يبدأ حياة جديدة .

ورغم انه اصبح (مواطنا) مقدسيا بشكل كامل ، فان ذلك لم يخفف من ألم الاحتلال . فحينما توفيت والدته عام ١٩٨٤ ، طلب فيصل من رافي ليفي حاكم منطقة القدس التابع لوزارة الداخلية الاسرائيلية منحه تصريح لاحضار جثمان والدته من لندن من أجل دفنها ، ووعده ليفي بتحقيق ذلك . «لكن بعد مرور بضع ساعات ، اتصل ليفي معي وقال : [ان والدتك كانت زوجة عبد القادر الحسيني ، وان أمن الدولة يمنع دفنها هنا] . فقلت له : [اذا كان جثمان امرأة ميتة يهدد أمن اسرائيل فأخبرني ما الذي يتطلبه امنكم من العالم العربي ؟]» .

وعلى الرغم من مـرارة فـيـصل ، بدأ بعض القادة الاسرائيليين ينظرون اليه على انه ند ليـاسر عـرفـات ، وخـاصــة بعـد انهيار المحادثات الاسرائيلية المصرية عام ١٩٨٢ المتـعلقـة بالحكم الذاتي الفلسطيني . فـقد بدا ان عملية السلام وصلت الى طريق مسدود ، وشكلت حكومة ائتلاف وطني جديدة في اسرائيل عام ١٩٨٤ حيث نصبت شمعون بيريز كرئيس للوزراء للسنتين الاولين ، ومنافسه في حزب الليكود اسحق شامير للاربعة والعشرين شهرا الاخيرة من عمر هذه الحكومة .

كان فيصل الحسيني قد أصبح مستاء من إخفاق منظمة التحرير الفلسطينية في القـيـام بشيء مـا . فـفي مقابلة أجراها معه المراسل الاسرائيلي ايهود ياعاري ، عبر زعـيم الضـفـة الغـربية فيصل الحسيني عن بعض من احباطاته تجاه م. ت. ف. قـائلاً : «حـتى وقت قـريب ، كان الفلسطينيون يقولون لانفسـهم هناك م. ت. ف. وهناك عـرفـات ... هناك أولئك الذين يقـررون ما يجب عمله وكيفية القيام بذلك . لكن في السنة الأخيرة ، يشـعر الناس ان كل شيء انتهى : م. ت. ف. ليست هناك ، والدولة الفلسطينيـة شطبت من جـدول الاعمال . وفـجأة ادرك الناس ان وضعنا سـيـصــبح اكـثر سوءا وان كل أحلامهم قد تلاشت . ان الناس يسمعون ويرون البـغض ينهمر عليهم من شاشات التلفزيون ، الامر الذي يجعلهم يثبون» ثم ـ وفي اشـارة غير مـباشرة الى شمعون بيريز ، الذي تعهد حزبه (حزب العمل) على الاقل بتـحـقـيق تسوية لقضية المناطق ـ يحذر فيصل : «ان هذا يمكن ان يحدث حينما تُعـامَل بطريقة كريمة وباسلوب ليبرالي . ان لويس السادس عشر كان بالنسبة الى شعبه أفضل من سلفه ، لكنه كان الرجل الذي ذهب الى المقصلة» .

لقـد كانت كلمات فيصل نبوئية ، ففي مؤتمر القمة العربية الذي انعقد في عمان في ربيع عام ١٩٨٧ ، لم يُشَـرْ الى القـضـيـة الفلسطينية الا بالكاد . وحينما التقى الـرئيـس الامـريكي آنذاك رونالد ريغـان مع الزعـيم السـوفـيـيـتي مـيـخـائيل غورباتشوف في حزيران ، فان قضية الشرق لم تحصل الا على اعتراف بسيط جدا وهكذا ، فـان الاحداث تعاونت مع بعضها لتجعل فيصلا جذابا بالنسبة الى ائتلاف الليكود ، في الوقت نفسه الذي أصبح فيه الليكود جذابا كشريك محتمل بالنسبة الى فـيـصل . لقـد أدرك فـيـصل ان لائتلاف الاحزاب اليمينية بزعامة الليكود ، ادعاء توراتيـا بارض اسرائيل . لكن فـيـصلا رأى ان معلّـم شامير ـ ميناحيم بيغن ـ قد تخلى عن كل من المطارات الاستـراتيـجـيـة والمسـتوطنات المدنية خلال عملية اعادة

سيناء الى مصر ... لقد رأى كيف ان بيغن وبمهارة كسب تأييد حتى العناصر المتشددة من جماهيره الانتخابية من أجل التضحية بالمنطقة واجبار المستوطنين اليهود على التخلي عن مستوطناتهم ... لقد رأى بيغن وهو يوقع اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ويقيم السلام مع مصر .

لذلك ، حينما تلقى فيصل اتصالا هاتفا يدعوه الى الانضمام الى محاولة جديدة للتفاوض على السلام مع الليكود ، رحب بالدعوة بحذر . لقد كانت تلك المكالمة ـ التي تلقاها في شهر تموز من عام ١٩٨٧ ـ من سري نسيبة ، وهو محلل سياسي فلسطيني ، ومدرس في جامعة بير زيت ، وأتت قبل مرور أربع وعشرين ساعة على اطلاق سراح فيصل من مدة توقيف اداري آخر . وحينما أعلم نسيبة فيصلا أنه عقد محادثات تمهيدية مع موشي عميراف عضو اللجنة المركزية لليكود ، رحب فيصل بالدعوة فوراً ، اذ اعتقد ان من المحتمل ان يكون الليكود متملقا في فتح قنواته الخاصة مع م. ت. ف. ولم يتخيل ان يقوم عميراف باجراء هذا الاتصال دون علم شامير . وبغض النظر عن النتيجة ، فان منظور محادثات السلام مع الليكود بدا الاكثر تفضيلا .

حينما وصل عميراف بعد بضعة أيام الى منزل نسيبة في اول زيارة من سلسلة الاجتماعات التي ستعقد في فصل الصيف ذاك ، تصافحوا بالايدي ، كما يستذكر فيصل وأُخذوا الى شرفة خارجية كبيرة مظللة ، حيث قدم ثلاثتهم الى شخصين آخرين : عربي واسرائيلي ، واللذين كانا قد ساعدا على ترتيب اللقاء . كانا : دافيد ايش شالوم (نشيط من نشطاء السلام) وصلاح زهيقة رئيس تحرير صحيفة الشعب الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية . ويستذكر فيصل الحسيني ، فيقول : «صافحت الموجودين كلهم وقال (عميراف) : [فيصل الحسيني ؟] فقلت : [نعم] فقال [موشي عميراف] . وبدأنا التحدث بالعبرية ، لكن الآخرين لم يكونوا يعرفون العبرية ، فبدأنا نتحدث بالانكليزية» . كان الاجتماع الاول حواراً عن الاساسيات . وفي اجتماعهم التالي ، قدم لهم عميراف نسخة من وثيقة مقترحة حول توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة ، وهي صيغة تجنبت القضية المتفجرة المتعلقة باقامة الدولة ، ولكنها ـ كما قال الاسرائيلي ـ ستضع الفلسطينيين على طريق تقرير المصير . كانت الخطة تتضمن فترة ثلاث سنوات من الحكم الذاتي ، أهمها على نحو بارز : اقامة «وجود» فلسطيني مجرد من الصفة

العسكرية تكون له عاصمة «ادارية» في القدس الشرقية والعديد من زخارف الامة : علم ، نشيد ، عملة خاصة ، محطة اذاعة ، وبطاقة هوية خاصة . وفي نهاية المدة المؤقتة ، تبدأ محادثات اسرائيلية ـ فلسطينية حول «الوضع النهائي» للمناطق ، كما ورد في اتفاقيات كامب ديفيد .

وأوضح عميراف ان محادثاتهم تهدف الى خلق أساس لاجتماع نهائي بين شامير وعرفات ، وان المذكرة التي سيقومون بوضعها سترتكز على المبادىء التالية :

* لا يمكن ان يكون هناك سلام بدون الليكود و م. ت. ف.
* يتقاتل الفلسطينيون والاسرائيليون منذ عشرات السنين ، وهناك قضيتان غير قابلتين للنقاش : ان من حق اسرائيل العيش داخل حدود آمنة يمكن الدفاع عنها ضمن الدولة التي أقامتها سنة ١٩٤٨ ، وانه لا يمكن الطلب الى الفلسطينيين التنازل عن حقوقهم في بعض المناطق التي سكنوها سنة ١٩٤٨ .
* ان أي حل لا يعترف بحق اسرائيل في الوجود ، أو بحق الشعب الفلسطيني في ممارسة حق تقرير المصير في النهاية ، هو حل لا قيمة له .

وخلال الاسابيع التالية ، اتفق الجانبان على انه ـ خلال فترة السنوات الثلاث المؤقتة ـ يجب اتخاذ اجراءات عملية للحد من التوتر : انسحاب الجنود الاسرائيليين من المدن والقرى المأهولة الى مناطق أمنية معينة ، امتناع الفلسطينيين عن القيام بأعمال العنف شريطة موافقة اسرائيل على التوقف عن بناء مستوطنات جديدة وحث المستوطنين على الامتناع عن مهاجمة الفلسطينيين ، وأخيرا بدء محادثات سلام بين اسرائيل وم. ت. ف. بعد تبادل الطرفين ضمانات الاعتراف المتبادل مباشرة . وقد كانت الخطوة الاخيرة هي العصيبة . يقول فيصل : «لقد أخبرناهم انه [لا للأردن] وقلنا انكم اذا كنتم فعلا تريدون صنع السلام فليس هناك مجال لذلك مع الاردن» . وفي حين سارت المحادثات ببطء في شهرها الثاني بدأت تتجمع لديه الشكوك فيما اذا كانوا فعلاً قد حصلوا على دعم شامير . يقول فيصل : «لقد أخْبَرَنا عميراف ان هذه القصاصة من الورق قد شاهدها رئيس الوزراء شامير ، لان شامير كان زعيم تيار جديد موثوق داخل الليكود ، وانه كان يريد انهاء حياته السياسية بشيء درامي يقوم به . فمثلما صنع بيغن السلام مع المصريين ، اراد شامير ـ كما قال عميراف ـ ان يصنع السلام مع الفلسطينيين» .

الى أي مـدى شـجع شامير عميراف ، فان ذلك ما يزال سراً . كان عميراف يقدم وبشكل منتظم الى عضوي الكنيست ايهود اولمرت ودان ميريدور اللذين كانا تحت حماية شـامير ورعـايتـه ، تقـارير عن اتصالاته مع الفلسطينيين . ومن المفترض انهما كـانا يطلعـان رئيس الوزراء على ذلك . ايضـا ، فان أولمرت التقى مع نسيبة لسـاعـات عـديدة ، لكنه نفى مـؤخراً ان يكونا قد بحثا خطة السلام السرية . وفي الوقت ذاته ، فـان المحـادثات نفـسها كانت تسير متعثرة . فعميراف لم يوافق على إدخال «زخارف الدولة» خلال السنوات الثلاث الاولى التي ستحكم خلالها سلطات الحكم الذاتي الفلسطيني المناطق . يقـول فيصل : «قال لي عميراف : بوجود العملة ، والعلم ومكاتب للاقـتـصـاد والخـارجـيـة في الخـارج ، فـان الناس كلهم سوف يدركون ان هذه ان هي الا دولة» .

ومع حلول يوم ٨/٢٤ كـان الجـانبان قد اقتربا من استكمال المذكرة . واقترح فيصل اطلاع عرفات على القضايا المتبقية غير المتفق عليها ، والذي كان سيصل الى جنيف في مطلع شهر ايلول لحضور مؤتمر الامم المتحدة . ومع ذلك ، فان عميراف اقترح على فـيـصل الحصول على إذن من عرفات لقيام وفد من القادة الفلسطينيين المحليين بلقـاء شامير أولا . يقول فيصل : «بدأوا يسألون فيما اذا كان بامكاني ان اعطيـهم أسماء أعـضـاء الوفد ... وأخبرتهم انه قبل قيامي بمثل هذا الشيء ، فانه يجب علي الحـصـول على مـبـاركـة م. ت. ف. وليس فـقط اخذ الضوء الأخضر . وأخبرتهم ، انني آمل منك يا موشي عميراف ـ مثلي ـ ان تكون واثقا من ان قيادتك قـوية بما يكفي ، ولديها الشجاعة الكافية للالتقاء معي ومع عرفات للتصديق على هذا الاتفاق» . ولم يعقد اي اجتماع آخر أبدا .

في ١٩٨٧/٨/٢٦ سجن فيصل الحسيني . وفي حين كانت يداه مقيدتان خلفه ، خاطب رجل الشرطة الاسرائيلي الذي أتى لاعتقاله : «انك تخرب مبادرة سياسية لا تـعـلم شـيئا عنهـا» . وفي الواقع ، فـان رجل (الشين بيت/مكتب التـحـقـيـقـات الاسرائيلي) قـد تدارس مع شـامير قـبل إصدار الامر باعتقاله ولم يتسلم تعليمات للتوقف أو الكف عن ذلك . كانت التعليمات المبدئية هي احتجاز الحسيني لمدة عشرة ايام ، وهي مدة تكفي لتفويت فرصة لقاء جنيف المخطط له . كذلك ، فان عميراف ألغى رحلتـه الى هناك ، تاركا دافيد ايش شالوم كاسرائيلي وحيد للقاء عرفات . وما يزال فـيـصل الحسيني مقتنعاً حتى هذا اليوم ، انه حتى وإن كان شامير على غير

علم بالتفاصيل كلها ، الا انه كان يعرف عن المبادرة ، واستغلها بشكل ساخر بحيث يتمكن من اتقاء خطر ضغوطات حزب العمل الداخلية من أجل مؤتمر دولي ، والضغوطات الخارجية للتحاور مباشرة مع م. ت. ف.

في الواقع ، وحينما سافر الى بوخارست بعد بضعة أيام من اعتقال فيصل ، قدم شامير وثيقة عميراف المعنونة بـ «اطار للسلام في اسرائيل الكبرى» الى الرئيس الروماني نيكولاي تشاوشيسكو . وقال له شامير : «لا تدفعونا لاقامة علاقات مع م. ت. ف. ... كما ترون ، لنا علاقات مع فلسطيني [الضفة الغربية]» . ورد عليه تشاوشيسكو بانه كان قد اطلع على المذكرة . ويقول فيصل : «لقد أخبره ان عرفات كان هنا قبل بضعة أيام وانه اطلعه على الورقة نفسها» . وكان عرفات قد حصل على نسخة من الوثيقة خلال زيارة رسمية كان يقوم بها الى الهند : «وكانت تلك هي النهاية ، فهو لم يكن يحلم ان عرفات كان متورطا في الموضوع . وبعد ذلك مباشرة تم اعتقالي» . وفيما بعد ، انكر شامير ان تكون له أي مشاركة أو معرفة بالقضية كلها . وقال البيان الصادر عنه : «ايها السادة ، ان الحسيني ونسيبة ، المعروفين بانهما رجلا م. ت. ف. استغلا بساطة عميراف ، ولكن هذا لن يؤثر في الليكود المتحد في موقفه السلبي تجاه م. ت. ف.» . وخلال أيام ، تم طرد عميراف من حزب حيروت ومن الليكود الذي يقود الائتلاف . وبسبب دوره في تنظيم المبادرة ، فقد كسرت ذراع نسيبة على يد مسلحي بير زيت ، في حين قضى فيصل الحسيني في السجن مدة اكثر مما كان يتوقع . فقد حكم عليه بفترتي اعتقال اداري متعاقبتين . وحينما اطلق سراحه أخيراً في شهر حزيران ١٩٨٨ ، بعد ان قضى مدة عشرة شهور في السجن ، استعاد حريته بعد مرور سبعة أشهر على بدء الانتفاضة .

وقد تعلم فيصل الحسيني من قضية عميراف عدة دروس ، من بينها ان عليه ان يعمل من جانب واحد اذا أراد أن يُعجِّل في تحقيق هدف اقامة الدولة الفلسطينية لكن القضية ايضا خدمت كنوع من اول تجربة سياسية له مع الليكود. فقد عملت على تقوية قناعته بان تحالف الجناح اليميني سيرد باقتراحات تهدف الى تعزيز القيادة الفلسطينية المحلية للضفة الغربية وقطاع غزة على حساب ياسر عرفات وكوادر م. ت. ف. الموجودة بعيدا في تونس . وحينما اطلق سراحه في مطلع فصل الصيف ، بدأ فيصل على الفور العمل على وثيقة جديدة من شأنها أن تعمل

على تحقيق كلا الهدفين : المساعدة على عزل القضية الفلسطينية عن الساسة الاسرائيليين ، وعلى تعزيز القوة السياسية للفلسطينيين داخل الاراضي المحتلة .

وكانت النتيجة خطة لاعلان استقلال فلسطيني بحكومة مؤقتة ، تكون برئاسة ياسر عرفات ، تستمد معظم سلطتها من هيئة تشريعية تتكون من الفلسطينيين الموجودين تحت الاحتلال ، وينتخبها فلسطينيو المناطق المحتلة فقط . ان «خطة اعلان الاستقلال» هذه والتي عرفت فيما بعد بـ «وثيقة الحسيني» كانت ثمرة طبيعية لثورة الشارع ضد الحكم الاسرائيلي . وقد كانت في الواقع محاولة مدروسة جداً لتحويل تلك الثورة الشعبية الى بناء سياسي يساعد على تنفيس غضب الفلسطينيين في حين يتم دفع قضيتهم الى الامام من خلال وسائل اقل عنفا .

مع هذا ، فان خطوة وحيدة الجانب كهذه كانت اكبر من ان يمكن للجهاز السياسي الاسرائيلي ان يهضمها . ففي نظر الاسرائيليين ، فان أي خطوة نحو حكم ذاتي فلسطيني لا تكون منبثقة عن اتفاق مع الدولة اليهودية سوف تهدد شرعية الوجود الاسرائيلي ، والقدرة العسكرية الاسرائيلية والادارة المدنية على الحكم . ان اسرائيل لن تسمح أبدا باقامة دولة فلسطينية لتصبح حقيقة في الامر الواقع ، لان حدوث مثل ذلك سوف يعرض الاسرائيليين لاكبر مخاوفهم ، اي عدم تمكنهم من املاء شروطهم من أجل حماية أمنهم .

في ١٩٨٨/٧/٣١ ، بعد مرور أقل من شهرين على اطلاق سراحه من السجن ، وبعد مرور ساعة على اعلان الملك حسين عن تخلي الاردن عن السيادة على الضفة الغربية ، تم اعتقال فيصل الحسيني . وقبل اثنتين وسبعين ساعة كان قد سافر الى تل أبيب للظهور مع ثلاثة سياسيين اسرائيليين في آخر مسعى من المساعي الشخصية لاقناع الرأي العام الاسرائيلي بموقفه المعتدل . ومع ذلك ، فان عملية الاعتقال لم تفاجىء هذا الزعيم الفلسطيني الذي قال لرجال الشرطة الذين داهموا منزله : «لقد كنت أتوقع مجيئكم» . وكانت هناك حقيبة صغيرة ، مليئة بالاشياء التي يحتاجها لأخذها معه الى السجن .

لقد أدرك فيصل الحسيني أن هناك سببا آخر لاعتقاله ، فعملية فك الارتباط القانوني والاداري للاردن مع الضفة الغربية ستجبر م. ت. ف. على تولي

المسؤوليات السياسية والادارية للمؤسسات الفلسطينية ، بدءاً بالجامعات ، وانتهاء بالأوقاف الاسلامية ، وانه ـ فيصل الحسيني ـ رجل م. ت. ف. الاكثر أهمية في المناطق المحتلة . لقد أدرك ان اعتقاله كان متعمدا لارسال رسالة الى م. ت. ف. مفادها ان اسرائيل لن تتسامح تجاه أي خطوات أخرى أحادية الجانب . لكنه ايضا أدرك ان كوادر مقاتلي الشارع قد كسبوا انتصارهم الاكثر أهمية منذ ان بدأت الانتفاضة . وبغض النظر عما قام به الاسرائيليون من أجل تقوية سلطتهم فان الضفة الغربية وقطاع غزة ـ ضمن دائرة تفكير الجماهير الاكثر أهمية ، الناس الذين يعيشون هناك ـ مستقلتان عن الحكم الاجنبي . وبقي الامر متعلقا بهم لوضع خطة لحكم أنفسهم ، والتخلص من المحتل الاسرائيلي .

ان مصادرة «وثيقة الحسيني» في تلك الليلة من ليالي شهر تموز من مكاتب مؤسسة الدراسات العربية ، والحكم على فيصل بستة شهور أخرى من التوقيف الاداري قد عجلت في عقد اجتماع في الحرم الشريف لاعلان الاستقلال الفلسطيني . لكن ليست هناك ولا خطوة يمكن ان تكون قادرة على خنق الوعي المتنامي بين الفلسطينيين من حيث ان تحقيق آمالهم وطموحاتهم في دولة قد أصبح الآن بين أيديهم ، وليس بأيدي القادة العرب الذين يعملون على خدمة مصالحهم الشخصية.

وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨٨ ، ومع وجود الحسيني في السجن مرة أخرى ، أعلن المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في الجزائر قيام دولة فلسطين المستقلة . وبعد مرور شهر ، أعلن ياسر عرفات في جنيف اعتراف م. ت. ف. باسرائيل وشجب الارهاب . وأكد نسيبة ان على فلسطينيي الضفة الغربية وغزة التحرك بدون تأخير نحو بناء البنية التحتية والمؤسسات التي ستترافق مع اقامة الدولة .

واتخذ فيصل الحسيني بضع خطوات مبتعدا عن الضيوف المجتمعين على المقاعد ذات اللون الابيض وعلى الكراسي ذات الأذرع المنجدة في الصالون الانيق في المنزل الكائن في وادي الجوز ، وهو يشير الى انه يريد المحافظة على سرية محادثاته، وتوجه نحو الصالة المجاورة ، وقد وضع سماعة الهاتف على أذنه ، مستمعا بتركيز الى شكوى المتحدث على الهاتف . كانت غرفة المعيشة مليئة بالناس بعضهم يحثه على التوسط في خلافات عائلية ، في حين يطلب منه آخرون زيارة

قريتهم للمساعدة في تهدئة والد يطلب الثأر لاغتيال ابنه الذي زُعم بانه كان عميلا اسرائيليا ، او لتسوية بعض الحزازات الأخرى . وفي الخارج ، في جناح الاستقبال ، هناك رسول من دبلوماسي ينتظر اشارة من فيصل بانه على استعداد لاستقبال المبعوث الذي صدرت اليه تعليمات لتسليم رسالة مباشرة الى زعيم الضفة الغربية. وعلى الرغم من ان المناطق المحتلة مسيسة الى حد بعيد ، الا ان الشيء الذي ما يزال يربط الناس مع بعضهم هو الروابط العائلية ، والولاء للعشيرة اكثر من الولاء الى أي حزب سياسي .

بينما كان يستمع الى المتحدث على الهاتف ، كان فيصل يدرك كم هو التغير القليل الذي حدث منذ زمن العثمانيين ، حينما كان القاضي يقضي في الخلافات العائلية . وقد أصبحت ردهة الاستقبال في منزله أشبه بقاعة محكمة عائلية لكنه هو أيضا أصبح أداة التغيير السياسي الذي عليه ان يقنع أبناء شعبه بان يجعلوا مصالحهم الوطنية فوق مصالحهم الطائفية والعصبية ، والذي عليه ان يحشد جمهوراً لعملية السلام في جو ما يزال الحقد والبغض والانتقام والقتل فيه ـ وليس حق التصويت ـ يسود الصورة السياسية . انه لا يتراجع عن المهمة ، فهي جزء من المهمة التي ورثها عن أبيه ، بطل الحرب ، وعن عمه الكبير المفتي الأكبر ، وعن أسلاف الحسينيين الذين كانوا رؤساء لبلدية القدس او تولوا مناصب بلدية عليا أخرى خلال فترة الانتداب .

وعلى الرغم من ان المهمة تبدو في الغالب مروعة ، فانها بالتأكيد تجعل له أعداء مثلما تجعل له مؤيدين . وقد تبين له ذلك في خريف عام ١٩٩١ حينما توجب عليه تشكيل وفد فلسطيني لمحادثات السلام في مدريد ، واضطر الى ان يسلك مسلكا ليلبي مطالب ثلاث فئات لا تتفق مع بعضها : الولايات المتحدة ، وم. ت. ف. واسرائيل . في ذلك الوقت ، كان ثمن مثل هذا التوفيق ثمنا باهظا : ففيما يتعلق ببطاقة دخول الفلسطينيين الى مدريد ، يجب ان لا يكون هناك مسؤولون من م. ت. ف. ولا فلسطينيون من خارج المناطق المحتلة ، ولا فلسطينيون من القدس . كان فيصل يدرك انه يعرض نفسه الى تهم قطع الحبل السري مع تونس ، والقبول بادعاءات الكتاب المقدس ان القدس ليست جزءا من الضفة الغربية ، والتآمر والتستر على ترتيبات من شأنها ان تفصل ٤ ملايين من فلسطينيي الشتات الموجودين خارج المناطق عن ١,٧ مليون فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ومع هذا ، فـان المكافـآت المحـتـملة بدت انها اكـثر من الخطر . فالفلسطينيون كـانوا بحـاجـة الى تحويل انتصاراتهم التي حققوها في ميدان الانتفاضة الى عملية من شأنها العـمل على دفع أهدافـهم القـومـيـة قدما الى الامام ، وكانوا بحاجة الى الاسـتـشـفـاء من كـارثة العلاقات العامة التي تسبب بها تأييدهم الواسع لصدام حـسين . وعـلاوة على ذلك كله ، كـانوا بحـاجـة الى ايقـاف النشـاط الاستيطاني الاسرائيلي الذي يهدد بتـغـيير ديمـغـرافية بلدهم ، ويسلب منهم ما يمكن ان يكون فـرصتهم الاخيرة للحيلولة دون دمج الضفة الغربية وقطاع غزة في دولة اسرائيل . لهذه الاسـبـاب كلهـا ، ومن أجل كـسب دعم الولايات المتـحـدة (باعتبارها القوة الاعظم الوحـيدة الباقية) أدرك فيصل الحسيني ان ليس أمامه أي خيار آخر . لكن ادراك حـقـيـقة مأزقهم ، وترويج ذلك بنجاح في عالم الجماهير المنقسمة واليائسة كـانا شـيئين مختلفين تماما . فقد تبين ان ترويج ذلك أمر أصعب مما كان يعتقده فيصل .

اعتزم فيصل بناء دعم شعبي واسع النطاق للوفد الفلسطيني الذاهب الى مدريد من خـلال دمج المفكرين مع السجناء المحررين في الوفد . فهناك عدد من المحاربين القـدمـاء الذين تمت مـبـادلتهم وتحريرهم في عملية المبادلة التي تمت عام ١٩٨٥ وخطط لها احمد جبريل زعـيم الجـبـهة الشعبية لتحرير فلسطين/القيادة العامة ، التي تتـخـذ من دمـشق مـقـراً ، والتي قـامت اسرائيل خـلالها باطلاق سراح نحو ١٠٠٠ من السـجناء الامنيين مـقابل ستة جنود اسرائيليين تم أسرهم خلال حرب ١٩٨٢ في لبنان .

وكـتب داني روبنشتاين في صحيفة هآرتس ان فيصلا أراد دمج حكمة ومعرفة خـريجي جـامعة بير زيت ـ هارفارد المناطق المحتلة ـ مع الخبرة والفطرة السليمة للفلسطينيين «خـريجي جـامـعـة الاحـتـلال» الذين عـانوا على أيدي الاسرائيليين . وحـينما يسأل شـخص مـا مَـن كان المسؤول عن تنسيق النشاط السياسي خلال الانتـفـاضـة ، فـغـالبا ما يسمع المرء النكتة التي تقول : «الرأس هو رأس جامعة بيرزيت ، والأيدي أيدي السـجناء الذين حررهم جبريل» . لقد كان فيصل يأمل أن يعكس الوفد الانتفاضة نفسها .

حـالما تم التـوصل الى اتفـاق في الرأي مع مساعدي فيصل داخل المناطق ، قام

فـيـصل بالحـصـول على موافقة م. ت. ف. على القائمة . ومن أجل الحصول على تأييـد المنظمـة ، اسـتـخـدم فيصل رجلين من أكثر المهجرين شهرة كوسيطين مع عـرفات ، وهما : أكرم هنية المساعد الشخصي للرئيس وجبريل رجوب . والرجلان يتـمـتـعـان بمـصـداقية عالية داخل المناطق ، كما أنهما أبعدا من قبل الاسرائيليين بسـبب مـسـاعـدتهما في زرع بذور الانتـفـاضة . كان هنية رئيس تحرير جريدة الشـعب في حين أن رجـوب أطلق سراحه خلال عملية التبادل التي قام بها جبريل ، عـلاوة على أنهما كـانا عـضـوين في منظمة فتح ، وهي الفصيل ذو الاتجاه السائد الذي يكن فـيـصل الولاء له . وكـانت هناك نزاعات مع تونس : ففي البداية طالبت م. ت. ف. أن يكون اليـاس فـريج عـضـوا في الوفد بسبب مكانته الدولية كرئيس لبلدية بيت لحم ، وبسـبب عـلاقـاته القـوية مع الأردن . وكـان فـريج جـزءاً من المجموعة الأصلية غير انه تم استبعاده فيما بعد ، وهي اشارة الى تنامي استقلالية الحسيني ونسبية ؛ ثم أعيد الى القائمة بناء على الحاح م. ت. ف.

كـان فيصل الحسيني مدركاً للمعارضة التي ستواجهها المباحثات مع اسرائيل . ففي ٢٢/ ١٠/ ١٩٩١ أعلن جناح نايف حـواتمة في الجـبـهـة الديمقراطية لتحرير فلسطين وكـذلك الجـبـهـة الشعبية لتحرير فلسطين «معارضتهما الشديدة لأولئك الذين رضـخـوا للشروط الاسرائيليـة والأمـريكيـة» . وعملت هاتان المجموعتان مع حـركة حماس على توزيع منشور يحض على اعلان الاضراب العام في اليوم التالي . كـان هدفـهم المشترك الاحـتـجاج على مؤتمر السلام . ولم يبال العديد من الناس بهذه الدعـوة ، واسـتـمرت المدارس ، والشركات ، والباصات ، وسيارات التاكسي في عـملهـا . لكن فيصلا كان قلقا . فقد قال أمام حشد يتكون من ثلاثمائة مواطن في ذلك اليـوم «المهم هو ان نقـيد خلافاتنا الى جدران البيت الفلسطيني ، وان نعالجها بطريقـة ديمـقـراطيـة . علينا أن نعـد أنفـسنـا للدولة التي سيكون فيها أكثر من تفكير» .

فـقط وقبل ساعات من اعلان أسماء الوفد الفلسطيني الذي سيسافر الى مدريد أعطى فـيصل مقابلة الى صحيفة (الجيروزالم بوست) وهي الصحيفة اليومية التي تصدر باللغة الانكليزية ، وتعكس وجهات نظر حكومة الليكود الاسرائيلية الحاكمة آنذاك . لقـد أدرك فـيـصل على امتداد عدة سنوات ضرورة تهدئة مخاوف اليهود ، والتكلم مـعهم مباشرة عن آماله ومخاوفه ، كما كان قد فعل عدة مرات حينما ظهر

أمام جمهور في اسرائيل وتحدث اليهم بالعبرية . وقد سأل مراسل الصحيفة جويل غرينبرغ فيصلا اذا كان يشعر ان المشاركة الفلسطينية ستغير «علاقتك مع الاسرائيليين الذين سيتعاملون الآن معك دبلوماسيا كمجموعة مقابلة» . وأدرك فيصل أهمية السؤال ، فقال : «من المؤكد انها حقبة جديدة ... سنتحدث مع الاسرائيليين لخلق علاقة تبادلية . سيجلس الفلسطينيون والاسرائيليون كطرفين متساويين للبحث في القضايا» .

ان الحصول على اعتراف اسرائيلي بهم كطرف مستقل وعلى قدم المساواة كان هدفا فلسطينيا في مدريد . كان اسحق شامير رئيس الوزراء الاسرائيلي ، ووزراء خارجية مصر ، وسوريا ، والأردن ، ولبنان ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتي سيلقون كلماتهم في المؤتمر . وكذلك الأمر بالنسبة الى المندوب الفلسطيني . ففيصل كان قد حصل على تعهد من راعيي المؤتمر : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، مفاده حتى وان كان الفلسطينيون سيحضرون المؤتمر على انهم جزء من الوفد الأردني ، فانه سيسمح لرئيسهم حيدر عبد الشافي بوقت مماثل لالقاء كلمته .

وتساءل غرينبرغ : «اليست م. ت. ف. مشاركة في العملية بالتحكم عن بعد ؟ ... ألَسْتَ مرشحهم ؟» . وأجابه فيصل : «سَمِّ ذلك ما شئت ... هناك حقائق لا يمكن حجبها بوضع نظارة ذات لون مختلف . باستطاعتك أن تغير زجاج النظارة ولكنك لا تستطيع تغيير العالم الحقيقي» . اذن ، فما الذي تغير وأقنع الفلسطينيين بالتقاط عرض كانوا يرفضونه منذ كامب ديفيد ، وأعني ، التفاوض مع اسرائيل على فترة مؤقتة من الحكم الذاتي ؟ . وكانت اجابة فيصل كاشفة . فقد أظهرت قدرته على جعل الواقع نفسه مناسبا للهدف الجديد ، وهو دفع قضية أهل «الداخل» قدما الى الأمام حتى ولو كان ذلك يعني التحول عن تونس : «لقد كنت منقطعا في الصحراء . وأحضر لي أحدهم طوق نجاة وطلب اليّ استخدامه ، ولكنني رفضت العرض السخيف . ثم جاء طوفان كبير ، ووجدت ان باستطاعتي استخدام القارب الذي كان ذات يوم سخفا . ربما كنتُ لا أحب كل شيء في القارب ولكنني أستطيع استخدامه للانتقال الى مكان ما ، نحو هدفي . لقد كنت محقاً في رفضي للقارب آنذاك ، وانني على صواب بقبوله الآن . ان أشياء عديدة بدت غير عملية في تلك الأيام هي الآن مفيدة» .

في هذه المقابلة القصيرة ، لخص فيصل التغير الحاد في السياسة الفلسطينية . ففي عام ١٩٧٨ كان «غير عملي» بالنسبة الى أي قيادي في الضفة الغربية تحدي قبضة عرفات على م. ت. ف. غير ان الانتفاضة وحرب الخليج غيرتا ذلك . فمنذ بدء الانتفاضة في شهر كانون الأول ١٩٧٨ قتل ما يزيد على ألف فلسطيني من الشباب والشابات ، وقد أثبت الفلسطينيون للعالم الخارجي ولأنفسهم انهم مستعدون لدفع ثمن باهظ مقابل حريتهم . وفي بداية ربيع سنة ١٩٩١ ، ومع دخول الانتفاضة عامها الخامس ، كان قد أصبح من الواضح ان تونس لن تستطيع بعد ذلك الاعتراض على قرارات القيادة المحلية .

ولقد أتت أول اشارة الى أن ميزان القوى قد تغير بشكل قاطع تجاه أهل «الداخل» في شهر آذار ١٩٩١ ، وبعد أسابيع قليلة من انتهاء حرب الخليج ، حينما قامت مجموعة يقودها الحسيني بتحدي سياسة م. ت. ف. طويلة الأمد والتقت مع وزير الخارجية الأمريكي آنذاك جيمس بيكر في القدس الشرقية . وأصبح على م. ت. ف. الآن أن تقرر إما تأييد الاجتماع الحيوي هذا ، أو أن تُتْرَكَ خارج الاجماع العام الجديد . لقد عملت الانتفاضة على خلق جمهور لها ، لكن حرب الخليج هي التي سمحت للقيادة المحلية أن تحشد الفلسطينيين خلف عملية السلام.

ان م. ت. ف. ربطت صاريها بصدام حسين ، وبالتالي فان هزيمته كانت تعني أن ياسر عرفات لم يعد بامكانه بعد هذا الاعتماد على تأييد ودعم العربية السعودية والمتبرعين العرب الأثرياء الآخرين من مشيخات الخليج العربي الغنية بالنفط . فهذه الدول مدينة الآن بالفضل الى الولايات المتحدة لتحريرها الكويت والدفاع عنهم ضد العدوان العراقي . وبالتالي ، فانهم كانوا على استعداد لدعم وتأييد مبادرة أمريكية جديدة من أجل حل النزاع العربي الاسرائيلي ، والمشكلة الفلسطينية .

وبينما كان يستعد للسفر الى مدريد ، قال فيصل الحسيني أمام مؤتمر صحفي كبير : «انني لست بحاجة الى دبابات لتحقيق الانتصار ، وبالأحرى فانني بحاجة لأثبت لاسرائيل انه لا يمكنها أن تكون الحاكم الوحيد على الأرض حينما تكون هناك مفاوضات . ان هدف الفلسطينيين كلهم هو التخلص من الاحتلال الاسرائيلي

كـسـبـيل لاقـامـة الدولة الفلسطينية المستقلة» . ففي سن الحادية والخمسين من العـمـر اتيـحت لفـيصل فرصة تنفيذ الوصية التي ورثها عن عائلته . وعلى غرار لحظات الطفولة تلك حينما توقف يغني كلمات والده ، ويكتب أغنيته ، كان مستعدا للظهـور من ظلال مـاضـيـه ، وللمـسـاعدة في كتابة قصة النجاح الفلسطيني على مسرح العالـم .

في يوم الأحـد الموافق ١٠/ ١١/ ١٩٩١ كـان الناس في الشـوارع يحسون بالأمل الذي انبـعـثت شرارته في مـدريد حـينما عبرت حـافلتـان فلسطينيـتـان تحـملان المفـاوضين الأربعـة عشر ووفد المستشارين عبر نهر الأردن . كانت الحالة النفسية احـتفالية ، اذ اندفعت الجماهير لاستقبالهم . ولكن بعد مرور أقل من شهرين على ذلك تغيرت الأجواء .

ففي ٣٠/ ١٢/ ١٩٩١ خطط فـيـصل الحـسيني لالقاء كلمة في اجتماع في بلدة طولكرم ، وهي واحـدة من سلسلة خطابات كـان يلقـيها ليحصل على تأييد لعملية الـسـلام . وبـلدة طولكرم هذه تقع على «الخط الأخضر» الذي يفـصل اسرائيل عن الضـفـة الغـربيـة . وحـتى خـلال فترة الحكم العثماني ، كانت هذه البلدة سوقاً تجـارية تقليـدية للقـرى والمدن اليـهـودية الواقـعة على الحدود . وفيما بعد ، كان الاسرائيليـون يبتـاعـون فـاكـهـتـهم وخـضارهم من الأسواق العربية . ولكن في السنوات الأخيرة ، فـان فلسطينيي طولكرم البـالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ نسمة أخذوا ينقـسـمـون وبشكل مـتـزايد بين مـؤيدين لفـتح وآخرين مؤيدين لحركة المقاومة الاسـلامـيـة (حماس) . لقـد تعـايشت السياسة والدين هنا في الماضي على الدوام . وكـان خط السكة الحـديدية الذي يأخـذ الحـجـاج الى مكة يمر عبر طولكرم . لكن قـضـبـان السكة الحـديدية المهـجورة الآن تبدو مذكّـراً صامتا بموقع المدينة التي ينتشر فـيـهـا الـسـيـاسـيـون الفلسطينيون المتطرفون . ان أحد مخيمي اللاجئين الـكبيرين في طولكرم ، وهو مخيم (نور شـمس) يقع على جـانبي الخط الحـديدي وهو مرتع مؤيدي حماس . وفي هذا المخيم عاش تقي الدين نبهاني مؤسس حركة التـحرير الاسلامي في الأردن . ولكن هنا أيضاً ، يعمل حلمي حنون ، رئيس بلدية طولكرم، وهو أقـدم رئيس بلدية مـوال لحـركـة فتح ما يزال في الخدمة في الضفة الغربية .

بالنسـبـة الى فـيـصل ، فان محاولة توحيد كافة الأطراف خلف قيادته محاولة

تثبط الهمة . فالمعارضة التي يبديها اتباع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين/نايف حواتمة/غير دينية . غير ان المعارضة التي تبديها حركة حماس تعتمد على الدين والتعصب . وحسب التفسير الأصولي للقانون الاسلامي ، فان أرض فلسطين كلها تخص المسلمين ، وبالتالي فان أي محاولة للتفاوض على تسوية اقليمية محلية مع اسرائيل هي خيانة . فاسرائيل يجب ان تقوم مكانها جمهورية اسلامية . يقول فيصل : «ذهبت الى طولكرم في وقت مبكر لأنني كنت قلقا على القضية كلها» . وقد توجه فيصل الى هناك بواسطة سيارة عليها شارة الهلال الأحمر .

وحينما رشقت سيارته ببعض الحجارة بينما كان يقترب من ميدان جمال عبد الناصر ، تحول قلقه الى خوف : «عدت وقلت لجماعتي : [اذهبوا وسيطروا على المنطقة كلها] اذا كانت هناك ضرورة لمزيد من الاستعدادات والحراس الاضافيين ، فدعونا نلغي ذلك]» لكن عدنان ضميري - وهو موال لفتح ، والمشرف على الاجتماع في دار للسينما في طولكرم ، وهي بناية كبيرة ذات أبواب معدنية مطلية باللون الأزرق الفاتح - لم يكن قلقا ، اذ قال لفيصل : « لقد اتخذنا كافة الاحتياطات الضرورية» .

كان عدنان ضميري - وهو فلسطيني قصير القامة ، نحيل الجسم ، أصلع الرأس قليلاً ، ذو شارب أسود - متمرساً في السياسة ، فبين عام ١٩٧٥ و ١٩٨١ سجن في مختلف أنحاء الضفة الغربية : في نابلس ، وطولكرم ، وجنين ، والفريونة، كما أنه أيضاً قضى ثلاث فترات توقيف اداري في أنصار ٣ بالقرب من كتزيوت في صحراء النقب . وهناك انتخب من قبل السجناء الآخرين كشاويش/رئيس للسلطة الفلسطينية في مخيم الاعتقال . وكان يشعر ان باستطاعته معالجة أي شغب في دار السينما . ومن أجل ضمان عرض عادل للقضايا ، فانه وعد مدرسا من جامعة بير زيت ، مؤيدالحماس ، بإعطائه وقتا مساويا للرد على حديث فيصل . غير ان المشكلة بدأت حينما قامت دورية أمن تابعة لفتح بالسماح فقط للاشخاص الذين تعرفهم بالدخول ، والذين عرف عنهم أنهم من مؤيدي مجموعة م. ت. ف. ذات الاتجاه السائد . وانفجر الاحتجاج خارج دار السينما ، بالقرب من جدار كتب عليه «لا للمؤتمر» كإشارة الى مؤتمر السلام في مدريد وكان تحت هذه العبارة توقيع (حماس) . وأخيراً ، تم التوصل الى

تسـوية تتـمـثل في جلوس مؤيدي حماس في المقصورة في الطابق العلوي ، في حين يجلس مؤيدو فتح في صالة الطابق الأرضي .

وبدا كل شيء تحت السيطرة ، وبدأ فيصل حديثه ، غير ان صيحات الاستهجان انطلقت ضده من الطابق العلوي ، اذ أخذ مؤيدو حماس يصرخون : «استسلامي ! استسلامي !» و «لقد بعت فلسطين الى اليهود» وطفح الكيل لدى فيصل الذي قال لـلضـميري : «دعنا ننهي ذلك الآن» . غير انه لم يكن هناك مـتّسع من الوقت ، اذ يسـتـذكـر فـيصل ان «شخصا ما في المقصورة بدأ فجأة بتحطيم مصابيح النيون والقـائهـا على الجـمـهـور الجـالس في الطابق السـفلي . ثم قاموا بانتزاع الكراسي ، وحطمـوا الطبـقـة الاسـمنتـية التي تحتها ، وبدأوا بقذف الحجارة ... في البداية لم أصـدق مـا كـان يحدث ... كـانوا يسـيطرون على المكان كله» . وحـاول حـارسه الشـخصي أن يحجـبه عنهم والآخرين الموجودين على المنصة : «كان علينا أن نضع الكراسي فـوق رؤوسنا ... لقـد كـانت هناك حجارة كثيرة جداً ، ولو لم تكن هناك كـراسي لكنت قـد قـتلت» . وأخيراً ، خلّـص فـيـصل نفسه ، ووصل الى سيارته . وفيما كان ينطلق مسرعا ، نظر الى الخلف برعب : «كان هناك قتال في كل مكان» .

في اليوم التالي ١٢/٣١ كـانت الأمـور قد هدأت . وقتل جابر الضميري ـ مؤيد لحماس ـ وهو ابن عم عـدنان ضـمـيري ـ على يد رجل قوي البنية من فتح حينما كـان يغـادر المسـجد في مخيم اللاجئين في طولكرم . كان القاتل ، وكذلك ضحيته ، يبلغـان من العمر تسع عشرة سنة . وقالت الصحف الاسرائيلية ان الهجوم تم بناء على تعليمات الفـهـود السـود ، وهم القـوة الضاربة لحركة فتح . غير ان كلا من فـيـصل الحـسـيني وعدنان ضميري نفيا ذلك . يقول فيصل : «ان هذا الرجل لم يتلق أوامـر من فـتح لقتل هذا الرجل من حماس ... لم تكن لديه أي أوامر بالقتل» ووفـقـا لما تقـوله صـحيفة القدس اليومية ، فان عملية القتل كانت نتيجة خلافات عـائليـة ، اذ يؤكـد عـدنان : «لم يكن حـتى مـرتبطا بأحداث السينما ... ان الشيء المذهل هو ان جـابرا الضـميري من عـائلة تؤيد فتح ، في حين ان الرجل الآخر من عائلة تؤيد حماس» .

لـكن عـائلة جـابر علي ضـمـيري وعـائلة الرجل الموالي لحماس لم تقـبـلا بهذا التـفسير . ففي خطوة غير مألوفة ، قام والد جابر ضميري بنشر اعلان في صحيفة

القدس في اليوم التالي جاء فيه : «ان موت ابننا كان ذا دوافع سياسية ولا علاقة لخلافات عائلية بذلك كما زعم في القصة ، اذ ليست هناك خلافات عائلية بيننا وبين عائلة الشاب المشتبه فيه بقتل ابننا جابر ، كما أنه ليست هناك نزاعات شخصية بين القاتل والشهيد» .

وراودت فيصل الشكوك في أن تكون السلطات الاسرائيلية قد أجازت العنف للحد من شجاعته لإلقاء خطابات في اجتماعات مماثلة في أنحاء المناطق . ويقول ان الحاكم العسكري الاسرائيلي لمنطقة طولكرم رفض إصدار ترخيص للاجتماع الا عشية اليوم الذي وقعت فيه تلك الحوادث : «وأخيرا حينما اتصل ، قال : [حسنا ، اننا نسمح لك ، ولكن عليك ان تعلم ان حماس ستقوم بشيء ضدكم ولن نتدخل] » ويؤكد فيصل : «الاسرائيليون لم يكونوا مرتاحين للزيارات التي كنت أقوم بها وكذلك الآخرون من أعضاء الوفد . ومن خلال السماح بوقوع مثل تلك الحوادث ، فإنهم يقوون هدفهم بمنع مثل هذه الاجتماعات مستقبلا ، اذ سيقولون : انظروا ، حينما سمحنا لكم بعقد اجتماعات عامة فانها تحولت الى أعمال عنف» .

تلك هي الوطأة التي يجب على فيصل أن يحملها وهو يحاول قيادة شعبه من الصحراء التي يجولون فيها دون وطن لهم منذ قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨ . فها هو يواجه تمردا داخليا وخارجيا ، وعليه مواجهة الانقسامات والاختلافات داخل فتح ، وفي الوقت نفسه يواجه القوة المتنامية للأصوليين الاسلاميين والجماعات الأخرى غير الخائفة من استخدام العنف ضد الفلسطينيين والاسرائيليين لتخريب عملية السلام . ان هناك خلافات بين أهالي قطاع غزة وبين أهالي الضفة الغربية فيما يتعلق بالوفد ، كما أن هناك أموراً موضع نقاش مع الأردنيين فيما يتعلق بالوفد المشترك ، وهناك أيضاً صراع مستمر مع قيادة م. ت. ف. في تونس . وفي حين كان يجري العمل على اطفاء نيران السخط هذه ، كان على الوفد الفلسطيني التباحث عبر دوامة أوسع مع اسرائيل .

وهكذا ، فانه من الصعوبة بمكان التعجب من أن فيصلا تلقى أنباء معجزة نجاة ياسر عرفات من حادث تحطم الطائرة بمرح غير خجول . فقد قال للصحفيين حالما تم العثور عليه : «لا يمكنكم تخيل السعادة . الناس ، الشيب والشباب ، جميعهم يبكون ويهنىء كل واحد منهم الآخر» . وبالنسبة الى فيصل ،

فان الاحتفالات كانت تعني ذلك : لان ياسر عرفات قد عاش يوما آخر ، فان عملية السلام ستعيش . وهكذا فيصل الحسني . فياسر عرفات هو الغراء الذي يمسك التنظيمات المتنافسة ببعضها . كلاهما توأم سيامي من نوع رديء ؛ ان عرفات بحاجة الى فيصل كحصن ضد حماس والمتطرفين داخل المناطق ، وفيصل بحاجة الى عرفات لأنه بدون تأييد أبي عمار ودعمه لا يمكن أن تكون هناك تسوية نهائية سياسية واقليمية مع اسرائيل . ان ياسر عرفات فقط هو الذي يستطيع أن يجعل مذاق الطبق الأكثر مرارة مستساغا لدى الفلسطينيين : التخلي عن حلم العودة الى منازلهم في فلسطين كلها . ولا أحد يدرك هذا الأمر أكثر من فيصل الحسيني الذي كان ملتزما منذ وقت طويل بحل لدولتين : «ليس هناك من بديل آخر أمام ياسر عرفات . ياسر عرفات هو تاريخ الشعب الفلسطيني . انه قصة الشعب الفلسطيني، وسيمضي قدماً في عمله» .

لكن وبشكل غريزي . يبدو فيصل وهو يعترف ان هناك حقبة في طور الانتهاء. فقد انتهت الأيام التي كان باستطاعته خلالها الاعتماد على قوته كنائب لعرفات ليفوض السلطة . والفلسطينيون أصابهم التعب من حكم الرجل الواحد ومن الفساد الذي لازم م. ت. ف. فهم يطالبون بنظام أكثر ديمقراطية حيث يكون فيه القادة عرضة للمساءلة ، وحيث تمتلك فيه المؤسسات لا الأفراد السلطة . انهم ينظرون الى فيصل ليقودهم ، غير انهم يريدون منه أن يشكل مؤسسات أكثر مسؤولية . يقول فيصل : «انني أشعر بالراحة في دوري ... لدي احساس بانني في المكان الصحيح في الوقت الصحيح» .

ويؤكد مسؤولون اسرائيليون انهم يقومون بدورهم بهدوء لتشجيع هذه العملية ، مستشهدين على ذلك بمئات الاجتماعات السياسية التي سمحوا باقامتها في المناطق . وعلى الرغم من أن حكومة شامير واصلت سجن نشطاء سلام اسرائيليين مثل آبي ناثان ، وديفيد إيش شالوم بسبب اتصالاتهم مع م. ت. ف. فانها تبدو بشكل ما أكثر تخوفا تجاه علاقات فيصل مع القيادة في تونس . وحينما طارت حنان عشراوي مع فيصل للقاء ياسر عرفات في الجزائر بعد مؤتمر مدريد ، أصرت الشرطة الاسرائيلية على اعتقالهما لخرقهما القانون . لكن الحكومة رفضت تأكيد التهم الموجهة اليهما ، وتم اسقاط القضية . يقول فيصل : «انهم يدركون جيدا انه لا يمكن ان يتم شيء بدون م. ت. ف. وحينما سئل ايهود أولمرت

[وزير الصـحة الاسرائيلي السابق] : [هل ركب فيصل وحنان الطائرة الى الجزائر؟] قـال : [نعـرف انهما ذهبـا الى هناك ، ولكن يبـدو من الأفـضل بالنسبة لنا أن لا نـعـرف]» . وقـدكـان أحـد الأعمال المبكرة التي قـام بها رئيس الوزراء الاسرائيلي اسـحق رابين بعـد انتـخابه في شـهر حزيران ١٩٩٢ هو تغـيير القـانون ، وبالتالي الـسماح باجـراء اتصـالات مع مـسـؤولي المنظمـة شريطة أن لا يعـرض ذلك أمن اسرائيـل للخطر .

وبالطبع ، فـان مـوقف اسرائيل تجاه فيصل متجذر في رغبة اسرائيل العميقة في إضـعـاف عـرفـات . ولكن بعض المسـؤولين على الأقل بدأوا يمـتدحون حقيقة أن فـيـصـلا الحسيني يمكن أن يكون شريكا في السلام . يقول سياسي اسرائيلي رفيع المسـتـوى : «... فحتى أناس من مؤسسة الدفاع سيقولون لك بحذر انه ينظر اليه على أنه مـعـتـدل حقيقة ... انهم ينظرون اليه كقائد له تأثير كبير» . ويقول فيصل نفسـه ان ليس هناك من سـبب يدعـو اسرائيل للتـخـوف منه أو من سياساته ، فـرؤيتـه للدولة هي من النوع الذي لن يهدد أمن اسرائيل ، ويتابع موضحا ذلك : «ربما نحـتـاج الى جـيش كـرمـز لهويتنا الوطنيـة ، ولكن لا أعتقد ان جيشا كهذا سـيكون قادراً على حماية أمننا ... ولا يمكننا أبدا بناء جيش يمكنه مواجهة الجيش الاسرائيلي أو الجـيش الاردني ! أود رؤية المنطقـة كلهـا وليس بها الا الحـد الأدنى من الجـيـوش والاسلحـة . ان مـا نريده هو ضمانات دولية بان لا يهاجمنا أحد . ولذلك ، فمن المحتمل ان نكون أفضل دون جيش على الاطلاق» .

ويقـول فيصل ايضا ان الدولة الجديدة يمكن ان ترتبط مع الاردن ، وحتى مع اسرائيل في يوم مـا : «الدولة الفلسطينيـة يجب ان تكون قادرة على إصدار جوازات سـفـر ومـواطنيـة . لكنني أفـضل كـونفـدراليـة ، دولة فلسطينيـة [مـوجـودة] ككونفـدراليـة لا فيدرالية» . ويوضح سبب ذلك فيقول : «في حياتنا كفلسطينيين ، كنا جـزءاً من ثلاث تجـارب : التـجربة الاسرائيلية ، والتجربة الاردنية ، والتجربة اللبنانيـة . فـفي لبنان رأينا الحـرية دون سلطة ، وفي الاردن جربنا السلطة بدون ديمـقـراطيـة ، وفي اسرائيل خَبِـرْنا ديمـقراطية بلا مساواة . نأمل أن تكون دولتنا دولة الحـرية ، والديمقراطية ، والمساواة ؛ والسلطة فقط مطلوبة لحماية ذلك» .

وهو على اسـتـعـداد لأن يأخذ على عاتقه عبء التفاوض على القيود والضوابط

التي تطلبـهـا اسرائيل شريطة ان تبقى اقامة الدولة هي الهدف : «لقد أرسلت اكثر من رسـالة الى اسـحق رابين [رئيس الوزراء الاسرائيلي] مفادها انه يمكن ان يكون هو منقـذ اسرائيل اذا كـان يريد ان يكون كذلك ، فهو اكثر براغماتية من شـامير» .
وفي مقابلة اجريت معه في شهر آب عام ١٩٩٢ مع صحيفة هآرتس ، قال فيصل : «قـالوا لنا انها لعـبـة شطرنج ، لكن شـامير لم يلعب الشطرنج ، وانما كان يلعب الملاكمة ، وهو (رابين) يريد أن يلعب [لكن] هذه لن تكون لعبة سهلة» . ومنذ ربع قـرن مـضى خاض اسحق رابين وعبد القادر حربا ضد بعضـهما . كان رابين قائد لواء هاريل المسـؤول عن المنطقة الممتدة من اللد والرملة حتى القدس ، وقد سميت قـواته (رابين) بقـوات القسطل لأنها في ذلك الحصن قتلت والد فيصل . ولم يمض طويل وقت على ذلك ، حـتى أصـبح رابين عضوا في الوفد الاسرائيلي الذي تفاوض على اتفـاقـيـة الهدنة في رودس ، والتي أنهت شكليـا حرب عام ١٩٤٨ . واليـوم ، وبعـد مـرور نصف قرن تقريبا ، يعتقد فيصل ان والده عبد القادر الحسيني بطل الحرب العربي الذي قاتل للحيلولة دون ميلاد دولة يهودية ، سيكون فخورا بابنه بسـبب تفـاوضه على السلام مع اسحق رابين . ويقول فيصل : «اعتقد انه لو كان اليوم حيا لفعل الشيء نفسه» .

سـري نسيبـة



● سري نسيبة جالسا في حديقة منزله في منطقة أبو ديس ، وهي قرية تقع في ضواحي القدس الشرقية .

سري نسيبة

كـمـدرس ، فان سري نسيبة انسان براغماتي ، اذ انه يحاول اقناع طلبته بترك عـالمهم ، والتـخلي عن الخـرافـات التي قبلوها جملة ، وان يبنوا من جديد افكارهم بشكل يمكنهم من اكـتـشــاف هويتـهم الخـاصة بهم ، وطريقتهم في التفكير ، وان يكتـشـفـوا من يكونون فـعـلا . ويقـول هذا الاسـتـاذ الجـامـعي خـريج جامعة اوكـسفورد: «انهم لا يرون الا الجزء الخارجي ، ما يحدث لهم كل يوم وكل ساعة ان التـجـارب والصـعـوبات الراهنة تؤثر في انفـعـالاتهم ، وتنمي لديهم الحزازات والعـداء والحقد . انهم ليسوا أحراراً ، وهم سجناء الاحتلال» .

وقد برز سري نسيبة ـ البالغ من العمر ثلاثة واربعين عاما ، والذي يدل شعره الرمـادي الكث ، ونظارته ثنائيـة العـدسـة على دخـوله مـرحلة منتصف العمر ـ كنشـيط مـفكر ، وفـيلسوف ثقته بنفسه عالية ، وله اسلوبه المعارض ، والمهارات المنظمـة ، والدعم الذي يحظى به بين أوسـاط الشبيبة ؛ وقد أعطاه ذلك كله مكانة بالغـة الاهميـة في مـقـدمـة مؤيدي منظمة فتح داخل الضفة الغربية وقطاع غزة : «انني مختلف عن الكثيرين من أبناء شعبي ، وأنا حر في تفكيري» . ويمكن بسهولة فـهم شـعـبيته . فرسالته رسالة الاعتماد على الذات ، والتقدم في العمل لبناء البنية الاسـاسـيـة للدولة ، وليس انتظار المفـاوضـات من أجل ان تسفر عن حكم ذاتي «مـوسع» . انه نافـد الصبر ومندفع ، وحـتى لو انه اسـتبدادي نوعا ما ، غير انه يحظى باحترام حـتى اولئك الذين لا يتـفـقـون معه في الرأي . فعلى سبيل المثال ، ارتفعت الحواجب دهشة حينما قاطع سري مؤتمر السلام في مدريد . غير ان تغيبه لم يكن فقط رمزيا ، اذ انه كان في بلده يعمل على تكوين المجموعة المؤيدة لفتح بين الجماهير : «اللجـان السـيـاسـيـة» وذلك من أجل المساعدة على مأسسة المكتسبات التي تحـقـقت في مـدريد ، و ـ من وجهة نظر أحد النقاد على الاقل ـ من أجل جَلد نفسه كزعيم لا خلاف عليه للجيل التالي من فلسطينيي الداخل .

بتـشكيلهما اللجـان من جانب واحد ، وبمجابهة الوفد الفلسطيني بالأمر الواقع عند عـودته من مـدريد ، فـان نسـيـبـة وزياداً ابي زياد «حاولا القيام بانقلاب ، انقلاب غير دموي» داخل فتح ، وفقا للاتهامات التي يوجهها اليهما رياض المالكي أحد مؤيدي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في المناطق المحتلة . ولكن حتى المالكي

نفـســه ، وهو مـعــارض صريح لعـمليـة الســلام ، يسلّم بأنه «بعد ما حدث فانه [نســيـبة] أصبح اكثر تأثيرا من قبل» . ويعمل سري نسيبة اليوم على ادارة مركز البـحـوث الذي يمـتلكه (المقدس) ومقره في بلدة رام الله ، اثر استقالته من وظيفته كمدرس في جامعة بير زيت بعد ان أغلقتها السلطات الاسرائيلية سنة ١٩٨٨ .

ان بعض الفلسطينيين يمـتلكون مـثل هذا الفـهم المعقد لسيكولوجية الاحتلال : الميـزان المتأرجح بين الاحـلام والواقع ؛ رؤى وطن شـخص ما مترافقة مع الوجود المبـتـذل في وطن شـخص آخر ، البحث عن الاستقلال ، ونضـالات الاذعان . ومثل حـيـاة طلبـتـه ، فـان ماضي سري كان صراعا بين واقعين : الواقع الذي ناضل من أجله داخل غـرف الصف ، وفي أحـلامه ، والواقع الثاني الذي يواجهه في الشـارع ، ويقـرر الروتين اليـومي لحـيـاته . في أحلامه ، يفاوض سري على فهم بين العرب واليـهـود ، في حين انه يُضرب في الواقع بســبب تجـرؤه على القـيام بمثل ذلك . في أحـلامه ، فان دولته ذات حدود مفتوحة ، والمنتوجات الفلسطينية تُشترى في أماكن تمتـد من بتـاح تكفـاه حـتى الخليج العـربي ؛ وفي الواقع يســجن لأنه جـاسـوس عـراقي. في أحـلامه يدرّس الفلسفة الاسلامية لطلبة اسرائيليين في الجامعة العبرية ؛ وفي الواقع فـان طلبـتــه هم الجنود الاسرائيليون أنفسهم الذين يوقفونه عند نقاط التـفتيش ويطلبون رؤية بطاقة هويته . في أحلامه يسافر بحرية بين الجزء العربي والجـزء اليـهـودي من مـدينة القـدس ؛ وفي الواقع يقضي أوقاتا صعبة وهو يقنع سيارة تاكسي بالعبور من القدس الشرقية الى القدس الغربية .

يقول سري الذي ولد سنة ١٩٤٩ في مـدينة القدس : «عشت طوال حياتي على الحـدود» . كـان ذلك بعـد مـرور سنة فقط على اضطرار والدته للهرب من مدينة الرملة بالقرب من تل أبيب ، كما يقول سري «كنتيجة لقيام دولة اسرائيل» . ومثل عـائلة الحسيني ، فان جذور عائلة نسيبة تعود مئات السنين الى الوراء . فقد كانوا مـلاكي أرض أثرياء ، ولكن في أواخـر سنوات ١٨٠٠ «ذبح الاتراك [العـثمانيون] كـثيراً من ابناء عـائلتي» كما يقول سري ، وفقدت عائلة نسيبة أراضيها . ويعترف قـائلا : «أشـعر باحساس قوي جداً بالانتماء الى مدينة القدس والى بلاد فلسطين . لقـد عـشت دائما وانا أشـعر بالتعاسة بسبب حقيقة ان اسرائيل اصبحت في المقام الاول» .

ويتذكر سري نسيبة حال المدينة المقدسة في سنوات الخمسينات حينما أصبحت الضفة الغربية جزءاً من الاردن ، وحينما كان يعيش بالقرب من الحائط الحجري العالي الذي قسم القدس الى قسمين : عربي وآخر يهودي . كان ذلك قبل ان يعين الملك حسين والد سري (أنور) سفيرا للملكة الاردنية الهاشمية لدى بلاط سانت جيمس ، وقبل ان يلتحق سري بالمدرسة الاعدادية البريطانية ، حينما كان يترعرع في رفاهية في بيت والده الرائع بسجاده الشرقي وأواني الكريستال ، الواقع على طريق نابلس على الجانب الآخر من شارع فندق اميركان كولوني الفخم . وعلى الرغم من انه انقطع عن الاسرائيليين وتربى على الاستياء منهم ، الا انهم كان لهم سحر غريب عليه . فقد كان ينظر من نافذة غرفة نومه الكائنة في الطابق العلوي عبر المنطقة العازلة حيث كان هناك قتال ضار خلال حرب عام ١٩٤٨ ، ليرى اليهود في القسم الغربي من المدينة . في بعض الأحيان ، وبدون أن يخبر والديه ، كان يتجول في المنطقة المجردة الخاوية ، ويلعب في مبنى مهجور تابع للامم المتحدة والذي كان يستخدم كمنزل متوسط بين الجانبين للدبلوماسيين الذين كانوا يعبرون جيئة وذهابا الى الجزئين : العربي واليهودي من مدينة القدس . وبالقرب من المبنى المتفسخ بنوافذه المكسورة وجدرانه التي ثقبها الرصاص ، كانت توجد كروم العنب ، حيث كان سري يتوقف في الغالب ليقطف العنب ، ويعود به الى بيته كغنيمة من الحدود الاردنية ـ الاسرائيلية .

وحينما شعر انه مغامر وجسور ، بدأ يحاول إلقاء نظرة عن كثب على اليهود الذين كانوا يسيرون في شارع صلاح الدين وينسلّون الى المدينة القديمة عبر بوابة دمشق المقنطرة التي بناها سليمان العظيم فوق الأسس التي ألقيت أصلاً في العصر الهيرودي . كان سري يعرف طريقه هناك ، وخاصة في القسم المسيحي . فمنذ القرن الثاني عشر ـ حينما استولى صلاح الدين على القدس من الصليبيين وعادت الى الحكم الاسلامي ـ كانت عائلة نسيبة تحمل المفاتيح كحارس لكنيسة القيامة المقدسة ، وهي واحدة من أقدس المزارات المسيحية ، والتي بنيت فوق الموقع الذي يقال بان عيسى المسيح قد صلب فيه . يقول سري : «انه كسب رئيسي» مشيرا الى ان عائلة نسيبة تفتح الكنيسة لواحد من اكثر الطقوس المسيحية مهابة ، وهي الليلة التي تسبق يوم عيد الفصح ، حينما تتوهج كنيسة القيامة بآلاف شموع النذور .

لكن سريا كـان يدرك ان ليس باستطاعته دخول الحي اليهودي القديم ، ولذلك كـان في بعض الأحيان يسير في ظل الجدران الحجرية العالية ، على امتداد الطريق ، بـدءاً مـن بوابة هيرود ـ المدخل الى القـسم الاسـلامي ـ مـرورا ببـوابة دمـشق ، وانتـهـاء بشـارع يافـا المؤدي الى بوابة يافـا . هناك ، وعند مدخل المدينة القديمة الواقع في اقـصى الناحـيـة الغـربية ، حيث تنتصب قلعة داوود كبرج للمراقبة على امـتـداد الممر المؤدي الى حائط المبكى حيث يعبد اليهود بقايا معبد هيكل سليمان ، كـان سري يتوقف ويحدق . ويستذكر قائلا : «عند نهاية المسير ، عند بوابة يافا ، يجب عليك ان تسـتـدير عائداً لان نهاية العالم كانت خلف تلك البوابة ... لقد كان ذلك غـريبـاً جـداً . اذكرك تسير نحوها ، لكنك بعد ذلك رأيت هذا الشيء الذي كان هناك : بوابة دخـول الى لا شيء . حـينما تكون في سن العـاشرة أو الثـانية عشرة ، فـان الأمـر يشـبـه حكاية أليس في بلاد العجائب حيث توجد هناك بوابة مقفلة ولا يمكنك الدخول عبرها» .

وكـوّنت عـجلة طفولته التي تحاول اختراق الجدار شعورا بالارتياح لديه حينما احتلت اسرائيل الضفة الغربية سنة ١٩٦٧ : «لقـد كنت مدركا تماما انه كان هناك جدار لانني عشت بالقرب منه . لذلك فان الشيء الذي سيطر فعلا علـيّ انه لم يعد هناك جـدار وان المدينة أصـبـحت مـوحـدة . وبطريقة غريبة ـ على الرغم من اننا ضربنا وأصـبـحنا تحت الاحتلال ـ كان هناك شعور بالرضى من حيث ان المدينة أصـبـحت مـوحـدة في النهاية ... والآن هناك جدار مرة أخرى ، وأنا الذي أقمته ، ونادراً ما أجرؤ الآن على العبور من خلاله» .

لم يكن الأمـر دائمًا بهذه الطريقـة . فحينما عاد سري الى الضفة الغربية بشكل دائم عام ١٩٧٨ بعـد أن قضى ما يزيد على العقد من الزمن في الخارج ، وافق على العمل في منصب اسـتاذ زائر في الجامعة العبرية ليدرس الفلسفة الاسلامية للطلبة اليـهـود ، وأرسل أبناءه جمال ، أبسل ، وبراق الى مـدرسـة فنون اسرائيلية حيث تـعـلـمـوا الرسم الى جـانب الاولاد والبنات اليـهـود . وفـيما بعـد ، سـجلهم عند موسيقيين يهود ، علّموهم كيفية عزف الفيولين ، والتشيللو ، والبيانو . وفي مرحلة مـا ، حـينما كـانت تجـرى في القـدس انتـخابات البلدية ، اقترح سري ان يخوض الـفلسطينيـون هذه المعـركـة للوصـول الى ذلك المنصب ، الامـر الذي كـان يعني المسـاعـدة على حكم المدينة التي كـانت اسرائيل قد ضمتها اليها كعاصمة لها . وفي

شهر تموز من عام ١٩٨٧ ، حينما اتصل معه سياسي من حزب الليكود ساعيا الى فتح حوار مع قياديي الضفة الغربية الموالين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، كان سري هو الذي أقنع فيصلا الحسيني بالانضمام الى المحادثات مع الاسرائيليين اليمينيين .

مع هذا ، فان الواقع أطل بوجهه البشع مرة أخرى في خريف عام ١٩٨٧ ، حينما تعرض سري الى الضرب المبرح على يد مجموعة من الطلبة الفلسطينيين بينما كان يغادر جامعة بير زيت . كان قد ألقى محاضرة عن الاحتمال والتسامح ، عارضاً آراء الفيلسوف الانكليزي جون لوك . وكأستاذ مساعد للفلسفة ، كان يدرك أن دروسه كانت رائجة بين الناس وتحظى بقبول واسع . وكدبلوماسي الى حد ما ، كانت له أيضا بعض اللحظات العالية على امتداد الشهور الماضية القليلة . فحتى لو ان جهود صنع السلام اخفقت وتم اعتقال الحسيني في شهر آب ، فقد ثبت ان التقدم يمكن ان يحدث تجاه اتفاق على الاعتراف المتبادل . وقد افترض ان تكون الاجتماعات التي عقدت مع موشي عميراف ـ عضو اللجنة المركزية لحزب الليكود الحاكم ـ سرية ، غير ان كلمة عنها تسربت بشكل ما الى الصحافة .

بينما كان سري يمشي في الرواق في هذا اليوم الحار من أيام شهر أيلول ، انتقل من أحلام لوكيان عن التعايش الى كابوس هوبسيان عن البغض . وفجأة ، ومن وسط الظلام ، ظهر خمسة رجال مقنعين وحاصروه بصمت ، ليضربوا رأسه بالزجاجات وليلكموا معدته بالعصي . وبدون أن ينطقوا بأي كلمة ضربوه ، ثم فروا ، تاركين اياه وحيدا ، ممدا على الارض ، وفي رأسه جرح بليغ ، وجسده ينزف ، وذراعه مكسورة . وقيل له فيما بعد ، ان ما حدث له كان نتيجة لقاءاته واجتماعاته مع الصهاينة . كان هناك من يعتقد انه عوقب على أيدي بعض المجموعات من داخل فتح ، غير ان سريا يقول انه لا يعرف من كان المسؤول عما حدث . يقول بلهجته البريطانية : «لقد هوجمنا من الجانبين ... من الممكن انها كانت مجموعة صغيرة قامت بالعمل من تلقاء نفسها ، أو من المحتمل انهم كانوا يعملون بناء على تعليمات شخص ما من الخارج . لا أدري» .

لكنه كان يدرك ان بعض تعليقاته الأخيرة قد فهمت خطأ وبعيداً عن سياقها الذي قيلت فيه . فقد لفت الانتباه لدفاعه وتأييده لقيام الفلسطينيين بالاعتراف

بوجود الدولة اليهودية ، والمطالبة بضم اسرائيل للمناطق المحتلة شريطة ضمان منح المواطنة لـ ١,٧ مليون عربي . ان هذا الأمر سيجبر الاسرائيليين على اتخاذ قرار فيما اذا كانوا يريدون دولة مزدوجة (ثنائية) الجنسية : عرب ويهود ، أو يفضلون اعطاء الفلسطينيين دولتهم المستقلة الخاصة بهم . يقول سري : «حينما قلت [دعوا اسرائيل تواصل الضم] لم أكن أتحدث عبثاً ... كنت أصف عملية سلوكية تطورية موجودة في الواقع» وقد جاءت أقواله هذه في اجتماع حاشد لحركة السلام الآن .

لكن الواقع الوحيد الذي جابهه في ١٩٨٧/٩/٢١ كان غرفة الطوارىء المعقمة في المستشفى الاسرائيلي ، وعشرات الغرز لتضميد جرح رأسه . ويصر قائلا : «لقد كنت شديد الحذر آنذاك . لم يختلف الأمر» . ويقول ان ما جعل الأمر مختلفا «هو خوفي من الاسرائيليين . فحيثما أذهب ، وحيثما أعود ، فانني أعيش في دولة خوف دائم . انني أعيش تحت رحمة مراقبة عدو أعتقد انه ذو ذكاء مفرط وعديم الرحمة جداً . يجب عليّ ان أراقب كل حركاتي وكل خطواتي وكل كلماتي . أسير وأنا ألتفت الى الخلف» .

نشأ سري وهو ابن لعائلة ارستقراطية في القدس ، وكان والده أنور رجل دولة متميزا ، اذ كان وزيرا في أول حكومة عموم فلسطين التي شكلها الحاج أمين الحسيني في غزة بعد حرب ١٩٤٨ ، وعضو اللجنة العربية العليا في القاهرة ، وزعيما في البرلمان الاردني ، وسفيرا للاردن لدى بريطانيا العظمى ، ووزير الدفاع الاردني . وقد ورث سري عن والده العقل والألمعية ، واكتسب ـ بالاضافة الى ذلك ـ قدرة والده على التفاعل مع اليهود . كذلك كانت لديه الميزة الثقافية المرتبطة بالثروة : فقد أنهى دراسته الجامعية في (كريست تشيرش كوليج) في اوكسفورد ، ونال درجة الدكتوراة في الفلسفة الاسلامية من جامعة هارفارد ، ويتمتع ايضا بالفضول الفكري الذي يميز الباحث الحقيقي .

ولم يكن أنور نسيبة ليمانع أبدا في دفع ابنه نحو الانخراط مع اليهود . ففي صباح يوم من أيام صيف سنة ١٩٦٨ قام الاب بقيادة مجموعة من اعضاء المجلس الاسلامي الاعلى للتفتيش على أعمال الحفريات الجارية تحت جبل معبد القدس على أيدي فريق من علماء الآثار الاسرائيليين . وحينما وقفت المجموعة

العـربيـة على قُنة الجـبل بالقـرب من الموقع ، أشار اليهم ميري بن ـ دوف رئيس الفـريق الاسرائيلي كي يقتربوا ويروا عشرات من المصنوعـات الاسـلامـيـة التي تم اكـتشافها . نزلت المجموعة ، وتقدم رجل واحد فقط ، وسأل من هم اولئك الناس الذين كـانوا يحفـرون ، فقيل له انهم متطوعون من أنحاء العالم . فسألهم العربي فـيما اذا كـانوا يقـبلون بينهم مـسلما في حـال تطوعـه . وأجابه بن ـ دوف انهم يرحبون به . وبالطبع، فان الرجل الذي كان يطرح تلك الاسئلة، كان أنور نسيبة .

في اليـوم التـالي أرسل لابنه سري البالغ من العمر تسع عشرة سنة آنذاك ليعود الى الوطن في اجـازة بعـد اكمال فترة دراسـتـه في بريطانيا ، كي ينضم الى عمليات البحث عن الآثار الاسرائيلية .

كـان أنور قـدوة لابنه سري من خـلال اشكال وأسـاليب مـتـعـددة . وكوطني فلسطيني فـخـور بذلك ، كـان يعـتقد ان من قصر النظر رفض الاجماع العربي . يقـول سري : «كـان والدي يؤمن بالالتـزام بالخط العـربي» ويسـتذكر انه حينما بحثت القمة العربية التي انعقدت في الرباط سنة ١٩٧٣ الاعتراف الرسمي بمنظمة التـحـرير الفلسطينية على انها «الممثل الشرعي والوحيد» للشعب الفلسطيني ، فان «والدي قال الشيء نفسه ، وليس بالضرورة لانه يؤمن به ، ولكن لأن ذلك كان هو الخط العـربي ... كان يؤمن ان من الاهمية بمكان ان يكون عربيا مواليا» . ويقول ان والده كان يؤمن بأنك «كعربي ، فان غايتك الاساسية هي فلسطين» .

كـذلك ، علمـه والده درساً آخراً ، وهو أهمية استغلال النظام ، وان يغمس المرء نفسـه في السلطة كـيـفما كـان شكل النظام ، من أجل دفع الطمـوحـات الوطنية الفلسطينيـة الى الامـام . ويسـتذكر سري انه حتى جورج حبش ـ مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وهي جبهة رفض ـ حاول ، ولكن بدون نجاح ، دخول البرلمان الاردني منتـخبا «مثل والدي تماما» . لقد كان نصف سكان الضفة الغربية ـ بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ـ يعـملون في الجهاز المدني الاردني . ويقول سري : «اليـوم يعـيش في فلسطين مليـونا نسمة ، فاذا كان ذلك [التشغيل] يتم من خلال حمل الهوية أو الجـوازات الاسرائيلية فليكن الامر كذلك» .

ولكن بعـد مـرور ربع قـرن على احـتلال اسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة ، فـان سريا لم يعـد مـتأكـداً بعـد هذا من ان والده كان على حق . يقول : في بعض

الاوقـات انه يرى الشـعب الفلسطيني يتحرك بنشوة سريالية ، اذ تسير أجسادهم الى الأمـام نحـو واقع الحـيـاة الاسرائيليـة ، في حين ان رؤوسهم تلتفت نحو حلم الدولة الفلسطينية .

ويوضح سري ان المعـضلة الفلسطينية هي تناقض بين الشعور والواقع ، وهوة تتـسع اكـثـر فـاكـثـر كل يوم . ويصـور الشـعـور على انه نمـو الهوية الوطنية الفلسطينيـة ، والواقع على انه انغماس متزايد في النظام الاسرائيلي .

ويتـساءل هذا الاستاذ الجامعي : «ما النظام ؟» . ويجيب : «انه كل شيء . انه : الضرائب ، التـجـارة ، التلفـزيون ، محطة الاذاعـة التي تستمع اليها ، الثياب التي ترتديها ، الناس الذين تنتظم معهم ، نظام البلاط الذي تتعامل معه . انه كل شيء ، بدءاً من شراء البنطال ، وانتـهاء ببيع سمك السلمون (الفسيخ) في المدينة القديمة ، مـرورا بالعـمل في بناء المستوطنات ، وانتهاء بكتابة المقالات . ان تسعين بالمائة مما نسـتـهـلكه اسرائيلي الصنع ، وكل شيء فـعلناه لم يكن من أجل اسرائيل وانما من أجـل الـبـقـاء ، ونـحـن فـعـلناه من خـلال دخـول النظام» . ويقـول : لم يقـبل الفلسطينيـون واقع العـيش في ظل اسرائيل فـقط ، ولكنهم ايضا أصبحوا جزءا من حـياة اسرائيل «فحينما أخذت باصات ايجد [الاسرائيلية] في البداية تأتي الى الضفة الغـربيـة لم يسـتخدمها الناس ... لقد أردنا دعم باصاتنا العربية» واليوم فانهم لا يسـتـخـدمونها فقط ، ولكن ايضا «فان العديد من سائقي هذه الباصات هم عرب من الضفة الغربية» .

وعلى نحـو مـشـابه ، فـان الفلسطينيين استسلموا على مضض لنظام المراقبة . فحينما انتهت الحرب عام ١٩٦٧ وتبعت الضفة الغربية اسرائيل ، لم يعد هناك أي صـحـيفة عربية تخدم الناس . ويقول : في ذلك الوقت دار جدال ومناقشات حول امكانيـة اصـدار صـحـيفة عربية : «قال البراغماتي [نريد صحيفة باللغة العربية] وقـال الايديولوجي [اذا كنا نريد إصدار صحيفة ، فان ذلك يعني ان علينا الذهاب الى السلطات المسـؤولة وطلب ترخـيص منهم ، وان القـيـام بذلك يعني اضـفـاء الـشرعـيـة عـلى تـلـك السلطات]» . ووافق البراغماتي على رفض فكرة اللجـوء الى السلطة ، لكن الاكـثـر اهميـة في الأمـر انهم رأوا ان هناك حاجة الى صحيفة عربية تخصـهم . واليـوم ـ كما يقـول سري ـ لا تصـدر صـحـيفتهم فقط ، ولكن اكثر

الايديولوجيين تطرفا يذهبون الى مراقبي المطبوعات للحصول على موافقة لنشر مقالاتهم : «ان ذلك يعني ان هناك انغماسا بطيئا ، وان هناك قبولا بطيئا ، وان هناك تأقلما مع النظام» .

لكن سريا يعتقد ان هناك تناقضا آخذاً بالازدياد بين ما يمارسه الناس وبين ما يفكرون فيه . ويشير الى الصبي الفلسطيني الذي اشترى علبة دهان ، وكان الملصق عليها يشير بوضوح الى أنها : صنعت في شركة طمبور ، وهي شركة يهودية . ومع ذلك ، فان الصبي لم يفكر مرتين قبل استخدام الدهان من أجل ان يكتب به على الجدران عبارات معادية لاسرائيل : «حين يصبح الناس في الواقع جزءاً من النظام فانهم ينتمون ويطورون في شعورهم شيئا مختلفا كلية : نوع مستقل من الهوية الوطنية» . لكن التناقض لا يمكن له ان يستمر : «فعاجلا أم آجلا ، سيحدث أمر من بين اثنين : إما أن يتجه الشعور نحو الواقع ، او أن يتغير الواقع ليتناسب مع شعورك» . وعلى الصعيد العملي ، فان الشروط السياسية هناك يجب ان تكون «حقوقا متساوية في دولة واحدة» أو يجب ان تكون هناك دولة فلسطينية مستقلة . ان فشل تحقيق أي من هذين الأمرين كان الشرارة النفسية التي أشعلت الانتفاضة واعطتها منطقها الداخلي كما يقول سري .

ويوضح ان استراتيجية الانتفاضة كانت معبرة منذ البداية باعتبار انه كان لها جانبان متكاملان ، أولهما «ما يسمى التحرر» من السلطات من خلال التوقف عن التوجه نحو العمل ، ورفض دفع الضرائب للاسرائيليين ، ومقاطعة البضائع الاسرائيلية ، ورفض الدفع من أجل أشياء روتينية مثل رخص السوق الاسرائيلية. يقول سري : «كان ذلك بمثابة حمل مقص وقطع هذه العلاقات كلها التي تمت اقامتها على امتداد الاثنتين وعشرين أو الثلاث والعشرين سنة الماضية» . لكنك ـ كما يضيف قائلا ـ تصل بعد ذلك الى مرحلة حيث تصبح بحاجة الى ايجاد البديل، و«كان البديل في أذهان الناس إقامة دولة ، واقامة بنية . وهكذا ، فان أحد جوانب الفكرة (أسباب الانتفاضة) كان التحرر وكان الجانب الآخر البناء» .

وبالفعل ، فان سريا يعتقد ان دخول مفاوضات تؤدي الى فترة خمس سنوات من الحكم الذاتي ، يمكن ان تفضي الى حالة خيانة جديدة بالنسبة الى الفلسطينيين . ويقول : ان الحكم الذاتي «فكرة خطيرة وغير مقبولة ، اذ انها ستريح الاسرائيليين

من الاهتمام بامـور الحـياة اليومية في المناطق المحتلة دون ان تخسر السيطرة على تـلك المناطق ، ودون اعطاء أي سلطة أسـاسـيـة للفلسطينيين» . وهو يرى ان من الواجب على الفلسطينيين ان يكونوا قـد تحـركـوا بشكل أسرع من أجل أخـذ زمام السـيطرة على حياتهم : «يجب علينا ان نسبق المحادثات الحالية من خلال الامساك بالحكم الذاتي من طرف واحد ، ومن خلال ايجاد حكومة مؤقتة ، ويجب علينا أن لا نجـعل منهـا مـوضع مـفاوضات . كان من المفروض ان نقيمها قبل سنتين أو ثلاث سنوات» .

وحـينما أعلن الفلسطينيون داخل المناطق المحتلة اعلان الاستقلال والذي ساهم هو في ايجاده ، يوضح سري ان ذلك كـان امـرا واقـعـا ؛ فـقد كان على القيادة في الخـارج ان تروض نفـسـهـا مع الواقع الجديد : «لقد حوصرت القيادة في الخارج فـجأة بحـقـيـقـة ان قـيادة الداخل ، قيادة الانتفاضة ، كانت بشكل ما الى جانب الاعـلان . لـقـد أمـسـكت بكل تخيـلاتهم في الوقت المناسب ... وتَقَـبَّـل الناس في الخارج الفكرة» .

وعلى نحو مماثل ، يدافع سري عن تشكيل اللجان السياسية ، التي وجدت دون مـوافـقـة مـسـبـقة من قيادة م. ت. ف. في تونس ، وبدون علم الوفد الفلسطيني المتـوجـه الى مـؤتمر السـلام في مـدريد ، اذ يقول : «لقد فوجىء فيصل بالاعلان [حـينما عـادوا من مدريد] و ـ كما اكتشفت فيما بعد ـ لانه لم يكن لديه أي فكرة عن الموضـوع كله ... من المحـتـمل ان تجـد الامـر مـفاجئا اليوم ، ولكن ذلك كان مـشكلة الاتصـال» . ان الناس الذين أرسلهم الى جسر أللنبي لاخـبـار الحـسـيني والآخـرين لم يصلوهم على الاطلاق : «لقـد اعتقدوا ان من باب الادب إخباره ومن الجـيـد القـيام بذلك ، ولكن ليس بالضرورة . ولم يفكر أحد في ان ذلك سوف يثير نوعا من ردة الفعل» .

وقـد اعلنت كـافـة الفـصـائل المسـتـثناة ـ بما في ذلك حـزب الشعب (الحزب الشـيوعي سابقا) وجناح ياسر عبد ربه (من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين) ـ احـتـجـاجـها بصوت عال . ويعترف سري بان الهدف الرئيسي من وراء تشكيل اللجـان كان توحيد مؤيدي فتح في المناطق و«ايجاد ارتباط ـ نوع من الحوار ـ بين النشطاء السـيـاسيين على مستوى القاعدة وبين الفريق المفاوض» . لقد كان هناك

مئات من القيـاديين المحليين الذين شعروا ان من المفروض ان يكونوا مشاركين في مـؤتمر مـدريد ، وعلى نحـو خـاص محنكي مخيمات اللاجئين ، الذين شعروا ان هناك الكثير من الاعـضـاء المنعمين والاكاديميين . ويقول زياد أبو زياد أحد الذين ساهموا مع سري نسيبة : «لقد شكلنا هذه اللجان لارضاء الناس الذين شعروا انه تم تجـاهلهم أو استبعدوا أو أهينوا بسبب انه لم يكن لهم دور كانوا يعتقدون انهم مؤهلون له . لقد حاولنا جعلهم منخرطين ومنهمكين في العملية السياسية» .

لكن الفـصـائل الاخرى اعتقدت ان منظمة فتح كانت تحاول اغتصاب السيطرة على العـملية بعيدا عنهم . ويعترف سري «ان ذلك كان أمراً واقعاً الى حد ما ... فما لَنا لَنا ، وقلنا لهم أقـيـمـوا لجـانكم وعند ذلك يمكننا الاندماج ... والا فان ذلك لن يجدي ... اذا أسـست شـيئا ، واذا حاولت ان تؤسس شيئا بمشاركة آخرين ، فان ذلك لن يجدي أبدا» . لو اننا جلسنا لبـحث الأمـور اكـثـر مما فعلنا ، فانه ما كان ليـتم ذلك الأمـر أبداً مـشيراً الى المحـاولات المبكرة لاقامة حكومة مؤقتة . ويوضح سري ان تلك المحـاولات أخفقت لأن «المحادثات جرت مع أناس كثيرين ذوي صلة بالموضوع» .

وقـد رأى الاسرائيليـون في حـركـة نسيبة ـ ابي زياد تحديا لسلطة الحسيني ، ومحاولة لاغـتصاب مكانة قائد فتح في المناطق المحتلة من خلال ايجاد قاعدة دعم شـعـبي . يقول أبو زياد : «حاول الاسرائيليون تصوير ذلك على انه معركة شبيهة بالمعركة بين ليفي وشامير ؛ لقد وضعوا سريا ضد فيصل» ويضيف بان ذلك هراء «فنحن نعـمل بتناغم تام» . وتنتشر مـائتـا لجنة سياسية في مختلف انحاء الضفة الغـربية وقطاع غزة . وعلى الرغم من المحاولات الاسرائيلية لمنعها ، الا أنها «تجتمع طوال الوقت» حسب ادعاء ابي زياد .

ان أفكار سري عن التحرر والبناء هي واقع جديد يحل محل الواقع القديم الذي كـان مـسـيطراً . فـثمانيـة وعشرون لجنة من اللجـان الفنية تم تشكيلها من قبل مـؤيدي فـتح من أجل الاعـداد للحلول مكان الادارة المدنيـة الاسرائيليـة للمناطق ، ويعـمل الخبراء الفلسطينيون في مجالات متعددة ، مثل : الصحة ، المال ، القانون ، والبـيئة ، وأصبح سري رئيس اللجان ، في حين ان أبا زياد واحد من أربعة أعضـاء في الهيئة الحـاكـمـة ، ويعترف انهم «يمـثلون نوعـا من البنيـة التـحـتـية للادارة

الفلسطينية المستقبلية» جنين الحكومة المؤقتة . ويضيف : «نحن لا نطلب الاذن من الاسرائيليين» .

ويقول سري بلغته الانكليزية وهو يسترخي في شرفة منزله المكون من طابقين في بلدة أبي ديس ، وهي قرية في ضواحي القدس الشرقية : «كنت أقول لبعض الناس في الماضي القريب ، ومنهم زوجتي ، ان الناس يعتقدون انني حيوان سياسي، ولكنني في الواقع لست معنيا بالسياسة على الاطلاق . وإن تسألني فانني غير مهتم تماما . اذا أخذتني الى الخارج من هنا فباستطاعتك ان تضعني في الشانزلزيه أو في أي مكان آخر ...» . وعوضا عن برج ايفل ، ومتحف اللوفر والحانات الحديثة ، فانك ترى من شرفة منزله قبة الصخرة ، التي ـ مثل أي شيء آخر في منزله ـ تذكرك بالواقع الحالي الذي لا يستطيع الهرب منه . فالى جوار الكراسي المصنوعة من الرُّوطان الموجودة في الشرفة ، هناك أصص الورد ، والبيتونيا والقلب الدامي ، والرودودندرون . اما مدخل غرفة المعيشة فانه ذو منظر هلامي ، مثل حياته . وهناك كتب في كل مكان ، وحمالة أشرطة فيديو ، من بينها فيلم (ماكس المجنون) وهاتفان لاسلكيان ، وكاميرا فيديو ، ومنظار . وهناك أيضا ورود على طاولة القهوة المزخرفة بالموزاييك ، وعلى كل طاولة هدايا من الاصدقاء والأقارب . كان سري وعائلته يحتفلون بولادة طفلهم الرابع ـ أول أنثى ـ وقد أسماها سري وزوجته لوسي التي تتكلم العربية بطلاقة (نزهة) .

يقول سري الذي يحاول بصعوبة القيام بواجباته تجاه عائلته : «انه لأمر منهك وأشعر شخصيا بالانهاك» . انها معركة مستمرة بين ان يصبح منغمسا في سياسة الاحتلال وبين الحفاظ على الهوية التي لم تحدد تماما من خلال النزاع العربي ـ الاسرائيلي : «كنت أقول لشخص ما في الشارع هذا اليوم وهو مستنفد كلية : [وما أهمية ذلك . انه ليس مهما جداً على الاطلاق]» . لكنه يعترف ان الحياة قد التفت عليه بحيل غريبة ولذلك فانه غير قادر على الهروب من قبضة السياسة : «ليس لانني مهتم بالسياسة ، ولكن لانك تشعر ان هناك حاجات معينة يجب قولها ولا تستطيع ذلك» .

في مرحلة ما من حياته ، وبعد أن حصل على شهادته الجامعية من جامعة اوكسفورد عام ١٩٧١ ، كان سري مثبط الهمة حينما تركه استاذه الذي كان

يعـمل مـعه ليعلّـم في جامعة هارفارد ويستذكر : «كنت أريد أن أصبح مليونيراً» . ويعترف سري انه بتخلي استاذه عنه ، وهو باحث مصري في تاريخ العلوم ، فانني «ضـعت اكاديميا وشعرت انني فقير ماليا . أردت الزواج وشعرت انني لا أستطيع ذلك كطالب» . ولذلك ، فـانه خضع لاستعطاف الاقارب في (أبو ظبي) الذين دعوه للحضور الى هناك ، ويستذكر قولهم له : «هناك عمل بانتظارك وشقة وسيارة» .

وحـال وصوله الى هناك ، توجه سري للعمل في مجال العلاقات العامة في شركة نفط أبو ظبي ، وكـان يكتب زاوية اسـبـوعـية لصحيفة (ابو ظبي نيوز) . يقول : «كنت أحصل على الكثير من المال وبأكثر مما حصلته حتى بعد حصولي على درجة الدكـتـوراة وبعـد التـدريس لسنوات عـديدة في جـامـعة بير زيت . لم أكن مكتفيا بالحـصـول على دخل فقط ، ولكنني كنت ابحث عن فرص للحصول على الاموال ، امـوال كثيرة ، وقلت لنفسي : اذا بقيت هنا فيجب علي ان أجد طريقة لأجمع مليونا خـلال خمس سنوات ، والا فـانها لا تسـاوي شـيئا ، بغض النظر عن مـقـدار ما سأحـصله شـهـريا من المال . ولم أسـتطع ايجاد طريقـة لجـمع المليـون فقررت المغادرة» .

في عام ١٩٧٤ ، تقـدم سري بطلب الى جـامـعة هارفارد من أجل الحصول على منحـة لمتابعة دراسته في مرحلة الدكتوراة في الفلسفة الاسلامية . وكانت هي الجهة الوحيدة التي تقدم اليها بطلبه : «قلت لنفسي [إن لم أحصل عليهـا ، فلن أذهب الى مكان آخـر]» . وتم قـبوله ، وحصل على المنحة ، لكنه واصل دعم نفسه من خلال تدريس بعض الطلبـة ـ مـدرس غير مـقـيم في كـوينسي هاوس ـ وممارسة أعمال أخـرى تراوحت بين القـيـام بمـهارات المراقبة الليلية مع دورية شرطة هارفارد الى غسـيل الصحون في مطعم محلي . ويتذكر دافيد بولاك ـ وقد كان رفيقه في الكلية وهو اليـوم رئيس مـديرية بحـوث الشرق الادنى في وكـالة المعلومـات الامريكية ـ سريا على انه كـان «قليل النشـاط ومـيـالا على نحو دقيق الى المنحة» ويقول : «ان سريا كـان جديا ، محل ثقة ، عميق التفكير ، مع ميل الى الدعابة ولكن بغير حماقة على الاطلاق . ولا تستطيع القول فيما اذا كان محاصراً بالقضية الفلسطينية» .

في عام ١٩٧٨ حصل سري على درجة الدكتوراة ، وعاد الى الضفة الغربية حيث بدأ التـدريس في كل من جـامـعـة بير زيت ، والجـامعة العبرية . وفي بداية سنوات

الثمانينات كـان نشطاً في مجال تأسيس نقابة المعلمين في بير زيت ، وانتخب لثلاث دورات سنوية متـتـاليـة كـرئيس لنقـابة الكليـة والمدرسين هناك . كما ساهم في تأسيس اتحاد العاملين في قطاع التعليم في الضفة الغربية كلها .

مع بداية الانتـفـاضـة وجـد سري نفسه منجذبا مرة أخرى وبشكل قاس نحو الانخـراط في السـيـاسـة الفلسطينية . وبعد أن تعرض للضرب في بير زيت بسبب قـيامه بالمساعدة لترتيب لقاء مع موشي عميراف ، أصبح هدفا لكل من الاسرائيليين وبعض الفلسطينيين . وفي شهر أيار ١٩٨٩ ظهر اسمه كمتآمر شريك غير متهم في محاكـمة أربعة من النشطاء الفلسطينيين . وزعمت المحكمة العسكرية انه كان قائد القـيـادة الوطنيـة الموحـدة للانتفاضة ، وهي المجموعة السرية التي قامت بتنسيق وتنظيم الانتـفـاضـة . وزعم المدعون العامون انه كان يساعد في تمويل الانتفاضة قـائلين انه حـول اكثر من ١٥٠,٠٠٠ دولار مـن م. ت. ف. الى انـصـار فـتح في المناطق . وقـد نفى سري هذه الادعاءات . ومع ذلك ، فانه لم توجه ضده أي تهمة بسـبب قـيام الحكومة الامريكية بتقديم احتجاج رسمي ، وفقا لما زعمته الصحافة الاسرائيلية .

ان العلنيـة التي اسـتـقبلت بها القضية لم تساعد سريا فيما يتعلق بعلاقته مع مجتـمعه ، ولا كذلك الحقيقة التي لم يقدمها الى المحكمة على الاطلاق . وبعد مرور فترة قـصيرة على ذلك ، أصـدرت مجمـوعـة غير مـعـروفة تطلق على نفسها اسم «الجـيش الفلسطيني الشعبي» منشورا اتهمت فيه سريا بانه استخدم تمويلات م. ت. ف. لقـضـاء عطلة مترفـة في اوروبا . ووسـمه المنشور بـ «الدكتور الاكاديمي اللورد سري نسـيـبـة» . وادعى المنشـور ان عطلتـه كانت «هروبا تحت غطاء من الشين بيت الصـهـيـوني بعد أن أصبح معروفا ان الاموال التي تلقاها ليقدمها الى القـوات الضـاربة قـد اخـتفت» . وقال المنشور أن يدي سري نسيبة كانتا «بيضاء ولم تلطخا بقذف الحجارة» .

بعـد بضـعـة أيام ، ظهر منشور آخر يدعي ان المنشور الاول كان مزورا ، وان الشين بيت هي التي كتبته من أجل تشويه سمعة البروفيسور الفلسطيني . وخلال اسـبـوع ، ظهرت مقالة في المجلة الرئيسة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية وهي مجلة (فلسطين الثـورة) تؤيد سريا ، وتتـهم الاسـتـخـبـارات الاسرائيليـة بوضع

مـسـودة وتوزيع المنشـور الاول . وكان عنوان المقالة : «أشرقت الشمس وظهرت الحقيقة الى النور» . ومع ذلك ، فان المشاكل التي كان يواجهها سريا لم تنته .

فـفي الخـامس عشر من شـهر حزيران ، وبعد مرور شهر على ورود اسمه في المحكمـة كـمـتـهم ، اتخذ الاسرائيليـون اجـراءات صـارمة ضده . فبناء على أوامر عـسكرية ، قـامت شرطة القـدس بمصادرة أوراق من مكتبه ، واغلقت أبواب مكتب بيت المقـدس للخدمات الصحفية ، وهو مكتب خدمات اعلامية كان سري يديره من أجل المراسلين والدبلومـاسـيين الأجـانب . وجـاء في أمر المحكمة ان سريا استخدم المكتب لايصـال تمويلات غير مشروعـة الى الانتـفـاضـة . وقد جاءت الخطوة بعد مـرور ثلاثة أسابيع على قيام السلطات الاسرائيلية بمنع نشر التقرير الذي يصدره بعنوان (تقرير الاثنين) وهو نشرة اسبوعية تصدر باللغة الانكليزية تقدم تحليلات عن أحداث الانتفاضة . وقد صدرت الاوامر باغلاق المكتب لمدة سنتين .

وفي مـقـابلة مع مـراسل هآرتس جـدعون ليفي ، سئل سري عن التهم الموجهة اليـه ومـفادها ان يديه بيضاء جدا ، فقال : «لا أعتقد ان يدي أي شخص يمكن ان تكون بيـضـاء جـداً ، بل يمكن دائما أن تكونا هما الأبيض» . وسأله المراسل فيما اذا كانت لديه خطط للهجرة الى بلد آخر ، فقال سري : «من وجهة نظر شخصية ، فـان من المحتمل ان يكون الأمر كذلك ، ولكن بالنسبة الـيّ فان القضية غير واردة ... انني منغـرز هنا سـواء أكان الأمر أفضل أم أسوأ . وليس لدي خيار» . غير ان الهـجمات الـشـخـصـيـة ضـده تركت آثارها على نحـو ظاهر ، اذ يقـول لمراسل الصحيفة الاسرائيلية : «يجب علـيّ أن أرى نفسي مثل كل شخص آخر ، ويجب ان لا أسمح لنفسي بالقيام بأشياء لا يستطيع الآخرون القيام بها» .

وطرح عليـه سـؤال فـيما اذا كـان قـد غير تفكيره فـيما يتعلق بمحاولة تغيير المجـتـمع الاسرائيلي من الداخل لا من خـلال اقـامة دولة مستقلة ، فقال : «حينما كنت أنظر الى العـمليـات التي كانت تحدث في الضفة الغربية وغزة خلال السنوات العشرين الاولى من الاحـتـلال ، رأيت ان هناك عملية اندماج في المجتمع الاسرائيلي ، وكـانت مـتناقـضة مع الأهداف الموضوعة للاستراتيجية الفلسطينية التي دعت الى عـدم الاندمـاج ... أعتقد ان هذا الوضـع الشيزوفراني لا يمكن ان يستمر الى وقت طويل . ومن أجل ردم الهوة ، كـانت هناك حـاجـة الى تغـيير أحـد المكوّنين : إمـا

الانفـصـال عن النظام الاسرائيلي ـ شيء من قبيل ما حدث في الانتفاضة ـ أو تغيير الاستراتيـجية المعلنة ، وبذل محاولة للاندماج في النظام الاسرائيلي ... أعتقد ان ذلك مـا يزال قـابلا للتطبـيق ... وبكلمات أخـرى : أعتقد انه اذا كانت استراتيجية عدم الاندمـاج سـتـخـفق ، فـعندذاك من المحـتمل ان الفلسطينيين سيعملون على تغيير اتجـاههم ويقولون : لم نستطع ذلك ، وبالتالي دعنا نستفيد من الاندماج في النظام الاسرائيلي» . وسئل فـيما اذا كـان مـثل هذا الامـر سيقود وبشكل حتمي الى دولة مـزدوجـة ، فأجـاب سري : «بلا ريب اذا لم نتـوصل الى اتفـاق على دولة ثنائيـة التقسيم خلال خمس أو ست سنوات ، فان ما سيحدث في الواقع ـ وليس مهما ما تسميه ـ هو دولة مزدوجة الجنسية غير ديمقراطية» .

لقـد أدلى سري بهذه الاقـوال لصـحيفة هآرتس في خريف عام ١٩٨٩ . ووفقا لبرنامجه الزمني ، فـان من المفروض على الفلسطينيين ان يحصلوا على استقلالهم مع حلول ١٩٩٥ أو أنهم سـيـواجـهـون الضم الاسرائيلي . ويحذر من ان سـاعة قـيـاس الزمن النفـسية تدق . ويوضـح «ان الجماهير كلها أصبحت متطرفة نتيجة للاحـتـلال الاسرائيلي المسـتمر ... وعلامة هذا [التغيير] ان المزيد والمزيد من الناس يتـجهون نحو الاصولية الاسلامية ... ان المرء لا يستطيع تقدير أهمية ذلك» ولكن عليه ـ كما يحذر ـ ان يرسم النتيجة الملائمة .

والرسـالة التي أراد ايصـالها مـفـادها انه بينما مـا تزال فكرة دولة فلسطينية مـسـتـقلة تجـتـذب غـالبية الفلسطينيين داخل المناطق المحتلة وخارجها ، فان من المحـتـمل ان لا تدوم الفكرة اكـثر من هذا : «بامكانك اليوم ان تبيع هذه الفكرة الى الناس ، ولكن ليس لاولئك الذين أحـبـوها ... ان الاسـتـعداد النفسي الوطني لحل يتمثل في دولة ثنائية الجنسية ليس عنصرا دائما في النفسية الفلسطينية ... انه الآن في قلب الفلسطينيين ، لكنه سرعان ما سيتلاشى ان لم تكن هناك استجابة لشعور المكاشفة هذا ... انه يشبه النجمة أو المذنب الذي يقترب ثم لا يلبث ان يذهب بعيدا وعلى المرء ان يلتقطه حينما يكون قريبا من محيطه» .

لم يهيء سري نسـيـبـة شيئا لمناوشته الاكثر حداثة مع السلطات الاسرائيلية . كـان يعـد أولاده للنوم حـينما طرق رجال حرس الحدود باب منزله الواقع في بلدة أبي ديس ، عند حـوالي الساعة الحادية عشرة والربع من مساء يوم ٢٩/ ١/ ١٩٩١

أي بعـد مرور نحو اسبوعين على بدء العراق اطلاق صواريخ سكود على حيفا وتل أبيب . كـان قـد أُطلق ستة وعشرون صاروخا خلال سبع هـجمات على امتداد تلك الايام الاثني عشر ، وقـتل جـراء اطلاقـها اربعة اسرائيليين ، كما جرح نحو مائتي اسرائيلي . كـان حظر التجول ساري المفعول ، غير ان الاسرائيليين كانوا لا يريدون المـخـاطـرة ، فـعـززوا القـوات المرسلة الى هذه المهـمـة بجنود من جـيش الدفـاع الاسرائيلي ، الذين قـامـوا بهذه الخطوة غير الاعـتـيادية ، اذ حاصروا المنزل في ابي ديس ، وقطعـوا حـركـة السير المدنيـة . حـينما فـتح سري البـاب واجـهه ضابط الاعـتـقـال الذي أعطاه ورقـة مطبوعة : أمر توقيف اداري موقع من وزير الدفاع مـوشي آرنس . وأدرك سري ما كان يعنيه ذلك : انه على وشك الذهاب الى السجن، وان مـن المـحـتـمل ان يسـجن دون أن توجـه اليـه أي تهم ، ودون ان يقـدم الى المحـاكـمة ، ولمدة ستة شهور أو أكثر . قال سري لصحيفة الواشنطن بوست فيما بعـد : «انتظروا ريثما اجمع حـاجياتي . كانوا هادئين . لم يصرخوا أو يصيحوا أو أي شيء . كـانوا مـهـذبين جـداً . وتطوعت زوجـتـه لوسي لمسـاعـدته في توضيب أغـراضـه محاولة التأكد من وجود قمصانه المعرقة التي يفضلها ، وجاكيت سبور وسترة سـمـيكة لليالي الشتاء الباردة . أما أولاده : جمال ، أبسل ، وبراق ـ وكما تعـودوا التصرف ـ فقد وقفوا صامتين ، يراقبون ما يجري ، والدموع في عيونهم . ويسـتذكر سري : «لقد كانوا قلقين جدا ... قلت لهم ان يعتبروا ذلك مثل واحدة من رحلاتي التي كنت أقوم بها الى الخارج» .

في اليـوم التـالي أصـدرت الحكومة بيانا تتهم فيه سريا بانه جاسوس للعراق . وزعم البـيـان ان سريا مـتـورط في «نشاطات تخريبية» من بينها «جمع معلومات أمنيـة لصـالح المخـابرات العـراقـيـة» . كما اتهم بانه يقـوم بايصـال معلومات الى «عناصر في الخـارج» تابعـة لمنظمة التحرير الفلسطينية يعملون لصالح العراقيين . ويقـول اوري نير مـراسل صـحيفة هآرتس مستذكرا : «بالنسبة الـيّ ، فقد كانت تلك صـدمة عميقة ان يتهم هذا البروفيسور من بير زيت بالتجسس ... ان لم يكن ذلك الأمر مأساويا ، فانه كان مضحكا» .

وأصدر سري بيانا من سجن الرملة ، نفى فيه ان يكون قد تورط على الاطلاق في أي عـمليـة جمع مـعلومات استخباراتية «لصالح أي حكومة أو منظمة» داحضا التهم الموجهة اليه بانه جمع أو قدم معلومات الى العراق . يقول مارك هيللر ، وهو

باحث اسرائيلي تعـاون مع سري على تأليف كـتـاب بعنوان (لا أبواق ولا طبـول) : «ان سريا فـعل شـيئا يتصف بالغباء اكثر من كونه يتصف بالاجرام فعلا» . وعلى مـا يبـدو ، فـان الاسرائيليين قـامـوا بمـراقبة مكالمة هاتفية من السفير العراقي في تونس الى نسـيـبة ، وزُعم انهم سمعوه يصف المواقع التي سقطت عليها صواريخ سكود في تل أبيب . وقد حدد نسيبة مواقع آثار الصواريخ «بدقة متناهية» على حد زعم رعنان غـيـسـان المتـحـدث العـسكري الاسرائيلي ، الذي أخبر الصـحفيين ان الفلسطيني البـالغ من العـمـر واحـدا واربعين عاما قد تصرف في الواقع كمستطلع لصالح العراقيين ، ممكنا اياهم من تصحيح أهدافهم في عمليات القصف اللاحقة .

وكـانت هناك مـوجـة احـتـجـاج عنيفة فورية ، امتدت عبر المحيطات ، فاعلنت منظمـة العـفـو الدوليـة (أمنسـتي) ان نسيبة «سجين ضمير» . وظهرت في مئات الصـحف مـقالات وافتتاحيات تنتقد اسرائيل ، بما فيها صحف : نيويورك تايمز ، وواشـنـطـن بوست ، ولوس انجلس تايمـز . وفي اسرائيل ، انتـقـد زعماء الجناح اليـمـيني رئيس الوزراء شامير قائلين انه كان من المفروض ان يطرد نسيبة لا ان يسـجن فـقط عـدة شهور . وقال افرايم سنيه ـ الحاكم العسكري السابق للضفة الغـربيـة ونائب وزير الخارجية الحالي ، ومستشار الوفد الاسرائيلي المفاوض ـ انه اذا كـانت هناك دلائل دامغة ضد نسيبة ، فان الحكومة ملزمة بتقديمه الى المحاكمة بسرعـة : «فان لم يكن الأمر كذلك ، فان هذا يعني ان الهدف سياسي» . كذلك فان مـرغـريت توتويلر المتـحـدثة باسم الخارجية الامريكية قالت الشيء نفسه : «يجب الاعـلان عن التـهم الموجـهـة ضد الدكتور نسيبة ، وان يعطى الفرصة للدفاع عن نفـسـه امام المحكمة» . وطالب متحدث باسم وزارة الخارجية البريطانية ان يعطى نسـيـبة حق المثول امام المحكمة ليتمكن من سماع التهم الموجهة ضده . في الوقت ذاته أعلن صـائب عريقات ، وهو استاذ في جامعة النجاح في نابلس : «ان هذا الامر رسـالة الينا نحن الفلسطينيين المعتدلين ، ومفادها : [يمكنكم ان تنسوا المفاوضات بعد الحرب لاننا سنعمل على تأكيد انه لا أحد هناك للتحدث معه]» .

ومـثل الاربعة عشر الف فلسطيني الآخرين الذين سجنوا بدون اي تهم منذ بدء الانتـفاضة ، فان سريا لم يعط أبدا أي تفاصيل عن التهم الموجهة اليه ، ولم يقدم الى المحـاكـمـة . وعـشية اعتقاله ، فان نشاطاته لم يبد انها كانت متناغمة مع أي محاولة لتـقويض أمن اسرائيل . لقد قضى سري بعد ظهر ذلك اليوم (يوم اعتقاله)

مع غـاليـا غـولون واعضاء آخرين من حركة السلام الآن ، الذين حضروا الى بيته لاقناعـه بشـجب الهجمات الصـاروخـيـة العـراقية . ويقول مردخاي بار أون الى مـراسل نيـويورك تايمز أنطوني لويس : «قال سري انه على استعداد لشجب قتل المدنيين في أي مكان سـواء أكـان في تل أبيب أم في بغداد ... لقد كانت الفكرة تتمثل في تبادل رسائل عن كيفية رؤيتنا للمستقبل» .

من المحـتـمل ان لا يعـرف أحـد ابدا فـيما اذا كـان نسيبة قد تلقى اتصالا من السـفير العـراقي في تونس ، واذا كان الامر كذلك ، فلا يعرف فيما اذا كان قد قام مـتـعمدا بنقل معلومات عن المواقع التي قصفتها صواريخ سكود العراقية ، ام انه كـان فقط يصف المنظر الذي بثه التلفزيون الاسرائيلي . ومع ذلك ، فان مدة سجنه قطعت بسرعة . ففي شهر شباط ، وبعد انتهاء حرب الخليج بفترة قصيرة ، أمرت محكمـة منطقـة القـدس بتـخـفـيض مـدة توقـيف سري الى ثلاثة شـهور . وقد اسـتشهدت المحكمة بطبيعة الاثبات الموجود في ملف البوليس السري ضده ، ولكن لم تقل شـيئا عن مضمونه . وفي ٢٩/ ٤ اطلق سراحـه ، أي بعـد ثلاثة شهور من سجنه .

يقـول سري انه حـينما كان في السجن عمل على بروفات كتابه . ومن الصعوبة بمكان اصـدار أي حكم عن أثر فترة السجن عليه ، لكنه بدا أكثر تصميما من قبل بعـد اطلاق سراحـه على نقض هزيمـة العـلاقـات العامة التي عاناها الفلسطينيون خـلال حرب الخليج . ففي شهر تشرين الثاني ١٩٩١ ـ خلال تقييم نتائج مؤتمر مـدريد ـ قـال امـام ندوة اقـيـمت في واشنطن دي. سي. نظمـهـا مركز التحليلات السـياسية لفلسطين ان «استراتيجية غصن الزيتون ... هي استراتيجية قاسية جداً بالنسـبة الى الفلسطينيين كي يتبعوها ، واعتقد ان من الواجب عليهم اتباعها بشكل مـتـعـمـد اكـثـر» . وأضـاف ان اشكال الحـوار كلها يجب ان تُسـرَّع : «ان أحد اهتمامـاتنا الرئيـسـة يجب ان تركِّـز على محاولة التأثير في الرأي العام الاسرائيلي من خلال أعمال مشتركة : تظاهرات ، بيانات ، أو اجتماعات . ان على الفلسطينيين في المناطق المحتلة الاعلان عن انهم جادون وصادقون فيما يتعلق بتحقيق السلام» .

بعـد اسـبـوع من ذلك ، ظهـر سري مع محلل شـؤون الدفاع الاسرائيلي مارك هيللر في برنامج (مـاك نييل ـ ليهرر نيوز) الذي تبثه شبكة تلفزيون PBS . وقال

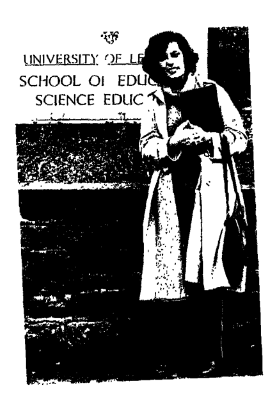
سري في هذا البرنامج : «انظر الى مؤتمر مدريد على انه شيء من المحتمل ان يعمل على تغيير الخريطة السياسية كلها ... ان ذلك سيحدث ببطء» . وفي هذا البرنامج قدم سري رؤيته الخاصة عن كيفية التعايش . ففكرة الدولة الفلسطينية «قد تحولت الى شيطان في اذهان الناس ، ولا يمكن التعامل معها الا بواسطة علم النفس ... أعتقد انه كلما عرضت عليهم كيفية تعايش الدولة الفلسطينية المستقبلية جنبا الى جنب مع اسرائيل ، وكيف ان ذلك ممكن ، وما الذي ستكون عليه الدولة الفلسطينية ، فانها ستصبح معروفة لهم اكثر ، واعتقد سيقل خوفهم تجاهها» .

وأوضح انه في محاولة للتوصل الى تكيف مع المؤلف المشترك معه فيما يتعلق بمتطلبات الامن الاسرائيلي ، فانهما حاولا الذهاب الى ما وراء المفهوم التقليدي للحدود أي السياج المرسوم بوضوح بين دولتين . لقد تذكرت محادثتهما ما قاله روبرت فروست من انه قبل اقامة جدار ، يجب التأكد ومعرفة من داخل السياج ومن خارجه : «لقد حاولنا التفكير في طبيعة العلاقة التي ستبقى عبر الحدود ... والمدى الذي باستطاعتك رسم حدوده والذي كان مُنفذا أو نفيذا ، والذي سمح بتدفق حر للخدمات ، والبضائع ، والناس ، ورؤوس الأموال ، وعند ذاك المدى ستجد الأمر أسهل للاتفاق على موقع» .

واذ نشأ على الحدود بين اسرائيل والاردن ، وقضى معظم سنوات حياته وهو يعبر السياج الذي يقسم القدس ، فان سريا يفهم ويدرك أهمية الانفتاح . واستذكر انه حتى قبل بدء الانتفاضة ، فان الخوف خلق حاجزه بين الاسرائيليين والشعب الفلسطيني . لقد اتصل به شخص من القدس الغربية ليعلمه ان له (لسري) طردا في مكتب خدمات الطرود الموحد : «سنتركه لك في بن يهودا : [مكتب البريد المركزي] ويمكنك ان تحضر وتتسلمه» وأجابه سري : «ما الذي تعنيه بقولك نتركه في بن يهودا ؟ هل أنت مجنون ؟» . وتابع قائلا انه سيتسلمه في مكتب خدمات الطرود الموحد في القدس الشرقية ، فقال الاسرائيلي له : «آسف ... ليست لدينا أي خدمات للقدس الشرقية» . وأجابه سري ، بأنه في تلك الحالة اعد الطرد لمن أرسله ، أو ضعه في البريد . وأعلمه الموظف انه لا يستطيع ارساله بالبريد لان التعليمات التي لديه تقول بان يسلمه الطرد باليد ، فقال سري : «ولذلك قلت سلمه لي باليد ، ولكنني لن أحضر الى القدس الغربية لأتسلمه . لماذا قبلته من الأساس اذا كنت لا

تريد تسليـمي إياه ؟» . وفي النهـاية اقترح سري تسوية حينما قال للرجل : احضر الطرد الى فندق اميركـان كولوني على طريق نابلس ، وهو يقع على مسافة دقيقتين بالسـيـارة من الحدود الوهمية . ضحك الموظف ، وقال له بانه سيعـاود الاتصال بـه . كـان ذلك منذ خمس سنوات ، ومـا يزال سري ينتظر . ان أيام آليس في بلاد العـجـائب ولّـت منذ عـهـد بعـيد . ومع ذلك ، في عيونه وكما في طفولته ، ما تزال هناك بوابة تقسم مدينة القدس .

زهيرة كمال



● زهيرة كمال الطالبة في جامعة ليدز .



● زهـيرة كمال مع والدتها (فـخـرية) في منزلها في بلدة بيت حنينا ، احـدى ضـواحي القدس الشرقية .

زهيرة كمال

في الاجـتمـاعـات التي تعـقـد في المدن والقـرى حيث تناقش دائما زهيرة كمال – عضو الوفد الفلسطيني المفاوض – تقدم محادثات السلام الاسرائيلية – الفلسطينية يصل الرجـال الى مكان الاجـتماع أولاً ، ثم الشـباب ، وأخيراً تدخل الفتيات تليهن النسـوة إذ يدخلن على اسـتـحـياء ، ليقفن على نحو غير ملائم في الزاوية . ان ذلك رمـز لحـالة التـابع التي تعيشـها المرأة في المجتمع العربي ، ويتكرر المشهد يوميا ، والمرة ، تلو الأخرى .

على امـتـداد شـارع صـلاح الدين المزدحم في القـدس الشرقية ، داخل الحارات الضـيقة للمدينة القديمة ، تقف النسوة البالغات من العمر الأربعين والخمسين سنة لمسـاومـة أصـحـاب المحـلات والباعة المتجولين على ثمن كيلو من لحم البقر وهن يرتدين الملابس التـقليـدية الفلسطينيـة . وبين التـسـوق والالتـفـات نحو ابنائهن وواجـبـاتهن المنزليـة ، يلتـقين الواحـدة مع الأخرى لبحث شؤون حياتهن . وبين أنفـسـهن يجدن صداقة حميمة مريحة ناجمة عن تجربة مشتركة . سيخبرنك – مع شيء من الاعـتذار في بعض الأحيان – كيف تزوجن حينما كن شابات وأصبح لهن أولاد بعـد ذلك بقليل ، حـتى أن حـيـاتهن أصـبـحت روتينيـة ، موجهة في غالبية الأحـيان نحو الآخرين سواء أكانوا أزواجاً أم أبناء أم جيرانا .

ثـم هناك البنات ، نسـاء شـابات يرتدين في بعض الأحـيـان الملابس أوروبيـة الطراز ذات الأزياء الحـديثـة . وفي فندق أميركـان كـولوني في شرقي القـدس من الشـائع ان تجـد شـابات ، مـتحررات التفكير ، يرتدين بنطال الجينز وقميص تي شيرت ، وقـد تجمعن في الساحة يرتشفن الكوكتيل ، ويتباحثن في شؤون عملهن ، وعـائلاتهن ، وصداقاتهن مع الشباب ؛ ويتشكين كيف يحاصرهن آباؤهن ، وكيف أعطي أشـقـاؤهن الحـرية في حين أن عليـهن الالتـزام بجـملة من القواعد المطلقة ، وكـيف أنهن يفـضلن العيش بشكل مستقل لكنهن يقاومن مثل هذه الأفعال بسبب الخـوف من اسـتـهجان المجتمع ولومه لهن . انهن مثقفات وليبراليات ويفكرن في حـيـاة مختلفـة ، بعيدة عن امهاتهن ، وبعيدة عن رتابة العمل المنزلي . وهن يؤمن بامتلاك هوية لا تكون مشتقة من اسم الزوج ولكن من مجموعة انجازاتهن .

وقـد لعـبت زهيرة كمال دوراً كـبيراً في عملية تحديث المجتمع الفلسطيني . فقد ابتدأت بالدور التقليدي للمرأة كمعلمة ، ثم أصبحت نشطة سياسية ، وانتظمت في صفوف الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ذات الاتجاه اليساري ، ومنذ سنوات السبعينات أصبحت في طليعة الحركة النسائية الفلسطينية .

وهي واحـدة من بين النسـوة الثلاث (الى جانب حنان عشراوي وسعاد عميرة) ضـمن الوفد الفلسطيني المشارك في محادثات السلام للشرق الأوسط . بالرغم من انها خطيـبـة مـفـوهة وصريحة ، الا انها ـ حـتى اليـوم ـ أقل شـهـرة من أولئك المندوبين الذين انجـذبت وسـائل الاعـلام اليهم . وهـي مهتمة بالجوهر ، وتتجنب كـاميرات التلفـزة . وفي حين أن عشراوي أصـبـحت صـورة مألوفـة على شاشات التلفـزيون ، وهي تشرح الموقف الفلسطيني فيما يتعلق بتقدم المحادثات ، فان من الصـعـوبة جـداً العـثور على زهيرة . وهي تقول انها تنأى بنفسها على الاضواء ، معتقدة ان ذلك يبعدها عن عملها : «اذا كنت تريد اللحاق بوسائل الاعلام فانك لن تسـتطيع العـمل . ان مـا أفضله هو أن يكون لدي بعض الوقت من أجل القراءة ، والتحدث ، والاجتماعات» .

ومع ذلك ، فـان تصرف زهيرة المتحفظ تقريبا يجب ان لا يفهم خطأ على انه لا مـبالاة . فـهي ملتـزمة بشكل قوي بقضيتين اثنتين : حقوق المرأة ، والتحرر من الحكم العـسكري الاسرائيلي . ولطالما كانت خياراتها المستقلة موضع تحد ونقد من كل من مجتـمعها وعائلتها ، وربما كان هذا الاتجاه من النضال قد عزز احساسـها بذاتها ، فـهي تتـحـدث بدون تردد كـامـرأة واثقـة بخياراتها وقيمها الشخصية . وحـينما تتـحـدث عن الحـركة النسائية فانها تتكلم عن التضامن ، عن الاخوة بين النساء ، وعن الحاجة الى عمل جماعي ، وعن الحقيقة البسيطة بان التقدم في مجال حقوق المرأة لن يتحقق الا بالنضال . وزهيرة تدرك بان المرأة الفلسطينية يجب ان تحـرر نفسـهـا من قـوتين تقـيدانها : الاحتلال ، والسيطرة الذكورية . ان هذين الأمـرين المزدوجين اللذين يصطدمـان مع النظام الأبوي والاسـتـعـبـاد قد ازدادا تعقيدا بسبب اتساع تأثير الأصولية الاسلامية في العالم العربي .

وترتدي زهيرة ـ الجالسة على الصوفا حديثة الطراز في غرفة الجلوس في منزل والدتها في شـعـفاط ، المطل على الجبال المحيطة بالقدس ـ تنورة صوفية الى الركبة

وكنزة ذات قبة عالية وردية اللون . أما والدتها فخرية فترتدي الحجاب التقليدي ، وفستانها وردي اللون يغطي رجليها ، وتضع غطاء أبيض على رأسها . ان نمطي الحياة المتناقضين يمكن ملاحظتهما هناك . تقول زهيرة دون ان تطرف عيناها السوداوان : «اننا نتطلع الى تغيير شامل لدور المرأة في مجتمعنا» .

ولدت زهيرة عام ١٩٤٥ في منطقة وادي الجوز في شرقي القدس لعائلة من الطبقة المتوسطة . وكان والدها أحمد ـ وهو ابن تاجر من القدس ـ مدرّسا لمادة الجغرافيا ، ومن ثم درس الدين والرياضيات في مدرسة الرشيدية . وتعود عائلة كمال في أصولها الى أيام صلاح الدين الأيوبي . تزوج أحمد من فخرية ـ وهي امرأة فلسطينية شابة ، كانت تبلغ السابعة عشرة من عمرها ـ حينما أصبح في بداية سنوات الأربعين من عمره ، وأنجبا ثمانية أبناء : ست بنات ، وولدان ، وزهيرة هي الأكبر سنا .

كان أحمد رجلا تقدميا ، مفكرا ، ومهتما بقضايا الحياة . وكان يدعو أصدقاءه الى بيته ليتحدثوا عن كل شيء ، بدءا من الأمور الدنيوية وانتهاء بالأحاديث السياسية الجادة . وكانت زهيرة في غالبية الأوقات تحضر هذه الجلسات ، بل انها كانت تجلس في غرفة المعيشة مع الرجال جميعهم ، وفي بعض الأحيان تطرح آراءها . ولعله من دواعي السخرية ان هذه المنادية بالمساواة بين الجنسين والتي تسعى الى حشد المرأة ، ومساعدتها سياسيا واقتصاديا ، تستمد عقلانيتها من والدها ، اذ ان أحمد كان انموذجها .

وتأثرت زهيرة بعمق بحادثة مبكرة كلفت فتاة شابة حياتها ، وهي رجاء عماشة . وقد تركت الحادثة هذه أثرا في نفس زهيرة بانه لا يمكن الحصول على شيء دونما تضحية . وتعزز ذلك عندها خلال السنوات الخمس التي قضتها في القاهرة بين عام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨ للحصول على الشهادة الجامعية . وفي حين انه خلال سنوات الثمانينات ـ وقبل اغلاق الجامعات الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة ـ كان العنصر النسائي يشكل حوالي ٤٠٪ من مجموع طلبة جامعة بيرزيت ، فان زهيرة ـ في سنوات الستينات في القدس ـ كانت واحدة من بين خمس طالبات من صفها البالغ عدد أفراده ثلاثون طالبة تمكّنّ من اكمال دراستهن . وتستذكر: «في ذلك الوقت ، وحتى لو كنتِ من عائلة برجوازية فانك لن تذهبي . كانوا

ينتظرون الرجل ليأتي وليتزوج» . وحينما تنظر زهيرة في حياة أمها ، فانها لا تستطيع تخيل نفسها تمارس الدور نفسه .

كانت فخرية امرأة عاقلة متعلمة ، وكانت شديدة الحساسية تجاه رغبات أبنائها ، ولكنها أيضا تزوجت وهي يافعة فكانت «مثل ابنة» لزوجها و «ليست كزوجة» . كانت فخرية تمثل الدور التقليدي للمرأة ، وبمجاراة معيارها الثقافي ـ فهي لم تذهب الى كلية ـ فانها تزوجت في سن مبكر ، وأنجبت العديد من الأولاد ، وبقيت في البيت ، في حين أن زوجها يعمل من أجل إعالة العائلة . وفيما يتعلق ببنات عائلة كمال الست ، فانه كان من المفروض ان يتزوجن أيضا ، وان يكوّن عائلات . أما الذهاب إلى الجامعة للدراسة فلم يكن يشكل جزءا من الحساب .

لكن بعد ان اجتازت زهيرة امتحان الثانوية ، أقنعت والدها بالسماح لها لمواصلة تعليمها . وعلى الرغم من اعتراضات زوجته والأقارب ، فانه وقف الى جانب ابنته ، ومكنها من الالتحاق بالجامعة في الخارج . وكمعلم فانه أدرك قيمة التعليم . تقول ابنته : «لقد أراد أن أواصل دراستي» . وفي الجامعة في مصر ، حضرت زهيرة المحاضرات والمناقشات عن المسرح ، وانضمت الى إتحاد طلبة فلسطين ، وكان ذلك في الوقت الذي حظر فيه نظام عبد الناصر التنظيمات السياسية تقول : «القاهرة ... مكتبة واسعة جداً .. كل ما تريده موجود هناك» .

مع حلول عام ١٩٦٨ ، كانت القدس ـ التي عادت زهيرة اليها بعد حصولها على الشهادة الجامعية في العلوم ـ قد تغيرت بشكل كبير . فالانتصار الاسرائيلي الذي تحقق في حرب الأيام الستة قبل سنة من عودتها جعل المدينة المقدسة مدينة موحدة جديدة تحت الحكم اليهودي . ومن أجل العودة الى وطنها ، اضطرت زهيرة للحصول على تصاريح خاصة من الادارتين : العسكرية والمدنية الجديدة ، وكان ذلك أول مذاق للاحتلال الاسرائيلي . وحينما وصلت ، علمت ان والدها ـ الذي كان آنذاك في أواخر الستينات من عمره ـ مريض جداً ، وقد توفي بعد عودتها بسنة ونصف . وعملت زهيرة على مساعدة أمها وشقيقاتها الصغيرات في تدبير شؤون البيت . كان ذلك أول صدام لها كامرأة تحمل الشهادة الجامعية مع الالتزامات الروتينية للحياة العائلية . تقول لصحيفة هآرتس عام ١٩٩٠ : «وأكدت آنذاك انه لا أحد آخر سيتدخل في اتخاذ قراراتنا . وبشكل رئيسي ، كنت مسؤولة عن عائلة كبيرة تتألف في غالبيتها من فتيات في سن المراهقة» .

أيضـا ، بدأت زهيرة تعـمل كـمـعلمة في كلية تدريب المعلمين في رام الله ، وهو المنصب الذي مـا تزال فـيـه . كـان هذا المعـهد يدار من قبل وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) وأعـدت زهيرة الطلبة للعمل في مهنة تدريس الفيزياء ، والعلوم وكـان بعض طلبـتـهـا من الفـقـراء الذين يقيمون في مخيمات اللاجئين المجاورة . وكـجـزء من المنهاج ، شاركوا في برنامج مدارس الوكالة التي عملوا فيها مساعدي أسـاتذة في المدارس بالقـرب من بيوتهم . وتستذكر زهيرة : «زرتهم هناك .. زرت بيـوتهم في المخـيمات . وحـينها رأيت المرأة ، الحياة البائسة للمرأة ، والعدد الكبير من الأطفـال الذي أنجـبنه ...» وتتنهـد قائلة : «في بعض الأحيان كان لديهن تسع بنات ويسـعين الى انجـاب الصـبي . بالنسبة الـيّ ، كان ذلك يعني انه يجب علينا العـمل على هذا الأمر» . وكمدرسة مخلصة ، بدأت زهيرة بسرعة تضع خططا لنقل أكـثـر وقـائع الحـياة أساسية الى طالباتها الاناث . وتضمنت المساقات التي كانت تدرّسـها ما يمكن ان يكون بالنسبة الى الغربيين الدروس الأساسية في علم الوراثة من حـيث مَـن «هو المسـؤول عن جنس المولود من وجهة النظر العلمية» . وتقول بان هدفها كان مساعدة طالباتها على فهم حقيقة «ان الرجل هو المسؤول» .

كـانت خبرة هذه المعلمـة مع مخيمات اللاجئين الأساس الذي أوجد خططا ذات نطاق أوسع لتـغـيير دور بنات جنسها في المجتمع . وماتزال هذه النشطة لا تشعر بالارتيـاح تجـاه كلمـة (المسـاواة) . انها تضع القـضـيـة بأبسط عـبارات حقوق الانسـان: «حـينما نتحدث عن المساواة فان ذلك يعني حق المرأة في العمل والتعلّم» وبهذين الأمـرين تستطيع المرأة اكتساب المهارات للاستقلال الاقتصادي ، والتحرك بحـرية ، والقراءة والدراسة ، وبالتالي احراز شيء من تحقيق الذات .

لكنهـا تقـاوم التقاليد . فهناك عقبات دينية واجتماعية تجب مواجهتها في الحياة الفلسطينيـة . فـفي المقـام الأول هناك قـاعـدة النظام الأبوي ، والتي تتـفرع منها العـقـبات الأخرى . ان دور الرجل على انه الحامي قد نشأ من حياة القرى الريفية حـيث تؤكـد الثـقـافـة وحدة العائلة الممتدة . فالعائلة فوق الفرد ، والزوجة تذعن للزوج ، والأخت للأخ . في هذه البنيـة الاجـتماعـيـة القـاسـية ، تكون المرأة مقيدة برغـبـة أبيـهـا وارادته ، ثم بعـد الزواج ، برغـبـة زوجـها . وعلى امتداد التاريخ الـفـلسطيني الحـديث ، كـان دور المرأة يغـيب ويرتفع وفق المجـرى السـيـاسي ، والأوقـات المتـغيرة . وقـد تطورت الأدوار على امـتـداد عدة حقب الى جانب نشوء

الوطنيـة الفلسطينيـة . وفي الواقع ، فـان الحـركة النسائية كانت سابقة من حيث نـشـوئهـا الحـركـة الوطنيـة . فـمع مطلع سنوات العشرين ، خـلال قـمع الحكم البريطاني اتحـدت النسـوة مع بعـضـهن لأهداف خيرية . لكن الخير كان مصـحوبا بشيء من الرعـاية . كانت الأعمال تدار بشكل رئيسي من قبل سيدات الطبقة العليا باسم أخـواتهن الأقل ثروة . وحـينما اشتد النزاع البريطاني ـ العربي ـ اليهودي ، زادت فعاليات النسوة الفلسطينيات . وشكلت في عام ١٩٢٩ لجنة السيدات العربية كـرد فـعل على قتل الجنود البريطانيين لتسع نساء عربيات من بين ١٢٠ عربيا في المسجد الأقصى في القدس .

وكـانت هناك نقطة تحول عام ١٩٤٨ ، وهي السنة التي أعلن فـيها قيام دولة اسرائيل وتدفق اللاجئون العـرب عبر الأرض المحتلة . فقد غادر العديد من عائلات الطبقة العليا الدولة اليهودية ، في حين بدأت نساء الطبقة الوسطى القيام بأدوارهن في «المنظمات الخيرية» التي كـانت تدار سابقا من قبل النساء الأكثر ثروة . ولما كنّ قـد فـقـدن جـزءاً كـبيراً من ممتلكاتهن ، فـانهن تشربن بحافز قوي للنضال على الصـعيد السياسي . ولكن لأنهن كن نسوة ، فان متنفسهن كان محدوداً . وواصلن العـمل الخيري ، ومع ذلك فان الذين كانوا يتلقون العمل الخيري قد تغيروا . فبدلاً من المعـدمين اقتصادياً فقط ، فان المستفيدين من الأعمال الخيرية الأخرى هم الآن السجناء وعائلاتهم وبخاصة النساء .

في عام ١٩٦٤ أنشئت م. ت. ف. وفي عـام ١٩٧٥ أسس الاتحاد العام النسائي الفلسطيني . وبسرعـة عمل الاتحاد العام على تجنيد أعضاء من خلال التشديد على الاتصـالات الشـخـصـيـة الواسعة للنسوة أنفسهن : في القرى بين العائلات ، وفي المدن . وجيء بالنساء ـ عبر الاتحاد العام ـ لحضور الاجتماعات السياسية لاحياء ذكـرى الأحـداث الوطنيـة ، مثل : المظاهرات التي تقام سنويا بذكرى وعد بلفور ، وهي الوثيـقـة البريطانية التي أعلنت في ١٩١٧/١١/٢ واعترفت بحق اليـهـود في اقـامـة وطن قـومي لهم في فلسطين . ولكن حال انتهاء المظاهرة ، كانت المشاركات يتـفـرقن ويعدن الى بيوتهن . لم تكن هناك متابعة ، ولا اطار عمل ، ولا بنية يمكن معها ايجاد مشاريع واستراتيجيات طويلة الأمد على الأجندة النسائية . وبقي مبرر وجـود هذه المجـمـوعـة هو تقـديم المساعدة ، وليس التنظيم ، وادارة المستشفيات ودور الأيتام ، وليس زيادة الوعي .

وكـانت هناك نقطة تحـول ثانية وقعت بعد هزيمة ١٩٦٧ ، والـتي تزامنت مع الاحـتـلال الاسرائيلي للمناطق . فقد بدأت النسوة الفلسطينيات بمشاركة الرجال في العـمليـات العسكرية الموجهة ضد اسرائيل . وبالتالي ، فان القوات الاسرائيلية بدأت باعـتـقـال النسوة وبأعداد متزايدة للمرة الأولى . وكنتيجة لذلك ، تعرضت النسوة لحـياة السجن . وحينما برزن ـ وفي بعض الأحيان وجهن اتهامات بانهن تعرضن للاسـاءات الجنسـيـة ـ كن قـد اشـتـعلن بهوى الثورة . فبالنسبة اليهن ، لم تعد المنظمات الخيرية تكفي بالغـرض كمتنفس لهن . كذلك ، فان الجمعيات الخيرية لم تكن مـرنة بشكل كـاف لعكس الواقع السـيـاسي الجـديد . وكـانت هذه الجمعيات تشـعـر بالرعب من النسوة ذوات الوعي السياسي القويّ الخارجات من السجن . كـانت المنظمات تفـتقر الى القدرة على مجاراة هذا الجيل الجديد من النسوة الميالات الى الثورة .

وأصـبـحت زهيرة عـضـواً في جمعية انعاش الأسرة في بلدة البيرة ، القريبة من مـدينة رام الله . وتعـتبر هذه الجـمعية أكبر جمعية خيرية في الأراضي المحتلة ، وقد أسست سنة ١٩٦٥ على يد سـمـيـحة خليل ، وهي امرأة قوية ، وقادت الجمعية مجمـوعـة من النسـاء اللواتي كـانت عـائلاتهن من أصـحـاب الأراضي والتـجـار الحضريين . وركـزت الجـمعية اهتماماتها على تدريب المرأة للقيام بأدوار تقليدية ، مـثل الحـيـاكـة ، الطبخ ، ومهارات السكرتارية ، وتشغيلهن ، ثم بيع انتاجهن في الأسـواق الخيرية ، من خلال شبكة توزيع . وقد عرفت سميحة خليل بلقب «الأم» لكونها تقـوم على رعـاية الأرامل وأطفـال الشهداء الذين قتلوا في الانتفاضة . ولكن في السنوات الأخيرة ، أبدت سـمـيـحـة ـ المؤيدة للجناح السـيـاسي المنافس للجبهة الديمـقـراطية ـ اعتراضها على ترحيب زهيرة للقاء مسؤولين أمريكيين ، وانتقدت ـ الى جانب أعضاء أخريات في اللجنة ـ محاولاتها للتأكيد على قضايا المرأة .

وعلى الرغم من أن المجـتـمع يؤكد على التدريب ، فان ذلك لم يثمر الا القليل في مجال مـساعدة المرأة سياسياً ، أو تحسين وضعها الاجتماعي . ووجدت زهيرة ان عـملهـا محبط : «لم نغير دور المرأة في المجتمع» . واكتشفت ان العقلية التي تحكم قـيـادة جمعـيـة انعـاش الأسرة ليست تقدمية بما فيه الكفاية : «لقد قبلن دورهن [النساء] الوطني ، لكنهن لم يردن ان يكن نشطات اجتماعيا وأن يتسلمن مناصب

في كل مكان» وكما تقول إصلاح عبد الجواد ، وهي باحثة في جامعة بير زيت ، فان مهمة المنظمات الخيرية «ليست تنظيم النساء ، وليست زيادة وعي المرأة أو النضال من أجل قضايا المرأة ، ولكن وبشكل رئيسي من أجل المساعدة» . لقد كانت زهيرة جزءاً من جيل جديد ، وجد ان البنية الأساسية للمنظمات الخيرية غير ملائمة ، اذ تقول : «لدينا جيلان الآن» : جيلها الذي يؤمن ان القضية ملحة و«الجيل الآخر الذي يشعر ان هذا الوقت ليس هو وقت» التأكيد على قضايا المرأة، معتقدا ان الحاجة الى ذلك موجودة ولكن الوقت المناسب للسعي من أجلها هو «بعد التحرير» .

لذلك ، بدأت وزميلاتها عام ١٩٧٤ بزرع البذور من أجل جهاز أكثر فاعلية من حيث الاعتماد على الذات ، والذي تطور الى لجنة عمل المرأة ، والتي أسست في رام الله سنة ١٩٧٨ . وقد تعرضت هذه اللجنة مؤخرا الى الانشقاق ـ شأنها شأن النقابات ـ فكانت نتيجة ذلك أربع منظمات عكست الانقسام السياسي داخل المجتمع الفلسطيني . وقد عملت الفصائل السياسية الرئيسة الأربعة على ايجاد لجان بهدف توسيع نفسها من خلال المرأة : فهناك رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطيني والتي تترأسها زهيرة ، وهي الاكبر ، وتنحاز الى الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . وهناك أيضاً اتحاد لجان النساء الفلسطينيات العاملات ، وقد أسس في ٨/ ٣/ ١٩٨٠ (يوم المرأة العالمي) ويقف خلف حزب الشعب (الشيوعي سابقاً) . كذلك هناك اتحاد لجنة النساء الفلسطينيات ، وقد تأسس في شهر حزيران ١٩٨٢ ويرتبط مع منظمة فتح . وتعترف زهيرة ان التقدم قد تأخر «بسبب التنافس بين مختلف اللجان» وتسلّم بان ذلك «أثر في البرامج التي يقومون بها . وأعتقد الآن انهم وصلوا الى مرحلة قبول فكرة عدم التوحيد ، ولكن أستطيع القول قبول برامج موحدة آملة أن يقود هذا الى حركة نسائية موحدة» .

منذ سنوات الستينات ، أيدت زهيرة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . وفي حين أن فتح كمنظمة اعتادت نفي وجود تفرقة داخل المجتمع ، الا ان المجموعات اليسارية هي التي كانت معنية ومهتمة بقضايا المرأة . وبالنسبة الى منظمة فتح ، كان الهدف الرئيسي يتمثل في انهاء الاحتلال العسكري الاسرائيلي ، وبالتالي على العمال والفلاحين والمرأة ان يتبعوا قضيتهم حتى التحرير الوطني . وعلى النقيض من ذلك ، فان اليساريين ، مثل الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والشيوعيين

طالبـوا بمساعدة الفلاحين والفقراء . ولأن المرأة مضطهدة ، فان من الواجب عليهم الاهتمام بقضايا المرأة .

أسـست الجـبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في شـهر شباط من عام ١٩٦٩ ، وذلك حـينما انشـقت عن الجـبـهـة الشـعـبية لتحرير فلسطين . واذ اعتمدت على المفـاهيم الماركـسـيـة ـ اللينينية ، تأسست على يد نايف حواتمة كحركة سعت الى تأييد أساسي في محاولة لحشد الجماهير . وفي عام ١٩٧٠ اتبعت استراتيجية تمثلت في محاولة توحـيـد القرى الفلسطينية الموجودة في شمال الأردن مع تلك الموجودة في وادي نهر الأردن على أمل شن هجـوم مـشترك ضـد اسرائيل . ولكن في أواخـر تلك السنة ، تحطمت تلك العملية كنتيجة لأحداث أيلول .

وبالتـالي ، انشـقت الجـبـهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الى فصيلين ، وتزعم الجناح الجـديد ياسر عـبـد ربه الذي انتـهج خطا أكـثر ماوية . وفي شـهر آب عام ١٩٧٣ ، بدأ فـصـيل عـبـد ربه يشق أرضـية جديدة في سياسة الشرق الأوسط ، وذلك حـينما تحـدث عن اقـامـة دولة فلسطينيـة في الضفة الغربية ، بالاضافة الى الدولة الموجـودة على الجانب الشرقي من نهر الأردن . ان الكيان الفلسطيني يمكن ان يوجـد الى جـانب اسرائيل . ومع ذلك ، وبالنسـبـة الى غالبية الاسرائيليين ، فان هذه الايديولوجـيـة ـ رغم انها تبـدو مـعـتـدلة ـ كانت نسخة أكثر تهذيبا للخطر القـديم . فـبـالنسـبـة اليـهم ، كـان التعايش مجرد رؤيا وتخيل كمرحلة مؤقتة ، وخطوة نحـو اسـتئصـال الدولة اليـهودية في النهاية لتحل مكانها دولة فلسطينية علمانيـة ديمـقـراطيـة . انه جناح ياسر عـبـد ربه في الجـبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الذي تؤيده زهيرة .

وياسر عـبـد ربه ـ النائب السـابق لرئيس الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين نـايف حـواتمة ـ كـيس ، مـدخن ، دبلومـاسي نشط ، وكـان المحـاور الفلسطيني الرئيسي في المحـادثات التي عـقدتها الولايات المتحدة مع م. ت. ف في تونس عامي ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ . ويعـارض حـواتمة ـ الذي يتخذ من دمشق مقراً له ـ محادثات السـلام في مدريد وكذلك الحكم الذاتي «الموسع» الذي يهدفون الى ايجاده ، في حين ان عـبـد ربه يؤيد عـملية السلام والمحادثات الاسرائيلية ـ الفلسطينية ، الأمر الذي دعـا مـسـؤولا اسرائيليا رفيع المستوى للقول هازئا ان الجبهة الديمقراطية لتحرير

فلسطين/ جناح عبد ربه هي «فتح الصغيرة» . ويقول الاسرائيلي ان زهيرة كمال هي «نشطة صالون» ملمحا الى انها سليلة «سيدات الصالون» اللواتي كنّ يقمن بإدارة الجمعيات الخيرية في حقبة مبكرة ، مضيفا ان فصيل عبد ربه لا يوجد لهم اتباع كثيرون ، في حين ان لحواتمة جنودا في الشوارع : «لحواتمة ضباط صف وجنود ، في حين ان لعبد ربه شبكة تلفزيون CNN» ومع ذلك ، فان زهيرة اعتادت على هذه الوقاحة ، ولن تتركها تعوقها ، بل انها تؤكد الحاجة الى حل يتمثل في دولة مزدوجة ، وان على المستوطنين اليهود ان يغادروا الضفة الغربية ، اذ انها تدعي ان وجودهم هناك غير قانوني : «في لجنتنا ، نعتقد انه يجب علينا العمل من أجل العمل الاجتماعي والوطني . وهذا هو السبب الذي يقف وراء تأسيس اللجان لأن الجمعيات الخيرية لا تعمل من أجل قضايا المرأة كقضايا مرأة» . ان رابطة لجان العمل النسائي الفلسطيني تهدف الى الوصول الى غالبية النساء «ولذلك فاننا نذهب الى القرى والمخيمات ونعمل على مستوى القاعدة مع ربات البيوت . ان البحث عن تقرير مصيرنا بانفسنا جزء من الحركة الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة» .

لقد ناضلت رابطة لجان العمل النسائي الفلسطيني وفي المقام الرئيسي من أجل التخلص من الأمية النسائية بين أوساط ربات البيوت ، بادئة بالقواعد . وتؤكد زهيرة : «ليس فقط بالقراءة والكتابة ، ولكنا أيضا بالبحث ، وجعلهن متفتحات الفكر لتقبل الأفكار . وعند ذلك ، يصبح باستطاعتنا مواصلة الطريق» . وفيما بعد أقامت المنظمة برنامج تدريب مكثف أثناء الخدمة . تقول زهيرة : «كان علينا ان ندربهن على بعض أنواع المهارات ليتمكن من الحصول على عمل مناسب» والحصول على أجور . ان المنطق يقول ان «اخراج المرأة من البيت هو الخطوة الأولى نحو التحرير الاجتماعي» فعلى سبيل المثال ، كان هدف أحد البرامج التي طبقت في غزة تعليم المشاركات على الانتاج الجماعي للبسكويت ومنتجات صناعة الألبان . وفي رام الله ، تعلمت النسوة الحياكة والعمل بالنحاس . ان المهارات الجديدة نفسها الحقت بمساقات في التخطيط التجاري والتسويق . . وشيئاً فشيئاً أصبحت النسوة ، مقاولات متعاونات .

كذلك ، فان زهيرة أدخلت دروساً في التخطيط العائلي ، اذ نشرت مناقشات عن التحكم في المواليد في العلن ، على الرغم من انها تعتبر ان التحكم في المواليد كتخطيط

عائلي أكثر فعالية . ومن وجهة نظر زهيرة ، فان على الوالدين أن يوسعوا بين فترات انجاب أولادهم بحيث لا تقل ثلاث سنوات بين المولود والآخر : «من وجهة النظر الصحية ، فان الصحة العامة للأم والصحة النفسية للطفل مطلوبتان من أجل وجود فترات زمنية بين الأولاد» والأكثر من هذا ، فانها تعتبر ان انجاب الأولاد بشكل متحكم فيه لا يتناقض والعقيدة الاسلامية . وبالنسبة الى هؤلاء الاسلاميين الذين تساءلوا عن اخلاصها وصدقها ، فانها تستشهد بآيات من القرآن وتعزز جملة من مقاييس التخطيط العائلي .

وأخيرا ، فان رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطينية بدأت بتنظيم مثل هذه الخدمات الأساسية الداعمة كرعاية يومية للنساء العاملات الجديدات ، فأنشأت ستا وعشرين روضة وحضانة أطفال . وقدمت الرعاية الصحية وقامت بتوزيع نشرة صحية ، بل انها عملت على تدريس مساقات في ادارة الوقت ، هادفة بذلك الى مساعدة النسوة على الموازنة بين العمل خارج البيت ، وبين واجبات الطبخ ، والتنظيف ، والكي في البيت .

ثمة شيء واحد لم يكن من الضروري تقديمه وهو القضايا الآنية ، أو التثقيف فيما يتعلق بالوضع الداخلي . وتقول زهيرة ان القضايا السياسية كانت ـ وهي كذلك الآن ـ تغطى بدروس حسبما تمليه الأحداث ووفق ما تتطلبه المصلحة . غير ان الأحداث اليومية تقع قريبة جداً من الوطن ولذلك فان تعليم الجماعة بشكله الرسمي غير ضروري . وتقول زهيرة ان الناس «يعايشون الوضع ، وهم ليسوا بحاجة الى ان يتثقفوا سياسياً» .

ان وضع برامج دراسة أسلوب العمل جعلت زهيرة على اتصال مع مجموعة كبيرة من المجتمع الفلسطيني على امتداد المناطق المحتلة . وفي مقابلة مع صحيفة هآرتس تستذكر زهيرة المحاولة الأولى ، على النحو التالي : «طورنا كوادر محلية في القرى وفي مخيمات اللاجئين وفي المدن . وحينما كنا نود الوصول الى مدينة ما ، كنا نحاول تشكيل كادر من النساء المحليات ، متجنبات نخبة المدينة . حاولنا دعمهن وتقديم أفكار اليهن ، وحاولنا تثقيفهن ، ولكن ليس بالقوة . وحاولنا أيضاً اجتذاب الرجال ، حتى رجال الدين المسيحي منهم ، ولكن بشكل لا يصطدم مع العادات ، وانما يتفق معها» . وتعترف زهيرة ان القضايا التي تثيرها لا يمكن

الاجـابة عنهـا ببـسـاطة . وحينما تسأل كيف توازن التخطيط العائلي مع الالتزام المفـروض بالمرأة القـيـام به من حيث انتاج ذرية فلسطينية ، فانها ترد قائلة : «لا أستطيع القول اننا قمنا بحل هذا الأمر» .

وعلى الرغم من أن دفـاع زهيرة لم يوصل الى نتائج لم تتجاوز حدة المناقشات الحـامـيـة مع أناسـهـا ، الا انه ـ من وقت لآخر ـ سبب لها مشاكل مع السلطات الاسرائيليـة . ففي عام ١٩٧٩ تم ايقـافـهـا اداريا لما يزيد على أربعة شهور بتهمة القـيـام بخـروقـات أمنيـة مـزعومة . وتقول مستذكرة عن الضباط الذين أتوا الى منزلها ليـحـملوا اليـهـا أخبار التوقيف «لم يقولوا لي لماذا ... لم يقولوا أي شيء» . ولكنهم حـاولوا ـ كما تقول ـ ترويعها من خلال تهديدها بتمديد فترة التوقيف الى سـتـة شـهـور . وبالنسـبـة الى الاسرائيليين فانها تمثل تهديدا مزدوجا ، اذ كانوا يشكون بانها تسـتـخدم رحلاتها المتكررة الى الخارج لحضور المؤتمرات اليسارية مـن أجل ايصـال الأمـوال من م. ت. ف . الى مجمـوعـات الفـدائيين داخل المناطق المحـتلة ، كما راودتهم الشكوك بانها كـانت تؤيد الجـبـهـة الديمـقـراطية لتحرير فلسطين التي تؤيد ايديولوجـيـة ـ حـسب اعـتقاد الاسرائيليين ـ تسعى الى إحلال دولة علمانيـة مـزدوجـة الجنسية مكان اسرائيل . وهكذا ، فبالنسبة الى العديد من الاسرائيليين ، وعلى وجـه الخصوص بالنسبة الى أولئك العاملين في الخدمات الأمنية فـان مـهـاراتها التنظيـمـيـة كانت خطراً على كل شيء يهودي فيما يتعلق بالشعب الصهيوني .

وتؤكـد زهيرة ان سـجنهـا لم يكن مبرراً لأنها كـانت منشغلة فقط بالنشاطات اليـومـيـة لصالح لجنة المرأة العاملة . وتلمح الى أن من المحتمل ان يكون اعتقالها جـزءا من محاولة عـامـة لاسكات القـيـادة الفلسطينية . وبالفعل ، فان السلطات الاسرائيليـة لم تسألها أو تطلب منهـا على الاطلاق ان توقع على أي اعتراف . كانوا دائما يحاولون انتـزاع اعتراف من سـجناء آخرين : «ولكن بالنسبة الـيّ فانني لم أفـعل شـيئاً» . وتعـتـقـد زهيرة ان اعـتقالها كان بسبب دوافع سياسية ، نتيجة لمعـارضـتها لاتفاقيات كامب ديفيد الموقعة سنة ١٩٧٩ ، والتي وقـعت قـبل شهر واحـد من اعـتـقـالها . وتقـول زهيرة انها لم تكن تتـخوف «انذاك من القول لأي شـخص انني ضد كامب ديفيد» بسبب تجاهل هذه الاتفاقيات للفلسطينيين حسب وجهة نظرها .

وقد قضت زهيرة فترة التوقيف الإداري في سجن المسكوبية الواقع في وسط القدس الغربية . كانت الأيام العشرة الأولى من فترة السجن في منتصف عام ١٩٧٩ «شيئا صعبا» ومليئة بجلسات الاستجواب الممتدة طوال النهار وطوال الليل . وقد أعدت زهيرة نفسها لما عرفت انه سيكون فترة سجن لا يمكن تجنبها ، فقرأت كتبا عن حياة السجن . قرأت تقارير المحامية الاسرائيلية المشهورة فيليتسيا لانغر وليح تسيميل ، وهما امرأتان يهوديتان أصبحتا مشهورتين بسبب تمثيلهما للمعتقلين الفلسطينيين أمام السلطات العسكرية الاسرائيلية . ان تجربة السجن المتوقعة تركت زهيرة «لا أقول خائفة ولكن مع نوع من الخوف في داخلي» . لقد كان الخوف من المجهول ، الخوف مما ينتظرني خلف جدران السجن . لكن زهيرة لم تتعرض لايذاء نفسي خلال فترة سجنها ، بل تقول ان التخوف طبيعي وشرط أساسي في النضال «فان لم تكن هناك مخاوف فلن يكون هناك شعب شجاع» .

وقد تملق الاسرائيليون كثيراً لزهيرة في محاولة منهم ـ حسب اعتقادها ـ لتهدئتها ومن أجل ان تتقدم بطلب لاستئناف الحكم الصادر بحقها . وفي ١٢/١٢/١٩٧٩ ـ قبل يوم واحد من موعد المحاكمة ـ أطلق سراحها ، وقبل خمسة وأربعين يوما من انتهاء مدة الستة الشهور .

ومثل الكتب والكتابات التي أعدتها زهيرة للتوقيف الاداري ، فان هذه التجربة الأولى خدمتها كمتطلب سابق لمدة أطول للولادة . فمثل السجن ، كانت تلك فترة تقييد ، واستمرت ست سنوات ونصف ، ولكن أيضا كانت تعني اتصالات منتظمة مع السلطات الاسرائيلية في وحول بيت زهيرة ؛ كانت ما اطلق الاسرائيليون عليها «الاقامة الجبرية» وهي تجربة تصفها زهيرة بانها كانت «صعبة جداً ... بل انها أصعب من السجن» فعلى مدار خمس سنوات من الاقامة الجبرية كان روتين زهيرة قيامها بتسجيل اسمها مرتين لدى السلطات الاسرائيلية . فبعد شروق الشمس كان عليها ان تذهب من منزلها شرقي القدس ، الى منتجعها القديم في المسكوبية لتثبت حضورها . ثم تذهب الى عملها في رام الله ، لتعود الى القدس الغربية الساعة ٢,٣٠ بعد الظهر وتوقع هناك للمرة الثانية مثبتة بذلك حضورها .

في البداية ، تضارب هذا الروتين اليومي مع عملها في التدريس في مدارس الأونروا ، وبالتالي فإنها تكيفت مع قيادة صفوفها من منزلها ، اذ تقول : «لأول

مـرة كـانت الفـيـزياء تدرس بواسطة رسـائل المدرسين والطلبة» . في كل صباح ، كـانت ترسل الدروس ليـتم تدريسـهـا للطلبـة ، وبعد ظهر كل يوم كانت واجبات الطلبة ترسل اليها . وكانت كل اسبوعين تذهب الى المدرسة لتشرف على التدريس . في الوقت نفـسـه ، فـان عمل رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطينية تطلب اهتمام زهيرة ، فكانت تكرس نفـسها لمشاريعها في بيتها خلال اليوم ، وتشجع صديقاتها وزمـيـلاتها على زيارتها في البـيت . ومن خلال القيام بذلك ، جنبت زهيرة نفسها الانقطاع عن عـملها ، وتقول : «طوال الوقت الذي قضيته في البيت كنت منهمكة في العـمل لدرجـة انني لم أشـعـر انني كنت مـعـزولة ... وكـان لدي عـدد كبير من الأصدقاء لم أعرف انني كنت امتلكهم من قبل» .

وبعـيـداً عن خلق انسانة حاقدة جداً ، فان التجربة هذه عملت على تغيير بعض المفـاهيم المسـبقة لدى زهيرة ، ووسعت أفقها . فالحراس الاسرائيليون الذين كانت تقـوم بالتـوقيع أمامهم بشكل منتظم في سجن المسكوبية لم يكونوا كما توقعتهم ، اذ تـقـول انهـم كـانوا من بين أولئك الذين لديها أفكار مـسـبـقـة عنهم ، ولكنهم «يختلفـون عن ذلك كليـة حـينما تلتقي بهم . لست مروعة على الاطلاق من رجال الأمن ... اتعـامل مـعهم .. بكل شيء كطرفين متساويين ، ولا أشعر انهم متفوقون علي ، وأشعر انني انسان وان لي حقوقي» .

وبسـبب من المقالات التي كتبت في الصحافة الاسرائيلية ، بالاضافة الى الاهتمام العـالمي ، فـقـد ورد اسم زهيرة في نشرة منظمة العفو الدولية (أمنستي) على انها شـخصية العدد (سجين الشهر) وحظيت سجينة «الاقامة الجبرية» بدعم معنوي ، حـتى ان الاسرائيليين حضروا الى بيـتها للاعراب عن تضامنهم معها ، اذ قالوا لها : «نؤمن بما تؤمنين به» . وتقول زهيرة : ان كل التشجيع الذي حظيت به من بعض الاسرائيـليين يثـبت : «ان المشكلة ليـست في الناس» ولكن في بعض القـيـادات التي «تريد أن يبقى الوضع كما هو» .

وقـد عـالجت زهيرة وضـعـها من أجل تحقيق هدف . فبخروجها عن الانماط الجامدة المقولبة ، فانها أعطت بذلك درساً لابنتي اختها : مها وشيرين . لقد أرادت من التـجربة هذه ان تكون «تدريبا لهما ، وبذلك لن تكونا خائفتين دائما من أشياء كـهـذه» . وفي مـرات عـديدة قبيل وقت التوقيع لفترة ما بعد الظهر ، كانت زهيرة

تتـوقف عند روضـة الأطفـال التي تدرس بها مـهـا البـالغة من العمر آنذاك أربع سنوات ، وشـقـيـقـتـهـا شيرين ذات الثـلاث سنوات . كانت عمتهما تحضر معها ساندويشات ، ويصعدن ثلاثتهن نحو المسكوبية . وجدت الصغيرتان في البداية ان هذه الرحلة يمكن أن تكون أي شيء لهما باسـتـثناء الرحلة الميـدانيـة التي خططت زهيرة لها . تراجـعت الفـتاة الكبيرة الى الوراء في المرة الأولى حينما شاهدت ضباط السـجن المسلحين يقفون الى جانب عمتها زهيرة وهي توقع مثبتة حضورها . غير ان الفـتاتين تغيرتا فيما بعد . ففي إحدى هذه الزيارات الى المسكوبية ، التفتت مها الى زهيرة قـائلة لها وهي ترى الفارق بين ما كانت تراه في السابق وهذه الاجراءات الجـديدة المتـخـذة بسـبب إحدى المناسبات في الضفة الغربية : «عمتي ! نسمع في الـتـلفـزيون ان هناك حظراً للتـجـول في كل مكان : في رام الله ، ونابلس .. في كل مكان حظر للتجول : لماذا لا يوجد في المسكوبية حظر للتجول ؟» .

في هذه الأيام ، وقـد تجـاوزت ابنتـا شـقـيـقتها مرحلة البلوغ ، تجلس زهيرة محدقـة بدهشـة ببـصيرتيـهما النافـذة المبكرة ، وبخـاصـة قدرتيهما على مناغمة نفـسـيـهما في مـثل تلك المرحلة المبكرة في الطبيعة المختلفة للمجتمعين : الفلسطيني والاسرائيـلي . وتـصـف العـمـة العـزباء والتي لا أولاد لها ـ وتلاحظ زهيرة وهي تضـحك في داخلها ان أمها «قلقة» بسبب تلك الحالة والتي لا خيار لديها سوى ان تقـبل بها ـ كـيف تقـوم الفـتاتان بالتمثيل . فقد جلست الفتاتان أمام بعضـهما في جانبي الغرفة ، وصاحت احداهما بالأخرى : «هل تستطيعين الحضور لزيارتي ؟» فـجـاوبتـهـا الأخرى : «سأحضر ولكنني سأتأخر قليلا لانه يجب علي الذهاب الى الشرطة كي أثبت حـضـوري هناك» . وتحب ان تتـحـدث عن ابنة شقيقتها التي ـ وببراءة الأطفـال ـ أجـابت المعلمة حينما طلبت من الأطفال ان يذكروا لها مثالاً عن إحـدى العـادات . وكـانت الاجابة : «الذهاب الى الشرطة والتوقيع هناك ... إذا كنت قـيـد الاقـامـة الجبرية مثل عمتي ، فان عليك الذهاب الى الشرطة مرتين في اليوم ، وبذلك يصبح هذا الأمر عادة» . ان قيام عمتهما بكشف حقائق الوجود الاسرائيلي ـ الفلسطيني يبـدو انه كـان له تأثير طويل المدى ، بحـيث جعل الفتاتين ، من وجهة نظر زهيرة «أكبر من عمرهما» . وبعد ان بدأت الانتفاضة ، قامت الفتاتان بمقاطعة المنتـجات الاسرائيلية على نحو شخصي ، والتي امتدت لتشمل حتى الملذات الطفولية مـثل الأيس كريم والكعك المحلى الاسرائيلي ، رغم ان العمة زهيرة لم تقتد بهما ، اذ

كانت تبتاع الملبوسات اسرائيلية الصنع في بعض الأحيان .

من أجل الحفاظ على حسابات رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطيني وفق ما تسميه زهيرة «الجانب الآمن والصحيح» فان اللجنة عملت على الاحتفاظ بحساب في بنك ليئومي/فرع رام الله . كانت تدرك انه منذ بدء الانتفاضة ، فإن ارشيفات لجان المرأة قد وضعت تحت مراقبة السلطات الاسرائيلية . كذلك ، فان ثلاث عشرة امرأة من رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطيني قد اعتقلن منذ بدء الانتفاضة ، بالاضافة الى مئات أخريات تم ارغامهن بالتهديد من قبل السلطات الاسرائيلية للتغيب عن اجتماعات اللجان . وتقول زهيرة : «فمنذ انشاء لجنتنا ، كانت مكاتبنا عرضة لغاراتهم المستمرة ، وكانت الأسماء تؤخذ من الملفات ، ثم يتم استدعاء النسوة الى التحقيق» .

وتقول ان الاسرائيليين سيحاولون أيضاً استغلال الطبيعة التقليدية للمجتمع الاسلامي من خلال «عدم استدعاء النساء أنفسهن ، وانما من خلال استدعاء آبائهن أو اشقائهن أو أزواجهن» . فإذا كان تاجراً ، فان الاسرائيليين سيهددونه بمنع بضاعته من عبور جسر اللنبي الى الأردن : «لن ترى منتجاتك حتى تكفّ ابنتك عن الذهاب الى هذه اللجان» . وتقول زهيرة : «نبذل جهدنا للذهاب الى العائلة واقناعهم بعدم الخضوع لهذا النوع من الضغوط ، وقد كان ذلك يثمر في بعض الأحيان ، كما كان يفشل في أحيان أخرى . وفي بلد مثل بلدنا ، بذهنيته الثقافية التقليدية ، تضطر المرأة في بعض الأحيان للتغيب عن الاجتماعات . هذا هو نوع الضغط الذي علينا تحمّله بشكل مستمر . انت تعلم انني لم أهيء نفسي لهذه الاوضاع ، ولكن حينما تحدث ، فانك تجد ان هناك شيئا خاصاً يجري» .

ان كلمات المرأة هذه ، ذات الصوت الأجش والشعر الاسود القصير ، يتردد صداها في سنوات التسعينات كما تردد في سنوات الستينات كفكر محرك في الضفة الغربية . وفي حديث لها مع صحيفة هآرتس عن انخراطها الاول في قضايا المرأة سنة ١٩٦٨ تقول : «المنطق وراء هذا العمل كان الخروج بالمرأة من البيت . كانت الخطوة الاولى بالنسبة الينا تتمثل في ان الخروج بالمرأة من البيت هو الخطوة الاولى نحو التحرر الاجتماعي ... لا يمكننا ان نناضل من أجل التحرر الوطني مالم يكن مترافقا مع إنجازات تتقدم باستمرار في الحقل الاجتماعي . إن إحدى

لبنات بناء دولتنا هو ايجاد مجتمع عادل صحي . ومن أجل ذلك يجب علينا ان نحرر المرأة» .

ومع ذلك ، فان زهيرة تعترف بوجود مواطن ضعف : «اذا كنا نتحدث عن الحركة النسائية ، فان من الواجب ان ندخل القطاعات النسائية فيها . واذا كنا نريد إحداث التغيير ، فان علينا الوصول الى الشابات ، ثم نركز على الطالبات ، وستجد اننا ناضلنا ـ على سبيل المثال ـ من أجل التعليم والعمل وأشياء كهذه . ان الجيل الأصغر منا يعتقد ان الاشياء معبدة أمامه واعتاد ان لا يناضل للحصول عليها . وبسبب هذا ، يمكنك ان ترى وجود اختلافات ، مثل إجبار المرأة على ارتداء الحجاب» . ففي الجامعات الفلسطينية ، مثل جامعة النجاح في نابلس ، وجامعة الخليل ، والجامعة الاسلامية في غزة ، من المألوف رؤية فتيات يرتدين الحجاب ، وهو ممارسة رفضتها امهات كثيرات منهن . ان زهيرة لا تعارض الحجاب «اذا كنّ مقتنعات بارتدائه واذا كنّ مؤمنات به» . غير انها تعترض عليه حينما تُكره العديدات على ارتدائه للهرب من لوم المجتمع وانتقاده . وتعتقد زهيرة ان ذلك مرتبط بشكل وثيق بالحقوق الاخرى : «المرتبطة بالعمل ، وبحق اختيارهن لأزواجهن ، لا ان يتزوجن في سن مبكرة . ان هذه الاشياء كلها مرتبطة ببعضها ، والحجاب ليس الا جزءا منها . فاذا نظرت الى الامر كله ، يبدو الخلاف» .

وتعتقد زهيرة ان التيار الاسلامي وقسما من المحافظين من الذكور يسيطرون على المجتمع الاسلامي . وتؤكد ان القيود المفروضة على المرأة من الاصوليين ، مثل: اللباس المحتشم جدا ، وتجنب بعض المواقف لا تستند في الواقع الى الاسلام ولكن الى النزعة الجنسوية عميقة الجذور داخل مجتمعها . وتقول ان الانجذاب المتعصب نحو الدين هو مجرد نتيجة ثانوية للفقر واليأس : «ليس كل مسلم بأصولي» . انهم يكسبون المصداقية في مجتمع محافظ حينما تسوء الظروف السياسية والاقتصادية فيتجه الناس الى الله . وتكون النتيجة ان الدين يجد تربة خصبة لذلك .

واذ أشارت الى هذه النقطة ، فان زهيرة تمضي ـ وعلى نحو مثير للعجب ـ لنفي ما يقال من ان الاصولية كان لها أثر سلبي في الحركة الوطنية ، بل وتؤكد : «بشكل عام لا نجد ان تأثيرهم يمنع الناس من المشاركة» في النشاط السياسي .

وتقـول انه بعـد مـؤتمر مـدريد ، شارك الاصوليون في اجتماعات جماهيرية ذات قـاعـدة عريضة ، ولم يقوموا بأي حركة لاعتراض سبيل المشاركين في المحادثات . ومن أجل توكـيـد مـا ترى فـيه انه التحرر العاطفي - ان لم يكن فعليا - المتنامي للمـرأة ، تسـتـشـهد زهيرة بوجود حركة ردة اساسية ضد الاصولية ، فتذكر ان نسـوة كن يوزعن منشـورات في غـزة ، تدعـو الى مـقـاومة ارتداء اللباس الشرعي والحـجـاب ، وتقول : «بدأت النساء بالحرب ، ولقد رأيت بنفسي معركتين . فخلال شـهـر رمـضـان كـانت هناك امرأة تأكل تفاحة ، فقال لها رجل : [ألا تخجلين ؟ تأكلين تفـاحـة] فما كـان منهـا الا ان شـتمته وحقّـرته . ثم أتى بعض الشباب ، وبدأوا بضرب الرجل» .

وتقـول زهيرة ايضـا من المهم وضع الاصـوليـة الاسـلامية في سياق الاحداث العـالميـة . فـفي السنوات العشر الاخيرة «رأينا ان هناك توسـعا وامتداداً للحركات اليـمـينية في مختلف أنحاء العالم ، وفي كل مرة يحققون المزيد المزيد من التمثيل في امـاكن مـتعددة» بما في ذلك اوروبا الشرقية ، والولايات المتحدة ، والدول العربية ، واسرائيل . وتؤكـد : «انها اسلامية ، ومسيحية ، ويهودية ... انها منتشرة في انحاء العالم كله ، ونحن جزء من تلك الحركات . هكذا تعكس نفسها علينا» .

ان الخوف من نكوص المرأة قد تآزر بواسطة التاريخ الحديث . ووفق ما يقوله اوري نير مـراسل صـحـيـفة هآرتس في واشنطن الذي غطى أخبار المناطق المحتلة لمدة اربع سنوات ، فان الانتفاضة سجلت للمرة الاولى ان نساء فلسطينيات يؤكدن اسـتقلالهن . وحتى في القرى ، فانهن شاركن في التظاهرات ضد الحكم الاسرائيلي . وقـد نظمت رابطة لجنة العـمل النسـائي الفلسطيني ، وشـقـيـقاتها بقية اللجان ، صـفـوف النسـاء للمشاركة في المسيرات ، ولزيارة المتظاهرين الجرحى ، ولتوزيع الطعام خلال فترات منع التجول ، ولجمع المساعدات المالية لعائلات السجناء . لكن تبع ذلك ردة ذكورية أعادت المرأة الى دورها الذي لعبته مدة طويلة . فقد عمل ذلك النكوص الذكـوري على زيادة مخاوف المرأة من ان تتـقـدم الاهداف الوطنيـة على مكتسباتهن ، متخوفات - مرة أخرى - من ان يتركن في الصفوف الخلفية . وقادت الملاحظة هذه آمال خريشة - قيادية احدى اللجان النسائية الاربع - للقول : «نحن بطلات في الشوارع وخادمات في البيت» .

في شهر آذار من عام ١٩٨٩ تنبأت زهيرة بانه حال تحقيقهن لحريتهن ، فان النساء الفلسطينيات لن يسمحن لأنفسهن على الاطلاق بأن يُعدن الى الوضع الذي كانت عليه المرأة الجزائرية : النكوص والارتداد من ساحات القتال الثوري الى الاعمال الشاقة للعمل البيتي . وتقول : في الجزائر ساهمت المرأة بشكل رئيس في النضال ضد الاستعمار الفرنسي ، لكن مساعيهن لم تترجم فيما بعد الى تغيير في مكانتهن في المجتمع . وتؤكد ان «المرأة الفلسطينية لن تكون شبيهة بالمرأة الجزائرية ، أي ، لن يكنّ قطع أثاث في البيت» . ومع ذلك ، فبالنسبة الى زهيرة ، فان الدورين كليهما أساسيان ولا غنى عنهما ، اذ تقول : «اذا قارنت بين هذين الشيئين : العمل في المنزل والنشاطات في الشارع ، فيمكنك القول ان النساء بطلات في الشوارع وخادمات في البيت .. لكن الدور في البيت هو استمرار للمعركة في الشوارع : (فما هو البديل ؟)» .

حينما كتبت الصحف الاسرائيلية والفلسطينية الصادرة في الخارج عن انكفاء المرأة خلال الانتفاضة ، كلفت الادارة المدنية الاسرائيلية باعداد تقرير خاص عن ذلك حسبما يقول نير . وقد توصلت الى انه على الرغم من المشاركة النسائية في الصفوف الامامية للانتفاضة ، فان الوضع الاجتماعي للمرأة لم يتغير فعلا . كذلك فان التنظيمات النسائية في المناطق المحتلة لم تدحض النتائج التي توصل التقرير اليها فيما يتعلق بعودة الحالة القديمة ، كما يقول المراسل الاسرائيلي .

ان الانتفاضة أحدثت تدهورا اقتصاديا دفعت ضريبته الحركة النسائية أيضا . وتتحدث زهيرة عن وجود علاقة بين الظروف الاقتصادية المتدهورة وبين انخفاض سن الزواج بالنسبة الى المرأة الفلسطينية . فبينما تأخذ الاوضاع والظروف بالتدهور ، يعمل الآباء على التخلص من المسؤولية الملقاة على عاتقهم وذلك من خلال تزويج بناتهم . علاوة على ذلك ، فانها تربط انخفاض سن الزواج بالازمة التربوية التي يتسبب بها اغلاق الجامعات بشكل دوري على يد السلطات الاسرائيلية . ومع إحداق التهديد والخطر بالجامعات وفرص الاستخدام ، فان العوائق توضع من جديد أمام الفتيات . وحاولت رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطيني الاستجابة لهذه التحديات الاكثر خطورة من خلال تقديم المساعدات الاجتماعية والقانونية في مكتبها الجديد في القدس .

وتطالب زهيرة القيادة الفلسطينية ـ وهي مجموعة مترابطة جداً من الرجال ـ ان تمنح المرأة مشاركة عادلة في السلطة ، وان لا تضن بها عليها ايضا . وحتى اليوم ، فانها تؤكد ان القيادة تتلاعب بالنشاط الوطني النسائي ، ويعيقون تقدمهن كنساء . وفي نهاية المطاف ، وحسب وجهة نظرها ، فان على مختلف اللجان النسائية ان تتوحد تحت لواء تحرير المرأة . وقد جرت محاولة في شهر كانون الاول ١٩٨٨ من أجل توحيد اللجان السياسية الاربع ضمن اطار المجلس النسائي الأعلى . وقد سعى المجلس الى الحيلولة دون التخلي والارتداد عن المكتسبات التي حققتها المرأة من خلال طرح جبهة موحدة مؤلفة من اللجان السياسية الرئيسة . لكن ذلك تطلب درجة من التعاون بين نساء الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وفتح ، والشيوعيين ، وهو أمر لم يحققه الرجال انفسهم أبدا . واليوم ، فان الأمر تغير ، اذ تقول زهيرة : «هناك اتفاق بين الاطراف كلها على مستوى القاعدة في حين ما يزال قيد الدراسة على مستوى القيادة» .

وبينما تجلس في المطعم الكائن في بهو فندق غراند اوتيل في واشنطن دي. سي. اثناء فترة الاستراحة خلال مفاوضات شهر كانون الاول ١٩٩١ ، تجد زهيرة كمال ـ التي يبدو انها متصلبة وعنيدة ـ نفسها الآن واحدة من بين ثلاث نساء في الوفد الفلسطيني المفاوض لاسرائيل . وتقول انه تم اختيارها ليس بسبب كونها انثى ولكن بسب خبرتها وتمرسها في العمل السياسي . وتعترف ان تأييدها للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين/جناح عبد ربه ، قد ساعد على توسيع حلقة التمثيل في الوفد . وتتحدث عن لقاء عقد بينها وبين حنان عشراوي قبل السفر الى الواشنطن . فقد تحدثتا الى عدة مئات من النساء في مسرح الحكواتي في شرقي القدس . وكانت النساء المجتمعات يمثلن لجانا ومجموعات متعددة جدا ، وقد حضرن لنقل نصائحهن وآمالهن الى المرأتين اللتين اختيرتا الى جانب سعاد عميري أيضا ، ليكنّ عضوات في الوفد الفلسطيني الذي يسيطر الرجال عليه . تقول زهيرة بافتخار : «كنت أقوم بدور سياسي منذ ان كنت طالبة ، وكنت أناضل داخل أوساط العائلة وخارجها . انني محترمة سياسيا من الفئة التي أمثلها في الوفد ولانني مقبولة من قبل الجماهير ـ كشعب ـ الذين عملت من أجلهم على المستوى الأساسي» . وتتوقع وتطالب ان تعمل المحادثات على تمهيد الطريق من أجل

المساواة الكاملة بين الجنسين ، وتستشهد باعلان الاستقلال الفلسطيني لسنة ١٩٨٨ باعتباره يعطي حقوقا متساوية لجنسها . وعلى الرغم من انه لا توجد هناك نساء حتى الآن في اللجنة التنفيذية للمجلس الوطني الفلسطيني ، والبالغ عدد أعضائها خمسة عشر عضوا ، فان زهيرة تقول انه في أي مشروع للحكم الذاتي ، فان المرأة يجب ان تكون جزءاً حيويا في عملية صنع القرار . وتضيف : حينما يقيم الفلسطينيون دولتهم في نهاية المطاف ، فان المرأة يجب ان تكون قادرة على الوصول الى المناصب الوزارية ، وان تخدم على قدم المساواة في القوات المسلحة الوطنية . وتؤكد : «اذا كنا ندعو الى المساواة ، فمن الواجب عليك ان تكون جزءاً من كل شيء» .

ان ما يزيد على عقدين من الزمن قضتهما كمدرسة للفيزياء ، وكنشطة في نقابة المعلمين قد ساعدا على جعل اسمها كلمة مألوفة في المناطق . وتقول زهيرة : «بسبب هذا تم قبولي كجزء من الوفد وأصبحت معروفة كواحدة من الشخصيات الوطنية في البلاد» . لقد كان ذلك نضالا طويلا وقاسيا ، وكما تقول : «ان الأمر لم يحدث بين يوم وليلة» . ولكن الآن ، والعملية ما تزال قيد التقدم ، فمن المحتمل ان لا يستغرق الأمر عقدين من الزمن لرؤية امرأة تقود الشعب الفلسطيني .

زياد أبو زياد



● زياد ابو زياد يلعب المونوبولي مع ابنتيه : لمى (على اليسار) وهبه (على اليمين) .



● زياد أبو زياد في الثـامنة عشرة من عـمـره (الثـالث من اليـسار ، وقوفا) مع والده خليل (جلوسا) ووالدته امينة (جلوسا) وشقيقيه وشقيقاته.

زياد أبو زياد

كـان ذلك في مطلع شـهر حزيران من عام ١٩٩١ ـ بعـد مرور ستة أشهر على حرب الخليج ـ حينما تلقى زياد أبي زياد مكالمة هاتفية من يوسي سريد يطلب منه فيها ترتيب عقد لقاء مع فيصل الحسيني . وقد فوجىء زياد أبي زياد ـ الاصلع ، والذي بدأت خـصل من شـعـره وشـاربه تزداد مشيبا بعد ستة شهور قضاها في السجن نتيجة مزاعم عنه بانه عضو القيادة الموحدة للانتفاضة ـ بهذا الطلب ، لان زمـيليه : الفلسطيني فيصل الحسيني والاسرائيلي يوسي سريد صديقان منذ سنوات وبالتالي فانهما ليسا بحاجة الى وسيط مثل زياد لترتيب عقد لقاء بينهما .

لكن الحـسـيني كان ما يزال متألما من الهجوم القاسي الذي شنه سريد ضده في صـحـيـفـة هآرتس الاسرائيليـة الليبراليـة قبل سنة تقريبا ، اذ كان قد كتب مقالة يطلب فـيـها من القائد الفلسطيني ان «يتنحى» بعد أن أعلن تأييده للزعيم العراقي صـدام حـسين . عـادة ، فان من السهولة بمكان تجاهل مثل هذا الهجوم ، لكن في هذه المرة فـان الهجـوم كـان من قـبل اليساري الاسرائيلي ، عضو الكنيست الذي كـرس حياته السياسية لاقناع الرأي العام الاسرائيلي بانه يمكن الثقة بالفلسطينيين ويستحقون دولة خاصة بهم .

ايضـا ، فـان يوسي سريد تعـرض للتـوبيخ من قبل زعيم حزب (راتس) الذي ينتـمي اليـه بسـبب الضرر الذي الحـقـه بالحركة التقدمية في اسرائيل . ولم يتكلم سريد والحـسـيني مع بعضهما منذ عدة شهور ، وكان من السهولة بمكان معرفة السـبب الذي يقف وراء ذلك . فالمقالة التي ظهرت يوم ١٩٩٠/٨/١٧ ، بعد مرور اسـبـوعين على دخـول العـراق الى الكويت ، لم تكن منضـبطة في نقدها لرد الفعل الـفـلـسطيني على الغـزو : «على المرء ان يضع القناع الواقي من الغـاز في محاولة للتـغلب على الرائحـة السـامـة والمثيرة للاشـمئزاز لموقف م. ت. ف. تجـاه صدام حـسين ، لان العناق والقـبـلات بين ياسر عـرفـات وصدام تسبب الغثيان والرعب ايضا» .

ومـثل عـديدين آخـرين ، والذين أيدوا المحـادثات المبـاشرة مع م. ت. ف. فـان سريد شعر بالخيانة ، لانه قضى عمره في حركة السلام ، مدبرا عن حياة متمسكة اكـثـر بالاعـراف في حـزب العـمل ، حـيث كانت غولدا مائير تَعِدُهُ بدور قيادي في

المستقبل . واذ ازدرى تأسيس الحزب ، فان (سريد) انضم الى راتس ، وهو حزب صغير أيد الاعتراف بحقوق الفلسطينيين ، وسرعان ما اكتسب شهرة كرجل مبادىء ، وحمامة ملتزمة جدا ، فضل السلام على السلطة الشخصية ، حتى ان نقاده احترموا اخلاصه وتفانيه .

لذلك ، حينما ظهرت مقالة سريد ، كان لها أثر مدمر في اسرائيل وفي الخارج. فقد قامت السفارات الاسرائيلية باغتنام هذه الفرصة ، ووزعت طبعات ثانية منه في مختلف أنحاء العالم كدليل على إفلاس معسكر السلام ، على أمل ان يكون صدام حسين قادراً على تحقيق ما كان شارون وشامير قد أخفقا في انجازه : إسكات أصوات منتقدي سياستهما المتشددة . وقد حملت مقالة سريد العنوان التالي : «دعهم يبحثون عني» ويقصد بهم : ياسر عرفات ، وفيصل الحسيني ، وعبد الوهاب دراوشة عضو الكنيست . ان الكلمة العبرية Sheyecbappesu otti التي استخدمت في العنوان كانت اكثر بعدا عما يمكن ان تعنيه الترجمة الحرفية لها ففي معناها العامي المستخدم ، فان نصيحة سريد للفلسطينيين كانت «ابتعدوا» .

وكان من الواجب على قيادة الضفة الغربية ان لا تفاجأ كثيرا . فخلال ساعات من بدء الغزو العراقي للكويت في ٢/٨/ ١٩٩٠ ظهرت صور صدام حسين في المساجد ، والمحال التجارية ، والبيوت في مختلف انحاء المناطق المحتلة ، بالاضافة الى ظهور الشعارات المؤيدة للعراق على الجدران الحجرية القديمة في القدس ، علاوة على توزيع منشورات تمجد مناقب الزعيم العراقي . وبالنسبة الى الفلسطينيين ، فان العاطفة لا العقل ، تحكم الحياة اليومية . فهنا كان بطل ينتظرونه ، صلاح الدين اليوم ، اذ منذ ايام جمال عبد الناصر لم يكن هناك شخص واحد هدد اسرائيل كما فعل صدام حسين ، اذ أعلن انه سيستخدم الاسلحة الكيماوية ضد الدولة اليهودية اذا استمرت في تحدي قرارات الامم المتحدة الداعية الى انسحاب فوري من الضفة الغربية وقطاع غزة . فاذا أراد العالم الغربي ان يستجيب العراق لقرارات الامم المتحدة التي تطالب بانسحابه من الكويت ، فان من المفروض عليه ان يجبر اسرائيل على الانصياع «للشرعية الدولية» التي تجاهلتها لفترة تزيد على الربع قرن من الزمان .

وحتى لو كان صدام حسين يستغل القضية الفلسطينية ليخفي وراءها شهوته

للمـزيد من النفط والارض ، فـان ذلك لم يكن ليـعني الا القليل بالنسبة الى سكان الضـفـة الغـربية وقطاع غزة ، اذ انهم أطروا التزامه بقضيتهم وابتهجوا لتهديداته بالابتـزاز الكيماوي والنووي . فـبـالنسـبـة اليـهم ، أعـادت جـرأة صـدام وضع الفلسطينيين الذين لا دولة لهم على الخـريطة ، وعكس سلوكه المندفع غضبهم على العـالم الـذي تـسـامح طويلا مع الاحـتـلال الاسرائيلي ، وكـان أصما عن سماع صوتهم ونداءاتهم وتوسلاتهم المؤلمة من أجل المساعدة .

وبـالـطـبع ، فـان الاسرائيليين رأوا الاشـيـاء بشكل مختلف ، فـالفلسطينيـون برفـضـهم شـجب الغـزو العـراقي للكويت ، وابتـهاجهم لما حدث ، كشفوا لونهم الحـقـيـقي . فـاذا كانت الصورة تعادل ألف كلمة ، فان صورة ياسر عرفات وهو يعـانق صدام حسين قد عادلت مجلدات ، لانه كيف يمكن ان يُصدَّق أي فلسطيني بعـد ذلك ، حـينما يقـوم زعـيـمـهم ـ قـائد الفدائيين الذي أدان الارهاب واعترف باسرائيل ـ بمـعـانقـة الرجل المجنون الذي أقسم على محو الدولة اليهودية ؟ يقول محلل شـؤون الدفـاع الاسرائيلي مـارك هيللر لصـحيفة الواشنطن بوست : «يجب عليك ان تفـهم كـيف كان الموقف في ذلك الوقت ... كان هناك غضب ونقمة كبيران وشـعـور بالخـيـانة من قـبل عـدد كبير من الاسرائيليين الذي نزعوا نحو التفكير بإيجابيـة في المفـاوضـات المبـاشرة مع الفلسطينيين . والآن ، ولدى أول فـرصـة ، منحـوا تأييـدهم لشـخص مـا مثل صدام حسين ، حتى ان الكثيرين رفعوا أيديهم قائلين : [أهؤلاء هم الناس الذين يفترض اننا نقيم سلاما معهم ؟]» .

وقد صاغ يوسي سريد القضية بشكل مباشر ، حينما قال في مقالته التي كتبها : «اذا كان الامر مقبولاً للبطل صدام حسين ـ الذي قتل عشرات الآلاف من معارضي نـظامـه دون ان تطرف له عين ، واطلق الغـازات السـامـة على الاطفـال والنسـاء والرجـال الاكـراد ـ فـانه لن يكون من العـسير والمرعب تأييـد سياسات شامير ، وشـارون ، ورابين ، بالمقـارنة مع جـرائم صدام حسين ، وخطايا حكومة اسرائيل النقـيـة نقـاء الثلج الهاطل» . وأشار الى أنه ما يزال يؤيد حق الفلسطينيين في دولة مستقلة خاصة بهم «لأنه من حقي التخلص من الاحتلال» لكنه أشار الى انه «يجب على عـرفـات ، والحـسـيني ، ودراوشـة ان لا يفاجأوا اذا انخفضت حدة الصرخة اللاأخـلاقـية فيما يتعلق بالاعمال المرعبة في المناطق المحتلة الى حد الهمس» مضيفا

«وحتى اشعار آخر ـ بقدر ما أنا مهتم ـ باستطاعتهم المجيء ومحاولة العثور عليّ» .

ان التباعد بين اليسار الاسرائيلي والقيادة الفلسطينية المحلية كان عميقا جدا لدرجة ان زيادا ابي زياد فوجيء حينما تسلم تلك المكالمة الهاتفية من السياسي الاسرائيلي الذي كان يطلب مساعدته . غير انه في الوقت نفسه شعر بالسعادة لاحتمال ان يكون بامكانه مساعدة سريد والحسيني على تسوية خلافاتهما . ولقد كان ذلك هو الدور الذي قام به منذ اكثر من عقدين ، بل وحتى حينما تخرج من كلية الحقوق في جامعة دمشق عام ١٩٦٥ اذ سرعان ما اكتشفت ان لديه قدرة غريبة للتفكير والتحدث كاسرائيلي . وقد كان معروفا لديهم ايضا ، لانه أجرى أول اتصال مع موظفين اسرائيليين سنة ١٩٦٥ خلال عمله لدى الحكومة الاردنية كمدير لدائرة الجوازات والهجرة في القدس .

بعد ان احتلت اسرائيل الضفة الغربية عام ١٩٦٧ وضمت القدس اليها ، التحق زياد البالغ من العمر آنذاك سبعة وعشرين عاما بمدرسة كان الاسرائيليون يعلمون فيها المهاجرين اليهود الجدد اللغة العبرية ، وكانت الدروس تعطى في بيت هاعام (بيت الشعب) الواقع في وسط القدس الغربية . كان زياد أول عربي يلتحق بهذه المدرسة ، وعلى امتداد بضعة سنوات بعد الاحتلال ، عمل كمترجم للغة العبرية لدى صحيفة القدس الموالية للأردن ، ثم بدأ عام ١٩٧٧ يشرف على الطبعة العبرية من صحيفة الفجر الفلسطينية الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية . وحينما توقفت الفجر عن اصدار الطبعة العبرية سنة ١٩٨٦ قرر زياد اصدار صحيفة فلسطينية ناطقة باللغة العبرية خاصة به ، حملت اسم (غيشر/الجسر) وقد كانت محاولة شخصية منه للوصول الى الرأي العام الاسرائيلي .

ومن خلال زياد أجرى الصحفيون الاسرائيليون والفلسطينيون اولى اتصالاتهم. ويتندر الناس قائلين ان الصحفيين والمجرمين هم الوحيدون الذين يتعاونون مع بعضهم عبر «الخط الأخضر» وهو خط الحدود الذي يفصل الاسرائيليين عن الفلسطينيين . ولكن ليس هناك في الأمر أي دعابة ، اذ ان الروابط التي ساعد زياد على اقامتها بين الصحفيين الاسرائيليين والفلسطينيين كانت حقيقية وثابتة ، وكانوا هم فقط خطوط الاتصال التي بقيت سليمة خلال حرب

الخليج ، كما كانوا يذهبون معاً في مهمات صحفية ، حتى حينما كان ذلك يستتبع وجود مخاطر . وقد عمل صحفيان اسرائيليان هما : داني روبنشتاين وميرون بينفينيستي مع زياد في فريق واحد لاصدار [دليل الضفة الغربية : معجم سياسي] وهو أول كتاب يكتبه بشكل مشترك مؤلفون فلسطينيون واسرائيليون . وحينما كان المراسلون الصحفيون الفلسطينيون يريدون تجاوز الرقابة الاسرائيلية الصارمة ، كانوا يقدمون المادة الخام الى زميل اسرائيلي لهم ، ليقوم بنشر القصة ، وفي اليوم التالي لظهورها في الصحف الاسرائيلية كانت تظهر في الصحف العربية مترجمة عن الصحافة الاسرائيلية .

وزياد ليس جاهلاً بالوصول عبر الخطوط الممنوعة ، بل ان بلدته بيتونيا تقع على الحدود مع الضفة الغربية . ان جزءاً من بيتونيا - والذي يسميه العرب العيزرية - يقع ضمن حدود بلدية القدس والجزء الآخر خارج اسرائيل ، في الضفة الغربية . والعرب الذين يقيمون في بيتونيا الواقعة داخل «الخط الأخضر» يضعون على سياراتهم لوحات معدنية صفراء اللون ، أما الآخرون - أمثال زياد - والذين يعيشون في الجزء الواقع في الضفة الغربية فيضعون على سياراتهم اللوحات زرقاء اللون . وقد عمل زياد في الجانبين : في اسرائيل ، وفي الضفة الغربية ، محاولاً كل جهده ان يوضح للاسرائيليين ما الذي يجمع الفلسطينيين ببعضهم ، وما الذي يعطيهم هوية كشعب وكأمة . كذلك ، فان زياداً أدرك معاناة اليهود ، وغالبا ما قضى امسيات يلقي محاضرات في الكيبوتسات ، والقيام برحلات على مسؤوليته الى (ياد فاشيم/النصب التذكاري للكارثة) .

يقول زياد انه حينما تكلم مع ساريد ، فان ساريد أخبره انه شعر ان مقالته قد سببت أضرارا وانه يريد «بدء البحث عن تسوية» . ومع ذلك ، يقول سريد ، فان الفلسطينيين هم الذين سعوا الى الصلح : «وصلتني ذات يوم رسالة تقول ان فيصلا الحسيني يريد رؤيتي ، فقلت [سأكون سعيدا برؤيته] . لم أتخيل الأمر على انه اجتماع صلح ، فليس لدي شيء للمصالحة عليه ... لم أتخاصم مع أي شخص . وقد عبرت عن وجهة نظري فقط ، وما أزال عندها» .

بعد المحادثة مع سريد ، اتصل زياد مع الدكتور أحمد الطيبي ، وهو مواطن عربي اسرائيلي ، كان مقربا من فيصل الحسيني ، وغالبا ما اشتهر من قبل السياسيين والصحفيين الاسرائيليين على انه القناة الموصلة الى ياسر عرفات .

واقترح الطيبي ـ وهو طبيب نسائي مرموق ـ ان يلتقي الثلاثة (سريد ، الحسيني وزياد) في منزله الكائن في ضاحية البريد ، وهي ضاحية تقع خلف القدس الشرقية على طريق رام الله . هناك ، وفي يوم شديد الحرارة من أيام شهر حزيران وخلف الجدران الزجاجية للشرفة الامامية ـ حيث نصب الطيبي قضبانا معدنية لحماية غرفته المشمسة من تهجمات الشرطة الاسرائيلية ـ بدأ الفلسطينيان والسياسي الاسرائيلي اجراء تعديلات . يقول زياد موضحا : «كان الهدف اذابة الجليد فقط ، والبدء ، ورؤية فيما اذا كنا ما نزال أصدقاء وفيما اذا كان باستطاعتنا ان نتشارك معاً» . الاكثر أهمية من هذا ، انهم كانوا يريدون وضع المرارة الشخصية التي نجمت بعد مقالة صحيفة هآرتس خلف ظهورهم .

يقول زياد : «اعتقد ان الأمسية تلك كانت ناجحة جداً فقد تجنبوا على نحو واضح الحديث في السياسة . وحينما أراد سريد التقاط بعض الصور الفوتوغرافية ليثبت لمنتقديه انه استعاد علاقته مع الفلسطينيين ، اعترض الحسيني وزياد الذي يقول : «كنا هناك كمخلوقات بشرية ولم تكن هناك حاجة للعلنية ، ولذلك فانني طلبت ان لا ينشر شيء في الصحف وسيكون ذلك دليلا واضحا على اننا لم نعقد هذا الاجتماع من أجل ان نسجل نقاطا سياسية ... وقد كان سريد متفهما جداً لذلك» . واستغرق الأمر نحو سنة ـ من شهر آب ١٩٩٠ حتى حزيران ١٩٩١ ـ لكلا الجانبين حتى تمكنا من عبور الخليج الذي فصل بينهما . واقترح زياد ـ الجسر الانساني ـ ان يوسعوا نطاق اتصالاتهم ، اذ يقول : «بدأنا نخطط لاجتماع اكبر مع بعض أعضاء الكنيست . لكن الغضب بقي شديدا نتيجة حرب الخليج ، الامر الذي يعني ان ذلك الاجتماع لم يعقد أبدا» .

مع ذلك ، فان زيادا واصل جهوده الخاصة . ففي شهر آب من عام ١٩٩١ ـ بعد مرور سنة على الغزو العراقي ـ ظهر في ندوة عامة مع فيصل الحسيني واثنين من الاسرائيليين هما : شلومو لاهات ومردخاي غور في جامعة تل أبيب . وغور زعيم بارز في الكنيست ، ووزير صحة سابق ، وجنرال سابق قاد القوات الاسرائيلية حينما وحدوا القدس في حزيران ١٩٦٧ . اما شلومو لاهات فهو الآخر جنرال عسكري متقاعد ، ورئيس بلدية تل أبيب ، وسياسي مستقل ، وعضو في الليكود ، ولكنه يؤيد حق الفلسطينيين في اقامة دولة لهم ، كما يؤيد المحادثات المباشرة مع م. ت. ف. كانت الاجراءات الامنية دقيقة للغاية في قاعة غليمان في

الجامعة حيث عقدت الندوة . وفي الخارج تظاهر المجتمعون وهم من الجماعات الاسرائيلية المسلحة : غوش ايمونيم ، ريهافام تسفي موليدت ، وكاخ . يقول زياد: «لحسن الحظ ، وصلنا متأخرين مدة خمس واربعين دقيقة ... فظن بعضهم أننا لن نأتي ، وغادروا المكان . وتسللنا داخلين عبر باب خلفي» . في الداخل ، كان هناك أكثر من خمسمائة طالب قد احتشدوا من أجل المناظرة . ولاحظ زياد ان بين الحاضرين أربع فتيات يرتدين الزي الاسلامي التقليدي : الحجاب والجلباب . يقول ابو زياد : «لقد دلّ ذلك على مدى الثقة بالنفس الذي وصلت اليه الحركة الاسلامية ... فهنا ، في قلب جامعة تل أبيب ، في قاعة محاضرات كبيرة حيث الغالبية جمهور اسرائيلي يهودي ، تجد أربع فتيات عربيات يدرسن في جامعة اسرائيلية ويأتين ويجلسن ويسألن مختلف أنواع الاسئلة المتعلقة بالمناظرة» .

ان السؤال الاكثر شيوعا والذي طُرح من قبل الاسرائيليين ، كان : كيف يمكن ان يكون لدى الفلسطينيين قواعد اخلاقية عامة لشجب الاحتلال حينما أطروا الاحتلال العراقي للكويت ، وابتهجوا حينما ضربت العديد من صواريخ سكود التسعة والثلاثين التي اطلقت على اسرائيل ، مناطق سكانية ، فقتلت مدنيين كثيرين؟ وحاول زياد أن يوضح قائلا : «يجب ان لا تحكم علينا من خلال رد الفعل العاطفي في الشارع» . واكد ان الشيء الهام هو ان الموقف السياسي الفلسطيني لم يتغير ، وانه بقي ملتزما بالقرارات التي أصدرها المجلس الوطني الفلسطيني في شهر تشرين الثاني ١٩٨٨ ، والتي قبلت بحل يقوم على أساس دولة ثنائية . وقال زياد لجمهور الحاضرين : «وبما ان م. ت. ف. لم تتراجع أو تنسحب من هذا الموقف ، فانه ليس لكم الحق في ان تخبرونا كيف يجب علينا ان نشعر تجاه العراق او الكويت . انها قضية خلاف داخل نطاق الاسرة العربية ويجب ان نكون أحرارا في التعبير عن عواطفنا . ان تأييد صدام حسين لا علاقة له باسرائيل ، وهو ليس تأييداً فعليا لاننا نعلم ان م. ت. ف. كانت في موقف صعب : لقد أجبرت على الاختيار بين أن تكون معنا [العراق] أو ضدنا» .

وأكد أن م. ت. ف. حاولت البقاء على الحياد والتوسط لايجاد حل بين العراق والكويت ، غير أنها أخفقت في ذلك . واتهم زياد الحكومة الاسرائيلية ووسائلها الاعلامية ، بمحاولة مساواة م. ت. ف. مع العراق ، والمبالغة بشكل متعمد في استخدام صورة صدام حسين وهو يستقبل ياسر عرفات لدى وصوله الى بغداد .

يقول زياد متهما : «لقد كانت حملة لاغتيال شخصية م. ت. ف. وعرفات نفسه» . لكنه لم يُخْفِ ـ حتى أمام جمهور اسرائيلي ـ ان زعيم م. ت. ف. ارتكب خطأ مميتا : «في النهاية ، نحن هنا لنقرر ما يجب ان نفعله بخصوص المستقبل . ان هذا جزء من الماضي . وحتى لو كان حقيقيا ، وحتى لو ان عرفات ارتكب خطأ ، فان كل سياسي يخطىء ، ولا يمكنكم الاستمرار في الحكم عليّ بسبب أخطائي . يجب علينا ان نتعلم من أخطائنا ، وان نسير قدما ونتخذ معا خطوات مستقبلية» .

كان زياد يتحدث بين الفينة والأخرى باللغة العبرية ، حتى ان أوري نمير مراسل صحيفة هآرتس في واشنطن قال : «كدنا نعتقد انه اسرائيلي .. فزياد يتكلم العبرية بيسر ، ويعرف الكثير من الاسرائيليين وكيف يفكرون ، حتى اننا اتجهنا الى التعامل معه كواحد منا وكدنا نفقد احترامنا لحساسياته الفلسطينية . انه حساس جدا» . كان هناك دافع وراء تعلم زياد اللغة العبرية ، وذلك حينما اضطرمت من جديد علاقة صداقة قديمة بين اسرائيلي وبين والده خليل البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاما ، وهو فلاح وصاحب ارض : «لقد عاش فترة الاتراك ، والبريطانيين ، والاردنيين ، والاحتلال الاسرائيلي . ان جيله يمثل جيل الفلسطينيين الذين لم يشهدوا على الاطلاق أي يوم سعيد في حياتهم ؛ انهم ما يزالون يعيشون ثانية الحرب العالمية الاولى ، والحرب العالمية الثانية ، والانتداب البريطاني ، وحرب ١٩٤٨ بين العرب واليهود ، والآن الاحتلال الاسرائيلي» . في يوم من أيام منتصف شهر حزيران عام ١٩٦٧ ، بعد ان استولت اسرائيل على الضفة الغربية ، كان زياد يقف في ساحة منزل أهله المكون من طابقين في بلدة بيتونيا ، فرأى جنديا كان يقوم بأعمال الدورية في تلك المنطقة وهو يقترب من والده الذي كان جالسا أمام المنزل . تفحص الجندي ـ الذي كان جندي احتياط ـ وجه والد زياد ، وتفحص الوالد وجه الجندي . وبعد تردد وحيرة ، سأل كل منهما الآخر عن اسمه . والآن، وعلى نحو واضح تماما أصبحا على ثقة بأنهما لم يخطىء الواحد منهما الآخر ، وبأنهما الصديقين القديمين اللذين عملا مع بعضهما ، ولكن لم ير أي منهما الآخر منذ عشرين سنة ، وتعانق الرجلان بمرح . ودعي الجندي شيمون سبيغل لتناول القهوة ، وعادت الصداقة مرة ثانية . تحدثا عن الايام التي عملا فيها مع بعضهما في بلدية القدس خلال فترة الانتداب البريطاني ، وكيف تفرقت السبل بهما بعد حرب ١٩٤٨ . كان من المستحيل السفر من بيتونيا الى القدس بسبب حظر التجول

ولذلك فـان سـبـيـغل سأل خليـلا فـيما اذا كان بامكانه احضار أي شيء له من المدينة . ويقـول زياد : «اتذكـر انه قـال لي [ستفتح القدس أمام العرب وسيمكنك الحضور الى القدس الغربية . هذا رقم هاتفي . اتصل معي وسأصطحبك في جولة وأريك المكان كله]» .

وواظب زياد على الاتصـال مع سـبـيـغل ، وحينما رفع منع التجول بعد مرور شـهـر ، اتـصل مع الاسرائيلي ـ وهو مـقـاول بناء مـعـروف ـ في مكتـبـه . لكن السكرتيرة التي أجابت على الهاتف لم تكن تستطيع التحدث بالعربية او بالانكليزية كما ان زيـادا لم يـكن بقـادر على التكلم بالعبرية : «وقلت لنفسي [هذا هراء . نحن نعـيش هنا مع اولئك الناس ولا نسـتطيع التواصل ، حتى ولا على الهاتف]» وأخذ على نفسه عهداً بأن يغير حياته .

وقـدمـه سـبـيغل الى بروفسور في الادب العربي في الجامعة العبرية ، الذي قام بدوره بمـسـاعدة زياد على الالتحاق في دورة مكثفة للغة العبرية للمهاجرين الجدد تقـام في (بيت هاعام) . ولم يمض طويل وقت حتى التحق بالدورة اكثر من ثلاثين فلسطينيـا . وأقام زياد علاقة شخصية وثيقة مع مديرة المدرسة روث آلون ، التي كـان زوجـهـا (مـيناحيم) قاض في المحكمة العليا ، والذي سيتنافس فيما بعد مع حـاييم هيرتزوغ كـمرشح لليكود لرئاسة الدولة . ويستذكر زياد : «تشكى بعض المدرسين من ان الطلبـة الفلسطينيين في الصـفـوف كـانوا يمنعـونهم من القـيـام بواجـبـهم الصـهيوني ، وطلبوا تقسيم الصفوف الى قسمين : قسم للعرب ، وآخر لليـهـود ... لكن روث آلون رفـضت ، وقـالت [طالما تم توحيد القدس ، فانني لن أسـمح بتـقـسـيم صـفوفي] . كانت سيدة مدهشة ، وأصرت على ان يستمر الطلبة العرب الفلسطينيون والطلبة اليهود في البقاء في صف واحد» .

ويمـثل أبناء آلون الـثلاثة الطيف السـيـاسي الاسرائيلي : فأحدهم كان عضوا في حـزب غـوش ايمونيم الديني المتعصب ، والثاني كان محاميا ومعتدلاً ، في حين ان الثالث كان ليبراليا علمانيا . وعلى امتداد السنوات ، كان زياد يقضي امسيات عديدة مع عـائلة آلون ، سـواء أكـان ذلك في بيـتهم أم في بيته . وفي احدى المرات ، حينما حـدثت مـشكلة بين شـقـيق الفلسطيني والسلطات الاسرائيلية ، قام المحامي سافي آلون بالترافع عنه أمام المحكمة .

وبسبب من معرفته للغة العربية ، والانكليزية ، والعبرية ، مارس زياد ثلاثة أعمال ، كمترجم لكل لغة منها . في الصباح ، كان يدرّس العلوم في مدرسة محلية ، وبعد الظهر عمل لدى شركة كهرباء منطقة القدس ، وهي مؤسسة عربية تزود اليهود بالكهرباء ، وكان عمله متمثلا في ترجمة الرسائل التي تتراوح بين الشكاوى وطلبات الخدمات الاضافية ، والتي كان يكتبها الاسرائيليون المقيمون في الحي اليهودي داخل المدينة القديمة ، والاسرائيليون المقيمون في التلة الفرنسية وضواحي جديدة أخرى حول القدس . أما عمله المسائي فكان الترجمة لدى صحيفة القدس .

يقول : «كنت أفكر في أن أصبح محاميا أو قاضيا» غير ان الاحتلال الاسرائيلي غيّر مجرى حياته : «لم يكن باستطاعتي ان أصبح محاميا ، فقد وجدت نفسي أنغمس في الصحافة ، واكتشفت انني مدمن على العمل الصحافي هذا . كان هذا هو التحول الاساسي في حياتي الذي لم أخطط له» . كذلك ، فان ولاءاته تغيرت أيضا ، فأصبحت ممزقة بين تراثه الفلسطيني ، وجنسيته الاردنية ، ومحتليه الاسرائيليين وكل واحد من هذه الولاءات له مطالبه عند زياد بان يعطيه جزءاً من نفسه من أجل ان يبقى : «ووجدت أني غير قادر على تحرير نفسي من هذه الولاءات» . ولكن كصحافي ، فانه استطاع ان يربط بين هذه الولاءات الثلاث .

وعلى الرغم من ان حياته المهنية في مجال القانون كانت محددة ، الا ان زيادا كمحام ووجه مرة أخرى بالمأزق الغريب للاحتلال ؛ فقد ترافع عن فلسطينيين أمام المحاكم العسكرية الاسرائيلية التي تستخدم قانون الانتداب البريطاني . ولعل اكثر القضايا التي لا يمكن ان تُنسى تلك القضية التي مثل فيها شقيقه خليل . ففي عام ١٩٧٠ القي القبض على خليل أبي زياد من قبل الاسرائيليين لكونه قائد مجموعة من فدائيي فتح . وعلى الرغم من ادعاء زياد بان خليلا لم يكن مسؤولا عن أي هجمات مباشرة ضد الاسرائيليين ، الا ان «بعض أفراد المجموعة اعترفوا ان خليلا كان شريكا في نشاطاتهم ونقل رسائل بينهم وبين قائدهم في عمان» ، وحكم على خليل بالسجن لمدة عشر سنوات قضاها كلها . ولمدة ثلاث أو أربع سنوات ، أبقي خليل في سجن الرملة ، ثم استمر ينقل من سجن الى آخر ، وهي الطريقة التي يتبعها الاسرائيليون من أجل إضعاف الشبكات الفلسطينية التي تتشكل في

السـجـون . يقول زياد : «بدأ زيارة السجون كلها ، من طولكرم الى بئر السبع الى الرملة فرام الله ، ثم الخليل . كنا نضحك على ذلك مع والدتي أمينة ، قائلين لها انه بسـبب نقل خليل من سـجن الى آخـر ، فانها ستتاح لها فرصة زيارة أجزاء البلاد كلها» .

وأخـيراً ، واذ اطـلق سراحـه سنة ١٩٨٠ ، واصل خليل اظهـار نفسـه كقائد ، وشكل لجنة للعناية برفـاهة الناس الذين مـا يزالون في السـجن . وقدم كل شيء ، بدءاً بالملابس ، فـالأمـوال ، وانتـهاء برحلات في الباصات للزيارات العائلية ، وهي نشـاطات خـفـفت من خشونة السجن ، وبالتالي ، أثارت حنق الاسرائيليين . وبعد مـرور سنة ، أصـبح مـتـورطا في محاولة أغضبت الاسرائيليين ، وكانت هذه المرة بسـبب مسـاعدة الدروز ، إذ تظاهر عدد من دروز القرى المحتلة في الجولان ضد الحكومـة الاسرائيليـة ، فـتم فـرض حـصـار عليـهم ، ومنع التجول ، وقام خليل باحضار عدد من سيارات الشحن الصغيرة ، وملأها بالطعام ، وعمل على ان تتجه هذه السـيـارات نحـو القرى الدرزية . ولم يمض طويل وقت على ذلك حتى وضع تحت الاقامة الجبرية .

في شهر آب ١٩٨٥ ، وبعـد مرور عدة سنوات دون ان تمارس اسرائيل سياسة الابعـاد ، بدأت السلطات الاسرائيليـة تطبـيق ما يسمى سياسة «القبضة الحديدية» وأمـرت بطرد خليل من البـلاد . كـان أول شخص يتم إبعاده ، وأراد الاسرائيليون ان يجعلوا منه عبرة . عند هذه المرحلة ، اتصل زياد بصـديقـه القـديم سـافي آلون الذي أعـد أوراقـه بسرعـة لاستئناف القضية . وقام صحافيان اسرائيليان آخران ، هما : داني روبنشـتـاين من صـحيفة دافار ، ويهودا ليطاني من صحيفة هآرتس بعـرض مـساعدتهما . واذ عملوا مع بعضهم عن قرب ، اتصل زياد والاسرائيليون الثـلاثة بافـرايم سنيح ، رئيس الادارة المدنيـة الاسرائيليـة وتقـدموا بالحل الوسط التـالي : يقـوم خليل ـ المعـروف بانه كان قائدا لمجموعة فتح ـ بمغادرة البلاد لمدة ثلاث سنوات وبملء ارادته الحـرة ، مع تقديم تعهد بان لا يشارك في أي نشاطات مـعـادية لاسرائيل خـلال اقـامته خارج البلاد . وبالمقابل ، وبعد انقضاء السنوات الـثـلاث ، يـسـمـح لـه بالعـودة كأي زائر عـادي . وأوصى سنيح النائب العـام العـسكري بانه يمكن قبول ذلك . ويقول زياد : «وهكذا ، فانهم ألغوا قرار الابعاد ،

وغـادر البـلاد . استقل سيارة اجرة الى جسر اللنبي ، وذهب الى الاردن» . وفي عام ١٩٨٨ عاد خليل الى وطنه .

يقـول زياد مـبـتـسما : «الأمر المضحك في هذا الأمر اننا وقعنا اتفاقا بين دولة اسرائيل وخليل أبي زياد . وأصرت اسرائيل على ان تدون الاتهامـات الموجهة ضده كلها ، ولذلك فان الاتفاق أوضح أنه كان عضوا في م. ت. ف. وقائد فتح في الضفة الغربية . وبدا لي ان هذه أول اتفاقية وقعتها اسرائيل مع م. ت. ف. لانه اذا أصروا على انه من المنظمـة وانه قـائد فـتح في الضـفـة الغـربيـة ، وانهم رغم ذلك وقعوا اتفـاقـية معه ـ بين حكومة اسرائيل وخليل أبي وياد ـ فان ذلك أمر لا سابقة له : انها الاتفاقية الاولى مع م. ت. ف.» .

ان الـعـديـد من الاسرائيليين يرون زياداً أبي زياد ـ وكما قـال العنوان الرئيسي لصـحيفة الجيروزاليم بوست الصادر في شهر حزيران ١٩٨٥ ـ عـلى انه «ذئب في ثـيـاب حمامـة» . ويسلّـم قـائلا : «يقـول بعـضـهم انني من م. ت. ف. أي انني متطرف . وبرغم ذلك ، فانني أرى نفسي رجلا واقعيا وعقلانيا ، رجلا عمليا ، ولي وجـهات نظري» . وحظيت وجهات النظر تلك باهتمام واسع من خلال مقالة كتبها زياد سنة ١٩٦٨ لصيحفة (الجسر) وتقبلت م. ت. ف. وجهات نظره بحذر . يقول زياد في مـقـابلة اجـريت مـعـه حـينما نشرت المقـالة : «بعـد التعايش على أساس الاعتراف المتـبـادل والاحترام المتـبـادل ، فان القوة لا تستطيع حل المشكلة ... ولن يسـتطيع لا العـرب ولا اليـهـود حل مـشكلتـهم من خلال هزيمة طرف لآخر . لا مجال لذلك ، الا من خـلال تسـوية سلمـيـة سياسية» . وطرحت صحيفة الجسر تصـورها لحلين ممكنين : الاول ، دولة ديمـقراطية علمانية تضم العرب واليهود ، والثاني دولة فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل «وليس لتحل مكانها» .

في تلك الايام ، فـان مفهوم حل دولة ثنائية كان يتناقض مع سياسة م. ت. ف. التي كـانت تطالب بالاعتراف الاسرائيلي بحـقوق الفلسطينيين قبل ان توافق المنظمة على شرعـية الوجود الاسرائيلي . وبعد ان نشرت مقالة صحيفة الجسر ، دعي زياد لالقـاء محاضرة في مـعـهـد فان لير ـ دبابة التفكير الليبرالي في القدس ـ حيث كرر تفـضيله لحل الدولة الثنائية . ومنذ ذاك ، أعيد نشر الافتتاحية في صحيفة الفجر ، وهوجم زياد من قـبل الفلسطينيين المتطرفين ، غير ان المنظمة تدخلت للدفاع عنه .

ويستذكر ، انه بعد المحاضرة «حضر اليّ اسرائيلي وأراني الناطق باسم م. ت. ف. [ويقصد مجلة فلسطين الثورة] التي نشرت النص الكامل للمقابلة» . فمجلة (فلسطين الثورة) التي هي جزء عضوي من م. ت. ف. وضعت مقدمة اوضحت فيها ان م. ت. ف. لا توافق على كل ما كتبه زياد . لكنها أعادت نشر المقالة كاملة . يقول زياد : «بالنسبة اليّ ، فقد كان ذلك اشارة فى غاية الوضوح الى انهم لم يكونوا ضد ما كنت أقول أو أفعل» . واعتقد المسؤولون الاسرائيليون ان م. ت. ف. قررت بالتالي تمويل الصحيفة الناطقة باللغة العبرية ، لكن زيادا ينفي ذلك . ويؤكد ان الاموال المخصصة لتمويل صحيفة (الجسر) كانت تأتي من خدمات الاخبار التي يقدمها للمنشورات العربية الصادرة في اوروبا ومناطق أخرى من العالم .

لكن زيادا لم يفند مزاعم اسرائيلية بأنه قوّى علاقاته مع م. ت. ف. ففي مطلع شهر شباط ١٩٧٦ ، بعد مرور سنة تقريبا على قيامه برحلة الى لبنان ، قامت الشرطة الاسرائيلية باعتقال زياد متهمة اياه باقامة اتصالات مع قياديين على مستوى عال في م. ت. ف. خلال زيارته الى بيروت . وجاء في تلك الاتهامات ان من بين اولئك الذين قابلهم الرجل الثاني في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، التي كانت العقل الموجه لسلسلة من عمليات اختطاف الطائرات في مطلع سنوات السبعينات . ولم ينف زياد هذه اللقاءات ، لكنه قال للشرطة ان الناس الذين التقاهم كانوا أصدقاء دراسة ، وان اجتماع الشمل من جديد لم يكن يدور حول اسرائيل أو ضدها .

وعلى الرغم من ان المستشار القانوني العسكري قرر في النهاية ان ليست هناك أي جريمة ، ولم تحول القضية الى المحكمة نهائيا ، فان زيادا بقي في السجن في الخليل . ولمدة تزيد على اسبوعين ، خلال شتاء عام ١٩٧٦ ، احتجز بالسجن الانفرادي ، وحيدا في زنزانة شديدة البرد في أعلى السجن ، حيث يقطر الثلج الآخذ بالذوبان من شباك مكسور في السطح . يقول زياد : «لن أنسى أبدا البرد هناك ... كنت طوال الوقت أستدير من جانب لآخر كي لا أتجمد . ان ذلك الامر يشبه النار: حينما تلمس النار وهي حامية جدا ، فانك تتجه نحو الجانب الآخر حتى لا تحترق. لقد اكتشفت ان البرد يمكن ان يكون مثل النار . في بعض الأحيان تلمسها حتى تصل الى درجة لا تستطيع الاستمرار في لمسها لأن يدك أصبحت ساخنة

جداً» . وبعد قضاء ثمانية عشر يوما في الزنزانة ، تم ترحيله الى السجن العام وأرسل الى غرفة فيها ثلاثة وعشرون فلسطينيا . وقد كان ذلك بالنسبة اليه مثل العودة الى الوطن : «شعرت وكأنني أطلق سراحي ، لانك حينما تذهب الى هناك ، فانك تكون جزءاً من عائلة كبيرة جداً» . وقد أعطاه السجناء الآخرون بنطالا وتي شيرت ، وشيئا من الصابون ، وجعلوه في مقدمة الصف من أجل الاستحمام بالدّش . يقول زياد : «حينما تكون داخل السجن تشعر وكأنك بين عائلتك» .

وعلى النقيض من العديد من الفلسطينيين ، لم يَقْضِ زياد سنوات في السجن . فقد اعتقل مرتين ، تعرض خلالهما للارهاق واطلق سراحه . ففي الخليل ـ عام ١٩٧٦ ـ سجن لمدة شهرين . لكن آخر فترة سجن قضاها كانت الاكثر إرهابا لانه أُبعد عن زوجته وأولاده الثمانية خلال حرب الخليج . فخلال الاسابيع الستة للحرب ، لم تتوقف مخاوفه على الاطلاق من ان تقصر صواريخ سكود التي يطلقها العراقيون والمحملة بالاسلحة الكيميائية عن بلوغ أهدافها ، فتضرب المناطق الفلسطينية المجاورة في الضفة الغربية .

ولم يكن أولاد زياد ، وهم أربعة أولاد وأربع بنات ، مدركين على الاطلاق بأن أباهم سيعتقل . فعند غسق يوم ١٢/ ١١/ ١٩٩٠ اتصل الحاكم العسكري لبيت لحم ليدعو زياداً لزيارته وتناول فنجان من القهوة . كان الصحافي الفلسطيني يستجيب دائما لمثل هذه الدعوات . وفي الماضي كان الحاكم ـ الذي يعرف فقط بالاسم المستعار «دودو» وهو تصغير لاسم ديفيد ـ مهذبا معه ، وكان يسأله بعض الاسئلة ، ويتبادلان القيل والقال عمن هم داخل وخارج القيادة . لكن حينما وصل زياد هذا الصباح عند الساعة العاشرة ، قادته سكرتيرة الحاكم الى غرفة مجاورة ، حيث كان بانتظاره ثلاثة ضباط اسرائيليين ، فقاموا بتقييد معصميه في حين بدأ أحد الضباط بقراءة أمر اعتقاله . كانت الاوراق على الطاولة أمامه ، وبالطبع فانها كانت مكتوبة باللغة العبرية . يقول زياد : «قبل ان يقرأ السطر الاول كنت قد قرأت الصفحة كلها» . وبموجب القوانين العسكرية التي تحكم المناطق المحتلة ، فان من الممكن ان يوضع تحت الاعتقال الاداري لمدة سنة دون أن توجه ضده رسميا أي تهم ، وبالامكان تجديد مدة الاعتقال تلقائيا دون ان يكون له حق المثول أمام محكمة .

لم يكن زياد متأكدا على الاطلاق من سبب اعتقاله ، وقد راودته الشكوك في ان

الحكومة تعرضت لضغوط للقيام بشيء ما بعد أن طُعن ثلاثة اسرائيليين في منطقة البقعة في القدس ، والتي كانت سابقا بعيدة عن أعمال العنف . وقال زياد غير مبال بالدور الذي يرى الاسرائيليون انه بمثابة تهديد لأمنهم القومي : «كان الاتهام الوحيد انني متورط في القيادة الموحدة للانتفاضة» .

بعد أن أنهى الضابط قراءة الأمر ، زاعما ان زياداً يشكل خطرا وان سجنه ضروري لحماية الأمن والنظام العامين للدولة ، أُخذ السجين الى زنزانة معتمة ورطبة في طابق التسوية (القبو) . وحينما بدأ نزول الدرج التفت اليه أحد الحراس وعرض عليه ان يأخذ منه معطفه باهظ الثمن ، المصنوع من صوف الجمل : «اذا كنت تود ، فبامكاني أن أحتفظ لك به معي لئلا يتسخ» فالتفت اليه زياد وقال : «انك مهتم بالمعطف اكثر من اهتمامك بي» وأخذ المعطف معه .

قضى ساعتين ونصف الساعة في القبو البارد قبل أن يرحّل الى جنيد ، السجن المركزي في الضفة الغربية في نابلس . كانت مساحة زنزانته اثني عشر قدما مربعا وبها ثمانية أشخاص ، ينامون على اربعة أسرة نصبت فوق بعضها . وفي احدى الزوايا هناك ما يسميه الاسرائيليون دورة مياه وهي عبارة عن فتحة في الأرض ، كما كان هناك ما يشبه الحوض ، وحنفية صغيرة ينزل منها احيانا ماء ساخن . وعند كل صباح ، كان يسمح للمائتين وسبعين نزيلا في سجن جنيد بممارسة النشاط الرياضي لمدة نصف ساعة ، وفي وقت متأخر من النهار كان يسمح لهم بالسير حول الساحة لمدة ساعة ونصف الساعة . وعلى النقيض من بقية السجناء ، كان باستطاعة زياد زيارة اقسام أخرى ليعلم اللغة العبرية لمجموعة من الطلبة السجناء ، والقراءة والكتابة لمجموعة من السجناء الكبار في السن . وخلال الساعات الطويلة داخل السجن كان يلعب النرد (طاولة الزهر) .

كان الطعام يختلف من حيث الشكل ، لكن المذاق نادراً ما كان يختلف ، فالحساء خليط من الماء الساخن ، والزبدة ، والبهارات «وفي بعض الأحيان كانوا يضيفون شيئا من العدس ، لكن يجب عليك ان تسبح حتى تجد بعض هذه الاشياء» . فاذا كان هناك فائض من البندورة في اسرائيل «يمكنك توقع ان يكون لديك بندورة كل يوم ، والا ، فبامكانك ان تقضي شهرين أو ثلاثة ولا ترى البندورة» . وكان قادراً على الحصول على الشاي قليل التخمير ، اذ كانوا كما يذكر

«يغلون سبعة أكواب من الماء لمدة نصف ساعة بكيس واحد من الشاي» . وقد تركت التجربة هذه زياداً بدون شهية للطعام حينما اطلق سراحه في النهاية : «وحتى لو كان ذلك الأمر قبل نحو سنة فانني ما أزال أجد صعوبة في احتمال أي رفاهية . ما أزال أذكر الكثيرين من هؤلاء الناس الذين كانوا معي ، وذهنيا لا أستطيع المساعدة سوى المقارنة بين ما هو عليه الوضع خارج السجن وما كان عليه داخل السجن» .

ولن ينسى زياد على الاطلاق دوي صفارات الانذار التي كانت تطلق كلما كان هناك هجوم عراقي في الطريق . وقد سمع السجناء اولى صفارات الانذار من خلال راديو ترانزستور داخل زنازينهم . يقول زياد : «في البداية كنا مرتاعين فعلا لايماننا بالفعل ان صدام حسين يمتلك اسلحة كيمياوية وسيطلقها على اسرائيل ، ولأن ايا من السجناء الفلسطينيين لم يعط اقنعة واقية من الغاز أو امكانية الوصول الى غرفة مغلقة ، كما ان النوافذ في سجن جنيد كانت مكسورة من ناحية المزالج ، ولذلك فانه اذا أطلق أي اسلحة كيمياوية ، فاننا كنا سنموت في الحال» .

غير ان التجربة الاكثر اذلالا خلال الحرب كانت سماع الاعلانات كلما كان هناك هجوم بصواريخ سكود وشيك الوقوع : فقد كانت مكبرات الصوت تأمر الحراس الاسرائيليين بارتداء الاقنعة الواقية والدخول الى الغرفة المغلقة داخل مبنى السجن . وقد حاول زياد ان يوضح للضابط المسؤول عن السجن «ان عليه ان يجد طريقة كي يضع رجاله الاقنعة الواقية من الغاز ويذهبوا الى الغرفة المغلقة دون ان يجعلنا مدركين لما يحدث» . ويقول زياد انه قال للضابط : حينما تذاع التعليمات بواسطة نظام مكبرات الصوت «نشعر ان لا أحد يهتم بحياتنا واننا لا نساوي شيئا . وخلال الهجمات الاولى ، حينما لم يكن أحد يعرف فيما اذا كانت صواريخ سكود تحمل رؤوسا كيمياوية ، كنا نجلس لننتظر الموت» .

كان قلقا على أبنائه كثيرا ، وكانت الزيارات العائلية كل اسبوعين مرة . وبعد أن بدأت حرب الخليج في شهر كانون الثاني ، فرض حظر التجول على العديد من مدن وقرى الضفة الغربية وغزة . وبذلك مرت الاسابيع دون ان تصله أي أخبار من بيته . وخلال الحرب ، منعت عنه حتى زيارات محاميه : «كأب لثمانية اطفال

لم أكن أعـرف كيف كانوا يتدبرون أمور حياتهم : «هل كانت لديهم غرفة مغلقة ، ام لا ، وهل كـان لديهم طعـام كـاف أم لا أو نقـود كافية ، أم لا ، أو كيف كانوا يتدبرون أمورهم» . ان ابنته الكبرى جمانة ـ حينما كتبنا هذا الكتاب ـ كانت طالبة في الجـامـعة العبرية تدرس الأنكليزية والعلاقات الدولية ، ومثل والدها فانها تتقن العبرية بطلاقـة . واثنان من اولاده يدرسـان في الولايات المتـحدة : طارق ويدرس الهندسة في برغهام يونغ يونيفرستي ، وعلي البالغ من العمر عشرين عاما تقريبا ، ويدرس علوم الكمبيوتر . اما بناته الثلاث الاخريات ، فهن : نسرين وهي طالبة في المدرسة العالية ، ولمياء في الصف التاسع ، وهبة في الصف الخامس .

أمّا ابناه اللذان كان شديد القلق عليهما فهما : سري البالغ من العمر نحو أربعة عشر عـاما ، وعمار البالغ من العمر عشر سنوات . فعلى الرغم من ان ابنته نسرين اعتقلت وقضت ثمانية واربعين ساعة في السجن لقيامها بقذف الحجارة ، ورغم ان ابنته الكبرى جمانة كانت تنتقد والدها لكونه معتدلا جدا ، الا ان المتطرفين الفعليين في العـائلة كانا سري وعمار ، اذ انهما ولدا تحت الاحتلال الاسرائيلي ، وشبا خلال الانتـفـاضــة . فـحينما كان سري في العاشرة من عمره كان يلتمس امه للسماح له بالخـروج الى الشـارع وقـذف الجنود الاسرائيليين بالحجارة ، وكانت امه تقول له المرة تلو الاخرى ان اباه سيكون تحت طائلة المسؤولية وسيرسل الى السجن . غير ان سريا يصر على انه هو الذي يتـحمل المسؤولية : «اذا سألوني من أبوك ، فانني لن أخبرهم ... أعـرف انهم في السـجن يعذبون الناس ، وان الطعام غير جيد ، وان الأمور سيئة ، لكنني أريد الخروج» . هكذا كان سري يؤكد بكل براءة . يقول زياد : «كـان سري في سن صـعبة جدا ... ان هذه المرحلة من العمر صعبة جداً بالنسبة الى الوالدين والمدرسين» . ومع ذلك ، فـان المقـاتل الأشرس في البـيت هو ابنه عمار البـالغ من العـمـر عشر سنوات . فـقد قضى هذا الفتى الكثير من حياته في مخيم الأمـعـري للاجئين الفلسطينيين في رام الله ، حـيث كـان يعتنى به طوال النهار لان والدته ـ التي عـاشت في مخيم في غـزة ـ تعـمل مـدرسـة . ان البؤس الذي تعانيه المخـيمات كان له أثر قوي في نفس عمار الذي كان وعيه الفلسطيني اكبر من وعي اخـوانه الاكبر سنا منه . فحينما كان يبلغ السادسة من العمر فقط ، كانت التسلية المفـضلة لديه رفع العلم الفلسطيني على الجـدران ، بل انه رفع سـتـة من الاعلام الفلسطينيـة في إحـدى زوايا غـرفة نومه . ويقول زياد بشيء من الفخر «كان يريد

من كل شــخص ان يأتي ليراها» . ويتـذكـر الوالد ابنه حـينما أعلن «لقـد حـررت غرفتي !» .

ولد عمار عام ١٩٨٢ خـلال الاسبوعين الأسوأ من فترة حصار بيروت . وعلى الرغم من ان والديه يقـولان انهما لم يخبراه أبدا بما حدث ابان فترة مولده ، فانه سـمي فيما بعد بأبي عمار ، الاسم المستعار لياسر عرفات . يقول زياد : «لم يكن واضـحا فيما اذا كانت م. ت. ف. ستكون قادرة على الخروج أم لا ، ولذلك فان أبا عمار نفسه ، وقَـدَرَه كانا علامة استفهام ، وهذا هو السبب الذي يفسر لماذا أطلقنا عليـه هذا الاسم ، عمار ؛ بعـد أبي عمار لاحـيـاء ذكراه في حال حدوث شيء له» . ومنذ ان كـان في سن الســادســة من العـمـر ، أدرك عمار التماثل بين اسمه وبين سميه ، وشعر بالتأثر فيما يتعلق به . وفي احدى المناسبات ، وحينما كانت العائلة تسير بالسـيـارة بجـانب مـركـز الاعـتقال ذي الجدران العالية ، سأل الطفل عمن بداخل المبنى ، وحـينما قيل له ان سجناء فلسطينيين بداخله ، قال الصبي الصغير البـالغ من العـمـر سـبع سنوات : «سأذهب الى ياسر عرفات وأحضره مع رجاله ، وسنحضر أسلحـة ونفـجـر هذه الجـدران . سنحـرر السجناء كلهم الموجودين في الداخل» تقول أمه : «كان جاداً تماماً حينما قال ذلك» .

بالنسبة الى الاطفال جميعهم ، فان رئيس م. ت. ف. اكبر من الحياة . ويوضـح زياد ان «عـرفـات رمز ، وليس مجرد شخص ... وحينما يتكلم اولئك الاطفال عن عرفات أعتقد أنهم يتحدثون عن شيء متخيل . فبالنسبة اليهم ، فانه يمثل قيادة م. ت. ف. وحـينما يشـاهدونه على شــاشــة التلفـاز ، يقـولون : [هذا رئيسنا] . لقد اعـتـادوا رؤيتـه ويحبـون الشكل الذي يظهـر فيه . انهم ليسوا كالامريكيين الذين يريدون رؤيته حليق الذقن ، مرتديا بذلة وربطة عنق» .

ويحاول زياد الاحـجـام عن التأثير سـيـاسيا في أبنائه . ومثل كل الآباء ، فانه أسـعـد ما يكون حينما يقومون باداء واجباتهم البيتية «كوالد ، فانك دائما تريد ان يكون ابنك في أمن وسـلام . لكنك لا تسـتطيع أبدا التحدث عما سيتورط ابنك فيه لانه لا يخبرك ابداً عما يفعله» .

ان الفـارق الاكبر بين جـيله وجيل أبنائه هو «انني اعرف الاسرائيليين اكثر ، اذ لدي أصـدقـاء شـخـصـيـون من الاسرائيليين . هناك بعض أشـيـاء أدركـهـا عن

الاسرائيليين ، أو على الاقل ، انني على استعداد لفهمها» . فعلى سبيل المثال ـ يقول زياد ـ اذا قلت لشخص عادي من الفلسطينيين ان الاسرائيليين خائفون منهم ، فانه لن يصدق ذلك . ان ذلك ـ وبكل بساطة ـ أمر مبهم لأن تجربتهم كانت واحدة من المضايقات والجَلد على ايدي الاسرائيليين . وفي أذهانهم ، فان اسرائيل قوة عظمى ، تمتلك خامس اكبر جيش في العالم ، وتمتلك أيضا الاسلحة النووية . ويضيف زياد قائلا : «بالنسبة اليّ ، وبحكم خبرتي واتصالاتي مع الاسرائيليين ، اقول ان هناك الكثير من الاسرائيليين يشعرون بالخوف فعلا حينما يتحدثون عن الأمن» . ويشير الى ان المدارس العربية لا تعلّم الكثير عن ذبح ستة ملايين يهودي في الكارثة : «من المحتمل أننا هنا في المناطق المحتلة يمكن ان نتعلم شيئا من الاسرائيليين فيما يتعلق بمعاناتهم خلال الفترة النازية» . ويضيف ، لكن الاسرائيليين يمكنهم ان يتعلموا ايضا شيئاً ما من الفلسطينيين : «عليهم ان يدركوا اننا الآن نقوم بالدور نفسه الذي قاموا به خلال سنوات الثلاثينات والاربعينات قبل ان يقيموا دولتهم . نحن يهود اليوم» .

واليوم ، فان زياداً أبي زياد يشغل منصب رئيس اللجنة السياسية للقدس . وعلى غرار صحيفته الناطقة باللغة العبرية (الجسر) فانه يعتقد بان هذه اللجان ـ هناك ٢٠٠ لجنة في مختلف انحاء الضفة الغربية وقطاع غزة ، مشكلة بشكل قوي من مؤيدي فتح ـ يمكن ان تكون جسراً مهما بين الجماهير وبين المجموعة المنتخبة في الوفد الفلسطيني المفاوض . ويدافع عن الحاجة الى اللجان لأن هؤلاء الفلسطينيين ـ وبخاصة اولئك الموجودين في مخيمات اللاجئين ـ قد شعروا انهم استبعدوا من خلال اختيار فلسطينيين مثقفين وذوي معرفة واسعة للتفاوض مع اسرائيل . ويقول زياد سواء أكانوا محقين في ذلك أم لا ، فان الامر ليس موضع نقاش : لكن المحصلة النهائية كانت انهم شعروا «انهم لم يقوموا بالدور الذي اعتقدوا انهم مؤهلون للقيام به» .

ويعتقد زياد ان نشاط هذه اللجان على المستوى المحلي يمكن ان يكون سابقة مفيدة لتطوير الاحزاب السياسية ، حتى انه يشعر بالغضب لمواصلة الاسرائيليين حظر مثل هذه الاحزاب : «لقد شعرنا ان هناك حاجة لاقامة جسر بين الوفد وبين الناس للتواصل في كلا الاتجاهين . وقد اعتقدنا انه من خلال الاعلان عن هذه اللجان السياسية بطريقة علنية ومعبرة ، فان ذلك الأمر سيضفي عليها وعلى

عملية السلام نفسها الشرعية» . كذلك ، فان هذه اللجان كانت ضرورية كجسر بين جيله والجيل الذي يليه ، وهو الجيل الذي ولد تحت الاحتلال الاسرائيلي . فقد ترعرعوا وكبروا في ظل ظروف مختلفة كما يقول : «في اللحظة التي فتحوا عيونهم فيها وبدأوا يدركون حقائق الحياة ، كان أول شيء يرونه هو الجندي الاسرائيلي في الشارع ، الجندي الذي يحاول ان يضايقهم أو يستفزهم» . وتعلّم الاطفال بسرعة أن أبناء شعبهم من الفلسطينيين ، يعيشون في ظل ظروف تختلف عن ظروف الاسرائيليين : «لقد كبروا بعقلية المواجهة هذه» .

ويعترف زياد انه اذا أخفقت عملية السلام ، فان الجيل التالي سيكون اكثر تطرفا «لكن الراديكالية ليست الكلمة المناسبة» كما يقول : «اود القول انهم اكثر ادراكا ووعيا لهويتهم الوطنية ، واكثر التزاما بنضالهم الوطني ، واكثر ترحيبا بالتضحية لانهم يعيشون في مواجهة يومية مع الاحتلال» . وقد عاش هو نفسه الجزء الاكبر من حياته ، وتعلم من التجارب ـ الجيد منها والسيء ـ عن الاسرائيليين . يقول زياد وهو يدرك كم هو مؤلم ان لديه «مسؤوليات عائلية ... وان عليك في بعض الاحيان ان تنحني الى ان تهدأ العاصفة ثم يمكنك بعد ذلك ان ترفع قامتك . وبالنسبة الى الجيل الشاب ، بالنسبة الى شخص ما يبلغ السادسة عشرة او السابعة عشرة من عمره ، وليست لديه أي مسؤوليات أخرى ، فانه يعتقد انه الأقوى ، ويعتقد انه الاكثر شجاعة والاكثر جرأة ، ولذلك فانه لا يهتم بالاشياء التي أهتم بها وأنا في سني هذه» .

ان الاحساس بالقهر الذي يحدث في فترة الشباب قد انتهى بالنسبة الى زياد . فقد نضج سياسيا ، متجنبا التطرف والانفصال الكلي عن اليهود الاسرائيليين . لقد كسر الحاجز اللغوي بين اللغتين : العربية والعبرية ، والحاجز المادي بين اسرائيل والضفة الغربية ، والحاجز النفسي الذي يقود العديد من الفلسطينيين للعيش في دولة محاصرة .

وفي الوقت نفسه ، فانه سعيد بان الولايات المتحدة الامريكية تتصرف كجسر بين القيادة الفلسطينية داخل المناطق وبين م. ت. ف. في تونس . وفي هذه الايام ، فان كبار مستشاري ياسر عرفات ، أمثال : نبيل شعث ، واكرم هنية يسافرون بشكل اعتيادي الى واشنطن من أجل المساعدة في تقديم النصح والمشورة للوفد

الفلسطيني ، وكنتيجة لذلك ، فان روابط جديدة مهمة قيد التشكل ، روابط طالما سعت اسرائيل الى ان تعوق قيامها . يقول زياد : «لقد أتاحت عملية السلام الفرصة أمام الشعب في الداخل وفي الخارج للتواصل بحرية أكثر وبعمق اكبر . لقد سمحت لنا بان يعرف كل منا الآخر بشكل أفضل وان نعمل معا كفريق واحد . وكنتيجة لذلك ، فان الهوة الفاصلة بين الخارج وبين الداخل آخذة بالاختفاء ... اننا نعمل كفريق واحد» .

ويوضح ان هذا الامر جيد من أجل عملية السلام لان م. ت. ف. في النهاية هي التي ستكون فقط قادرة على «تقرير مستقبل الشعب الفلسطيني» واقرار أي تسوية تتوصل اليها القيادة المحلية . وحينما تحطمت طائرة عرفات في الصحراء الليبية ، وخُشي ان يكون قد فُقد ، كان هناك ذعر لان زعيم الفدائيين المسن كان بمثابة الصمغ الذي يمسك العملية ببعضها . والى ان يتم تحقيق تقدم فعلي في محادثات السلام ، سيبقى الرابط الاساسي الذي لا غنى عنه كما يقول زياد : «ان أي شخص من المناطق المحتلة لا يحظى بتأييد او حتى تغطية م. ت. ف. لا يساوي شيئا ؛ انه لا يستطيع اتخاذ قرار فردي» . غير ان الديناميكيات تتغير : «فمن خلال تقديم تسهيلات لاعضاء م. ت. ف. في تونس للسفر الى واشنطن ، فان الامريكيين يساعدون فعلا في جعل هذه العملية ذات هدف» على حد قول صحافي فلسطيني . ومن خلال تغيير القانون والسماح لمواطنين اسرائيليين باللقاء مع م. ت. ف. في تونس أو في أي مكان آخر ، فان الحكومة التي يقودها رابين في اسرائيل قد اتخذت اول خطوة نحو الاعتراف بمركزية المنظمة . وبالطبع ، فان ما لا يقال ، هو انه اذا نجحت عملية السلام ، فان العلاقات الناجمة عن ذلك بين الفلسطينيين والاسرائيليين ، وبين الفلسطينيين انفسهم داخل وخارج المناطق ستشكل الجسر الذي يسمح لفلسطينيين من الضفة الغربية مثل زياد أبي زياد للقيام بادوار جديدة كقادة لجماهير الناخبين الفلسطينيين .

سامي الكيلاني



● سامي الكيلاني مع ابنتيه (من اليسار إلى اليمين) سارة ، وزويا .



● سامي الكيلاني (إلى اليسار) مع شقيقه احمد .

سامي الكيلاني

حينما تتذكر غالبية الأمريكيين سنوات مراهقتهم المبكرة ، فمن المحتمل انهم يتذكرون أول موعد لهم مع فتاة ، أو أول مرة تناولوا فيها المشروبات ، ويتذكرون معبوديهم ، ومغنيهم مثل البيتلز ، أو البيش بويز ، أو الملاكمين أمثال كاسيوس كلاي . لكن سامي الكيلاني لديه بلا ريب ذكريات طفولية تختلف عن تلك . فهو يتذكر تبرعه بنصف مصروف جيبه الى صندوق خاص لمساعدة الطلبة المتطرفين في الجزائر . يقول : «كان ذلك بداية نشاطي السياسي» . ولم يكن أبطاله نجوما لامعين أو حتى ملاكمين محترفين في الحلبة ، بل كانوا مناضلي حياة وموت ، وثوارا شبابا أجبروا الجنرال تشارل دي غول على اعطاء الاستقلال للمستعمرة الفرنسية : الجزائر ، وكانوا (أبطاله) الفدائيين الماركسيين التابعين لجبهة التحرير الوطني في اليمن الجنوبي ، الذين حاربوا القوات الملكية للمستعمرة البريطانية في عدن . ويكبر المراهقون في الضفة الغربية ، وقد عبدوا الشخصيات المعادية للامبريالية والاستعمار ، مثل : فيدل كاسترو ، وارنستو تشي غيفارا في كوبا، وهوتشي منه في فيتنام الشمالية ، وماوتسي ـ تونغ في الصين الشيوعية .

ولد سامي الكيلاني في يعبد عام ١٩٥٢ ، وهي قرية ريفية كبيرة تقع بالقرب من جنين . وقد كونت والدته عائشة ووالده محمد ـ وهو مزارع تبغ ـ بيتهما ، وزرعا أولادهما الخمسة وابنتيهما عميقا في أرض الضفة الغربية الزراعية . لقد أصبحت القرية التي يعيشون فيها ـ والتي تبدو غير مهمة ـ مشهورة على نطاق واسع ، بسبب موت زعيم عربي فيها هو عز الدين القسام . فهذا البطل العربي الذي حارب ضد البريطانيين اكتُشف مختبئا في يعبد ، وسُلِّم الى السلطات المسؤولة صانعا بذلك ليس شهرة البلدة فقط ، وانما أيضاً مصير الشباب .

كان الشيخ القسام أحد المنادين الأوائل بالجهاد ، و تذمر كثيرا من أن أموال الوقف كانت تصرف على ترميم المساجد . وقدم لشعبه ، بديلا متطرفا ـ الثورة ـ لمقاومة ما رأى انه النتيجة الحتمية لانتشار الهجرة الصهيونية وإقامة دولة يهودية في فلسطين . وباعتباره رئيس الهيئة الاسلامية في حيفا ، ومؤيدا قديما للأصولية الاسلامية ، عمل القسام على تنظيم الفلاحين العرب المطرودين من ديارهم في منطقة الأكواخ الواقعة على الساحل الشمالي لفلسطين في خلايا سرية

مسلحة . وكانت أول مرة لفت فيها انتباه الرأي العام في شهر كانون الأول عام ١٩٣٢ حينما شن هجوما بقنبلة يدوية على منزل في بلدة ناحال ، وهي واحدة من أوائل المستوطنات الزراعية في وادي يتسرائيل في جنوب الجليل . ويقول سامي مفتخرا ان القسام قتل بعد ذلك بأقل من ثلاث سنوات «كشهيد بالقرب من قريتي» حينما رفض الاستسلام للجنود البريطانيين . ويرتبط اسمه مباشرة بيعبد حتى انهم يدعونها في بعض الأحيان باسم يعبد القسام .

بعد موت القسام ، حظي تأييد العمل المسلح بشعبية أوسع ، ومع اندلاع الثورة العربية عام ١٩٣٦ ، أصبحت يعبد مقترنة بالمقاومة ، حتى ان موشي دايان وزير الدفاع الاسرائيلي خلال حرب الأيام الستة أكد بأن العنف الذي اعتنقه «الارهابي المتطرف» عز الدين القسام له قصة طويلة في يعبد . يقول دايان في مذكراته : «هنا ، قبل نحو ٣٥٠٠ سنة» نجا يوسف وبشق النفس من القتل على أيدي إخوته و «بيع الى تجار مدنيين عبيد» أخذوه معهم الى مصر . ويصف دايان أيضا واحدة من أشرس الهجمات سنة ١٩٦٧ ، للسيطرة على يعبد اذ يقول عنها انه أمر بها بسبب موقع البلدة الاستراتيجي على قمة هضبة تطل على وادي دوتان حيث قتل العديد من الاسرائيليين في هذه المعركة مع الأردنيين . وكانت تلك ذكرى مؤلمة للدولة اليهودية ، حتى ان أغنية تؤبن ضحايا «معركة وادي دوتان» وغناها كورس قوات الجيش الاسرائيلي أصبحت شائعة جداً بعد انتهاء الحرب .

وعلى الرغم من اعتداده بنفسه لكونه عضوا في الوفد الفلسطيني المفاوض ، فان سامي يقف بمعزل عن غالبية الثوار الفلسطينيين . فهو لم يحارب بالسلاح وانما بالكلمات كمدرس ، وككاتب قصص قصيرة ، وكشاعر . ومع هذا ، فان جذوره ليست في المجال الأكاديمي ولكن في الأرض ، وفي معاناة أولئك الذين قضوا جل فترة شبابهم في السجون الاسرائيلية . حينما كان في سن الأربعين ، قضى سامي غالبية العقد الأخير من عمره قيد الاعتقال ، وقضى رحلة في عالم السجون : من جنيد ـ السجن المركزي للضفة الغربية في نابلس ـ الى مركز الاستجواب والتحقيق في الفارع ، الى الظاهرية ـ مخيم عسكري بالقرب من الخليل ـ الى انصار ٣ المعسكر الصحراوي النائي بالقرب من الحدود مع مصر . وعائلته ليست غريبة عن مثل هذه المشاكل : فمن ناحية ، هناك أربعة من أبناء الكيلاني الخمسة ـ سامي ، سليم ، خالد ، وعدنان ـ كانوا جميعهم في السجن في وقت واحد . وحينما

أدخل سامي الى السجن وقعت أكثر الأحداث أهمية في حياته . فقد كان في السجن حينما توفي والده ، وكان في السجن حينما استشهد أحد أشقائه خلال الانتفاضة ، وكان في السجن أيضاً حينما ولد ابنه الثالث . وحتى حريته اعترضتها عقبات خفية : فكمواطن عادي ، سعى الى مغادرة الضفة الغربية ، غير ان السلطات الاسرائيلية منعته من ذلك . يقول : «لقد غادرت لأول مرة منذ ست عشرة سنة .. حينما عينت عضوا في الوفد الفلسطيني» .

ويرى نفسه انه مختلف عن العديد من أعضاء الوفد الفلسطيني المفاوض ، فهم يتحدرون من عائلات غنية ، وتعلموا ، وسافروا الى الخارج كثيراً ، ويبدون رقيقين ، ويمكنهم الامتزاج بسهولة في الغرب . أما سامي الكيلاني فيرى نفسه بشكل ما انه خشن ، فظ ، ابن مزارع كافح كي يغذي عقله ، رجل مرح يبدو مذهولا بسبب الاهتمام الكلي الذي يحصله أكثر زملائه تعقيدا . وعلى النقيض من زملائه الموالين لفتح ، فانه يؤيد جناح الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الذي يقوده ياسر عبد ربه بسبب ان حزبه - كما يقول - لم ينحرف ، اذ له علاقاته وروابطه مع الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين ، و «يعتمد على الجماهير» . ويؤكد ان النشطاء السياسيين يجب ان تكون لديهم «جذور عميقة مع الناس ، وتاريخ وطني نظيف ، وقيادة ذات مصداقية» .

في غرفة فارغة في جامعة النجاح ، حيث يقوم الآن بتدريس مادة الفيزياء ، يجلس سامي ليستغرق في ذكريات أيام دراسته الثانوية ، والضغط الذي كان يمارسه رفاقه الأكبر سنا منه الذين أرادوا السير على خطوات الشيخ عز الدين القسام ، شهيد بلدتهم . في عام ١٩٦٢ ، حينما كان يبلغ العاشرة من عمره - وكما يستذكر - كان هؤلاء مع مجموعة من الأنصار الأكبر سنا منهم في المدرسة أعضاء في مجموعة سرية هي حركة القوميين العرب . وقد تأسست على أيدي الطلبة اليساريين في الجامعة الأمريكية في بيروت ، وذلك بعد مرور بضعة أشهر على استقلال اسرائيل من أجل حشد الجماهير العربية ضد الغزوة الصهيونية . يقول سامي : «كانوا نشطاء في هذه القرية .. وكنا [الشباب الصغار] نحاول تقليدهم واتباع خطواتهم» . ويستذكر ان الشقيق الأكبر لأحد أصدقائه المقربين التحق بالمجموعة ، وكان سامي يتبرع كل يوم بنصف مصروفه اليومي . وقد كان من المثير معرفة شخص ما التحق بحركة القوميين العرب ، وهي المجموعة التي أيدت

الاطاحة بالأنظمة العربية المنحرفة والمحافظة ؛ والأكثر من هذا فانها وعدت بشعب عربي موحد ، ودولة اشتراكية واحدة توحد الشعب العربي .

من بين المؤسسين الأوائل للحركة في الجامعة الأمريكية في بيروت كان جورج حبش ، وهو فلسطيني مسيحي ، أسر الجماهير ، وقد أسس فيما بعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . ومثل شقيقتها المنظمة ، فان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أيدت استخدام العنف لتخليص الشرق الأوسط من النفوذ الغربي ، بما في ذلك اسرائيل والأنظمة العربية المدعومة من الغرب .

لم تكن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الفصيل الوحيد الذي يدعو الى استخدام كل الوسائل ـ بما في ذلك الارهاب ـ ضد الصهاينة . ففي شهر أيار من عام ١٩٦٤ حينما كان سامي يبلغ من العمر اثني عشر عاما ، عقدت م. ت. ف. مؤتمرها التأسيسي في القدس الشرقية التي كانت تحت الادارة الأردنية . وبقيادة أحمد الشقيري ، نادت م. ت. ف. بتدمير الدولة اليهودية من خلال الكفاح المسلح وقالت في ميثاقها ان هذا هو «السبيل الوحيد لتحرير فلسطين» . ويتذكر سامي انه على الرغم من انه كان كبيرا بما فيه الكفاية لمساعدة والده في قشر التبغ ، الا انه كان سعيدا بما فيه الكفاية للمساعدة في جمع الأموال لصالح منظمة التحرير الجديدة . وحتى بعد تردي العلاقات بين م. ت. ف. الجديدة وبين الأردنيين «واصلنا محاولة جمع الأموال لـ [م. ت. ف]» .

ومع حلول شهر آذار من عام ١٩٦٥ ، حينما كان سامي يبلغ الثالثة عشرة من العمر ، شنت مجموعة سرية جديدة أطلقت على نفسها اسم العاصفة وترتبط مع فتح ، عشر عمليات تخريبية وغارات فدائية ضد اسرائيل ، سبعة منها من الضفة الغربية الخاضعة للنفوذ الأردني ، في حين شنت العمليات الثلاث الأخرى عبر قطاع غزة الذي كان تحت السيطرة المصرية . ومع انتهاء السنة نفسها ، كانت قد شُنت خمس وثلاثون عملية مشابهة ، ثمانية وعشرون منها عبر الضفة الغربية وحدها . واعتبر الاسرائيليون ان أهدافهم التخريبية ـ زرع المتفجرات في أنابيب المياه وخطوط السكة الحديدية ، والطرق ، والمستوطنات الحدودية ـ هي هجمات على مناطق مدنية ، وبالتالي فانها تقع بعيدا عن قواعد الحرب . واكتسبت مجموعات عديدة مختلفة من المقاتلين الفلسطينيين ، مثل (أبطال العودة) و (جبهة

تحـرير فلسطين) مـصـداقـية لها بسبب هذه العمليات ، لكن أكثرها فاعلية كانت (فـتح) . كـان المسـؤولون الاسرائيليون مدركين لحقيقة ان زعماء عدد من الأنظمة العـربيـة مثل جمال عبد الناصر وحكومة لبنان يبذلون أقصى جهدهم لوقف هذه المجموعات الفلسطينية المتهورة ، غير ان جهودهم لم تكن مفيدة بما فيه الكفاية .

وخـلال صيف عام ١٩٦٦ فـقط ، وقـعت خمس عشرة هجـمـة فـدائية داخل اسرائيل ، انطلقت غالبيتها من الضفة الغربية . وحينما قام الفدائيون الفلسطينيون في شـهـر تشرين الأول من العـام نفـسـه بتفجير ثلاثة منازل قرب محطة الباص الرئيـسية في غربي القدس تاركين وراءهم امرأة مسنة جريحة ، وحينما قاموا بعد ذلك بشـهر بتفجير لغم بالقرب من مستوطنة نيهوشا اليهودية ، فقتلوا بذلك ثلاثة جنود يهود وجـرحوا ستة آخرين ، أحست الحكومة الاسرائيلية ان الأمور تطورت الى حـد بعـيـد . وفي يوم ١٣/١١/١٩٦٦ ـ في وضـح الـنهـار ـ عبرت وحـدات اسرائيليـة مـدججة بالسلاح الحدود الجبلية بالقرب من الخليل ، وفي اقل من يوم ، أسـقطت طائرة عـسكرية أردنيـة ، ودمـرت عـدة مواقع للجيش الأردني ، ومراكز للشرطة الأردنيـة ، وكـرسـالة منهـا الى الفدائيين ، قامت تلك الوحدات الاسرائيلية بهدم عشرات المنازل في قرية السموع العربية ، حيث كان يتوضع المقاتلون .

كـانت العملية الاسرائيلية ـ التي شاركت بها الدبابات ، والمدفعية وسلاح الجو ، وقوات المشاة ـ أكبر غارة انتقامية منذ حرب ١٩٥٦ في السويس ، وكانت تهدف ـ حـسب مـا قـاله يشـعياهو غافيش قائد المنطقة الجنوبية ـ الى «اجبار الأردن على اغـلاق منطقـة جـبال الخليل أمام نشاط فتح» . غير ان تلك العملية كان لها أثرها المضـاد اذ ان العـديد من الفلسطينيين ـ بما فيهم سـامي الكيلاني البالغ من العمر آنذاك أربعـة عشر عـامـا ـ قد تولد لديهم انطباع بأن الأردن لن يكون وحده قادراً عـلى مـواجـهـة اسرائيل ، وان على الفـدائيين ان يسـاهموا في ذلك . يقـول سـامي الكيلاني «لقد آمنّـا بأن الفدائيين كانوا خارقين وقدمنا لهم كل احترام» . ويستذكر انهم تصـوروا الفـدائي أقـوى بكثير مما كـانوا هم عليـه ، لكنهم مع ذلك ، كـانوا أبطالاً حقيقيين : «كل ما كنا نفكر فيه هو كيف يمكن لنا أن نصبح فدائيين» .

لم يكن كـبيراً بما فـيـه الكفـاية ليـتـمكن من الالتـحاق بخلية لفتح أو للجبهة الشـعـبـيـة لتـحرير فلسطين ، ولكن بعد الغزو الاسرائيلي لقرية السموع ، انضم سامي الى عشرات الآلاف من فلسطينيي الضفة الغربية الذين تدفقوا الى الشوارع.

ولقد عزز الأثر طويل الأمد لغارة السموع ، ورد الفعل الفلسطيني على الغارة موقف م. ت. ف. بقيادة أحمد الشقيري . وفي الوقت نفسه ، فان الغارة عملت على زيادة الوعي الوطني الفلسطيني في الضفة الغربية ، وتوترت على نحو شديد علاقات الأردن مع مصر ، وسوريا ، وم. ت. ف. ففي ٣/ ١/ ١٩٦٧ اضطرت الحكومة الأردنية الى اغلاق مكاتب م. ت. ف. في القدس . «لكن الأمور تغيرت بعد ذلك» كما يستذكر سامي . ففي٣٠/ ٥/ ١٩٦٧ وصل الشقيري الى عمان عائداً مع الملك حسين من القاهرة ، حيث وقع العاهل الأردني اتفاقية دفاع مشترك مع جمال عبد الناصر ، واضعا قواته المسلحة تحت قيادة القوات المصرية . يقول سامي : «كنا سعداء جدا بأن العرب في النهاية كانوا يجمعون زخمهم لمواجهة اسرائيل ، ثم أُحبطنا بما حدث» .

كان سامي يبلغ الخامسة عشرة من عمره في ٥/ ٦/ ١٩٦٧ حينما بدأت الحرب وقد كثرت الاشاعات التي قالت انه سيكون هناك قتال ضار في الليل لأن الجنود الأردنيين والاسرائيليين تبادلوا نيران المدفعية في وقت مبكر من اليوم . ذهب سامي لزيارة الجنود الأردنيين على الضفة الشرقية ، ثم عاد الى يعبد ليجد ان لا أحد في منزلهم . وحين سأل الجيران ، أجابوه ان أسرته ذهبت الى كهف بالقرب من بستان تين في مزرعتهم . وحينما وصل الى الكهف ، رأى والده وهو يجرف الأوساخ بسرعة عن الجدران من أجل توسيع الملجأ . كذلك ، فان والدته كانت هناك الى جانب خمسة وعشرين شخصاً آخرين محتشدين مع بعضهم يتشاورون. ويستذكر سامي «كان هناك ازدحام شديد ، ولم يكن هناك مكان للنوم ، وكنا نجلس فوق بعضنا» .

خلال الليل وقعت معركة ضارية حولهم ، اذ يقول سامي : «كنا في الوسط بين الجيشين : الأردني والاسرائيلي» . وداخل الملجأ ، كان باستطاعتهم سماع صوت انفجار القنابل الملقاة من الطائرات المقاتلة الاسرائيلية ، كما كان باستطاعتهم رؤية الأضواء الساطعة لقنابل المدفعية المنفجرة حولهم . وحينما أشرق الفجر ، كان كل شيء قد هدأ . لم يكتشف الاسرائيليون مخبأهم ، وعادت عائلة الكيلاني الى يعبد . كانت القرية قد دمرت وسويت بالأرض نتيجة القصف الذي استمر طوال الليل . يقول سامي : «قصفت العديد من المنازل ، وكانت أسلاك التيار الكهربائي على الأرض ، وقد سمعنا ان بعض الناس قتلوا جراء القصف ، وانه كان هناك ما

يشبه المذبحة في الميدان الرئيسي ، السوق الرئيسي للقرية» .

عندمـا عـاد الى البـيت ، اتجه سامي نحو راديو الترانزستور محاولاً سماع ما كـان يقـوله جمال عـبد الناصر . ويستذكر سامي : «لقد احترمنا ذلك الرجل كثيراً جـدا ، واعـتبرناه رمـزا» غير انه لم يستطع ضبط موجة الاذاعة المصرية ، وكل ما اسـتطاع سماعـه هو (كـول اسرائيل/صوت اسرائيل) الذي كان يوجه تعليماته الى سكان الضـفـة الغربية لرفع أعلام بيضاء فوق منازلهم ، مع وعود بأنه لن يلحق بهم الأذى .

وخـلال سـتـة أيام انتهت الحرب : انتصار فريد للاسرائيليين ، وخزي موجع للدول العربية .

بالنسـبـة الى سـامي ، فان الانتصار العسكري الخاطف كان له أثره الشخصي والدائم . فـحينما عاد الى يعبد صباح ٦ حـزيران وجد ان أحد أقرب أصدقائه اليه قد أصيب بجروح بليغة نتيجة القصف الاسرائيلي . وقد قال نايف أسد لسامي انه جُـمع مع الرجـال الشـبـاب والفـتـيان كلهم في القرية ، وأُمروا بان يقفوا جنبا الى جنب تحت شـمس حـزيران السـاطعة ، وقد قيدت أيديهم الى ظهورهم في الساحة الرئيـسية للسوق . كانت حرارة منتصف النهار شديدة جداً ، حتى ان أحد الرجال حـاول الوقـوف تحت ظل بناية مجاورة لكن «الاسرائيليين اعتقدوا انه كان يحاول الفـرار فأطلقـوا النار : فـقـتل خمسة في اللحظة نفسها ، وجرح العديدون ، وكان صـديقي أحـد أولئك الجرحى . وقتل آخرون نتيجة القصف ، وكان اثنان منهم في مـثل عمري ... ووضعت تلك الحادثة بصماتها على حياتي كلها» . وقد وطد العزم على الانتقام .

بعـد مرور سنة على ذلك ، كانت هناك مواجهة لسامي الكيلاني مع الاسرائيليين اذ كـان والده في مـشكلة مع المحـتلين الذين اتخذوا اجـراءات صارمة ضد مزارعي التـبغ . يقـول سـامي : ان تصنيع السجائر في البيوت كان «ممنوعا لأن الحكومة تعـتبر السـجـائر شـيئاً قـابلا لدفع الضريبـة ولا تسـتطيع بيـعه بدون أن تدفع الضريبة» . ويضيف مبتسما : «كانت تلاحقنا قوات الجمارك الاسرائيلية» .

كـان سـامي يتـوق لأن يصبح واحدا من الفدائيين «غير انني لم أكن كبيرا بما فـيـه الكفـاية كي أكـون واحـدا منهم» . وعـوضا عن ذلك ، فقد قرر كتابة بعض

الكراسـات المعـادية لاسرائيل بهدف توزيعـهـا في شـوارع يعـبـد ، والتظاهر ضد الاحـتـلال ، يقول : «كان يجب علينا ان نفعل شيئاً» وبمساعدة اثنين من مدرسيه في المدرسـة الثـانوية ، كـتب اعـلانات جـدارية تقـول : «فلسطين عـربيـة» و «لا للاحـتـلال» . ونظمـوا مـسيرة طلابيـة عبر شـوارع يعـبد ، واعتقل العشرات من المواطنين ، بمن فـيـهم سامي واستاذه حمد فضل الطاهر ، وقد استدعيا الى مركز شرطة جنين للتـحـقـيق : «كانت المرة الأولى التي واجهت فيها التعذيب لأننا ضربنا بالاسـلاك الكهربائية وصفعنا وأُهنا بكل طريقة» وتم ترحيل أستاذه الى الأردن في حين استدعي والد سامي الى جنين «وأجبر على التوقيع على كفالة بأنني لن أشارك في أي مظاهرة» ثم أطلق سراح النشط البالغ من العمر خمسة عشر عاماً .

وعلى امـتـداد السنوات التـاليـة ، عمل سامي على أن يبقى بعيدا عن المشاكل ، مـركـزا اهتمامه على دراسته ، ثم تخرج من المدرسة الثانوية عام ١٩٧٠ وحصل على شـهـادته الجامعية في العلوم من الجامعة الأردنية . وبعد ان عمل لمدة سنة في عمان عـاد الى الضـفـة الغربية ، حيث حصل على درجة الماجستير عام ١٩٧٦ من جـامـعة النجاح في نابلس ، والتي كانت آنذاك كلية لتدريب المعلمين . وخلال السنة التـاليـة ، قـام بتـدريس الفيزياء في الجامعة ، وطور بسرعة مجموعة أتباع له بين أوساط الطلبة الشباب .

لكن في شـهر تشرين الثاني ١٩٧٧ ، هز حـدث مـفـاجىء وعنيف عالم سامي الكيـلاني . فـقـد قـام أنور السادات رئيس مصر ـ خليفة بطل طفولته جمال عبد الـنـاصر الـذي هُزمـت بـلاده في الحـرب مـع اسرائيل منذ ثلاثين سنة ـ بزيـارة اسرائيل . كـانت تلك الزيارة بالنسبة الى سامي ، قمة الخيانة للقضية الفلسطينية : فـزعـيم أكبر وأقـوى دولة في العـالم العـربي ، يسافر الى القدس ، عاصمة الدولة اليـهـودية ، ويتـحـدث الى الشعب الاسرائيلي من مجلس نوابهم : الكنيست . ومرة أخـرى دعـا الى المقـاومة ؛ كان ذلك واجبه تجاه شعبه . ويعترف سـامي : «وزعنا كـتـيـبـات توضح اننا ضـد هذه الخطوة الوقـحة على حساب الحل الشامل . وقد ساعدت في كتابة هذه الكراسات» .

في العام ١٩٧٧ ـ واذ لم يعـد سامي طفلا ـ فانه لم يكن محظوظا لفترة طويلة بعـد أن أطلق والده سراحـه . فـقـد اعتقل ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بسـبب «التحريض» وهي تهمة ، كما يقول سامي «بقيت ملازمة لي طوال حياتي» .

أرسل سـامي في البـداية الى سـجن جنيـد في نابلس ثم الى سـجن جنين . وخلال السنتين الأولين كـان والده يأتي لزيارته لمدة نصف سـاعة في الشهر ، ثم لم يَعُـدْ يزره . وخـلال السنة الثـالثة ، انقطع والده عن زيارته ، فكان سامي يسأل والدته عن السـبب : «كنت أسأل [لماذا لا يأتي ؟ مـاذا حـدث ؟ هل هو زعلان مني ؟]» . وقـد اعتقد سامي ان والده كان يلومه لأنه كان الأكبر بين الأبناء الستة وان والديه يعـتـمـدان على راتبـه المتواضع كمدرس لاعالتهم . ويستذكر ان الأمر كان في غاية الصـعوبة بالنسبة الى والدته عائشة حينما اعتقل في البداية : «انني أكبر الأبناء وقد عـدت من الجـامـعـة وبدأت مساعدة العائلة . ثم فجأة حكمت بالسجن لمدة ثلاث سنوات . كان ذلك صدمة لها ان تزورني في السجن ، وكان باستطاعتي ان أرى في الوقت نفـسـه انها تحاول ان تريني وجهاً آخر ، بمعنى انها كانت تحاول معالجة الأمـر ، لكنني كنت أدرك أنها كـانت تعـاني لأن أشـقـائي الآخـرين الذين أكبرهم بخـمس سنوات لم يكونوا قـادرين على كـسب عـيـشـهم ، وكان والدي قد بدأ يقع فريسة المرض ، فبدأت تعمل في جمع الزعتر ، والقيام بأي شيء لمساعدة العائلة» .

ثم ، قـبل يومين من اطلاق سراحـه من السـجن في عـام ١٩٨٠ ، تلقى سـامي النبـأ . لقـد كـان «واحـدا من أكـثر الأحداث قسوة ومأساوية في حياتي» اذ ان لا أحـد من عـائلتـه كان قد أخبره ان والده البالغ من العمر خمسة وخمسين عاما لم يعـد يأتي الى السـجن لزيارته بسـبب المرض الذي أصابه : نوع نادر من سرطان الدم اسـتنزف قوته بشكل تدريجي الى ان قتله في النهاية . ولن ينسى سامي على الاطلاق كـيف علم بمـوت والده . فـقـد طلب آمر السجن نقله الى زنزانة خاصة ، فـاعتقد سامي ان ذلك كان تمهيدا لاطلاق سراحه بعد ثمان وأربعين ساعة . يقول سـامي : «حضر وكـان يتكلم باللغـة العبرية ، فأسأت فـهـمه ... اعتقدت انه كان يتـحـدث عن بعض أعمال العـصيان أو عن شيء حدث في غرفة أخرى ، وبما أنني كنت أحـد زعماء السـجن ، اعـتقدت انه كان يريد مني التحدث بخصوص ذلك» . وأخبر سـامي الاسرائيلي ان ليس لديه مـا يفـعله بشأن أي شيء من هذا القـبـيل ، ولأنه لم يَبْـقَ لديه سـوى يومـان لاكمال مـدة سـجنه فانه كان يريد الحفاظ على أنفـه نظيفاً . غير ان آمر السجن قال : «لا ، ليس الأمر كذلك» ويقول سامي : «ثم فـهمت انه كان قد تحدث مع الحاكم العسكري لجنين» . ومع ذلك ، وبـما ان آمر السـجن كـان يتكلم بالعبرية فـقط ، ولم يكن سامي طليقـا بهذه اللغة ، فان الأمر

دعـا أحـد حراس السجن وهو عربي اسرائيلي وذلك من أجل ان يتحدث الى سامي باللغـة العـربية . وقال له : ان من الصعوبة بمكان بالنسبة اليه ان ينقل اليه أنباء غير سـارة ولكنه أُمر بذلك . ويستذكر سامي ان الحارس قال له «انه يشعر معه» ثم أخبره : «لقـد توفي والدك» . وفجأة أدرك سبب عدم زيارة والده له خلال السنة الماضية . وأحس سامي بانه مذنب ثم «بكيت بصمت» كما يقول .

في البـداية ، لم تكن السلطات الاسرائيليـة راغـبـة في اطلاق سراحه للمشاركة في الجنازة . غير ان ممثلي الصليب الأحمر الدولي ـ الذين كـان يعـمل كمترجم لهم في السـجن ـ أقنعـوا الاسرائيليين بعـد إلحـاح بالسماح له بالذهاب . ويستذكر سامي قـائلا : «أتوا وأخذونى الى القرية . ذهبت وكانت ترافقني سيارتا جيب عسكريتان وكـانت يداي مـقيدتين الى أيدي رجال الشرطة ... سرت طوال الطريق الواصل بين بيـتي وبين المقبرة ورجلي الشرطة ملتـصـقين بي ، في حين سـارت سيارتا الجيب بمـوازاتنا حـتى الدفن . أخـذونى الى البـيت حـيث كـان مسجى . ثم عدت لأقضي اليومين المتبقيين في السجن» .

خـلال الفترة الأولى من سنوات السـجن الثـلاث ، كـان لدى سـامي متسـع من الوقت ليـفكر مليـا في كـيفية قيامه بخدمة عائلته والقضية الفلسطينية بشكل أكثر فـاعليـة مما كـان قـد فعل : «جمعت أفكاري وبدأت أتفهم النضال من وجهة نظر انسـانيـة» . ويقـول انه وبشكل ملفت للنظر لم يكن ممتلئا بروح الانتقام ، ولكن عـوضا عن ذلك برغبة في القيام بمساهمة أكثر ثباتا من أجل النضال في سبيل حق تقـرير المصير . ويقـول سـامي ان تلك السنوات ـ التي امـتدت بين سن الخامسة والعشرين والثـامنة والعشرين ، وهي السن التي تزوج الشـبـاب الآخـرون خلالها وكـونوا أسرا لهم ـ قـد أجبرته على أن يصـبـح عـمليـا أكـثر : «لا أقول معتدلا أو متطرفا ، ولكن أقول انني أصبحت واقعيا» .

ويعـتـقـد أن وفـاة والده قـد جـعلت والدته وعائلته أقوى من ذي قبل . يقول مـفـتخرا : «ان غيابي مدة ثلاث سنوات قد ساعد على تطورهم ... فنحن ، مزارعو تبغ .. ان هذا النوع من الزراعـة يتطلب من الزوجـة ومن الزوج ومن جميع أفراد العائلة العمل معاً . وبعد أن أطلق سراحي بدأ شقيقي أحمد ينخرط في النضال وتم اعـتـقـاله . كنت الى جـانب والدتي في ذلك الوقت ، فأعطيـتها شيئا من القوة . ثم

أخـذت العائلة كلها تذهب الى السجن بما في ذلك احدى شقيقاتي . وقد جعلها هذا الأمر قوية» .

ان الوسـيلة التي اسـتـخـدمها سامي في مقاومته لم تكن السيف ولكن القلم . فقبل مرور أقل من سنة على اطلاق سراحه ، نشر أول كتاب له ، وهو مجموعة من القـصص القـصيرة التي كانت تدور عن الأرض وعن التضحيات التي رأى والدته وهي تتـحـملها . وكان عنوان هذه المجموعة (الزعتر الأخضر) . في ذلك الوقت ـ في صيف عام ١٩٨١ ـ ظهـرت قـصـصـه وكأنها شـوكة في جنب اسرائيل ، شوكة واخـزة كـانت تثير السلطات في كل مرة كانت تظهر فيها قصيدة أو جزء من رواية في صحيفة فلسطينية محلية .

ويتـذكـر سامي انه حينما دعي للاستجواب من قبل «الحاكم العسكري نفسه» فـان ذلك كـان وسـام شرف له أفضل من أي مراجعة اطراء لأعماله الأدبية . فقد سأله الحـاكم العـسكري : «هل تعلم لماذا أنت هنا ؟» وللوهلة الأولى ظن سامي ان ذلك كـان ليـسـمع الأخبار الطيبة بأن سيسمح له بالسفر الى تركيا للحصول على شـهـادة الدكـتوراة ، اذ انه كان قد حصل على قبول في برنامج الدكتوراة في معهد الشرق الأوسط للتكنولوجيا في جامعة أنقرة ، غير ان الطلبات السابقة التي كان قد تقدم بها من أجل الحصول على تصريح مرور قد أهملت من قبل ، وان من المحتمل انه تم الغـاء القرار ، والا لماذا يريد الحاكم نفسه رؤيته ؟ وأجابه سـامي : «آمل أن لديك ردا ايجابيـا بشأني» فنظر اليه المسؤول الاسرائيلي بدهشة وقال : «لا ، ليس ذلك من طبـيعة عملي ... انه من شأن الاستخبارات ، الشّـين بيت» فقال له سـامي بأنه ليست لديه أي فكرة عن سبب استدعائه ؛ فسأله الحاكم فيما اذا كان قد كتب مجمـوعة (الزعتر الأخضر) فأجابه سـامي بالايجاب ، وانه قدم إفادتين محلفتين في مناسـبـتين الى الشرطة حـينما اتهمـوه بكتـابة قـصص تحرض على الاضطرابات وبغض اليـهـود . فـقـال له الاسرائيلي : «أجل ، أعـرف ذلك ، ولم يتوصلوا الى أي شيء يمكن أن يستخدم لاتهامك رسميا به لكنني أيضا أقول لك بوضوح وبمنتهى الصراحة : نريد منك التوقف عن كتابة هذا الخليط الخطر من الأدب والسياسة» .

قـال سـامي للحاكم ان العديد من القصص قد نشرت سابقا في دوريات عربية كـانت تقـدم محتوياتها الى الرقابة الاسرائيلية . ان دار القدس للنشر التي أصدرت

كـتابه كان عليها أن تقدم محتويات الكتاب من أجل الحصول على الاجازة الرسمية وقــال : «ان هذه القـصص هي أدب ومن حقي كتابتها ... وحتى اذا كان [الكتاب] إجـرامـيـا فـان ذلك ليس ذنبي ولكن ذنب الناشر الذي يجب ان يعـتـقل» وأجابه الحـاكم : «أجل ، فنحن نعـرف انك تعـمل ضـمن القـانون ... ولكنك تلعب ضدنا ضـمن هذه الدائرة ... يمكننا مـعـاقـبتك دون احتجازك ودون توجيه تهم رسمية ضـدك ودون الاسـتـعـانة بمـحـاميتك فيلتسيا لانغر» . فسأله سامي : «ما الذي تريدني أن أفـعله ؟» فأجـابه الحـاكم : «نريدك ان تتوقف عن الكتابة ، ما ردك؟» وأجـابه سـامي ان من المسـتـحـيل التنبؤ بما سيفعله : «ربما أكون الآن متحمسا وغير خـائف فأقـول [نعم ، سأكـتب] وحـينما أغادر هذا المكان سأشعر بالخوف منك وأعـدك بأنني لن اكتب وحينما أغادر سأكتب . ليس علـيّ ان أعطيك إجابة». فـقـال له الحـاكم : «سـوف يلقى القـبض عليك اذ واصلت كـتابة هذه الأوراق» . ويقـول سـامي انه كـان يعـرف ان الحـاكم كـان صفقا وانه (سامي) كان يشعر بالخوف : «في ذلك الوقت ، كان باستطاعته ان يعاقبني فعلاً» .

لكن سـامي لم يتـوقف عن الكتـابة والنشر ، اذ صـدر له كـتاب ثان عبارة عن ديوان شـعـر وكان ذلك في شهر آب ١٩٨٢ ، وكـان اسم الديوان (وعـد جديد لعز الدين القسام) . ويقول سامي : «في هذه المرة حضروا الى بيتي في نابلس لاعتقالي ، وكنت قـد تزوجت مـؤخـرا . قـاموا بمصادرة نسختين أو ثلاث من كتابي» . ولم يؤخـذ الى مكتب الحـاكم هذ المرة ، وانما الى مـقر القيادة العسكرية في جنين حيث قـام ضـابط اسرائيلي اسـمه موشي إيلاد باستجوابه . يقول سامي «قال عن نفسه انه مـسـتـشـار الحـاكم العـسكري للشـؤون العربية» وكان ايلاد اسما سيصبح مشهوراً . ووضـع هذا الشاعر الفلسطيني الممتاز تحت الاقامة الجبرية ، وكان عليه كل اسـبـوع لمدة الستة والثلاثين شهرا القادمة ان يثبت وجوده لدى موشي ايلاد ، أو كما أصـبح يعـرف في كـتـاب سامي التالي «العم موشي» . وأصبح موشي ايلاد الحـاكم العـسكري لجنين . ووفقا لما ترويه غالبية التقارير ، فان ايلاد كان حاكما غير عـادي بشكل مـا ، اذ كـان رجـلا عـسكريا جـيد الثقافة ، متواضعا ، باحثاً ، حـصل على درجـة الماجـتـسير من جامعة حيفا ، ووفقا لما يقوله مراسل صحيفة هآرتس أوري نمير فانه كان «لايشبه الآخرين ، كان دمثاً جداً» .

لكن لم يكن هناك شيء ليـبعث الاطمئنان من جديد في نفس سامي كيلاني فيما

يتعلق بالسنوات الثلاث من حياته الممتدة بين عامي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ حينما وضع تحت الاقامة الجبرية في يعبد وكان عليه ان يثبت وجوده لدى العم موشي بشكل منتظم . يقول مفضلا السجن على وحدة وبؤس الاقامة الجبرية : «أعتقد أن هذه الفترة كانت الأسوأ في حياتي ... بعيداً عن عملي وعن بيتي في نابلس» . ويتابع سامي انه توجد في السجن صداقة حميمة بين السجناء ، وتزورك عائلتك كل أسبوع أو أسبوعين ، وحتى لو كنت معزولا عن العالم الخارجي ، فان العزلة تجعل الأمر سهل الاحتمال ، أما حين توضع تحت الاقامة الجبرية «فانك تكون محجوزاً في هذه القرية دون أي نشاطات ، ودون عمل ، ولا تفعل شيئا ، وتشعر في الوقت نفسه انك مسؤول عن عائلتك . يجب عليك ان تفعل شيئاً . في السجن ، فانك معذور لأنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً ، ولكن حينما تكون خارج السجن تشعر انك مسؤول ، وأن عليك ان تفعل شيئاً من أجلهم» .

ويقول ان شهور الشتاء هي الأكثر صعوبة . فزوجته (نهى) وهي مدرّسة في مدرسة (عنبتا) وهي قرية صغيرة بالقرب من نابلس ، عاشت مع والديها من أجل المحافظة على راتبها المتواضع ، وهو المورد الوحيد الذي يمكن الحصول عليه بينما سامي تحت الاقامة الجبرية ، وبذلك كان بامكانها اطعام وإكساء طفلهم الأول ، الطفلة زويا ، التي سموها تخليدا لبطلة المقاومة الأوكرانية البالغة من العمر ستة عشر عاما التي أعدمها النازيون شنقا . كانت (نهى) وعائلتها يزورونه مرة كل أسبوع «مثلما كنت في السجن» ويستذكر سامي ان هذ الزيارات كانت تبعث على الألم لأنه كانت هناك دائمًا بعض المشاكل مع طفلتهما «ومن المفروض فيك ان تساعد على حل هذه المشاكل ، غير انك نفسك بحاجة الى المساعدة في هذا الوضع الصعب جداً ... لقد كانت أصعب بكثير جداً من فترة السجن نفسه» .

واستغل سامي وقته في يعبد ليعطي دروساً خصوصية لطلبة المدرسة الثانوية الذين كانوا بحاجة الى المساعدة في دروس الفيزياء والعلوم الأخرى ، وساعد على تأسيس اتحاد جديد لمزارعي التبغ . لكن في معظم الوقت كان يكتب : «تقريبا ، فان قصصي القصيرة كلها جزء من تجربتي الخاصة : فبعضها يتحدث عن السجن وحياة السجن ، وبعضها عن الحياة في ظل الاقامة الجبرية ، والبعض الآخر عن الحياة في القرية . ولكن في كل قصة قصيرة يمكنك ان تشعر ببصمات تجربتي مطبوعة عليها» .

أمـا أحب قصصه اليه فهي قصة (هنا الأنباء) وقد كتبت خلال الفترة التي كان سـامي يثـبت فـيها وجوده لدى موشي إيلاد كل أسبوع : «لقد ظن ان وجودي في القـرية كان مصدر كل عصيان وبالتالي كان يحاول القيام بكل شيء ليجعل الحياة صعبة بالنسبة الـيّ ... وبطريق الصدفة تركت شخصيته لمسات عديدة على أدبي ، لأن الأمر كان فعلاً عملية تحدي شخصية بيني وبين هذا الرجل» .

في القـصـة هذه ، يمـوه سـامي هويتـه ، فـتظهر الشخصية الرئيسة شخصية سكرتير نقـابة صغيرة في قرية ريفية . في يوم من الأيام ، وهو في طريقه الى مكتب البريد الواقع في سـاحـة القـرية ، يجيء سـاعي البريد الى سكرتير النقـابة بأنبـاء مـفـادها ان مكتب الحـاكم العسكري يبحث عنه : «يريدونك ان تذهب الى هناك» . وحـينما عاد الى البيت ليخبر زوجته ، ينتابها القلق الشديد ، وتتخوف من امكانية ان لا يعود أبداً . فقال لها النقابي الفلسطيني : «لا تقلقي ، انني ذاهب لتناول غذاء شـهي مع العم مـوشي ... أصريت على عدم المغادرة قبل أن أجعلها تضحك» . هكذا يقـول سـامي ، مـواصـلا اعادة سرد القصة وكأنه كان الشخصية الرئيسة فيها ، والذي هو بالطبع .

وحـينما يصل الفلسطيني الى مـقـر القيادة العسكرية الاسرائيلية ، يثور الحاكم سـاخطا بشـدة ، ويبدأ بالصراخ عليه : «انك سبب كل مشكلة أواجهها» ويتابع ... الخ . ويأمره بالتخلي عن بطاقة الهوية ، ويعلمه انه من الآن فصاعدا عليه ان يثبت وجوده كل يوم لدى مركز الشرطة في جنين بغض النظر عن الحالة الجوية . ومن أجل مـعـاقبة هذا الفلسطيني النشط ، كانت الشرطة تبقيه هناك حتى وقت متأخر من الليل ، ثم تطلق سراحـه ، ولكن دون أن تسأله حـتى ولو سـؤالا واحدا أبداً . وكـان يحـاول تزجـيـة الوقت من خـلال قـيـامـه بعـد بلاطات الأرض والدرج ، والقضبان الحديدية الموجودة على النافذة . ويسأله سجين فلسطيني آخر استدعي هو ايضا : «مالذي تفعله ؟» فيجيبه سامي : «أحاول تزجية الوقت» فيقول المعتقل الثاني: «وفر وقتك.. فقد قام شخص ما بتعداد كل شيء وهو مكتوب على الجدار».

واقـتنع بذلك . فـهناك القـائمة : العدد الدقيق للبلاطات ، والدرجات ، وقضبان النوافـذ . ويبـدأ النقابي يفكر في وضعه . ان غالبية هؤلاء الذين استدعوا الى مركز الشرطة يتـوقـعـون اعـتـقـالهم والذهاب الى السـجن لشـهـور أو سنوات . وهم

مستعدون لقبول حقيقة انهم لن يروا عائلاتهم ، ومع ذلك فانهم يشغلون أنفسهم بحساب عدد البلاطات ، والدرجات ، والقضبان الحديدية لنوافذ السجن . وقال لنفسه : «ان الانسان قوي فعلا . وواحداً تلو الآخر يأخذ كل واحد من أولئك الذين أمروا باثبات وجودهم بالذهاب الى بيته ، كلهم باستثناء بطل سامي ، النقابي . ويقترب الوقت من منتصف الليل ، ويفكر في أن التأخير ناجم عن حقيقة ان المسؤولين يعدون مذكرة اعتقاله وانهم على وشك ترحيله . لكن رئيس الشرطة يصل ويقول ان باستطاعة سامي ان يأخذ بطاقة الهوية ، ويذهب الى بيته «سمعته يقول لضابط آخر وهو يضحك ضحكة مجلجلة [كيف سيصل الى بيته في هذه الليلة الشتائية الباردة !]» .

حينما يغادر الفلسطيني المركز ، يحاول العثور على سيارة تكسي ، ولكن ليست هناك من سيارة في تلك الساعة ، فينادي على سيارة خاصة تعمل «كسيرفيس» . وعلى الرغم من أن السائق رآه وهو يخرج من مركز الشرطة ، وها هو يرى من خلال هيئته المشعثة أن من المحتمل ان يكون غير قادر على ان يدفع ، فانه يوافق على أن يوصله الى البيت ، الى يعبد : «وحينما حاولت أن أدفع له رفض ، وقال [لا أنا أعرفك وأعلم ما الذي حدث لك]» .

يذهب النقابي في البداية ليلقي التحية على الجيران ، وهو لا يريد أن يرى زوجته مباشرة لأنه متأكد انها تعتقد أنه سجن بعيداً عن البيت . وبينما يدخل غرفة المعيشة في بيت مجاور ، تكون نشرات الأخبار قيد البث من الراديو . وتورد احدى النشرات ان ليخ فاليسا ـ زعيم نقابات التضامن البولندية ـ قد استدعي من قبل السلطات الشيوعية الى مركز شرطة غدانسك . وتقول النشرة ان فاليسا أطلق سراحه بعد ساعتين من الاستجواب . ان السخرية لا تفارق هذا الفلسطيني المغمور . ويقول لنفسه : «أي عالم هذا ؟ أخبار عالمية عن ان ليخ فاليسا اقتيد الى مركز الشرطة ، واستجوب مدة ساعتين . وفي الوقت نفسه ، فانني أقتاد الى هناك ليلا ونهارا طوال هذه الاسابيع والشهور من المعاناة» .

وعلى الرغم من أن سامي هو عضو اللجنة التنفيذية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين وانه نشرت له أربعة كتب ، الاّ ان شهرته لم تساعد على ابقائه خارج السجن . يقول : «لقد قضيت الكثير من حياتي وأنا أدفع ثمن كتابتي» ويتابع ساخرا «في

أوروبا وفي الغرب يحصل الكتّـاب على شيكات ثمناً لكتبهم ، لكننا هنا نحصل على لوائح التهم» .

في منتصف شهر تشرين الثاني ١٩٨٧ ، وقبل أسبوعين فقط من بدء الانتفاضة القي القبض على سامي الكيلاني مرة ثانية مع خمسة فلسطينيين آخرين بتهمتين : التحـريض ، والعضـوية في منظمة معادية «مرة يسمونها م. ت. ف. ومرة أخرى الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين» هكذا يقول هازئاً . وحكم عليه في البداية لمدة ستـة شـهور من التوقيف الإداري . ويوضح راجي الصوراني رئيس مركز غزة للحقوق والقانون ، وهو فرع من المفوضية الدولية للقانونيين : «بالطبع ، لايمكنك الدفـاع عن نفسك لأن الادعـاء العـام سـيقول ان لديه وثائق سرية» . ويضيف الصوراني ، الذين فاز عام ١٩٩١ بجـائزة روبرت ف. كندي لحقوق الانسان «ان ذلك يشبه مواجهة شبح» . فالمتهم ليس له حق الاطلاع على الملف المقدم الى الادعاء العام من قبل الشين بيت ، والمحامون الفلسطينيون «ليس لديهم وحي أو الهام من الله ... انهم يريدون مـواد ملمـوسة ، دليلا ، لائحة اتهام ... الخ وليس هناك شيء من هذا القـبيل موجود ، ولذلك فانك لا تستطيع الدفاع عن موكلك . انه أمر يشبه اليانصيب» .

بعـد ان قـضـى سـامي الشـهـور الستة الأولى من السجن في جنيد ، تم تمديد الفترة لمدة سـتة شهور أخرى . وفي شهر آب ١٩٨٨ بعـد مرور تسعين يوماً على بدء مـدته الثـانيـة ، قـرر الاسرائيليـون نقله ونحـو مائة سجين آخرين الى معتقل أنصار ٣ ، وهو مخيم عـسكري في كـتسيوت في صحراء النقب . وفي اليوم السابق لليـوم المقـرر للترحـيل ، كانت زوجة سامي على وشك إحضار ابنته وابنه المولود حـديثاً (محمد) للمرة الأولى : «كنت أهيء نفسي للزيارة ، وارتديت ملابس مرتبة ـ ولم يكن لدي مكوى ، ولكن يمكنك ان تضع الثـياب تحت الفرشة بطريقة معينة ـ وأحضرت شـيئاً من السكاكـر لزويا . وفـجأة ، في اليـوم الذي سبق مجيئهم ، تم ترحـيلنا الى مـعسكر أنصار ٣ ، وقـد تـركـت هـناك بعض الأعمال الأدبيـة غير المكتملة» .

أُحضرت ثلاثة باصـات كـبيرة الى سـجن جنيـد ، وكان قد تم تجميع السجناء أمـام زنازينهم منذ الساعة التاسعة صباحا ، وقد قيدت أيديهم ، وعصبت عيونهم وتم وضـعـهم في البـاصـات بعـد ساعة من وصولها . ولمدة أربع ساعات أخرى

وقـفت البـاصــات بلا حـراك تحت حر شـهر آب المتقد قبل ان تبدأ رحلة الساعات الخـمس الى مـقر اقامتهم الجديد . ويستذكر سامي ان الباصات كانت بمثابة علبة مـعدنية ، فلم يكن هناك حتى ماء للشرب ، وكان هناك صراخ متواصل عندما احتج الفلسطينيـون المتعبون على بؤسـهم . ويقول : «كان كل شيء على وشك الانفجار» . وفي مخاولة لانهاء العـصيان ، نقل عدد من السجناء من داخل الباصات ، وأجبروا على الجلوس في الخـارج . وبالهمس ، فان أولئك الباقين داخل الباصات تآمروا على ازالة عـصـبـة العينين بشكل جماعي ، وذلك من خلال تمرير ايديهم المصفدة على جـبـاههم . يقول سامي : «قيدت أيدينا أمامنا وليس خلف ظهورنا ، وبذلك تمكنا من تحريكها» . ومن أجل انهاء هذا العصيان المسلح ، وافق الحراس في النهاية على الـسماح لأولئك الـذيـن كـانوا في الخـارج بالعـودة الى البـاصـات ، ووافق أولئك الموجـودون على مـتن البـاصـات على إعادة وضع عصاباتهم على عيونهم ، وبدأوا جميعهم الرحلة الطويلة الى أنصار ٣ .

وأنصــار هو الاسم الذي اطلقـه الفلسطينيون على المجمع الصحراوي الكائن في منطقة عسكرية مغلقة ، تبعد مسافة ٤١ مـيلا الى الجنوب من بئر السبع ، في حين أن الاسرائيليين يسـمـونه مـركـز توقيف كتسيوت . وبعد مرور يومين على افتتاح المعسكر في ١٨/٣/١٩٨٨ من أجل اسكان المشاركين في الانتفاضة فيه ، صدر أمر عـسكري خفف التقييدات المفروضة على استخدام الاعتقال الإداري ، وبحيث سمح لقـائد أي منطقـة لتـجـديد مدة الشهور الستة تلقائياً ، وحرر القوات المسلحة من تقـديم أمـر الاعـتـقال الى القاضي العسكري خلال ست وتسعين ساعة . في البداية كان هناك أنصار ١ في جنوب لبنان ، ثم أنصار ٢ في غزة ، وأخيراً هناك أنصار ٤ في خـان يونس ، بالاضـافـة الى مـعسكر أنصار الأصغر في بلدة عناتا بالقرب من القدس ، وقد سمي كذلك بسبب وجود عدد قليل من المعتقلين فيه .

وأنصار ٣ مـقـسم الى أقـســام وأقسام فرعية في كل قسم منها خيام بيضاء ، مـرتبـة جميـعـهـا بدقة على شكل صفوف . وفي كل قسم فرعي ما بين ثماني الى عشرة خيام مسيجة بأسلاك شائكة مزدوجة ، ويفصل بين هذه الخيام ممر ضيق بعـرض سـتـة ياردات لتـميكن الجنود من القيام بأعمال الدورية . أما فيما يتعلق بالخـيـام ، فـان كل خيمة تتسع لعدد من السجناء يتراوح بين العشرين والخمسة والعشرين سـجـيناً ، وخـارج كل قسم فرعي يوجد حارس يقوم بأعمال الحراسة

لمدة أربع وعشرين ساعة يومياً ، ويقول سامي ان لدى هذا الحارس «ذخيرة حية».

لدى وصولهم ، طُلب الى السجناء خلع ملابسهم المدنية ، وأعطي كل واحد منهم زيا موحدا أزرق أو بني اللون بالاضافة الى مجموعة من الملابس الداخلية ، وقامت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بتزويد الاسرائيليين بعدد محدود من القبعات ذات اللون الأبيض صنعت لحماية السجناء من حرارة الصحراء اللاذعة . يقول سامي : «حينما وصلنا لم تكن هناك قبعات ، اذ كانت قد نفدت ، وعلى أي حال لم يكن يسمح لنا بارتدائها تحت الشمس» .

في كل يوم ، ولثلاث مرات في اليوم يتم جمع الفلسطينيين في صفوف ، ويتكون كل صف منها من عشرة أشخاص ، ويؤمرون بالوقوف بين خيامهم من أجل إحصاء عددهم . يقول سامي : «في بعض الأحيان كانت تمر أكثر من ساعة» قبل أن يصل المسؤولون . وكان الإجراء أيضاً يتغير باستمرار . ففي بعض الأحيان يكون كل قسم فرعي حرا في العودة الى خيامه حالما يتم تعداد السجناء ، وفي مناسبات أخرى كانت الأقسام الفرعية تنتظر حتى تكتمل العملية كلها . وبالاضافة الى تفقد الحضور ثلاث مرات يوميا ، هناك أيضاً جلسات طارئة «حينما يوقظونك عند الساعة الثانية صباحاً» كما يقول سامي . وحينما يتلى كل اسم ، فان على السجين أن يذكر رقمه . يقول سامي : «لقد أخذت أربعة أرقام . فمرة كان رقمي ٤٥٠٢٤ ، وآخر رقم كان ١٣٠٠٠» ثم كانت هناك عمليات التفتيش العامة ، والتي كانت تستمر مدة ثلاث ساعات : «فقد كان عليك أن تخرج كل شيء خارج الخيمة : الفرشة ، قطع الاسفنج ، الألواح الخشبية للسرير ، والبطانيات . عليك أن تخرجها الى الخارج تحت الشمس الحامية ، وأن تكدسها فوق بعضها ، ثم يأتوا من أجل التفتيش» .

يقول سامي : ومن بين الأشياء التي يبحث الاسرائيليون عنها القلادات الحجرية التي ينحتها السجناء وينقشون بإبر صغيرة عليها صورة الابنة أو الزوجة أو الأم ، لتقدم هدايا اليهن يوم الزيارة . ان تحويل هذه الحجارة القاسية الى قلادات يتطلب الكثير من الصبر : «نصقل وجه الحجر بالذهاب الى الحمام . فالأرض هناك من الحجر المستخدم لرصف الشوارع ، ونبقى نحكها بها

ساعات وساعات» . وفي النهاية ، يصبح وجه الحجر نظيفا ، ويأخذ شكله شكل المثلث أو المربع . وبعد أن تحفر الصورة على الحجارة ، يحفر ثقب صغير بالقرب من أعلى القلادة ويؤخذ خيط من الجورب يتم تطويله من خلال تعليق شيء ثقيل به مثل قطعة صابون . وحينما يكون الجورب ملونا ، فانه يصبح خيطا رائعاً «وقد كانت عملاً فنياً رائعا . كنا في بعض الأحيان نقضي أكثر من شهر ونحن ننحت حجراً واحدا . انه شيء يمكنني ان أزعم أنني كنت أول من قام به في السجن» . ان القلادات شائعة جداً لدى النساء الفلسطينيات لدرجة ان صديقة لابنة سامي البالغة أربع سنوات من العمر عاتبت والدها لأنها ليست لديها واحدة مثلها ، قائلة له : «لماذا لا تذهب الى السجن وتقدم لي هدية مثل والد زويا ؟» . وقال سامي لابنته زويا انه ليس على والد صديقتها أن يدخل السجن من أجل ان يعطيها قلادة ، وانه «سيصنع واحدة لها» . لكن الأمر لم يكن سهلا ، اذ ان الاسرائيليين كانوا يقومون بشكل متواصل بمصادرة القلادات «واكتشفنا أن الكثيرين من الجنود يقدمون القلائد كهدايا لصديقاتهم أو زوجاتهم» .

ان بعض الفلسطينيين فنانون موهوبون لدرجة ان باستطاعتهم إنتاج صناعات يدوية من أنابيب معجون الأسنان ى معجون الحلاقة وعلبة السجائر الفارغة ، و القداحات البلاستيكية . «وفكرت في أن أقسم القداحة الى قسمين وملئها بصورة» . في البداية ، حاول سامي أن يملأ الفراغ الموجود خلف البلاستيك بالخبز الذي استخدمه بمثابة قماش القنب «غير انه كان مبللا وبالتالي فان الرسمة تلفت» . ويقول انه جرب شيئاً آخر : «صنعت خليطا من معجون الأسنان والخبز ، لكن المعجون قتل الفطريات والأشنة . وأيضاً كان مبللا ، وبالتالي فانه أثر في الرسومات» . وأخيراً ، وجد تقنية أخرى سمحت للمزيج بأن يجف. ويؤكد «انني لست فنانا ولكني أصبحت كذلك . أصبح باستطاعتي أن أرسم رسومات جيدة جداً كأن أرسم وردة على وجه القداحة وعلى الوجه الآخر كنت أكتب بعض أشعاري أو أغنيات فلسطينية» . وبالنسبة الى سامي الكيلاني ، فان ذلك كان الانصهار الكامل في حياة مكرسة للعلوم والآداب ، والسياسة . وقد أصبح الحجر مجازا للمقاومة والجمال ، والقصيدة تمثيلا لمحاولته الخاصة اعطاء معنى لنضاله من أجل الوجود .

ان دربة سامي وعركته ساعدا على تقصير الأيام الطويلة في أنصار ٣ . ففي كل صباح ، كان السجناء يوقظون عند الساعة الخامسة صباحا من أجل تنفيذ أول تفقد لهم ، وكان عليهم ان يكونوا في خيامهم عند الساعة العاشرة ليلا . لم يكن يسمح بأن تكون هناك اضاءة في خيامهم ، وبالتالي فانه لا أحد يمكنه ان يقرأ . واذا ما أُمسك بأحدهم وهو يتحدث بعد منتصف الليل ، فانه يسحب الى زنزانة منفردة . وكان الروتين اليومي مقسما بين لعب طاولة الزهر ، والشطرنج وحضور الدروس التي يمكن من خلالها تعلم اللغة العبرية أو تحسين اللغة العربية . أما الطعام فقد كان غير دسم : كمية صغيرة من الفول في الصباح ، وشيء من الأرز مع كوب من الحساء عند الغذاء ، وبيضة مسلوقة أو شيء من المربى في المساء . وكان الحساء يحتوي عادة على قطعة من اللحم ـ دجاج أو سمك ـ ولكنها في الغالب نيئة أو بائتة . ويقول سامي حتى ولو ان الحراس الاسرائيليين كانوا يأكلون الطعام نفسه ، الا ان الفلسطينيين كانت لهم مقاييس أعلى ، لقد كانوا معتادين على أكل مواد أساسية مثل الخضراوات والمأكولات العربية اللطيفة ، ولذلك ـ كما يعترف ـ فان الطعام بالنسبة الى الاسرائيليين يمكن ان لا يبدو سيئا كثيراً .

خلال النهار ، وفي الليل ، كان كل فصيل ـ فتح ، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والشيوعيون ـ يجمع مؤيديه في ندوات سرية في خيمة واحدة ، حيث يتحدث اثنان أو ثلاثة أو تكون الجلسة جلسة طرح أسئلة واجابة عنها . كان أحد النشاطات المفضلة لعبة تسمى (اعرف وطنك) ففي كل ليلة ، يقوم فلسطيني بالحديث عن المدينة أو القرية التي تنتسب اليها عائلته في فلسطين ما قبل قيام الدولة اليهودية ، ويقوم الآخرون بوضع علامة (درجة) لتقييم ادائه . ويقول سامي انه كان من المفروض عليهم ان يكونوا حذرين «لأن الاجتماع ضمن مجموعة حتى داخل الخيمة الواحدة كان ممنوعا» .

وقد انعكست التوترات القائمة بين مختلف الفصائل خارج انصار ٣ داخل المعتقل نفسه أيضاً . ويقول سامي ان خيام مؤيدي فتح كانت جامحة صعبة المراس لأنها كانت تضم في غالبيتها النشطاء الشباب ممن هم في طور المراهقة ، «والذين انخرطوا في فتح بشكل عاطفي من أجل أبي عمار [ياسر عرفات] لا بسبب انهم ناضجون سياسياً بما في الكفاية» ويقول ، مع وجود «هذا النوع من الناس ،

فـانـك لا تسـتطيع ان تقـول لهم انه سـيكون لدينا برنامج صـارم محدد ، واننا سنسـتـمع الى ثلاث محاضرات في اليـوم» . اما مؤيدو الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين فـانهم ـ وبشكل عام ـ أكبر سنا ، في منتصف العشرينات والثلاثينات من العـمر ، ويتصرفون بشكل أفضل . فقد كانوا قادرين «على اقناع شباب الانتفاضة بالالتـزام ببرنامج يومي محدد» . وكـان مـؤيدو حماس منضـبطين مـثل انضباط اليسـاريين والذين هم «أهل دين» بغض النظر عن أعمارهـم .

وعلى الرغم من انه ليس متدينا جداً ، الا ان سامي يعترف انه يؤمن بالخرافات ولم يسـتمر طويلا في صنع القلائد الحجرية لان ذلك ، كما يقول «مرتبط بتجربة سـيئة جـداً في حـيـاتي . فالمرة الأولى التي فكرت فيها في النحت كانت خلال وقت مأسـاوي جداً بالنسبة الـيّ» . ففي شهر تشرين الأول ١٩٨٨ ، لم يكن الاستماع الى الراديو ومشاهدة التلفاز مسموحاً بهما في أنصار ٣ ، وكـانت الصحف تصلنا مـتأخرة مدة أسبوع . ولكن حينما يتم نقل وترحيل السجناء من مناطق أخرى في الضـفـة الغـربيـة ، فان شخصاً ما يتمكن بين الفينة والأخرى ، من تهريب جهاز راديو ترانزسـتـور ، وبوجـود هذا الجـهـاز ، يشكل آلاف السجناء الفلسطينيون شـبكة فـيكون هناك شـخص مـا مسؤولا عن تتبع نشرات الأخبار بشكل سري ، وتدوينهـا، وتوزيعـهـا وسط مختلف أقـسام المخيم . كان سامي في خيمة صديق يقـرأ آخـر الأخبار ، وقد قرأ ان شابا من يعبد قتل على أيدي الاسرائيليين ، اذ كان هناك على مـا يبدو حادث رشق حجارة ، وقد أصيب ذلك الشاب الفلسطيني الذي كـان بـالقـرب من المتظاهرين في صـدره على يد اسرائيلي مـاهر في الرمـاية ، أطلق رصـاصـتـه من سـيـارة الجيب الاسرائيلية . وغادر سامي الخيمة متخوفا من أن يكون ذلك الشـخص أحـد معارفه . وسأل صديقه : «هل تعرف كيف يمكن لي أن أجـد تفاصيل الحادث ؟» . كان الصديق يعرف ، لكنه توقف برهة قبل ان يخبره : «أعـرف انك رجل صـبور . كنا نحاول التفكير في طريقة لاخبارك ان الاسم هو ... كـذا وكـذا . ومن خلال قراءة هذا الاسم فان الأمر غير واضح ، اذ ربما كان هناك شـخص آخـر اسمه احمد الكيلاني في القرية ، فعائلة الكيلاني عائلة كبيرة ، واسم أحمد اسم شـائع بين الفلسطينيين» . كـانت الساعات الست التالية موجعة الى حد مـؤلم بالنسبة الى سامي : «لم أعرف فيما اذا كان أحمد ، هو شقيقي ، أم شخصاً آخر».

وأخيراً ، عـاد أحـد الفلسطينيين الى المخـيم من زيارة لمحـاميه ، وقال لسامي : «أجل ، انه أحمد ، شقيقك» . كان أحمد هو الطليق الوحيد بين اخوته كلهم آنذاك . فـقـد أنهى لتـوه مـدة سـبعة شهور في السجن وأطلق سراحه قبل أسبوعين . أما أخـوة سـامي الأربعـة الآخـرون فـقد كانوا ما يزالون في السجن ، وكان أحدهم ، خالد ، في قسم آخر في سجن أنصار ٣ ، ويستذكر سامي : «لم يسمحوا لي برؤية شـقيقي لنكون معاً في هذه اللحظات» كما انه لم يطلق سراح سامي بشكل مؤقت ، كما حـصل حـينما توفي والده ، لحـضـور مراسم جنازة شقيقه . وفيما بعد ، علم المزيد عن مـوت أحمد . يقـول سـامي : «لم يتـمكنوا من أخـذه الى المستشفى لأن القـرية كانت محاصرة» ولذلك فانهم حاولوا الذهاب عبر طريق خلفي للوصول الى كـفـر قارة ، وهي قرية عربية مجاورة ، تقع عبر الخط الأخضر في داخل اسرائيل . ولكنهم حـينما وصلوا الى المركـز الصـحي هناك ، أرسلهم الطبـيب الى مستشفى مجاور «وحـينما وصلوا سـاحـة المسـتشفى توفي أحمد» . لقد استغرق الأمر نحو سـاعـتين منذ اللحظة التي أصـيب بها وحـتى الوصول الى المستشفى . وقد توفي أحمد نتـيـجة نزف داخلي شديد ، يقول عنه سامي انه كان بالامكان ايقافه لو انه وصل الى المستشفى بسرعة .

وتوجـد صورة لأحمد معلقة على جدار غرفة مكتب سامي في منزله في نابلس . وقـد حـوله موته الى شهيد . لقد اكتسبت الشهادة اسطورتها خلال الانتفاضة اذ توفي مئات الشـبـاب في الصـدامـات مع الجـيش الاسرائيلي . وكـان على المجـتـمع الـفـلـسـطـيني ان يجد طريقـة للتـغلب على هذه الظاهرة بدون منع الآخـرين من المشـاركـة في الكفـاح . ان روح الشـهـيـد متجذرة في التقاليد والأعراف الاسلامية للحـرب المقـدسـة ، لكن التـضحية بالنفس هي التي تقرب المرء من الله . وتتمتع العـائلات التي فقدت أبناءها خلال الانتفاضة بمكانة خاصة في المجتمع الفلسطيني وفي العديد من البيوت ـ بيوت المسلمين والمسيحيين ـ تجد صور الشهداء معلقة في اكثر أماكن البيت تبجيلا ، وأسماء عائلاتهم محفوظة في سجل الحياة الفلسطيني . ولا يرتبط ذلك بالمفـهوم الاسلامي بشكل تام . فخلال أعياد الميلاد في شـهر كانون الأول ، تتـدلى مئات من صور الرجال والنساء الذين توفوا خلال الانتفاضة ، من غصون شجيرات عيد الميلاد بدلاً من الزينة التقليدية .

لقد كان لوفاة أحمد عام ١٩٨٨ أثر عميق في كتابات سامي : «ان كوني كاتبا ساعدني كثيراً جداً ، لأنك حينما تشعر بهذا الوقت العصيب جداً ، يمكنك ان تعبر عما في نفسك من خلال الكتابة» . وقد تأثر الكثير من شعره بروح الشهادة والتخيلات والمجازات المرافقة لها ، مثل : الأرض ، الحجر ، الدم ، والزواج .

كان سامي الكيلاني يعد العدة لدور القيادي الجديد طوال حياته . وقد كانت أكثر المواقف انفجاراً في معسكر أنصار ٣ والتي اختبرت قدراته كقائد حينما صدرت الأوامر الى الفلسطينيين كي يعملوا مباشرة لصالح آسريهم الاسرائيليين . ويوضح سامي ذلك قائلاً : «رفضنا من حيث المبدأ العمل من أجل الجنود ، وعملنا فقط من أجل التسهيلات التي تخدمنا» . وعند إعطاء الإشارة ، كان كل شخص يغادر خيمته ، والبدء بالسير بتشكيل عسكري ، والهتاف بالشعارات المعادية لاسرائيل : «في مثل هذه الأوقات ، فان كل شخص متحد مع الآخرين ، كل المجموعات مع بعضها ، ولامشاكل هناك» . كان الاسرائيليون يحاصرون القسم ، ويلقون قنابل الغاز المسيل للدموع على الفلسطينيين ، ويطلقون الرصاص الحي في الهواء «وكان بعض المعتقلين المجربين يلتقطون القنابل ويقذفونها على الجنود الاسرائيليين ، ويقذفون صواني الطعام والحجارة والأخشاب عليهم» .

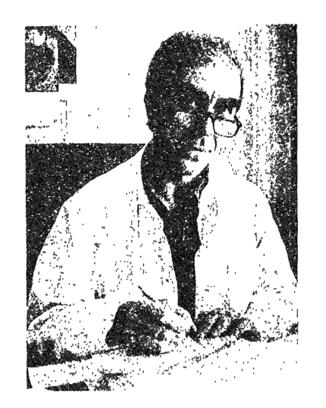
قبل وصوله ، كان هناك انفجار عنيف خطير . فقد أصدر قائد اسرائيلي أوامر بان يعود كل شخص الى خيمته «وكان هناك شخص ما يقف عند طرف الخيمة ، فطلب اليه الدخول الى خيمته ، غير انه لم يفعل ذلك ، فما كان من القائد الاسرائيلي الا أن أطلق بنفسه النار عليه في صدره ، فخر صريعا . وحينما وصلت هذه الأخبار الى القسم المجاور ، كان السجناء يغلون ، وبدأوا برمي كل ما بحوزتهم من أشياء على الجنود ... ثم استشهد شهيد آخر» . يقول سامي : «في هذه الصراعات ، لا تريد ان يشعر أصدقاؤك أنهم ضعفاء ، وان عليهم اطاعة الأوامر المذلة ، مثل [اذهب الى خيمتك ايها الحمار الأبله] . لذلك فانك تبحث عن فرصة لتريهم انهم أقوياء . عليك ان تزن هذا وتتجنب ـ قدر ما هو ممكن ـ الشرارة التي تؤدي الى القتل» وتلك هي مسؤولية القائد الناجح : «عليك ان تكافىء بين هذين الجانبين لتبين انك قوي ، لتبين لأناسك ، أي المعتقلين ، انك تستطيع مواجهة الآخرين ، وفي الوقت نفسه ، تحجم عن الوصول الى نقطة انبعاث الشرارة القاتلة».

واليوم ، فان سامي الكيلاني يقضي الكثير من الوقت مع القرويين في المناطق

الريفية المحيطة بنابلس ورام الله ، ويزور مخيمات اللاجئين ، ويتحدث في الندوات ويرد دائمًا على الانتقادات الموجهة لمشاركته في محادثات السلام مع اسرائيل . لقد وجهت امرأة مسنة ـ لاجئة من حيفا ـ سؤالا الى الوفد الفلسطيني كله في ندوة اقيمت مؤخرا في عمان ، حول ما اذا كانوا سيفاوضون على حقها في العودة الى وطنها في فلسطين . ويستذكر سامي : «لقد كان ذلك منظراً مؤثراً» . حاول كل واحد أن يجيبها ، لكنهم جميعاً ـ كما يقول ـ أجابوها من خلال التهرب من وطأة السؤال . فقد أجابها أحد المشاركين بقوله : «اذا كنت ستعيشين في جنين ـ الأقرب الى حيفا ـ فان ذلك سيكون أفضل من العيش في عمان» . وقال لها شخص آخر ان الفلسطينيين اذا أقاموا دولتهم في الضفة الغربية وغزة ، فإن ذلك الأمر سيساعد في حل مشكلتها : «الحل سيعتمد على قرارات الأمم المتحدة التي تقول ان لك الحق في الاختيار بين العودة والتعويض» .

ويقول سامي ان محاولات تهدئتها أربكته وأقلقته : «علينا أن نكون صريحين معهم . لا يستطيعون قبول الأمر بين عشية وضحاها . وحتى لو أقمنا دولتنا في الضفة الغربية وغزة ، فانهم سيطرحون السؤال نفسه مرة ثانية . انه الحلم والممكن . في بعض الأحيان أوافق على الممكن لكن ذلك لا يعني انني على استعداد للتخلي عن الحلم . انه شيء صعب جداً بالنسبة الى الفلسطينيين . وحتى لو أقَمتُ دولتي في الضفة الغربية وغزة فانني لن اتوقف عن تطريز خريطة فلسطين [اشارة الى الممارسة الفلسطينية الشائعة بتطريز خريطة فلسطين قبل عام ١٩٤٨]. أقول ان فلسطين وطني ولكنني اشترك فيها مع دولة أخرى . انها معضلة ولكن عليك أن تخترقها . والاختراق ان تكون واقعياً» .

ممدوح عكـر



● ممدوح عكر (جراح مسالك بولية) في عيادته في مدينة رام الله .



● ممدوح عكر يناقش تقريرا طبيا مع مريضته في عيادته في مدينة رام الله .

ممدوح عكـر

في قـصيدة (موت الرجل المأجور) يكتب الشاعر الامريكي روبرت فروست عن مـزارع نيـو انجلندي وزوجـتـه يتـجادلان حول ما اذا كان من الواجب عليهما ان يؤيا رجـلا شريدا كـانا قـد اسـتأجـراه قـبل بضـعة سنوات لمساعدتهما في «قطع حـشـيش المرج وتجفيفه» . وتوضح زوجة المزارع بحنان ان العامل المسن أتى الى «البـيت» كي يمـوت . أمـا المزارع غير المضياف ـ المنزعج من ان زوجته ترتاب في كـرمـه ـ فـيـسـخر من تعليقها ، ويقول «البيت هو المكان حيث يؤونك فيه حينما يتـوجب عليك الذهاب اليـه» . وأجـابته : لا «كان علـيّ ان أدعوه شيئا لا تستحقه بشكل ما» . وبالنسبة الى ممدوح عكر ـ وهو جرّاح ذو شعر أشيب ، وعضو رفيع المسـتوى في الوفد الفلسطيني المفاوض ـ فان البيت كان مفهوما لم يفكر فيه كثيرا حينما كان يكبر خلال سنوات الخمسينات في نابلس . وفي الواقع ، فانه لا يستطيع الانتظار من أجل الهرب .

كانت مدينة نابلس الواقعة في القسم الشمالي من الضفة الغربية ، والتي لا تبعد كـثيرا عن بلدتي : جنين وطولكرم ، واحـدة من اكـثـر الامـاكن الدينية محافظة في فلسطين . وخـلال عـهـود الحكم التركي ، والاردني ، والاحـتلال الاسرائيلي ، بقيت هذه المدينة على حالها . ففي وسط المدينة هناك المشاهد المألوفة للتراث الفلسطيني: العـربات المملوءة بالكعك المسـتـدير الطويل وهي قطع تشـبه الخبز مغطاة بحبات السـمـسـم ، والبـائعون يغرفون الفلافل ويلقونه في مقلاة الزيت الحار . وتفوح في الهواء هناك روائح الشـاورمـا ، وفي الصواني الكبيرة المستديرة الكنافة النابلسية . ان نابلس مـدينة صناعـية ، فهي مركز صناعة الصابون منذ العصور الوسطى ، ومـا تزال القـيـادة السـيـاسية المحلية خاضعة لهيمنة الجيل القديم لملاك الاراضي والتـجـار ، من أصحاب الاسماء المعروفة : المصري ، النابلسي ، طوقان ، الشكعة ، وعبد الهادي .

حـينما كان ممدوح يكبر ويترعرع في نابلس ، لم تكن هناك نواد ليلية ، وكل ما كـان محلات محدودة تبـيع الخمور ، وبالتالي فان عدد السكيرين كان قليلا جدا . ويستذكر ممدوح قائلا : «اعتدنا وصف نابلس بأنها [مقبرة المثقفين] لان شخصا مـا اذا أراد ان يفـعل شـيئا ما بحياته ، فان عليه مغادرة نابلس» . وهو ما فعله .

فعلى غرار مئات من اليافعين الفلسطينيين الاذكياء ، كان ممدوح يسير بسرعة لتامين حياة مريحة في مكان آخر في العالم العربي . حصل على شهادة الدراسة الثانوية من مدرسة النجاح العالية وكان الاول في صفه . وحينما كان في التاسعة عشرة من عمره تقدم الى جامعة القاهرة لدراسة الطب ، ولم يخبىء هذا الفلسطيني الأنيق ، طويل القامة فرحته لتركه تلك المدينة العربية الريفية الى العاصمة المصرية العالمية .

وفي نابلس ، كان جد ممدوح لابيه قد أقام مصنعا كبيرا لجز جلود الاغنام والماعز التي ترعى في الاراضي الفلسطينية . وهناك أيضا حصل جده لأبيه على رتبة الشاويش ، أي الرجل الحكيم في المجتمع العربي ، اذ تأتي العائلات الى منزله وتدعوه الى منازلهم ليقضي في الخلافات الناشبة بين العشائر المتنافسة ، وبين اوساط العائلات . وفي نابلس ايضا ، التقى والد ممدوح بزوجته حينما احتجز والداها السوريان بسبب الانفجار المبكر لاعمال العنف العربية ـ البريطانية ، وكانا يقيمان في منزل عمته . وهناك أيضا ، أسس والده عام ١٩٢٥ شركة تجارية مزدهرة ، اذ كان يسافر بشكل منتظم نحو منطقة الشرق لشراء السجاد ، ليعود بعد أسبوع أو نحوه حاملا بضائع كمالية يبيعها لمالكي الارض العرب الاثرياء . لكن لا شيء من ذلك كله ، كان يهمّ ذلك الفتى ممدوح البالغ تسعة عشر عاما من العمر ، والذي غادر الضفة الغربية عام ١٩٦٢ متوجها الى القاهرة ، ولم يعد الا بعد نحو عشرين سنة ، اذ عاد أخيرا الى وطنه سنة ١٩٨١ حينما كان قد بلغ الاربعين سنة من عمره تقريبا .

ويستذكر زياد عكر ان شقيقه ممدوحا كان يريد ان يصبح طبيبا لامراض القلب : «سألته ذات مرة لماذا أصبح جراح مجاري بولية ، فقال لي انه حال ان تبدأ دراسة الطب ، ستجد ان الميدان الاكثر تعقيدا هو المجاري البولية» . ويقول زياد ان ممدوحا احب دائما تحدي تجزئة الاشياء ثم اعادة جمعها ببعضها ثانية . وحينما كانا يافعين وكان والدهما يسافر في رحلات عمل كان يسألهما ماذا يريدان ان يحضر لهما معه . ويستذكر زياد : «كنت دائما اقول كرة قدم أو بندقية» في حين ان ممدوحا كان دائما يطلب لعبة الميكانو : «اذكر مرة انه بنى قاربا كبيراً وكان للسفينة محركات وباستطاعتها ملء وتفريغ أشياء في السفينة . كنت أظن انه سيصبح مهندسا» .

لم يعلن ممدوح نهائيا رغبته في ان يصبح ثريا ، ولكن مثل الفلسطينيين الآخرين ، فانه احتُجز خارج وطنه حينما اندلعت الحرب العربية ـ الاسرائيلية في شهر حزيران عام ١٩٦٧ . واذ لم يُسمح له بالعودة الى نابلس بموجب القانون الاسرائيلي ، فانه أكمل دراسة الطب ، ومن ثم أخذ بنصيحة العديد من أقاربه وأصدقائه ، وسافر الى الكويت . كانت المحمية البريطانية سابقا تغري الفلسطينيين وتدعوهم ـ وهم الاكثر تعليما وبراعة في العالم العربي ـ للمساعدة في تحويل رمالهم المقفرة الممتدة في الخليج العربي الغني بالنفط الى واحات غناء . وجنبا الى جنب مع ياسر عرفات ـ الذي كسب اول مليون دولار كعمله من مهندس في الكويت ـ وصل عشرات آلاف الفلسطينيين الى الامارة المستقلة حديثا . ومثل عرفات الذي كان قد تخرج من جامعة القاهرة ، اعتقد ممدوح ان الكويت ستكون أرض الفرص الجديدة . فهناك سيتمكن الفلسطينيون المشردون من تحويل دراستهم الجامعية الى وظائف مربحة ، يعلّمون الشيوخ الاقل تعليما كيفية انتزاع ثروتهم من اللآلىء الملتصقة بقعر البحر ومن النفط الذي يتسرب من الارض . لكن الكويت كانت تشبه المغناطيس الذي جذب الفلسطينيين ولم يتحرروا منه . يقول ممدوح : «اعتقدت انني سأمكث هناك سنتين أو ثلاث سنوات ثم أعود ، لكنك تصبح كسولا وتغرق في حياة الكويت» وخاصة بسبب المادية والاستهلاك «امريكي الطراز» الواضح .

قضى ممدوح خمس سنوات في الكويت قبل ان يغادرها متوجها الى انجلترا سنة ١٩٧٤ من أجل ان يسير قدما الى الامام في حياته المهنية كمتخصص في طب المجاري البولية . وقد حصل على منحة جامعية للدراسة في انجلترا ، وبعد مرور سنة كوفىء باعطائه منصب جراح في اكثر المستشفيات شهرة في ادنبرة ، وكان ذلك في الكلية الملكية للجراحين . وبعد ذلك بسنتين ، عاد محمود الى الكويت ، وبقي هناك حتى عام ١٩٧٩ حينما عرض عليه منصب في (كنغز كوليج هوسبيتال) في لندن .

وعلى الرغم من ان ممدوحا كان يكسب أموالاً تزيد على ما كان يعتقد انه سيجنيه الا انه بدأ يدرك ان البحث وتحدي المهنة والحياة الجيدة تقوده بعيدا عن نفسه ، وبعيدا عن هويته كفلسطيني ، وبعيدا عن جذوره في نابلس حيث عاشت

عـائلتـه جـيـلا بعد جيل . ان هذين العقدين من الزمان اللذين قضاهما في الخارج كـانا يختلفـان بشكل دراماتيكي عن تنشئته المسلمة الصارمة . فقد نجا من حرب الايام السـتـة ومـا أعقبها : التمازج الالزامي للمجتمعين : الاسرائيلي والفلسطيني . فـبـالنسـبة الى ممدوح ، لم يكن هناك تمازج مع اليهود في القاهرة ، والكويت ، أو في أدنبرة .

ولم يكن هذا مـا اعـتـاد عليه . ويتذكر من طفولته ان والده كان يبشر وينادي بالتـسـامح الديني ، وان عائلة عكر تشاركت في مبناها المكون من طابقين في نابلس مع عـائلة مـسـيـحـية كانت تعيش في الطابق الارضي . وذات مرة ، حينما توفيت زوجة رب تلك العائلة ، فتحت عائلة عكر المسلمة أبواب بيتهم لتقبل العزاء عندهم. كـذلك فـان والده كـان يتكلم بشكل حـسن عن اليـهود الذين كان الكثيرون منهم زبائن عنده . وهكذا ، كطفل ، فـانه لم يكن لدى ممدوح الكثير من الاسـباب ليكره اليـهـود . كان يبلغ الخامسة من العمر فقط حينما حصلت اسرائيل على استقلالها وانضـمت الضـفة الغربية الى الاردن . غير انه كان كبيراً بما فيه الكفاية ليدرك ان الحـيـاة بالنسـبة الى أبيه (مدحت) أصبحت أكثر صعوبة مع قيام الدولة اليهودية لاسـبـاب عـدة منهـا : ان تجـارة والده في مجال السجاد كانت تعتمد على رحلات منتظمـة يقـوم بها والده الى دمـشق حيث كان يتسوق السجاد الفارسي من سوق الحـمـيدية ويعود به لبيعه في متجره في نابلس . كانت دكانه تقع في مركز المعرض الجـديد وكـانت مـصـدر فخر كبير لعائلة عكر . قبل حرب عام ١٩٤٨ ، كـان من السـهـولة بمكان الانتـقـال من فلسطين الواقـعة تحت الانتداب الى سوريا ومصر ولبنان ، والعـودة اليـهـا ، اذ ان حـركـة القطارات كـانت تسير بشكل منتظم بين العـواصم العربية ، وكانت هناك حركة تجارة وسياحة مستمرة .

غير ان حـركـة السـفر تلك أصبحت اكثر صعوبة بعد الحرب ، فقد كان هناك توتر بين سـوريا والاردن ، كما ان اقـامـة الحـدود بين الدولة اليـهـودية والمملكة الاردنيـة الهاشـمـيـة كـانت تعني انه لم يعد بامكان اليهود بعد ذلك الحضور الى مـتـجـر مـدحت والد ممدوح . ويذكـر ممدوح ان والده اخبره ذات مرة انه عشية حرب ١٩٤٨ اتصل به صديق حميم - تاجر سجاد يهودي - وطلب منه ان يسدي اليـه مـعروفا ، اذ قال له : «مدحت ، لا أستطيع الحضور الى نابلس بسبب وجود

قلاقل على الطريق ، ولدي بعض الكمبيالات واريد تسديد قيمتها لدى البنك ، وهي مستحقة الاداء اليوم» . وطلب التاجر اليهودي من صديقه الفلسطيني ان يذهب الى بنك باركليز ويسدد قيمة الكمبيالات ، مضيفا «وحينما أحضر غدا سأدفع لك كل ما هو مستحق عليّ» . وقام مدحت بسداد قيمة الكمبيالات ، ووضعها في مكان آمن لاعادتها الى صديقه اليهودي لدى حضوره . «لكنه لم يره أبدا» هكذا يقول زياد الشقيق الاكبر لمدوح . وبعد مرور نحو شهر على احتلال اسرائيل للضفة الغربية في شهر حزيران ١٩٦٧ ، حضر جنديان اسرائيليان الى المركز التجاري في نابلس ، وأخذا يستعلمان عن مدحت عكر . يقول زياد : «لم يخبرهما أحد عن مكانه» لان جيرانه كانوا خائفين من ان يكون مدحت ـ الذي اضطر بسبب تقييدات السفر للتخلي عن تجارة السجاد والتوجه نحو بيع الملابس والقماش ـ قد وقع في مشكلة مع السلطات الاسرائيلية . وقال أحد الجنديين انه ابن صديق مدحت وان والده أوعز اليه للبحث عنه . واذ تمكنا من اقناع زملاء مدحت في نهاية الامر بانهما لم يأتيا لاعتقاله ، تم ارشاد الاسرائيليين الى منزله الواقع في منطقة الرفيدية ، وهي منطقة الطبقة الراقية في حي المنتزه في نابلس . وهناك تم اخبارهما بكيفية الوصول الى مخزن مدحت . حينما وصلا ، قال اكبر الجنديين سنا للفلسطيني ان والده طلب اليه دفع قيمة الكمبيالات مستحقة الاداء منذ عشرين سنة : «انه يدرك انه مدين لك بالاموال ، غير انه أصبح كبيراً جداً في السن ويرغب في ان يراك شخصيا ليعيد لك المبلغ بنفسه» . وحينما التقى الرجلان المسنّان ببعضهما بعد بضعة أسابيع ، جرى حوار عن مبلغ الفائدة المترتب على الالفي جنيه فلسطيني وهو مبلغ يعادل ٦٠٠٠ دولار . لكن مدحت كان يرى ان ما طرأ خلال العقدين الماضيين لم يكن جيداً بالنسبة الى صديقه اليهودي «ولذلك فان والدي رفض أخذ الفائدة» كما يقول زياد .

ومثل والده ، فان ممدوحا ذو «قلب كبير» وفق ما يقول شقيقه زياد . فحينما كانا صغيرين ، كان شقيقه الأصغر هو الذي يثير المتاعب ، اذ انه شخص يحب اثارة القتال مع الاولاد الكبار . وحتى حينما لا يكون الخطأ خطأ زياد ويبدأ شخص آخر القتال ، فان ممدوحا كان يتدخل ويقول له ان شقيقه لم يكن يقصد ذلك فعلا ، ويضيف زياد «حيثما يكون هناك أناس يعانون ، كان يحب ان يفهم ما يجري وان يتحدث للناس عن ذلك» . ويستذكر زياد انه حينما كان في السادسة

من عـمـره ويركب دراجة شقيقه ممدوح البالغ ثمانية أعوام من العمر ، رأى زياد والده وهو يقف عند اسـفل منحـدر ، واذ كان على ثقة بان والده سيعاقبهما معا ، فان زيادا قفز من الدراجة ، على الرغم من انهما كانا يسيران باتجاه أسفل المنحدر تاركـا ممدوحـا وحيدا على الدراجة ، حيث اصطدم بجدار ، ولحسن حظه نجا من امكانيـة اصـابتـه بجروح خطيرة . ولكنه حينما نهض ليتفقد جروحه وخدوشه ، كان والده بانتظاره ، ويستذكر زياد «ولم يرنى» في حين ان ممدوحا وبخه والده .

ويسـتـذكـر زياد ان العـديد من الشـبـان من افـراد عائلة عكر ـ سبعة أشقاء وشـقيقتان ـ كانوا نشطاء على الصعيد السياسي . فبعد حرب الايام الستة ـ حينما كـان ممدوح يدرس في القـاهرة ـ كـان سمير عائدا باتجاه بيته من المدرسة حينما تعـرض لكمين من دورية اسرائيليـة . يقول زياد : «كان بعض الجنود الاسرائيليين بانتظارهم ، ووضـعوا كيسا على رأس شقيقي وحملوه الى السجن» حيث اتهم بانه طالب نشط ويحرض الآخـرين على القـيـام باعمال العنف : «كـان سـمير الاكـثر مـصادمة مع الاسرائيليين ... لكن مازنا [شقيق أصغر] قضى هو الآخر الكثير من الوقت في السـجن» . ويعـمل سـمير اليـوم جراح تقويم عظام في مستشفى الهلال الاحمر الفلسطيني في القـاهرة ، في حين ان مازنا ـ الذي قامت السلطات الاسرائيلية بترحيله ـ يعمل مهندسا في الامارات العربية المتحدة .

من ناحـيـة أخـرى ، كـان ممدوح دائما يبدي اهتماما عقليا اكثر في السياسة . فـقـبل ان يصل التلفـزيون الى الضـفة الغربية ، اعتاد ان يقضي ساعات وساعات يسـتـمع بتركـيـز الى الراديو . وفي منتـصف سنوات الخـمسينات ـ حينما كان في المدرسـة الابتدائية ـ كان يسرع الى مخزن والده حال سماعه صوت الجرس الاخير في المدرسـة . وهناك كـان يجلس ويحتسي الشـاي أو القـهـوة التركـية مع التجار العـرب الذين كـانوا يزورون والده و«يخبرهم عما يجري في العالم» . ويتابع زياد مـسـتذكرا : «كان يتحدث عن [باتريس] لومومبا ، وسوهارتو ، وسوكارنو ، كما كـان لديه دائما بعض الشـعـر الذي يتـحدث عن التمييز ، وعن العنف في افريقيا وجنوب افـريقيا ... من المحتمل انه كان يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من العمر في ذلك الوقت» .

وخـلال فترة الدراسة الجامعية في القاهرة ، كان ممدوح ايضا عضوا في الاتحاد

العام لطلبة فلسطين . ومثل بقية الطلبة الآخرين ، كان متحمسا لانشاء م. ت. ف. عام ١٩٦٤ وأيد ميثاق المنظمة الذي يدعو الى الكفاح المسلح لتدمير الدولة الصهيونية ، واقامة دولة علمانية ديمقراطية مكانها . ولم يقف ممدوح خارج نطاق النضال الفلسطيني ، وإنْ كانت هذه الفترة من حياته ما يزال يكتنفها الغموض ، ويقول زياد : «كان نشطا ولكنني لا أعرف بأي طريقة كان ذلك» . وفي القاهرة ايضا ، قامت صداقة أخرى ، وهي صداقة ربطت ممدوحاً بفلسطيني مهم جدا من أهل الداخل هو فيصل الحسيني ـ ويكبر ممدوح بثلاث سنوات ـ الذي كان يسافر بين القدس والقاهرة في مطلع سنوات الستينات . وقد التقيا ببعضهما خلال نشاطات الاتحاد العام لطلبة فلسطين . كان اتحاد الطلبة الذي طوره ياسر عرفات يخضع لرئاسة فيصل الحسيني في تلك الفترة ، ومن خلال الحسيني تعرف ممدوح لاول مرة على عرفات الذي كان قد بدأ في منتصف سنوات الستينات ينظم الكفاح الفدائي السري ضد اسرائيل .

مع ذلك ، فان ممدوح عكر كان مهتما جدا بمتابعة حياته الطبية اكثر من الانضمام الى حركة التحرير الثوري . وفي عام ١٩٦٩ غادر القاهرة الى الكويت . وهناك لم يكن على ممدوح ان يصارع آلاف العقبات التي يعانيها الفلسطينيون المقيمون تحت الاحتلال الاسرائيلي . فبوجود جواز سفره الاردني ، لم يكن بحاجة الى بطاقة الجسور برتقالية اللون التي تصدر للعرب في الضفة الغربية ، او الحمراء التي تصدر لعرب غزة . كذلك فانه لم يكن مضطرا ليطلب من الاسرائيليين ان يعطوه جواز مرور حينما كان يريد السفر خارج المناطق . وبالطبع ، فانه في بعض الاحيان كان يفكرْ مليا في قضية كم هي مذلة هذه العوائق البيروقراطية التي يعانيها الفلسطينيون الذين تركهم . انها اكثر من مجرد كونها عوائق ؛ انها تجاهل للهوية . فالمكان المخصص لكلمة (المواطنة) في جوازات المرور التي يحملونها مكتوب عليه (غير محدد) وهو بالتالي عامل تذكرة دائم بتشردهم وبانه لا جنسية لهم . وبانتقاله الى الكويت ، أصبح ممدوح جزءا من مجموعة كبيرة تبلغ ٣,٥ مليون فلسطيني يعيشون في الشتات . وكان النشاط السياسي ممنوعا في الكويت بالنسبة الى ممدوح و «الاجانب» الآخرين على الرغم من ان مشيخات الخليج العربي كانت تدفع بسخاء لصناديق م. ت. ف. ورغم انه لم يدرك كل ما كان يتضمنه قراره ـ مثل العديد من الفلسطينيين الذين تركهم وراءه

ـ فـانه اصـبح شـخصا لا جنسية له . يقول ممدوح : في حين ان الحياة في الكويت تبـعث على الرضـى من الناحـيـة المادية والمهنيـة ، الا ان التـمـيـيز الذي شعر به كأجنبي وكـفلسطيني كـان لا يحتـمل : «لقـد اعتادوا على معاملة الخبراء الغربيين الذين استـقـدموهم بشكل افضل من معاملة الاطباء والمهندسين والخبراء العرب . لم أشعر فقط انني كنت أجنبيا ، ولكن شعرت انني اشبه أجنبيا من الدرجة الثانية أو الثـالثـة» . وقـد ولد ابناه كـلاهما في الكويت ، ولكن مثل غالبية الاجانب الذين يعيشون هناك ، فانهما لم يكونا قادرين أبدا على الحصول على المواطنية الكويتية . فقانون عام ١٩٥٩ يحدد الكويتي على انه الشـخص الذي ينحـدر من اولئك الذين كـانوا في الكويت منذ عام ١٩٢٠ . وان قـانون عام ١٩٦٠ يسـمح بالحصول على الجنسـيـة لكنه يقيد العدد بخمسين شخصا في السنة : «يمكنك ان تعمل هناك لمدة سبع ، أو ثماني ، أو تسع سنوات ومع ذلك تبقى أجنبيا» . وحتى ولديه ، فانه لم يُسـمح لهما بالالتـحـاق بالمدارس نفـسـهـا التي يلتـحق بها الكويتيون : «عليهم الالتـحاق بمدارس خاصة ذات تكاليف باهظة» . واذا أراد فلسطيني شراء أرض او ان يقـيم مشروعـا تجـاريا خـاصـا به ، فيجب عليه ان يجد كويتيا يوافق على ان تكون له نسبة ٥١٪ من الاسـهم لقاء ذلك . لقد كانت الجنسية شرطا ضروريا من أجل الثروة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية .

كذلك ، فان قانون الخدمة المدنية ١٩٦٠ حصر المناصب العليا والمنح الحكومية والتقاعد بالكويتيين فقط . لقد بني النظام الاجتماعي والسياسي من أجل خلق نظام ثلاثي الطبـقـات . فـالطبـقـة الاولى للمـواطنين الكويتـيين حصرا ، والطبقة الثانية للمـغتربين الغربيين ، والطبقة الثالثة للمغتربين غير الغربيين بما فيهم الفلسطينيون والهنود ، والفـيلبـينيـون . وتتكافأ الامـتـيازات والاجور مع مكانة الفرد في السلم الاجـتماعي . يقـول ممدوح : «اذكر انه في عام ١٩٧٨ ، بعـد عودتي من المنحة في الكليـة الملكيـة في انجلترا والعـمل كـجراح في الكويت ، وجدت ان الكويتيين والالمان والبريطانيين يعملون بموجب عقود خاصة» .

لكن الاذى الشخصي الذي جربه كان هو الاكثر اثارة للغضب . يقول زياد الذي عمل لفترة في بنك الخليج في الكويت : «انهم لا يعتبرونك انسانا» . ويستذكر حادثة حـصلت خـلال اليـوم الثـاني لوصـوله الى الكويت : «كان ممدوح يقود السيارة ،

وصـدمنا كـويتي . أوقف سـيـارته وأخـذ يشتمنا بكلمات نابية جدا ، وشتم أبي وأمي باللغـة العـربيـة .... وجننت ... خـرجت من السـيارة وأمسكت به ، وبدأت أضربه ، في حين أخـذ أخي يضربني . وقـال لي : اذا شـتـمك البدوي فأنا موافق . وأضـاف (اذا أمسكوا بك [السلطات الكويتية] فانهم سوف يرسلونك الى الجحيم). بامكاني تحـمل ذلك ، واتوقع حصوله . ولكن ليس انت» . وقال ممدوح لشقيقه ان لا فرق فيما اذا كان البدوي هو الذي تجاوز الضوء أو مَن المخطىء ، فالعقوبة ستكون نفسها : «سيخلعون أحذيتهم ويضربونك ، في أي مكان ، وبدون ان يكون هناك سبب . لماذا ؟ لانك لو لم تترك بلدك ولم تحضر الى الكويت ، فان الحادث لم يكن ليقع على الاطلاق» .

يقـول زياد ان ابن عـمه خالد مر بتجربة مماثلة حينما كان يعمل رئيس دائرة طب الاسنان في مـسـتـشفى الاحمدي . فقد دخل الى مكتبه شخص مرموق وطلب مـوعـداً فـوريا . أوضـح خـالد له انه لا يسـتطيع تأجيل المرضى الذين ينتظرون دورهم منذ أسـابيع وشـهـور لاجـراء عمليات لهم ، وعرض عليه ان يعالجه بعد انتـهاء الدوام في الساعة الخامسة . ويضيف زياد ان ذلك الشخص «رفض وضرب ابن عـمي ... ان الكويتي يعـتبر نفـسـه الها لانهم حينما ولدوا كانوا يعيشون على الجمال وفـجـأة أصـبـح لـديهـم كـل شيء ؛ كـل شيء» . ان الكويتي لا يدرك ان الفلسطينيين من أمـثـال عكر قد ساعدوا في تحويل تلك المستعمرة المتخلفة الى دولة حـديثة : «انهم ينظرون الى الأمر من زاوية أخرى ، وليس من زاوية ان هذا الرجل أتى وبنى البـلاد . لا . لقـد عـيّـنّـاه للقيام بذلك . يقول ممدوح : ان طبيبا متميزا قـضى خمسـا وثلاثين سنة يعـمل في وزارة الصـحـة وأراد تمديد فترة خـدمـتـه «فـممدوا الفترة الى ما بين سنتين ـ ثلاث سنوات ، ثم أعطي مهلة اسبوعين لمغادرة البـلاد ... تخيل ، العـودة الى الاردن . انه سـيشعر بغربة تامة لانه لا يعرف أحداً هناك» . وحـتى في انجلترا ـ كما يقول ممدوح ـ فانه لم يشعر بالتمييز ضده : «في الكويت ، هناك شـعور دائم بانه في أي لحظة يمكن ان يلقى بك خارج البلاد ، وان يُنهى عـقدك سواء أكان هذا العقد مع القطاع الحكومي ام الخاص . انهم يجعلونك دائما تشـعـر انك تفـتـقر الى السيطرة والتنظيم . في أي لحظة يمكن ان يحدث أي شيء» .

ويضـيف ممدوح : اذا أردت ان تدرك سـبب رد الفـعل الفلسطيني المبدئي على الغـزو العـراقي للكويت فـهـذا هو السـبب : «يجب عليك ان تعـود لهذا النوع من العـلاقة» . وبعد حرب ١٩٩١ في الخليج العـربي ، أُجبرت غـالبـية الاربعمائة الف فلسطيني الذين يعـيـشـون في الكويت على الرحـيل الى الاردن ، البلد الوحيد الذي يقبل بهم . يقول ممدوح : «على المستوى الشخصي لدي أصدقاء كويتيون رائعون ، بعـضـهم من الاكثر ثقافة وتألقا ، ولكن حينما تنظر في الجو الذي خلقته الحكومة بكامله ، يبدو الأمر بشعا جدا ، ومؤذيا جدا» .

وفي النهـاية قـرر مـغادرة الكويت بعد حادثة تعرض لها صديق فلسطيني كان يعـمل رئيـسـا لقـسم الصيدلة في وزارة الصحة . فقد قضى هذا الرجل من عمره سـتا وعشرين سنة وهو يعمل لدى الحكومة الكويتية ، وكان اكبر أبنائه قد سافر الى الولايات المتـحـدة الامـريكية لدراسة الهندسة ، وأراد العودة الى الكويت ليقضي العطلة الصـيـفـيـة مع أهله . «وكـان على الوالد أن يحصل على مـوافـقـة لابنه . واسـتـغـرق ذلك وقـتا طويلا للحصول على تلك الموافقة ... لقد ولد ابنه هناك [في الكويت] واكـمل دراسـتـه هناك ، والآن يجب على والده ان يركض من مكتب لآخر للحـصـول على موافقة على عودته . لقد قضى ستة وعشرين عاما كرئيس دائرة في وزارة الـصـحـة ، وابـنـه لا يـعـرف وطنا له غير الكويت ، والآن يُعـاملون مـثل الاجـانـب. ولذلك اتخذت قـراري : لن يحدث هذا لابنائي أبدا . أردت ان اكـون في مكان باسـتطاعتي ان اكون فخورا به» . واصطحب ممدوح عائلته عائدا الى انكلترا عام ١٩٧٩ ، وعـرض عليـه منصب في المملكة العـربيـة السـعودية «بأجر أفضل بكثير» من ذلك الذي كان يحصل عليه في الكويت .

لكن ممدوحـا يقـول انه لم يعـد يريد العودة الى الخليج . علاوة على ذلك ، فان ولديه ـ مـهند البـالغ من العـمر ست سنوات ونضال البالغ ثماني سنوات ـ أخذا يقـولان : «نحن فلسطينيون ولكننا لا نعرف فلسطين» فقال لهما ممدوح : «حسنا سنذهب الى عـاصـمـة فلسطين» . وحـينما سئل فـيما اذا كـانت الارض هي التي تجـتـذبه الى الوطن ، أجـاب ممدوح : «في أواخر سنوات السبعينات بدأت ادرك ان حـركـتـنـا الوطنيـة ـ والكفـاح المسلح ـ لا يوصـلاننا الى شيء . ادركت ان الامـر سـيستغرق طويلا ، وان الاحتلال سيبقى ويبقى . وفي النهاية ، توصلت الى نتيجة

مـفـادها ان الشيء الاكـثـر أهمية بالنسبة الى شعبنا هو البقاء في الارض وان نثبت ونقوي أنفسنا مهما كانت الاسباب» .

لكن ممدوحـا لم تجـذبه بساتين الزيتون وكروم العنب التي عاش شبابه فيها ، اذ تردد في العـودة الى نابلس لانه شـعـر انها ريفـيـة جـدا . فـبعد ادبنره ولندن والكويت ، فان نابلس المحافظة ستطوّقه وتحصره فيها . وبدلا منها ، هناك القدس التي اجـتـذبتـه بدنيـويتـهـا وتاريخهـا الغني بالديانات : الاسـلامية ، والمسيحية واليـهـودية . ان المدينة المقـدسـة ـ بالآلاف من السـيـاح الذين يحجون يوميا الى الامـاكن الثـقافية والدينية ـ خرقت ريفية غالبية المدن العربية . هناك ، كان متأكدا من ان باسـتطاعـتـه ان يحقق التـعـديل ، وبما يتـفق مع قراره بالعودة . وحينما اكـتـشف انه ليس هناك من شـخص واحـد في الضـفـة الغربية مؤهل في المجاري البـوليـة ، أدرك ان عليه العودة : «قلت ، حسنا ، سأعود الى وطني ، ولكني لست ذاهبـا للانخـراط في السياسة . انني ذاهب فقط لاكون هناك لمساعدة الناس الذين هم بأمس الحـاجـة لذلك» . وفي خـريف عام ١٩٨١ وافق ممدوح على الالتـحـاق بوظيفة في مستشفى المقاصد في القدس ، على الرغم من ان الراتب كان أقل من ثلث مـا كـان يحـصـلـه في الكويت . يقـول عن أيام الكويت : «شـعـرت بانه ليس من الصـواب ان تكون خـارج البلاد في حين ان شعبك يعاني ، وفعلا ، شعرت بالذنب ... مجرد كونك كذلك [في القدس] كانسان متخصص هو التزام وطني بحد ذاته» .

ويصف ممدوح تجـربة العـودة الى الوطن بعـد غـيـاب استمر نحو عقدين من الزمـان بانه «عـملية مسخ» . ويقول : «كان هذا أول اتصال لي مع اسرائيل كواقع ومع الشـعب الاسرائيلي . بدأت الاتصـال مع الاسرائيليين من خـلال عملي» . وكلما سافر الى تل أبيب فانه كان يُصدم بحقيقة مفادها «لا نستطيع تجاهلها» [اسرائيل] اكثر من استطاعة الاسرائيليين تجاهل حقيقة نحو ٢ مليون فلسطيني في وسطهم . لقـد أدرك أشـيـاء لم يكن قـد فكر فـيها من قبل اطلاقا . ويقول ممدوح : «بدأت أشـعـر كم هو عـصـيب الامـر بالنسـبة الى الشعب الاسرائيلي للحفاظ على يهودية الدولة . انهم لا يريدون هذه الدولة ثنائيـة الجنسـيـة ، ومع الاسـتماع والمراقـبة والاحـسـاس بالشـعور والعقلية الاسرائيلية ، بدأت أدرك جنون العظمة الذي يقف خـلـف ذلك» . وللمـرة الاولى ، كما يقـول ممدوح ، ادرك لماذا أحس الاسرائيليـون

انهم بحاجة لتعزيز الاغلبية اليهودية في دولتهم ، وان أي نقص في ذلك سوف «يهدد وجودهم» .

ويقول ممدوح انه استنتج بعد ذلك ان «الطريق الوحيد هو الاشتراك في الارض وهذا هو سبب انني كنت واحداً من بين اولئك الذين قالوا منذ البداية بان من الواجب علينا ان نقبل بحل دولة ثنائية . فقبل الانتفاضة ، كان من الصعوبة بمكان الاعلان عن ذلك ـ باستثناء داخل اسرائيل ـ لانك حينما تقول [دولتين] يجب عليك ان تقبل وجود الدولة الاسرائيلية . لقد كان واضحا جدا انه يجب ان تكون هناك تسوية . لكن التسوية تعني تقديم تنازل ، وتقديم التنازل حينما تكون ضعيفا امر صعب جداً» . لقد أعطت الانتفاضة الفلسطينيين القوة لتبني حل يتمثل في دولة ثنائية كتسوية ضرورية .

لكن كلمات مسالمة كتلك كانت تقمع من قبل المعتدلين الفلسطينيين الذين كانوا يتخوفون من ان تلك الكلمات ستجلب عليهم غضب الفلسطينيين المعارضين للتسوية . لقد رأى ممدوح واحدا من أقرب أصدقائه يصاب بالرصاص بعد بضعة شهور فقط من عودته من منفاه الذي اختاره بنفسه . ففي مطلع شهر آذار من عام ١٩٨٦ اغتيل ظافر المصري رئيس بلدية نابلس ، إذ اطلقت النار على رأسه من الخلف في وضح النهار بينما كان متوجها الى مكتبه ، على يد عضو في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يترأسها جورج حبش وتتخذ من دمشق مقرا لها . وقد نفذ عملية الاغتيال ثلاثة من طلاب جامعة النجاح ، من بينهم فتاة شابة ، وكانت جريمة المصري تتمثل في استعداده للخدمة تحت الادارة المدنية الاسرائيلية . وقد كشفت عملية الاغتيال المعركة الضروس الناشبة بين مجموعات م. ت. ف. المتنافسة في المناطق المحتلة ، وكانت فرصة مناسبة لكوادر فتح من أجل عرض عضلاتهم . كان ظافر المصري شخصا شعبيا استثنائيا ، وأحد أفراد واحدة من اكثر العائلات النابلسية شهرة ، ومؤيدا لفتح ، كما كان مقربا من الاردن . ومع هذا ، فان جنازته تحولت الى مظاهرة جماهيرية لتأييد ياسر عرفات .

بالنسبة الى ممدوح ، كان موت المصري ضربة شخصية قاسية . فقد كانا زميلي دراسة في المدرسة الثانوية ، وبقيا صديقين حميمين . ويستذكر زياد : «كان الناس يواسون ممدوح ، ويعبرون عن تعاطفهم ويقولون كم نشعر بالحزن لفقدانك

صـديقك» . لقد أدرك ممدوح ـ كما يقول شقيقه ـ ان المصري قتل «لانه بدأ يقول ان باسـتطاعـتنا صنع سلام مع اسرائيل . وساعد موته في اقناع ممدوح ان مكانه هو في الوطن ... ولدى عـودته الى الضفة الغربية لم يغادرها أبدا» . ويقول ممدوح «اعـتـقـد ان أحـد الـدروس الـتي تعلمناها نحن الفلسطينيين ، على الرغم من اننا تعلمناها بطريقـة صـعـبة ، هو انه مهما حدث ، فان علينا البقاء في الارض . يجب علينا ان نبـقى لان أي شخص يتحدث عن ان تكون في المنفى أو لاجئا ، انما يعني واحـدة من التـجـارب الاكـثر اذلالا . هنا ، وبصرف النظر عن شدائد وصعوبات ومـعاناة العيش تحت الاحتلال ، فان النقطة الرئيسية ما تزال هي البقاء في الارض ومواجهة الاحتلال» .

رغم ذلك ، فـانه كـان مـا يزال غير تواق جدا للانخراط في العمل السياسي . اما مـهند ـ ابنه الاصـغـر ـ فـقـد كـان الحافز وراء تحول ممدوح . ففي عام ١٩٨٦ تطوع مـهند للعـمل في المركـز الفلسطيني لدراسـات اللاعنف ، والذي كان يترأسه مـبـارك عـواد ، وهو نشيط سلام فلسطيني . ويقول عواد ان الناس الذين لديهم مـشـاكل مختلفـة مع الاسرائيليين كانوا يأتون الى مكتبه في القدس الشرقية ، حيث كـان مـهند يقـابلهم ويدوّن مـلاحظات عنهم بعناية «محاولا فهم لماذا حدثت هذه الاشـيـاء» . ويوضح ان هذه المشـاكل لم تكن مـشـاكل سـياسية «وانما مشاكل اجـتماعية : صعوبات مع الاسرائيليين» وتشتمل على اجتثاث الاشجار من جذورها وحـرمـانهم من تصـاريح حـفـر آبار المياه على أي عـمق لانها يمكن ان تحـرم المسـتـوطنات المجاورة من المياه . واشتكى فلسطينيون آخرون من ان عائلاتهم قد ازدادت أعـدادها وانهم لا يستطيعون الحصول على تراخيص لبناء طوابق اخرى في بيـوتهم «ولذلك فانهم كانوا يبنون بيتا ، فيأتي الاسرائيليون ويدمروا المنزل بكامله لانهم قـامـوا ببنائه دون الحصول على تصريح» كما يقول عواد . ايضا ، فقد يأتي شـخص مـا الى المركـز محاولا معرفة مكان قريب له سجن في مكان ما في المناطق المحـتلة . وعلى مـدار السنتين التـاليتين ، كان مهند يعود كل ليلة الى البيت ويخبر والده بتفصيلات القصص التي سمعها خلال النهار .

واخيرا ، في منتـصف شهر كانون الثاني من عام ١٩٨٨ ، وبعد مرور أقل من ثلاثة أسـابيع على بدء الانتـفـاضـة ، توصل ممدوح الى انه لم يعد بامكانه البقاء صـامـتـا اكـثـر من هذا ، فكتب رسـالة «مفتوحة» الى «شـخصية رئيسة في حزب

العمل» وهي رجل كان ملتزما بالحل السلمي ، وكان وزيرا للدفاع في حكومة الائتلاف التي قادها الليكود . كانت تلك الشخصية اسحق رابين . يقول عواد : «كانت تلك خطواته الاولى في العمل السياسي ، وكان ابنه هو الصِّنو الذي غَيَّرهُ» . في تلك الرسالة ، كتب ممدوح انه يخاطب رابين لا رئيس حزب العمل شمعون بيرس او رئيس الوزراء اسحق شامير «لانك تمثّل بالنسبة الينا القبضة الحديدية لفلسفة الليكود . وبالتالي ، فانك تمثّل بالنسبة الينا ، اكثر من السيد بيرس أو السيد شامير الموقف الاسرائيلي الرسمي غير الحزبي اتجاهنا» . ويقول انه قرر الكتابة لرابين لانه كان من «المهين جداً» الاستماع اليه وهو يصف باستمرار حوادث قذف الحجارة بأنها «شغب» ويدين الفلسطينيين «كارهابيين» . وقال ممدوح لنفسه: «انتظر لحظة . راقب . ان ذلك ليس صحيحا . انها انتفاضة شعبية انك ترى فيها الجماهير من كل الاعمار ، وكل النساء ، والمسنين ، وأطفال المدارس، واليافعين» .

لكن ايصال رسالته المفتوحة الى اهتمام رابين أثبت انه أصعب مما كان يعتقد. كتب ممدوح الرسالة باللغة العربية لانه أراد نشرها في صحيفة القدس الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، والتي تصدر في القدس . لكن رئيس التحرير لم يكن متحمسا ، وقال لممدوح : «انها رائعة ... لكنني لا أستطيع نشرها كما هي ... يجب عليك ان تغير هذا وذاك» . وثار سخط ممدوح ، وقال : «لم آت الى هنا طالبا كتابة مقالة . لدي رسالة وكتبتها بهذا الشكل لانني أريدها ان تنشر كرسالة . لن أغير حرفا واحدا فيها» . ولم يتزحزح رئيس التحرير عن موقفه ، وقال : «سيغلقون الصحيفة ... لا أستطيع» . واتصل ممدوح مع صحافي اسرائيلي ، صديق له ، والذي اقترح ان يقوم باعادة كتابة الرسالة باللغة الانكليزية ، واعدا بمحاولة نشرها في صحيفة الجيروزالم بوست التي كانت في ذلك الوقت صحيفة اسرائيلية ليبرالية غالبا ما تنتقد الحكومة . ويستذكر ممدوح : «واتصل هاتفيا برئيس التحرير من أجلي ، وقال الرئيس : بالطبع ، يمكنه نشرها» .

ان الرسالة وثيقة غير عادية ، وبخاصة حينما ينظر اليها على انها كُتبت منذ الايام الاولى للانتفاضة ، إذ يحذر ممدوح بها رابينَ قائلا : في ميدان الطب «فان التشخيص بشكل صحيح هو اكثر من نصف العلاج» فبدون التشخيص الصحيح من الصعوبة بمكان فهم «القضايا الاساسية» . ويحذر رابين بانه يرتكب «خطأ

مميتـا» اذا كـان يعتقد ان اندلاع الانتفاضة يعكس «حالة من اليأس» بين أوساط الشعب الفلسطيني ، بل على العكس تماما على وجه الدقة . وجاء في رسالة ممدوح أيضـاً : «طوال حـياتي التي امتدت اكثر من أربعين عاما لم أر على الاطلاق شعبنا بمـثل مـا هو عليـه اليـوم من روح مـعنوية عـاليـة وثقـة بالنفس» . ويقول : ان التـشـخـيص الصحيح هو ان الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة فقدوا الأمل من قـدرة الآخـرين ـ مـثل الامم المتـحـدة وحـتى القوتين العظميين ـ على مساعدتهم «وبالتـالي فـانهم اخـتـاروا سبيلا آخر» . ويحذر رابينَ من ان ما يحدث في المناطق المحـتلة لايمكن ان يوصف على انه «عـصيان» و «واضطراب» و «شغب» و «اعمال عنف» :

اذا كنت تريد فـعـلا مـعـرفـة مـا الذي يجري ، فان عليك ان تـعـترف بـانـه انبـعـاث. انه ظاهرة مختلفـة نوعـيـا ، تعكس ولادة فلسطينيـة جديدة ، وان أي وصف يتجاهلها لا يستحق اهتمامك . ان هذا التصميم ، وهذه الشجاعة ، وهذه الروح ، وهذه الحركة المدعومة كليـا تشير الى انها ليست اقل من انتفاضة شعبية ... واذا كنت معنيا بصـورة جـدية بمـعـرفة السبب ، فانه الاحتلال . فهل تتوقع منا ان نـرمـي زهـوراً على جنودكم ؟ هل فـعل شـعـبكم الشيء ذاته حـينما اضطهد في اوروبا ؟

ربما كـان الجزء الاكثر بقاء في الرسالة الموجهة الى رابين هو بصيرة ممدوح في التنبـؤ بان الانتـفـاضـة ستعمل على تعزيز سلطة قيادات فلسطينية محلية مثله ، والذين كـانوا الشركـاء الطبيـعيين في الحوار السلمي مع اسرائيل . وكتب ممدوح : «في عـمليـة التشخيص ، فان ما هو أساسي أيضا ملاحظة ان هذه الانتفاضة تعيد بؤرة النشـاط الفلسطيني الى مكانها المناسب ، وتعـيد التأكيد على الحركة الوطنية الفلسطينيـة في (الداخل) . وأضـاف : بالطبع ، فـانه لاشيء يستطيع الانتقاص من «وحدة شعبنا أو الدور الرئيس لقيادات (الخارج)» .

لكن الدَفعة الرئيسة في رسالته كانت دعوة لرابين لبدء الحوار :

ان المرء يدرك هاجـسك فـيما يتـعلق بموضوع الامن ، ولكن بكل مـوضـوعـيـة ، وبـدون اي اسـتـفـزاز اسـمح لي بالقـول اننا نحن

الفلسطينيين الجهة الوحيدة التي تستطيع ان تضمن لكم الأمن والسكينة. فاذا كنت فعلا تريد السلام ، فانه سيتحقق فقط من خلال التحدث معنا ومن خلال ممثلنا الشرعي : م.ت.ف. ان السلام لايمكن التوصل اليه بواسطة جيشكم ، بغض النظر عن كم أصبح قويا . لاتوجد دولة عربية أو قوة دولية ، بما في ذلك الولايات المتحدة الامريكية ، تستطيع ان تمنحكم الامن . وفقط ، فان سلاما ناجزا يتم التوصل اليه بارادة حرة بينكم وبين قيادتنا الحقيقية سوف يوفر بيئة لمثل تلك المفاوضات .

ويختتم ممدوح رسالته بالتساؤل بشكل نبوئي : «لماذا انتم بحاجة كي تكتشفوا من جديد ان الارض كروية ؟ ان تجاهل الحقيقة الاساسية والرئيسة يعني فقط استمرارية دائرة المعاناة هذه بالنسبة اليكم والينا» .

لقد سجل هذا التحول نقطة انعطاف في حياة ممدوح ، اذ انه لم يعد بعد ذلك يقف موقف المتفرج تجاه النضال الفلسطيني . ويعترف «بانها كانت من حيث الظاهر رسالة جريئة ، وكانت هناك فعلا ردود فعل ـ سلبية وايجابية ـ من الفلسطينيين» . فالعديد من أصدقائه قالوا له انه من الآن وصاعدا سيصبح هدفا للاسرائيليين اليمينيين : «لقد شعروا فزعين بان من المحتمل ان يقوم المستوطنون بايذائي» . ولكنه ايضا تلقى الكثير من ردود الفعل المشجعة له من اسرائيليين عاديين ، على الرغم من انه لم يسمع على الاطلاق مباشرة من رابين . يقول ممدوح «بدون قصد وبدون تخطيط ، فان الرسالة وضعتني في وسط ديناميكيات الانتفاضة ... كنت أبحث عن دور لانني شعرت ان هذه [الانتفاضة] حدث تاريخي وانه يجب على ان اكون جزءاً منه» .

وتبعت ذلك رسائل أخرى ، نشرت في صحيفة الجيروزالم بوست وفي صحف اقطار أخرى ايضا . وفي شهر آذار ١٩٨٨ ساعد ممدوح في تأسيس منظمة الاطباء الاسرائيليين ـ الفلسطينيين لحقوق الانسان ، ويقول موضحا : «ثم بدأت المشاركة في أعمال الاغاثة والانعاش الطبي» لان غالبية القرى العربية في الضفة الغربية وغزة لاتوجد فيها عيادات طوارىء. ويضيف : «حينما ترى الجرحى في المستشفيات ، فان ذلك أمر بشع فعلا» . ومؤخرا بدأ حملة للحصول على سيارات

اسعاف مـزودة بغـرف عـمليـات مـتنقلة لأن «العديد من الناس يموتون وهم في الطريق الى المستشفى» .

ان مشاركته في المساعدة على معالجة الجرحى جعلته يدرك ان من الواجب عليه ان يوسع نطاق مهمته ليشمل ما هو أبعد من الآلام المادية . يقول ممدوح : «بدأت أشـعـر اني مـسؤول عن نقل رسالة الانتفاضة الى الرأي العام الاسرائيلي ، ولذلك بدأت بقـبـول الدعـوات الموجهة الـيّ من مجموعات السلام الاسرائيلية ، فحضرت عشرات الاجـتماعـات حـيث ناقـشنا كـيـفـيـة ايجاد حل» . وقد كانت إحدى هذه المجـمـوعات مجموعة «السنة ٢١» وهي منظمـة اسرائيليـة ـ فلسطينيـة عـقـدت اجـتماعـات في منازل اليـهود. يقول (هاغيث غور زيف) منسق المجلس اليهودي ـ العـربي للتـثـقـيف السلمي : «عـقدنا جلسات غير رسمية ، وهناك شهدنا بدايات حـوار حقيقي حول المساواة في قضايا خلافية مهمة» بما في ذلك الارهاب الاسرائيلي والفلسطيني . ويقـول ممدوح : «وحتى اليوم ، لا أعتبر ما أقوم به عملا سياسيا . انني أقوم بما أقوم به كمفكر وكوطني» .

ويتـابع : حـينما امـتـدت الانتـفـاضة الى مناطق ريفية نائية في الضفة الغربية «بدأنا نعـرف اسماء قرى جديدة ، قرى لم اكن قد سمعت بها من قبل أبداً. وكان هذا حـينما بدأت أشعر بالضجر والهم . يجب علـيّ ان اكون جزءاً من هذا ... لقد شـعـرت منذ الاسـبوع الأول أو الثاني ان هذا الامر مختلف ، هذا الامر مختلف . انني ممتن على الدوام لمهنتي : فكونك طبـيـبـا يسمح لك بابقاء يدك على النبض» . ويوضح ان الشيء الفذ فيما يتعلق بالانتفاضة هو ان جذورها امتدت الى مستويات المجـتمع الفلسطيني كله ، بما في ذلك مخيمات اللاجئين ، وانخـرطت فيها مختلف الاعمار والاديان ، والرجـال والنساء ، والاطفال : «مع الانتفاضة انتقلنا الى مرحلة المقاومة النشطة ؛ ليس فقط مقاومة الاحتلال ، وانما عبر قول اننا لم نعد نخشى ، فحاجز الخوف سقط الى الأبد» .

يدعي الاسرائيليـون ان ممدوحـا لم يكن فقط أحد الذين يساعدون الانتفاضة ، ولكنه أحـد الاشـخاص الذين يديرونها ، فاعتقل في ٢٧/ ٢/ ١٩٩١ ـ خلال الفترة التي قـام فـيـهـا العـراق بقـصف اسرائيل بصـواريخ سكود ـ ومثل امام محكمة عـسكرية اسرائيليـة في ١٣/ ٣/ ١٩٩١. ونـقـلت وسـائل الاعـلام الاسرائيليـة عن مصادر حكومية رسمية قولها انه تم استجوابه لعلاقته باعمال شغب غير محددة:

التحـريض على اسـتـخدام العنف ، اصدار مناشير معادية للسلطات ، واتصالات مـزعـومـة مع منظمات غير مشروعـة بما في ذلك م.ت.ف. وكـان هناك مـسـؤول اسرائيلي رفـيع المسـتـوى اكثر فظاظة حينما قال : «انه كان عضو القيادة الوطنية الموحـدة للانتـفـاضـة» مضيفا ان هناك «شكوكا» راسخة في ان ممدوحا شارك في كـتـابة منشورات القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة. وقد خضع للاستجواب مدة أربعين يومـا وأربعين ليلة . ويدعي الاسرائيلي قـائلا : «في البداية انكر ان يكون له أي ارتبـاط بالقـيـادة الوطنيـة الموحـدة ، ثم اعترف انه كـتب جزءا منها [مناشير القـيـادة الوطنيـة الموحدة] وهو الفصل المتعلق بالامور الطبية . لقد كان جزءا من القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة بكل ما في الكلمة من معنى» .

وقـال هذا المسـؤول في مـعـرض اتهاماته ان القادة الفلسطينيين أمثال ممدوح يلبـسون طاقيتين ، لان دوريهم التوأمين ـ كنشطاء سياسيين في المناطق وكأعضاء في الوفـد المفـاوض الذي يعطيـهم صـفـة دبلومـاسية ان لم يكن حصانة كاملة ـ يخلقـان مأزقـا خطيراً بالنسبة للاجهزة الأمنية الاسرائيلية . ان عملهم طوال النهار هو التـفـاوض مع اسرائيل حـول الحكم الذاتي للفلسطينيين و «عملهم الليلي» كما يقـول هذا الاسرائيلي «هو اعطاء التـعليمات سرا للقـيـام باعمال الشـغب والاخلال بالأمن العام» . ولأن اسرائيل تريد تشجيع عملية سياسية سلمية لتحل مكان عنف الانتفاضة فان هذا الأمر «منطقة رمادية ... اننا في حيرة من أمرنا كيف نتصرف» .

في ٣/١٣ ، وهو اليـوم الذي مـثل فـيه ممدوح أمام القاضي العسكري ليستمع للتـهم الموجـهـة ضده ، أعلن الاضراب عن الطعام ، واستمر في ذلك مدة ثلاثة أيام ونصف اليـوم . كان هناك شك بسيط حول ما كان الاسرائيليون يريدون : اعتراف كـامل بدوره المزعـوم كـواحد من المنظمين الرئيسيين للانتفاضة . واحتجز ممدوح في زنزانة طولها ثلاثة أقدام وعرضها خمسة أقدام . يقول زياد : «كانت قذرة جدا ... كـانوا يذلونه بكل طريقة ممكنة . وحتى حينما كان يريد الذهاب الى الحمام لم يكونوا ليـسـمـحـوا له . والطعـام الذي قـدمـوه له ، يشبه طعام الكلاب . وخلال عـمليـات الاسـتـجـواب وضـعوه [ممدوح] في قفص يدعى (تابوت) . كان بحجم جـسـمـه ـ فقط الرأس تكون خارج الصندوق ـ وحرموه النوم لفترة طويلة : مدة خمسة أيام أو أسبوع» .

وقـد اتُـخِذَ السـجن اداة ضد هذا الطبيب البالغ من العمر ثمانية واربعين عاما

وضـد عائلته ، اذ لم يسمح لمدوح برؤية اقاربه أو محاميه الا يوم ٣/٢٥ حينما تقـدم مستشاره القانوني باستدعاء أمام المحكمة العليا الاسرائيلية وحصل على امر قـضـائي يسـمح بزيارة ممدوح . واخيرا ، وحـينما شـاهد المحـامي موكله ، كان ممدوح قـد فَقَدَ الكثير من وزنه . لقـد عانى من آلام في الصدر وخفقان في القلب . ومن خـلال محامـيـه ، أصـدر ممدوح بيـانا عـاما وصف نفسه فيه بانه «وطني فلسطيني وطبـيب يشـعـر بألم ومـعـاناة شـعـبه ... لقد ايدت على الدوام الحوار والحلول السلمـيـة والتـعـايش مع الاسرائيليين . وما أزال أعتقد ان هذا هو السبيل الوحـيد لضمان الأمن والعدل للفلسطينيين وللاسرائيليين على حد سواء . لقد آمنت على الدوام باللاعنف وبالقـوة الاخـلاقـية لموقف عادل اكثر من تأييدي لاستخدام السـلاح والعنف» . وعلى الرغم من انكاره لأي تورط «حـتى بصـورة غير مباشرة» في أعمال التـحـريض على الاضطراب او العنف في المناطق المحـتلة ، الا ان ممدوحا اعترف انه «خـلال فترة الحـرب [حرب الخليج] شعرت ان من واجبي كفلسطيني ان أقـدم النصح والمشـورة لرجال بلدي في قضايا تتعلق بالدفاع المدني ، والاعتماد على النفس ، والاسـتعداد للحالات الطبية الطارئة ، وأخذ الحيطة من المعاناة والعوز خلال فترة منع التجول الطويلة» .

وأثار اعـتـقاله اهتماما عالميا . فمن بين الهيئات التي اعلنت احتجاجها ورفضـها لاعـتـقـاله : منظمـة العفو الدولية (أمنستي) و (ميدل ايست ووتش) و (مؤسسة نـيلسـون مـانديلا) و (المركـز الفلسطيني لدراسـات اللاعنف) و (لجنة خـدمـة الاصـدقـاء الامـريكيـة) و (المجلس الوطني للعلاقات العربية الامريكية) و (حركة السـلام الآن الامريكية) و (الكلية الملكية للجراحين في ادنبرة) . وشكل مبارك عواد في واشنطن - الذي أُبعد من قبل السلطات الاسرائيلية بعد أن وجهت ضده اتهامات مماثلة بان له دورا قـيـاديا في الانتـفـاضة - لجنة دولية للافراج عن ممدوح عكر . وقـام الدكـتـور جـوناثان فـاين - المدير التنفـيـذي لجمعية أطباء من أجل حقوق الانسـان - بالكتـابة الى وزير الدفـاع الاسرائيلي مـوشي آرنس ولوزير الخـارجـية الامـريكي جـيـمس بيكر . وقـال فاين انه التقى بممدوح «في اكثر من مناسبة» في اسرائيل ، واصـفا هذا الطبيب بانه «رجل اعتدال كان يسعى باستمرار لحل سلمي للنزاع العـربي الاسرائيلي ، وانه يُـنظَـر اليـه عـاليا في مجال عمله . والاكثر من هذا انه شخص رقيق جدا لا يؤذي أحدا» .

أخيرا ، في ٤/٧ وبعد مرور اسبوع على بدئه صياما آخر (شهر رمضان) وقبل عشرة أيام من الطلب الى المدعي العام تقديم اتهاماته ضده ، أطلق سراح ممدوح بكفالة مقدارها عشرة آلاف دولار ، ووضع تحت الاقامة الجبرية في منزله بانتظار محاكمته التي لم تجر على الاطلاق . وعلى ما يبدو ، وكرد فعل على الاحتجاج العالمي ، فان المدعي العام الاسرائيلي لم يوجه اليه على الاطلاق أي تهمة . ومع ذلك ، في ٤/١١ أرسلت السفارة الاسرائيلية في واشنطن ـ التي غمرها طوفان من الرسائل المكتوبة لصالح ممدوح ـ ردا لكل شخص استنكر اعتقاله . وقالت الرسالة الاسرائيلية ان ممدوحا اعتقل «للاشتباه بانه يحرض على نشاط ارهابي معاد» بالاضافة الى «احتفاظه بارتباطات مع منظمات ارهابية في المنطقة وفي الخارج» . وأضافت الرسالة «خلال الاستجواب ، اعترف السيد عكر بقيامه بدور في النشاطات المعادية وبأن له ارتباطات مع المنظمات الارهابية» . وقال مسؤول اسرائيلي : «من خلال ما عرفناه عن نشاطاته ، كان بامكان القاضي ان يحكم عليه بسنتي سجن على الاقل ، وبكل سهولة» .

ولم تتح لممدوح فرصة مواجهة متهميه الا في شهر تشرين الاول التالي حينما تم اختياره كواحد من الاعضاء الاربعة عشر في الوفد الاردني ـ الفلسطيني الى مؤتمر السلام في مدريد . كان أحد ضيفين على النسخة الخاصة بمدريد من برنامج محطة شبكة الاخبار بالكوابل المسمى (نيوز ميكر ساترداي) إذ استضافه مراسل شبكة CNN في البيت الابيض فرانك كيسنو . اما الضيف الآخر فكان زالمان شوفال سفير اسرائيل لدى الولايات المتحدة . قال ممدوح وهو يثب فرحا بان أتيحت له فرصة مخاطبة المسؤول الاسرائيلي بشكل مباشر : «لقد فرحت تماما حينما اكتشفت اننا سنلتقي هنا لانه خلال فترة اعتقالي ـ وفي معرض رده على الرسائل التي تلقاها من أجلي ـ وصفني السيد شوفال بانني [ارهابي نشط معاد] . هاأنذا . هل أبدو نشطا معاديا؟» . ورد عليه شوفال : «انني سعيد لسماع انك لم تكن ارهابيا» . لكن الاسرائيلي قال بعد ذلك ان الفلسطينيين كلهم تصرفوا بشكل غير مسؤول خلال حرب الخليج . فأجابه ممدوح : «ان الشيء الوحيد الذي شاركت فيه كان اعطاء ارشادات الى أبناء شعبي من وجهة نظر طبية» . وقال بانه لم توجه اليه على الاطلاق أي تهم ؛ وبعد اربعين يوما وليلة من الاستجواب وبعد ان اطلق سراحه بكفالة «أُسقِطَ كل شيء ضده» .

ومضى يتحدى نظيره الاسرائيلي حينما قال : «الخطوة الاولى أن تعاملني كَنَدٍّ. اننا شعب ، وهذه هي صرخة شعبي ، اننا شعب . لسنا مقيمين أو مستوطنين في يهودا والسامرة . نحن الشعب الفلسطيني . وفي اللحظة التي تعترف فيها بي كندّ فان الاجواء كلها ستختلف» . وقبل ان يتمكن شوفال من الاجابة ، تابع ممدوح : «اعترف بكم كشعب ، الشعب الاسرائيلي ، وكأمة ، وكدولة . هذه هي الروح التي أتينا بها الى هذا المؤتمر ، بقلب مفتوح وبعقل مفتوح ونحاول ان نمد أيدينا . انني لا انكر عليكم أي حق أطلبه لنفسي . فدعونا نعامل بعضنا كندّين مؤهلين لممارسة الحقوق نفسها» .

ان اداء ممدوح في مدريد ، ومظهره الانيق ، وظهوره واثقا من نفسه ، قد جعل منه ذلك كله بين عشية وضحاها حدثا تلفزيونيا مثيرا . فبعد ظهوره بفترة قصيرة على شبكة CNN طلبت اليه بربارة وولترز الظهور في البرنامج الشهير (نايت لاين) الذي يبثه تلفزيون ABC . كذلك ، فان شبكات اخبارية أخرى عديدة بما فيها برنامج ماك نييل - ليهرر نيوز أور الذي يبثه تلفزيون PBS ، وجهت دعوات اليه ليتخذ موقف المقاتل أمام ضيوفهم الحكوميين الاسرائيليين .

وتبدو عيادته الخاصة ، الكائنة في رام الله في عمارة حنانيا خراز ، والتي من العسير وصفها - بغرفة الانتظار التي تحتوي على مقاعد بنية اللون تمتلىء بمرضى قلقين - عالما بعيدا عن دراما وشهرة مدريد . ولكن كما يفكر ممدوح في مستقبل نضاله ، فان الواقعين يبدوان مترابطين بشكل ما ، ربما من خلال مسحة على جدران عيادته ، مغطاة بصورة زيتية جدارية لغابة ، هي برغم كل شيء الارض التي ستقرر النتيجة . ويقول : «القضية ليست فقط قضية تجميد المستوطنات [الاسرائيلية] ... من المهم وقف النشاط الاستيطاني كله أثناء محادثات السلام وخلال الفترة المؤقتة كلها للحكم الذاتي . لا نستطيع التفاوض في حين ان القضية الاساسية : الارض ، تصادر كل يوم» .

وهناك هدف آخر لهذا الفلسطيني النحيف ، الانيق ، ذي الحواجب الكثة سوداء اللون ، والشعر القصير والجبين المتغضن : اقناع العديد من الاطباء الفلسطينيين - قدر استطاعته - بالعودة الى الارض التي يأمل ان تصبح نواة لدولة فلسطينية . ويقول ممدوح : «هناك عدد ضخم من الفلسطينيين الذين يحملون بطاقات جسور

اسرائيلية ويستطيعون العودة لكنهم يترددون ... اعتقد انهم في أعماقهم يشعرون بالذنب» . وحتى عائلته غير مستثناة من الضغط . يقول زياد الذي يعيش بالقرب من واشنطن دي. سي. في بيت جديد مترف ، فيه مسبح بحجم المسابح وملاعب التنس الاولمبية : «ان ممدوحا ورائي دائما كي أعود . والآن يحاول ايضا اقناع شقيقنا الاصغر سميرا وزوجته ـ وكلاهما طبيب ـ بالعودة الى نابلس والعمل فيها» .

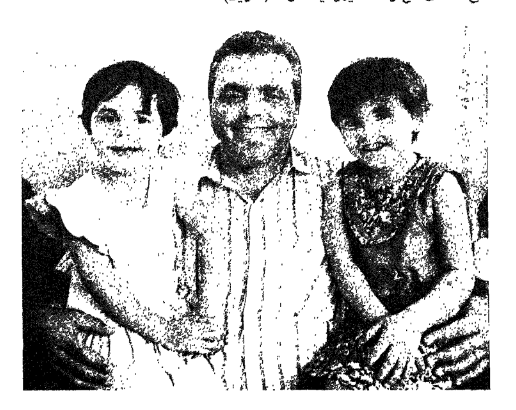
ان ممدوحا مرهَق بالعمل على نحو واضح . فبين واجباته الطبية ـ فهو يقسم وقته بين ثلاث مستشفيات في القدس (القديس لوقا ، القديس جورج ، والقديس يوسف) ومستشفيين في نابلس (كلية التمريض النسائية ، والاتحاد) ـ وبين أعماله السياسية والدبلوماسية الجديدة ، ليس لديه متسع من الوقت لأي شيء آخر ، ويقول : «أصر على توفير ليلة واحدة في الاسبوع لأقضيها مع عائلتي» .

لكن بالنسبة الى ممدوح ، فان الدورين اللذين يقوم بهما ـ كمداوي من المرض وكمفاوض رئيس يحاول شفاء الجراح مع اسرائيل ـ منضفران مع بعضهما بشكل وثيق ، اذ يقول : «لدي مرضى كثيرون من مخيمات اللاجئين ، وأصر دائما على التحدث الى مرضاي وان يتحدثوا اليّ وعلى نحو خاص منذ أن سميت في الوفد [الفلسطيني] . ان كل واحد منهم ، بدون استثناء ، يتحدث عن آمالهم ، وأحلامهم ومعاناتهم» . ان هؤلاء الفلسطينيين هم مرضى ممدوح ، ولكنهم أيضا استمرارية مستقبله ، الناس الذين يحتمل ان يصوتوا لصالحه اذا أدت محادثات الحكم الذاتي الى اجراء انتخابات لتشكيل مجلس نواب وطني ، واذا قرر ترشيح نفسه لذلك المنصب . وفيما يتعلق بالوقت الراهن ، فان هذا المؤيد لفتح اداة وصل مهمة بين قيادة م. ت. ف. المنفية في تونس وجيل القادة الناشىء في الضفة الغربية وغزة ، الذي يكتسب شيئا فشيئا احترام وتأييد جماهير العالم . يقول ممدوح : «ان الشرعية تستمد من خارج المناطق المحتلة لكن المصداقية تأتي من الداخل» . ويقول ان «المصداقية» يؤكدها انصاره الكثيرون : «الناس المنتخبون ، يعرفهم الشعب ، ويحترمهم» . ثمة شيء واحد مؤكد : هو انه لن يترك الضفة الغربية مرة أخرى ـ على الاقل ـ حتى تصبح الدولة الفلسطينية واقعا وحقيقة . ويقول متحدثا عن نفسه وعن شعبه ايضا : «سنموت هنا ... ولن نرحل الى أي مكان آخر» .

سامح كنعان



● سامح كنعان مع والدته يهودية المولد (مازيل) .



● كنعان مع طفلتيه (سماح) إلى اليمين و (هند) إلى اليسار.

سامح كنعان

يشكل سامح كنعان حالة من التناقض البشري : فهو يهودي يتحالف مع العرب ، وعربي يمكن ان يُعَدّ على انه احد افراد عائلة يهودية . ولك أن تسأل أي مسؤول اسرائيلي عن كنعان ، وسترى كشرة تعلو وجهه . صحيح ، ان جدّي كنعان كانا من السفارديم المغربيين ـ يهود شرقيون ـ هاجروا من افريقيا الشمالية واستوطنوا في القدس ؛ وصحيح أنهما كان شديدي التمسك بالعادات والتقاليد كيهود اورثوذوكس ؛ وصحيح ان كنعانا يتحدث اللغة العبرية بطلاقة ، ويقرأ الصحف الاسرائيلية ، ويتابع الاخبار الاسرائيلية ، ويبدي اعجابه بالكنيست الاسرائيلي الديمقراطي ، ويفهم عقلية اليهود المعاصرين ؛ وصحيح انه أحد الأشخاص الذين يتفاوضون حاليا على السلام بين العرب واليهود ؛ لكنه بالنسبة الى الاسرائيليين شيء شاذ وسخيف ؛ فبموجب الدين اليهودي هو يهودي ، وهو في الواقع مسلم عربي ، ومؤيد نشط لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وسامح كنعان هجين ثقافي : مزيج من أب مسلم وأم كانت يهودية . فعندما كانا طفلين ، عاش والداه في بيتين متجاورين في المصرارة ، وهي إحدى ضواحي القدس ، وتقع مباشرة خلف أسوار المدينة القديمة . كان ذلك في أواخر فترة الانتداب البريطاني التي استمرت ثلاثين سنة ، والتي يقول عنها الكبار سنا انها فترة مجتمع مفتوح في فلسطين . فعلى الرغم من تنافسهم على الارض ، وانفجار اعمال العنف بين فينة وأخرى ، الا ان العرب واليهود في القدس اختلطوا ببعضهم بحرية ، وعاشوا وسط بعضهم . كان ذلك عهدا ـ وقد خبرته عائلة سامح ـ لم تكن الحواجز المادية والنفسية فيه والتي عملت على تقسيم الشعبين بعد الاستقلال الاسرائيلي سنة ١٩٤٨ قد شيدت بعد .

وعلى امتداد سنوات الاربعينات ، لم تُعِرْ عائلة ميمن ـ وهي عائلة يهودية هاجرت من المغرب ـ وعائلة كنعان ـ جيرانهم المسلمون ـ الكثير من الاهتمام لبعضهما ، ولم يفكروا في ان صبيا من أحد البيوت وصبية من بيت آخر سيقعان في حب بعضهما . لكن في عام ١٩٤٦ ، أعلن طالب كنعان ومزال ميمن انهما يريدان الزواج من بعضهما . ورفض والد الزوجة ـ وكان رجلا شديد التدين ـ ان يتغاضى عن زواج ابنته : «لانه لم يكن سهلا ان يعطي ابنته كزوجة لمسلم» كما

يقول سامح . فبالنسبة الى يهودي اورثوذكسي ، تعتبر مأساة ان يرى ابنته تتزوج خارج اطار الشريعة اليهودية ، وبالتالي فان زواجها كان يعني الجلوس والحداد عليها وكأنها قد ماتت . مع ذلك ، وبالنسبة الى عائلة كنعان ، فان الزواج المرتقب كان حدثا ممتعا حينما ساعدا زوجة ابنهما المستقبلية على الاستعداد لحياتها الجديدة . فقد قامت أسرة طالب بتعليم مزال التقاليد الاسلامية للطبخ وتدبير شؤون البيت . وعلى الرغم من ان الاسلام ـ على النقيض من اليهودية ـ لا يحرم الزواج من غير المسلمة ، الا انه يؤكد ضرورة ان تصبح الزوجة مسلمة . وقد اعتنقت مزال الاسلام أمام الشيخ عبد الحميد السائح الرئيس السابق للمجلس الوطني الفلسطيني ، والذي كان آنذاك شيخ نابلس . ويتحدث سامح عن مزال فيقول انها كانت مخلصة لزوجها على نحو واضح ، وبما فيه الكفاية لدرجة انها ضحت بالابتعاد عن عائلتها من أجل الزواج به : «لا شيء صعبا فيما يتعلق بالحب ... لقد ضحت بكل شيء من أجل والدي : بدينها ، وبأسرتها» .

تركت عائلة كنعان القدس ، واتجهت نحو نابلس ، حيث امتلكت اقطاعية لها على امتداد المدينة . وافتتح طالب ـ الذي كان يصنّع مقاعد باصات كعامل في شركة الباصات في القدس ـ محلا خاصاً به في نابلس . ولمدة سنتين عاش الزوجان حياة هادئة . ولكن حينما أعلن اليهود قيام دولتهم الجديدة سنة ١٩٤٨ ، اندلعت الحرب في المنطقة ، وتمكن الاردن في النهاية من المحافظة على الضفة الغربية ، ومن ضمنها نابلس والقسم الشرقي من القدس ، في حين سيطر الاسرائيليون على القسم الغربي من المدينة . وللمرة الاولى في تاريخها تقسم المدينة المقدسة . كان ذلك قبل مرور تسع عشرة سنة على رؤية مزال لاهلها مرة ثانية .

لكن مزالا أصبحت واحدة من أفراد المجتمع في نابلس . فالديانة التي فطرت عليها لدى مولدها لا تنثر الخلاف العرقي في المدينة العربية . وعاشت العائلة هويتها المسلمة دون أي غموض أو التباس ، اذ يقول سامح : «لاننا كنا نعيش في منطقة اسلامية وفي عائلة مسلمة فاننا نشأنا على التقاليد العربية . ولأن [أمي] أصبحت مسلمة ، فان تقاليدها تحولت الآن نحو الاسلام» . وعلى الرغم من ان طالبا لم يكن رجلا متدينا ، الا ان حياة العائلة المنزلية سارت وفق تعاليم دينه لا وفق تعاليم دين زوجته ، اذ كان يحُتفل بالاعياد الاسلامية في منزل كنعان لا

بالاعياد اليهودية ، وكان الحديث يتم باللغة العربية لا بالعبرية . ان السلالة اليهودية لعائلة مزال انتهت في حقيقة الامر مع زواجها من طالب ، اذ اصبح أولاد كنعان مسلمين ، وان كانوا وبموجب الديانة اليهودية يهودا .

في عام ١٩٥٤ ، غادرت عائلة كنعان مدينة نابلس في مسعى منها لكسب عيشها وارتحلت عبر نهر الاردن لتستوطن في مدينة اربد . وفي تلك السنة ولد سامح آخر أبناء طالب ومزال . ومثل أشقائه الاربعة وشقيقتيه ، نشأ سامح وتربى بطريقة اسلامية تقليدية ، فقد تعلم الدين والثقافة الاسلاميين في كل من البيت والمدرسة الحكومية التي التحق بها . وبعد مرور عشر سنوات ـ واذ كانت العائلة ما تزال تبحث عن ظروف اقتصادية أفضل ـ عبرت عائلة كنعان نهر الاردن مرة ثانية ، وعادت الى نابلس . ثم اندلعت حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ واشترك الاردن للمرة الثانية في الحرب ، غير ان اسرائيل تمكنت هذه المرة من الاستيلاء على الضفة الغربية ، وسيطرت على القدس كلها .

فجأة ، وللمرة الاولى بعد مرور عقدين من الزمن ، التقت مزال ثانية مع اسرتها . وسالت الدموع في ذلك اليوم الذي رحبت فيه اسرة كنعان بشقيق مزال وبزوج اختها في منزلهم في نابلس . وما يزال سامح ـ الذي كان يبلغ الثالثة عشرة من عمره آنذاك ـ يذكر الانفعالات التي سادت لقاء أخواله اليهود للمرة الاولى . اما جدة سامح لامه ـ التي كانت آنذاك قد أصبحت أرملة ـ فلم تذهب الى نابلس من أجل لقاء ابنتها ، اذ ان عشرين سنة من الفراق لم تجعلها مستعدة لاجراء عملية مصالحة مفاجئة . واستمرت السيدة ميمن تبارك ذلك اللقاء ، حتى تصالحت الوالدة وابنتها سرا في القدس ، اذ يقول اصغر ابناء مزال : «لا شيء يمكن ان يمنع الام من البحث عن قلب ابنها» .

لكن الى جانب صورة المتعة تلك تأتي صور أخرى ايضا : فالتوحيد العسكري للضفة الغربية مع اسرائيل ادخل الجنود اليهود الى نابلس . وحينما وقعت عيون سامح للمرة الاولى على الاسرائيليين ، كانت نظرته اليهم نظرة عدو لا نظرة عائلية. يقول مستذكرا المواجهة مع الجنود الاسرائيليين عام ١٩٦٧ : «كانت أعلام الدول العربية مرفوعة فوق تلك الدبابات ... كانت تلك الخدعة التي استخدمها الاسرائيليون لإيهام الناس انها دبابات عربية» . ويعتقد سامح ان الخدعة كان

يقصد بها اخراج سكان نابلس من منازلهم وإخماد المقاومة ضد القوات العسكرية الجديدة . وانطلت الحيلة على الرغم من قعقعة الرصاص وهدير الطائرات المقاتلة فوق الرؤوس . وحدث سامحا أصدقاؤه عن ان هناك آخرين ركضوا نحو الدبابات ، وحيّوهم مرحبين بهم . وقال الاصدقاء ان بعض الذين اقتربوا من الدبابات صودرت اسلحتهم ، وشُجعوا على مغادرة البلدة . وبعد مرور أربع سنوات ، أصبحت لدى سامح ، البالغ سبعة عشر عاما آنذاك ، وجهة نظر شخصية أوسع عن الجنود الاسرائيليين : لقد كانوا هم الذين احتجزوه عند جسر داميا .

مترعرعا في نابلس ، كان سامح يقضي الكثير من اوقات فراغه يلعب كرة القدم ، وكشاب يافع اطلق عليه وصف (افضل حارس مرمى في الضفة الغربية لسن ستة عشر عاما فما دون) . لكن الوجود المستمر للجنود الاسرائيليين ، وضغوطات الاحتلال سرعان ما حلت مكان متعة لعب الكرة . فكيافع ، شعر سامح ان السيطرة الاسرائيلية على بلدته امر غير مشروع ، فقرر الخروج الى الشوارع للاحتجاج .

وعلى الرغم من ان سامحا يقول انه أيد عددا من المجموعات المختلفة ، الا ان منظمة فتح ـ الجناح الاكثر شعبية في م. ت. ف. والذي يقوده ياسر عرفات ـ قد طالبت به : «بالنسبة اليّ في ذلك الوقت ، فان الشيء الاكثر أهمية كان النضال ضد الاحتلال . لم تكن المظلة مهمة . لذلك أعتقد انه في ذلك الوقت وبشكل عرضي جُندت في فتح ... الشيء الهام كان الكفاح ضد الاحتلال ، وكان لدى فتح مبدأ الكفاح فوافقت على الفور على أن أُجند فيها ... لقد جذبني صديقي الى المجموعة أعتقد ان فتحا كانت اسما هاما جدا في ذلك الوقت ، وقد جذبني اسمها ولذلك حينما قال لي (فتح) أصبحت مهتما بالانخراط فيها» . ورغم انه لم يخفِ ايمانه بالكفاح المسلح ضد الاسرائيليين ، ويعترف بانه «جُنِّد في منظمة فتح من أجل الكفاح بالوسائل العسكرية» الا انه يؤكد : «لم أشترك في أي شيء باستثناء بعض المظاهرات ضد الاحتلال ... لكن أصدقائي شاركوا في بعض النشاطات العسكرية» .

في عام ١٩٧٢ كان سامح عائدا الى الضفة الغربية بعد زيارة قام بها الى الاردن

وبعد ان عبر جسر داميا فوق نهر الاردن ، وعاود الدخول الى المناطق الخاضعة للسيطرة الاسرائيلية ، القي القبض عليه وعلى ثلاثة آخرين من زملائه في السلاح ، ووجهت اليهم تهمة العضوية في منظمة غير مشروعة : فتح . لقد قام شخص ما ـ وربما كان مخبرا ـ باعلام السلطات الاسرائيلية عن نشاطات الخلية . ويعترف سامح بقيامه بتدريب زملاء فلسطينيين على استخدام المتفجرات ، ولكنه ـ حتى هذا اليوم ـ ينكر تورطه في أي عمل ارهابي . ويؤكد مسؤولون اسرائيليون على مستوى رفيع روايته ، لكنهم واثقون ايضا من انه لم يكن مجرد مسافر بريء يمر عبر نهر الاردن «كان متورطا في عمليات نقل أسلحة : رشاشات اوتوماتيكية، ومتفجرات لصالح خلية حاولت القيام بهجمات ارهابية ضد اليهود . وفي النهاية لم يفلحوا . كانت هناك النوايا ، وكانت هناك الاسلحة ، ولكنه محق ، اذ انه شخصيا لم يقتل أي شخص بيديه» .

بعد القاء القبض عليه ، نُقل سامي مباشرة الى سجن نابلس ووضع في زنزانة عرضها قدمان وطولها سبعة أقدام . يقول هذا السجين : «كانت زنزانة وسخة جدا وبها أصوات الكثير من الفئران ... فئران حقيقية وبطانيات وسخة» . ولمدة واحد وعشرين يوما بقي في زنزانة سجن نابلس ، وتم استجوابه من قبل ضباط الاستخبارات الاسرائيلية . وبين الفينة والأخرى ، كان يتعرض للضرب وللطم في مختلف انحاء جسده ، ويذكر ايضا ازعاجات الحمامات الباردة . وتم استجوابه على نحو متكرر ، وقال الاسرائيليون له : «نحن نعلم انك كذا ، وانك فعلت كذا . فاعترف !» . وأجابهم : «لا أدري من الذي أخبركم عني . وفي النهاية ، اعترفت انني كنت عضوا في احدى التنظيمات الفلسطينية» المحظورة بموجب القانون الإسرائيلي . ويقول ان ذلك التنظيم كان منظمة فتح .

وقضى سامح السنة الثانية في زنزانة اكبر مع عدة سجناء آخرين قبل ان يمثل امام المحكمة العسكرية ، والتي أصدر عليه قضاتها العسكريون الثلاثة حكما بالسجن لمدة واحد وعشرين سنة ، وبغرامة مقدارها (٥٠٠٠) ليرة اسرائيلية . ونقل الى السجن بالقرب من بلدة بئر السبع الواقعة في جنوب اسرائيل حيث قضى هناك سنوات سجنه الثلاث عشرة . وفي عام ١٩٨٥ ـ وخلال عملية تبادل الاسرى الكبيرة ، والتي تم خلالها اطلاق سراح ١١٥٠ سجينا فلسطينيا مقابل ثلاثة جنود

اسرائيليين ـ تم تحرير سامح قبل ثماني سنوات من موعد انتهاء مدة الحكم الصادر بحقه .

وما تزال ذاكرته تمتلىء بصور بئر السبع ، اذ يقول : «انه سجن سيء جدا جدا... وضعني السجانون الاسرائيليون في قسم يدعى القسم ٧ والذي يتألف من خمسة واربعين زنزانة» كل زنزانة بطول سبعة أقدام وعرض خمسة أقدام ، وبداخلها سجينان . ولمدة سبع سنوات ، أزعجت ظروف الحياة هذه سامحا ورفاقه السجناء : «حينما كنا في السجن أحضروا لنا فراشا : تخت ذو طابقين ، وكانت الأسرّة في كل غرفة : أسرّة ، أسرّة ، أسرّة . لا تستطيع الدخول الى الغرفة . تأكل وتجلس في سريرك . لم يكن لدينا أي متسع من المكان . وحينما يأتي الضابط ليحصي العدد ، عليك النزول من السرير والوقوف أمامه» . ويتناول مجموعة الذكريات ليرسم صورة تفصيلية لحياة السجن التي تبعث على الملل : خمسمائة سجين ، وكان رقمه سبعة وأربعين ؛ وزوج من البنطالات للصيف وزوج آخر للشتاء . عند الساعة السادسة صباحات هناك تفقد ، وكذلك عند الظهر وعند المساء ، وتفقد في حالات الطوارىء . لكن «لنا كرامتنا . وكان بعضنا أشخاصا عقلانيين» فاتفقوا على اتخاذ موقف «ولذلك تحدثنا مع مدير السجن بشأن الازدحام» .

لقد وجد سامح ان مناخ بئر السبع الجنوبية صعب في أحسن الاحوال : الحرارة الشديدة ، البرد غير المتوقع ، ورياح صحراوية لا يمكن التنبؤ بها ، وهي امور كانت تبعث على الغضب . ويتذكر انه في بعض الاوقات ، كان يقف نحو مائة سجين في صف طويل من أجل الاستحمام بعد ان يقضوا ساعات تحت شمس الصيف . وخلال أيامه التي قضاها في بئر السبع ، اكتشف سامح ان حراسه اليهود كانوا انسانيين ايضا . ويشير الى سَجّانين مهاجرين من الاتحاد السوفييتي سابقا واللذين أقاما معهما صداقات محدودة . يستذكر سامي ان أحدهما كان يشجع السجناء خلال قيامهم بلعب كرة السلة والكرة الطائرة ، في حين ان الآخر أفضى الى سامح بعدم سعادته بواجباته الملقاة عليه وقال انه «لم يحب هذه الحياة» ويقول سامح : «قال لي : [هل تعرف معنى كلمة الحارس ؟] فقلت له : [نعم ، ان يحرس شخصا ما] فقال : [لا ، انني أشبه الكلب ... كلب الحراسة]» .

من أجل التخلص من السأم ، تابع سامح اهتماماته الفكرية ، وأصبح السجن «جامعته» . فقد شارك في الاجتماعات السياسية للنشطاء الفلسطينيين ، وقرأ الصحف والروايات ، وتعلم العبرية «أريد ان أفهم عدوي لان النبي محمد يقول [اذا كنت تريد أن تأمن عدوك فعليك ان تتعلم لغته]» . وبدأ سامح دراسة اللغة في بئر السبع . وقد جعل السجناء من انفسهم سلسلة لغوية ، اذ قام العرب الاسرائيليون بتدريس اللغة العبرية لاخوانهم الفلسطينيين ، فكان الواحد يعلّم الآخر ، الذي يقوم بدوره بتدريسها لشخص ثان ... وهكذا . وكان الذي درّس سامحا اللغة العبرية في بئر السبع هو محمد أزهر ، الذي درّس صفا به عشرون طالبا . ان برنامج تدريس اللغة العبرية كان محظورا من قبل سلطات السجن الاسرائيلية ، شأنه في ذلك شأن الاجتماعات السياسية .

والتهم سامح كل صغيرة وكبيرة عبرية كان يعثر عليها ، اذ قرأ كتبا ومجلات أعطاها له حراسه ، واستمع الى محطات الاذاعة الاسرائيلية التي تبث باللغة العبرية ، بالاضافة الى تلك العربية . وخلال فترة ما ، اشترك في صحيفة يديعوت احرونوت الاسرائيلية اليومية التي توزع على نطاق واسع . ويقول انه غير متأكد فيما اذا كان هو السجين الفلسطيني الوحيد في تاريخ اسرائيل الذي اشترك في صحيفة عبرية . وفي المقام الاول ، كرس نفسه للغة العبرية بسبب رغبة في اختراق النفس اليهودية ، وللامساك بالميكانيكيات التي تساعد المجتمع الاسرائيلي على السير . صحيح ان والدته تستطيع تكلم اللغة العبرية بطلاقة ، لكنها بعد زواجها لم تتكلمها في البيت اطلاقا . ولم تكن لسامح أي أفضلية على السجناء الآخرين ، على الرغم من ان من المحتمل ان لديه اهتماما اكثر بالتنقيب في جذوره . (حتى اليوم ، في كل ليلة يكون فيها بالبيت ، يعمل سامح على ان يكون أمام التلفزيون لمشاهدة نشرة أخبار التلفزيون الاسرائيلي التي تبث الساعة التاسعة . وبتلك الطريقة ، فانه يقلد عادات غالبية الاسرائيليين في بيوتهم في تلك الساعة) . وقد أدرك ان التمكّن من اللغة العبرية يمكن ان يساعده على ارضاء فضوله المشتعل عن الجانب الآخر : الجانب الذي شن ضده حملة عسكرية وهو في منظمة فتح ، الجانب الذي مثّله حراس سجنه ، الجانب الذي له لافتات شوارع واعلان استقلال وعملة خاصة به ، و ـ على الرغم من انه لا يقولها ـ الجانب الذي أبعد أمه عن أناسها وأهلها .

لكن ســامحا يصر على ان دراسته المكثفة للغة العبرية تعكس فقط محبته العامة للبـحث والتنقـيب في الثـقـافـة اليـهودية . فهو يقرأ عن آخر الاتجاهات في الحياة الاسرائيليـة ، ويقتبس من فيلسوف العصور الوسطى اليهودي الكبير ابن ميمون . سَلْـه لماذا يكرس نفـســه للقـضية الفلسطينية ، وسيجيب باللغة العبرية بالاعلان الشــهير عن المسؤولية الشخصية التي قالها هيلل الباحث اليهودي في حقبة الهيكل الثـاني : «إنْ لم اكن لنفسي فـمن يكون لي؟» . وإذا سئل عن شــهـر رمضان لدى المسلمين ، فـانه سـيتحدث عن قصة (البوريم) وهو عيد يهودي يصادف في شهر آذار ، أو عن قـصــة (شــافوت) وهو عيد الربيع عند اليهود ، او عن كيفية تناوله خـبز الفطير اليهودي في عيد الفصح وهو في السجن واستمتاعه بذلك . يقول : «ان الاعـيـاد مهمة بالنسبة إلـيّ لانها تبين كيف يفكر الاسرائيليون ... انها تظهر كيف يحفظ اليهود تقاليدهم» .

لكن سر ثقـافـة الغرباء يخدم ايضا في مجال تأكيد الهوة التي يراها تفصل بين عـالمي الشـعـبين ، بين عـالمي أجـداده : «إنني مندهش من كـيفية ممارسة دينهم ومنعهم الآخرين من ممارسة دينهم ... سأعطيك مثالا : في كتسيوت [سجن النقب حـيث قـضى ستة شهور قيد الاعتقال الاداري] كنا ممنوعين من ممارسة الصلاة خـارج خـيـامنا» . من المحـتمل ان لا يكون السبب بالنسبة الى الاسرائيليين فرض قيود على ممارسة الشعائر الدينية بحد ذاتها ، ولكن قد يكون السبب الحقيقي هو ان كل انواع التـجـمـعات لاكثر من مجموعة صغيرة من الفلسطينيين ممنوعة لان الاسرائيليين كـانوا يتخوفون من ان تتحول تلك التجمعات الى تمرد منظم . ويتذكر ســامح ايضــا انه صُدم ذات مـرة بسـبب تقرير اخباري يتحدث عن حركة السير الاسرائيليـة المتـدفـقـة نحـو الشمال من أجل الاحـتفال بعيد الفصح . وقد تسبب الـتـقـريـر لـه بالمرارة لانه جـعله يفكر في «ان الاسرائيليين يذهبـون في رحـلات ، يذهبون الى كل مكان ونحن خاضعون لحظر التجول» .

ولمـدة تسع عشرة سنة تحت الادارة الاردنيـة ، لم يعـرف فلسطينيـو الضـفـة الغربية ، أمثال سامح ، أي شيء عن الحياة الاسرائيلية ، اذ لم تكن هناك نوافذ بين الشـعـبين . لم تكن هناك العـدواة اليـومـية المباشرة الفلسطينية ـ الاسرائيلية التي تشـخص العـلاقـة في نهاية المطاف . ولقد كان غياب الاتصال بمثابة جدار سميك

مصمت . وبعد حرب ١٩٦٧ سقط ذلك الحاجز غير المرئي ، ورأى كل جانب الآخر للمرة الاولى .

لكن الاحتلال الاسرائيلي ولّد الغضب ، ومع الغضب حلّ العنف والخوف . ويعترف سامح ان خوفه الاكبر ان يقع ضحية للعشوائية ، وفي بعض الاحيان ليس العشوائية ، وانما العنف الناجم عن المواجهة الساخنة دائما بين الجانبين : «أعرف عن رجل ، سائق باص على الباصات العربية في الضفة الغربية . توجه بالباص الذي يقوده الى إحدى محطات الباص في الضفة الغربية ، وتوقف في مكان منعزل ، وتوجه الى الداخل واستقل المصعد . وبينما كان داخل المحطة ، توجه أحد حراس المحطة [وهو عربي] الى الباص ، وجلس على مقعد السائق . لم يكن هناك أي راكب على متن الباص في تلك الآونة ، اذ كان الباص فارغا ، وقد جلس الحارس على مقعد الباص ربما ليستريح . وأطلقت النار عليه ومات . كانت هناك أصوات بسبب اطلاق النار ، وعاد السائق أدراجه ، وأدرك ان من المحتمل انه كان سيكون هو الضحية» . وفي حين يوافق سامح على ان الحادثة يمكن ان تكون عمل عنف عشوائيا لا دوافع سياسية له ، الا انها تؤكد له هشاشة حياة الضفة الغربية وعدم امكانية التنبؤ بها . وتذكره ايضا بانفجارات العنف الغاضبة المرتبطة مباشرة بالنزاع الفلسطيني ـ الاسرائيلي .

يقول سامح : في الاسلام التقليدي ، يجب ان تكون مستعدا للقاء خالقك ، ولكن خلال السنوات الخمس الأخيرة من الانتفاضة ـ حيث لا شيء يمكنك ان ترجئه للغد ـ فان عليك ان تكون نظيفا جسديا قبل ان تقوم بمغامرة في أي مكان : «ان أي شخص في الضفة الغربية يغسل نفسه قبل الخروج الى الشارع . لماذا ؟ لانه في حال انه قتل ومات ، ولانه سيصبح شهيدا ، فانه يجب ان يكون طاهرا» . ويتوقف سامح عن الكلام ليضيف قائلا : «أجل ، حينما أخرج من بيتي أشعر بعدم الأمان لأن انطلاق الرصاص أمر طبيعي ، ولذلك فاني أغتسل أيضا» . ويقول ان ذلك جزء من صوفية الانتفاضة ، جزء من قوة تملي احتمالية ان يذهب فرد ما ليموت حيث تكون هناك مظاهرة .

واليوم تطارد سامحا أحلام محورها الجنود الاسرائيليون وآثار الاحتلال الاسرائيلي في روتين الحياة اليومية . فهو يشير اولا الى البيروقراطية المضطهدة

المزعجة ، ويذكر الضرائب المرتفعة ، ويشير الى الزام الفلسطينيين بحمل بطاقات الهوية التي يجب ابرازها حين الطلب . ومع انه يعلم ان هناك عربا واسرائيليين في اسرائيل يدفعون ايضا ضرائب مرتفعة ، وان على الاسرائيليين ان يحملوا بطاقات الهوية ، فان الامرين كليهما اشارات مزعجة الى النية الاسرائيلية المستمرة لتدمير الارادة الفلسطينية . انهما عاملا تذكرة يوميان بحقيقة ان الفلسطينيين لم يقيموا بعد دولتهم بنظامها الضريبي الذي يدعمها وبجوازات سفرهم . ان الذي يضايقه هو ذلك الانكار لهويتهم كشعب .

ثم هناك غضبه على ما يعتبره انه الالتزام الاسرائيلي بالعقاب الجماعي للشعب الفلسطيني في وسطهم : «سواء اكنتُ شابا ام صغيرا ام مسنًا ، فليس هناك فرق في ذلك لدى الاسرائيليين ... هناك عقاب جماعي ضد الفلسطينيين كلهم» . ان عقوبات مثل حظر التجول تعمم على الجميع «فالفلسطينيون كلهم سواء» .

مع هذا ، فان العشوائية ، والشعور بانهم لا يستطيعون على الاطلاق التخطيط لأي شيء ، وانهم لا يعرفون على الاطلاق ما الذي سيحدث لهم ، ان هذه الاشياء تساعد على تفسير رد الفعل الفلسطيني المرتجل حينما سقطت صواريخ سكود العراقية على اسرائيل . فبالنسبة الى العديد من الفلسطينيين ، فان ذلك كان بمثابة الاحساس بالرضى الذي أحسوا به لأن الاسرائيليين جربوا في النهاية النوع نفسه من الهجمات العشوائية ، وليست حقيقة ان الاسرائيليين كانوا يموتون هي التي سببت الابتهاج لدى الفلسطينيين . ان صاروخ سكود يمكن ان يسقط في أي وقت وفي أي مكان ، وحظر التجول يمكن ان يفرض دونما سابق إنذار ، ومثل الفلسطينيين ، كان على الاسرائيليين ان يُحتَجَزوا في منازلهم . انه هذا الشعور بان هناك قوة خارجية لا تستطيع التحكم بها يمكنها ان تغير حياتك في أي لحظة : الخوف من ان باستطاعة الجنود الاسرائيليين ان يقرعوا باب بيتك في منتصف الليل وان يقوموا بتفتيش المنزل ، هو سبب واحد ـ كما يقول سامح ـ يجعل الفلسطينيين يشعرون انهم يُعاقَبون كشعب «والفلسطينيون كلهم ضد هذه المعاملة، وليس [فقط] ارهابيو الفلسطينيين . انهم [الاسرائيليون] ضد الفلسطينيين كشعب لانهم لا يميزون بين الفلسطينيين» على حد قول سامح .

ولكنه يميز بين المعاملة الاسرائيلية لفلسطينيي نابلس ، واولئك الذين في القدس.

ففي نابلس ، كما يقول سامح «ليست هناك اتصالات ايجابية ، فكل الاتصالات مع الاسرائيليين هنا سلبية ، على النقيض من القدس على سبيل المثال . ففي القدس ـ اعتقد ـ عاملوا الناس على العكس تماما مما عاملوهم به هنا في نابلس . لماذا ؟ لأن [القدس] مكان مقدس ، ولذلك فان من المهم جدا جعل الناس يشعرون بالارتياح».

وحتى اليوم ، فان سامحا ما يزال يعيش في نابلس مع زوجته رويدة ، وبناته الثلاث : سماح (أربع سنوات) وهند (ثلاث سنوات) وزين (ولدت تقريبا ايام مؤتمر مدريد للسلام) وامه مزال ، البالغة من العمر ثلاثة وستين عاما ، والتي تفرق أبناؤها الاخرون في أنحاء العالم . فبناتها يعشن في القدس ، وولداها يعيشان في السويد ، وولد آخر في فرنسا ، وهناك آخر ايضا في نابلس . يقول سامح الذي يعمل مترجما للغة الانكليزية ـ العبرية في غرفة الصناعة والتجارة : «في نابلس نحن مثل الشعب الفلسطيني ... كل شخص في مكان» . وبالقرب من منزله تقع إحدى ملكيات عائلة كنعان القديمة ، والتي ينوي إحياءها قريبا . ويشير الى المبنى المهجور منذ مدة طويلة على انه «البيت القديم» ويقول : ذات يوم سيستخدم كمضافة (ديوان) .

بالطبع ، فان ما سيحدث يعتمد على الرياح السياسية . قبل بدء الانتفاضة الفلسطينية في شهر كانون الأول ١٩٨٧ بدأ سامح يلتقي ثانية مع اعضاء الاسرة اليهودية الذين لم يعرفهم حقا ، ومعظمهم ما يزالون يعيشون في القدس . وحتى الوقت الذي بدأت فيه الانتفاضة بقطع الخيوط الهشة التي تحقق التعايش بين الشعبين ، كانت علاقات عائلتي كنعان ـ ميمن حارة . «والان» كما يقول سامح هازا برأسه «لا شيء سوى المكالمات الهاتفية» . ان العائلة تسير على الخط الدقيق ، معترفة بعدم احتمال الحفاظ على عائلة موحدة ، والنظر فيما وراء السياسة ، والوصول الى نهايات لمصائرهم المختلفة . ورغم الصعوبات ، يقول سامح : «انني فخور ان امي كانت يهودية ، وقد كانت دائما تقول [السلام]» .

ويقول الرجل الذي قضى ثلاث عشرة سنة في السجن بسبب نشاطاته مع منظمة فتح انه ما يزال يرى م. ت. ف. على انها الامل المشرق لشعبه من اجل التقدم على جبهة السلام . وهو لا يبالي بمخاوف اسرائيل من هوية فلسطينية تسيطر عليها م. ت. ف. في الضفة الغربية . وفي حين يعترف ان م. ت. ف. تواصل

تنفـيـذ برنامجها عبر الهجمات الدامية واعمال العنف ضد الاسرائيليين ، فانه يؤكد ان المنظمـة قـد غيرت مـا هو اكـثـر من خطهـا . فـمن وجـهـة نظر سامح ، فان الفلسطينيين «ليـسوا على النقيض من الحركات الوطنية الأخرى لان المنظمة ليست مجمـوعـة ارهابيـة ولكنها حركة وطنية ، مثل حركات : المؤتمر الوطني الافريقي، والفـيـتنامـيين . انها ليست موجودة من أجل قتل الاسرائيليين فقط . لقد تغيرت . وهي ليست م. ت. ف. السـابقـة نفسها . انها حكومة . والآن سنترك م. ت. ف. جانبا ، وندع الاسرائيليين يصنعون السلام معنا» .

ان سامح كنعان يتحدث بشيء من المسؤولية ، فقد اختير كواحد من بين الاربعة عشر شـخصا في الوفد الفلسطيني المفاوض لاسرائيل في محادثات السلام الخاصة بالشرق الاوسط . وهو يعتقد ان سمعته كرجل جدير بالاحترام سبقته من السجن وانها مـسـؤولة عن المحـادثة الهاتفـيـة التي تلقـاها في السنة الماضية من الزعيم الفلسطيني سري نسيبة ، ويطلب منه فيها الانضمام الى الوفد الفلسطيني للتباحث مع اسرائيل . وبالعـودة الى ايامـه النشـيطة ، يدعـو سـامح نفسه «حارس مرمى وفدنا» الذي لن «يسمح للاسرائيليين بتسجيل أهداف» .

ويعـتقد ان الطريق الى السلام تتطلب مجموعات بناء رئيسة . وكمبتدئين ، فانه يـتطلع الى الاسرائيليين لمواصلة طرح مـقـاييس بناء الثـقـة . ويقـول ان مـثل تلك المسـاعي تسـاعد على «اقناع شعبنا اننا في طريقنا نحو السلام» ويجب ان تتخطى تجـمـيـد النشاط الاستيطاني الجديد ، واطلاق سراح السجناء السياسيين ، واعادة فـتح المدارس والجـامـعـات الفلسطينية ، والتوقف عن فرض حظر التجول ، وهي قـضايا أقرت بها الحكومة الجديدة التي يقودها رابين . وحينما يُسأل عن مقاييس بناء الثقة من قبل الفلسطينيين ، فانه يبدو أقل استعدادا لتقديم معلومات ، ويقول: «نعترف ان اسرائيل بحـاجة الى الأمن ، لكننا الطرف الأضعف وهم الطرف الأقوى. ليـست لدينا دبابات . نحن بحاجة الى الأمن اكثر من الاسرائيليين . صدقني ان هذا هو شـعـور الفلسطينيين كلهم في الضـفـة الغـربية» . ورغم كل شيء ـ كما يقول سـامح ـ فـحـالما تثـبت اسرائيل نواياها الحـسنة وتوقف بناء المستوطنات كلها ، يمكن للفلسطينيين ان يفكروا مليـا في مقاييس متبادلة مثل تعليق الانتفاضة بشكل مؤقت .

ويتنهد بعمق ، ويمسح عينه اليمنى براحة يده وكأنه يزيح رؤيا بشعة ، ويتابع القول باللغة الانكليزية : «اسمع ... نحن مدركون ان اسرائيل تخشى من وقوع مسادا وكارثة ، وندرك ان كل شخص بحاجة الى الأمن . ولذلك فاننا على استعداد للجلوس مع الاسرائيليين لمدة خمس سنوات ضمن ترتيبات حكم ذاتي مؤقت ، من أجل منح الاسرائيليين [فرصة] لاكتشاف اننا لسنا ارهابيين ، واننا سنوافق على السلام» .

ان المقترح الفلسطيني المسمى (نموذج ترتيبات الحكم الذاتي الفلسطيني المؤقت) يطرح اجراء انتخابات لانتخاب مجلس تشريعي يتكون من مائة وثمانين عضوا ، وبدوره ، سيقوم هذا المجلس المنتخب بانتخاب لجنة مؤلفة من عشرين شخصا تتولى ادارة الوزارات الفلسطينية يوما بيوم . وبعد سنتين من الحكم الذاتي الفلسطيني ، تتباحث القيادتان : الفلسطينية والاسرائيلية ـ حسب الخطة ـ خلال السنوات الثلاث القادمة على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة . وقد قدمت الوثيقة هذه من الوفد الفلسطيني الى الاسرائيليين في شهر كانون الثاني ١٩٩٢ ، غير انها رفضت من قبل اسرائيل التي اعتبرت هذا المقترح نسخة طبق الأصل عن دولة فلسطينية . وعوضا عن ذلك ، اقترحت حكومة رابين الجديدة اجراء انتخابات في شهر نيسان ١٩٩٣ من أجل انتخاب مجلس اداري محدود يتألف من ثمانية عشر عضوا .

ويرى سامح ان الوقت يمر بسرعة ، ويدرك ان الافتقار الى التقدم يقوي أيدي الفلسطينيين المتشددين ، فتأتي كلماته بمثابة تحذير ودي للاسرائيليين : «اذا كانوا يريدون سلاحا حقيقيا [فيجب] عليهم تشجيع المعتدلين من أمثالنا ، من أجل إعطائنا الجرأة لنذهب الى شعبنا ونقول : [انظروا ، لدى الاسرائيليين فعلا نوايا حسنة لصنع السلام مع الفلسطينيين]» .

ويشعر سامح بالقلق ايضا من الرؤوس سريعة الاهتياج في كلا الجانبين ، الساعية الى نسف عملية السلام . وكمثال على ذلك ، يستشهد بانتخابات غرفة التجارة والصناعة في نابلس التي كانت ستجرى آنذاك . فكما هو الأمر عليه في مدن الضفة الغربية الاخرى حين تجرى انتخابات ، طرحت في نابلس قائمتان : قائمة الاصوليين الاسلاميين (حماس) وقائمة القيادة الوطنية التي تدعمها م. ت.

ف. ويقول سامح «أعتقد انهم يصبحون أقوياء بسبب الاحباط الذي يعانيه الشعب من الوضع السائد ... اننا نعيش حالة من الرعب والاحباط و[يتجه الناس] نحو الله ... ان هذا احساس نفسي . ولذلك فانهم يتجهون نحو حماس ، لتصبح اقوى . ايضا ، فانهم يستغلون الاحساس بانهم يجب ان يكونوا مسلمين ، فيستخدمون المساجد من أجل نشاطاتهم ... ولأن م. ت. ف. أيدت العراق ، أعتقد ان (حماس) بعد حرب الخليج حصلت على الكثير من المال من الدول الخليجية . وقد سمعت من الخارج أنهم حصلوا على المال قبل وقوع حرب الخليج من أجل منافسة م. ت. ف. ان المال مهم جدا ، وهم (حماس) الآن يدفعون الى الكثير من الناس للدخول في غرفة التجارة ، ويقولون على سبيل المثال : [بعد أن ندخل غرفة التجارة سنبني مؤسسات اسلامية]» .

ان مخاوف سامح من قوة حماس الناشئة حديثا أثبتت صحتها في مدينة رام الله وليس في نابلس . فمدينة رام الله ـ الواقعة على بعد عشرة اميال الى الشمال من مدينة القدس ، والمعقل التقليدي للوطنيين ـ شهدت الزحف المدهش لحماس نحو الانتصار في شهر آذار ١٩٩٢ مع حصول المجموعة الاصولية على عشرة مقاعد من أصل أحد عشر مقعدا . وأعادت م. ت. ف. تنظيم صفوفها من أجل انتخابات نابلس التي أجريت يوم ٢١/ ٥/ ١٩٩٢ فحصلت على تسعة مقاعد من أصل اثني عشر مقعدا . وقد انطلقت نحو الهجوم برد فعل احترافي وتكتيكي ، وخاضت الانتخابات تحت اسم الائتلاف الوطني الاسلامي . وقال مرشح حماس عماد كنعان لصحيفة ميدايست ميرور يوم ٢١/ ٥/ ١٩٩٢ ان المعارضين الوطنيين قد نجحوا من خلال زرع الارتباك والفوضى عبر التساؤل : «أيهما المجموعة الاسلامية الحقيقية» . وحينما أجابت حماس بلجوئها الى القيم الدينية ، كان سامح كنعان يقول : «ربما يكون الاسلام هو الحل ، لكن حماس ليست كذلك بالتأكيد» .

ان تسلل حماس الى الضفة الغربية ، بالاضافة الى نجاحها التالي في الانتخابات ، يبدو بالنسبة الى سامح اكثر من مجرد كونه تقدما جغرافيا من الاقطار العربية غير الديمقراطية المجاورة . ويتهم اسرائيل انها تحث حماس سرا وبخبث من أجل محاصرة الطريق نحو السلام ، لان بعض الفلسطينيين «يعتقدون ان حماس على صواب حين تقول [اننا ضد عملية السلام] . وهذا هو دور اسرائيل : جعل الامر

وهكذا ، يمكن للاسرائيليين ان يقولوا : [أجل ، نحن ذاهبون الى السلام ، ولكن الفلسطينيين ليسوا كذلك] . هذه هي اللعبة . ان الادارة المدنية الاسرائيلية تشجع حماس على ان تكون في غرفة تجارة نابلس ، ويشجعونها على الرغم من أنها [حماس] تريد فلسطين من النهر الى البحر . هذا هو التناقض بعينه» .

ويقول سامح ان المعتدلين الفلسطينيين الذين ظهروا مؤخرا عرضوا على اسرائيل أفضل الامكانيات لصنع السلام مع سكان المناطق : «ان لم يستغل [الاسرائيليون] هذه الفرصة ، فانهم سيخسرونها» وإلا ـ كما يقول سامح ـ فان المعتدلين لن يكونوا قادرين على صد الأصوليين والمتشددين في المخيمات الفلسطينية . ولكن في حين يحذر من هذه المخاطر من ناحية ، فانه من ناحية اخرى يناقش في انهم جزء طبيعي من العملية السياسية المتنامية : «لدينا معارضة وليست المعارضة كلها تتم بطريقة ديمقراطية . نحن مثل أي شعب آخر ولسنا شعبا بدائيا . نحن شعب مثقف وهذا سيساعدنا على ان تكون لنا ديمقراطيتنا» .

كان الوقت متأخرا بعد ظهر احد ايام شهر آذار الاولى عام ١٩٩٢ ، آخر الايام الثمانية المرهقة على طاولة المساومات الشرق اوسطية ، وكانت الجلسة النهائية قد اختتمت قبل نصف ساعة في وزارة الخارجية الامريكية ، وكان الدبلوماسيون الفلسطينيون في طريق عودتهم الى فندق غراند ، الفندق المترف في واشنطن الذي يسمونه بيتهم خلال لقاءاتهم المشهورة مع المندوبين الاسرائيليين . وفي حين كان زملاؤه يستمتعون بقيلولة في الطوابق العليا ، أو يدخنون السجائر في بهو الفندق ، جلس سامح كنعان ـ البالغ سبعا وثلاثين سنة من العمر ، وقد كان يرتدي بذلة مقلمة داكنة زرقاء اللون ، انيقة ، وربطة عنق حمراء معرقة ـ مسترخيا في مطعم الفندق المعتم ، يرشف كأس ماء . ان اسبوعين تقريبا من المحادثات المكثفة مع الاسرائيليين ، والاجتماعات المفعمة بعدم الاتفاق ، والاحباط بالنسبة الى الطرفين ، لم تستنزف اللون من وجهه المدور ، أو تزيل الابتسامة العريضة الموجودة دائما على شفتيه . قسمات وجهه حادة ، وعباراته القصيرة تذكر بالكوميدي الامريكي جاي لينو . وكواحد من بين الفلسطينيين الاربعة عشر المفاوضين ، يفكر مليا في نتائج الجولة الثالثة من محادثات السلام التي اختتمت لتوها ، وفي التقدم الذي حصل منذ عُقد مؤتمر مدريد في شهر تشرين الاول الماضي .

ان الحالة المزاجية تختلف كثيراً الآن عما كانت عليه خلال المساعي السابقة في مفاوضات السلام . ويقول سامح : «اعتقد ان كل شيء قد تغير ... والسياسة هي علم التغيير . في عام ١٩٧٠ أردت الكفاح ضد الاحتلال بوسائلي الخاصة ، ولكن الوضع الآن مختلف بالنسبة إليّ لانني الآن منهمك في السياسة ، ومنهمك في تحليل الوضع بعد حرب الخليج وبعد الانتفاضة . في ذلك الوقت ، كان نضالي من خلال الكفاح المسلح ، والآن أناضل من خلال الانهماك في عملية السلام . والانهماك في عملية السلام [اكثر] صعوبة من الكفاح المسلح لاننا نريد تبادل الكلمات لا الرصاص» .

من وجهة نظره فان ما توصلت اليه محادثات السلام الاسرائيلية ـ الفلسطينية في نهاية المطاف هو ان كائنات بشرية اخلاقية تجلس مع بعضها ، وتعرض خلافاتها مهما كانت كبيرة . وبالفعل ، فان معلّم المتفجرات السابق أتى الى طاولة المفاوضات وهو ما يزال يذكر تعاليم أمه : «لقد ربتني امي بطريقة صارمة جدا ... لقد تعلمت كيف أتصرف على نحو مناسب . أصبحت الشاويش في السجن كما تعلم . ان ذلك يعني انني كنت مسؤولا عن الآخرين في السجن» .

وحتى بعد فترة سجنه الطويلة ، وحتى بعد فترتي توقيف اداري ، وحتى بعد تفتيش منزله عام ١٩٩٠ وهو يشاهد لعبة كرة سلة اسرائيلية في التلفزيون ، فان هناك الكثير مما يعجب به هذا الدبلوماسي المبتدىء في اسرائيل . فهو يراها تقدم غذاء للمستقبل ، حكومة فلسطينية مستقلة : «انني مولع بالديمقراطية الاسرائيلية في مجتمعهم ، وأرغب في ان تكون لدينا [ديمقراطية مشابهة] . حينما شاهدت الكنيست ـ وانا أعرف العبرية ـ ومناقشاتها أدركت ما الذي يقولونه . لقد شتموا بعضهم البعض ، وهاجموا بعضهم البعض ، لكنهم في الوقت نفسه يجلسون بجانب بعضهم البعض . وفي وقت الخطر ، يتحد الجميع ، وكان ذلك يعني بالنسبة إليّ شيئا جيدا فيما يتعلق بالديمقراطية . كذلك فان الانتخابات [الاسرائيلية] تسير بشكل جيد ، دون أي هجمات : هجمات جسدية» .

ويبقى السؤال مطروحا امام العالم ، وأمام الشعب الاسرائيلي القلق ، وفي نهاية المطاف أمام الفلسطينيين انفسهم : هل الفلسطينيون المنقسمون على انفسهم بشكل صارم قادرون على اقامة ديمقراطية مماثلة ؟ يقول كنعان بوضوح : «نعم ، أقول

اننا قـادرون ، وسأعطي مـثـالاً على ذلك . في السجن كنا قادرين على ان تكون لنا ديمـقـراطيـة ، وعـلاقـات جيدة بيننا ، لانه كان لدينا شيء مشترك . واعتقد ان في فلسطين لدينا بشكل مـشترك الاهتمام العـام بالفلسطينيين كلهم . فـاذا نظرتَ الى هذا الامر بايجابية ، ستكون لنا ديمقراطيتنا» .

وفي حين كـان المفاوض الفلسطيني يتحدث ، كان يلعب بالثلج الموجود في كأسه ويتـغـضن وجــهـه ، وبدون تحذير ، ينشق فمه عن ابتسامة عريضة ، ليقول انه يرى في خلفيته الفريدة نواة أمل لتعاون فلسطيني ـ اسرائيلي مستقبلي : «برغم كل شيء ، هناك يهودي في الوفد الفلسطيني : إنه أنا !» .

عبد العزيز الرنتيسي



● عـبـدالعـزيز الرنـتـيسي (من مـؤسسي حماس) يلقي درسـاً على طالبات في الازهر : الجامعة الاسلامية في غزة .



● عبدالعزيز الرنتيسي يصافح عددا من طلبته المتدينين أمام لوحة للمسجد الاقصى في القدس ، ثالث الحرمين الشريفين في الاسلام .

عبد العزيز الرنتيسي

بينما كان وليد البالغ من العمر ستة عشر عاماً يجلس مع عائلته يشاهد توم وجيري وهما يطاردان بعضهما البعض على شاشة التلفزيون ، كان باستطاعته سماع صوت المؤذن وهو ينادي على صلاة الظهر . كان النداء الديني ذاك يكاد يتلاشى بفعل زعيق القطة والفأر في التلفزيون . وفي حين ان وليدا كان يستمتع بأفلام الكرتون ، الا انه ـ كواحد من الشباب في غزة ـ أدرك أنه يفترض فيه التوجه نحو المسجد . كان منزله الواقع في مخيم جباليا ـ أكبر مخيمات اللاجئين في قطاع غزة ـ يخضع لحظر التجول ، ومع ذلك أدرك وليد انه كان من المهم جداً حضور صلاة الظهر في المسجد وهو المكان الوحيد في المخيم المزدحم ـ حيث يعيش ستون ألف نسمة في حالة من الفقر والنتانة المروعة ـ الذي يحظر على القوات الاسرائيلية دخوله . ومن هنا فانه كان ملجأ للشباب من أجل التخطيط لنشاطاتهم المعادية لاسرائيل .

كان وليد طالبا في الصف العاشر في مدرسة خالد بن الوليد الثانوية التي ـ مثل بقية غزة ـ كانت تشبه كرة قدم تقاذفتها مصر واسرائيل . فالمناهج المدرسية ـ كالتي وضعت خلال فترة السيطرة المصرية على قطاع غزة بين عام ١٩٤٨/١٩٦٧ ـ اشتملت على مواد اللغة الانكليزية ، والرياضيات ، والكيمياء ، والتربية الدينية . ومع هذا ، فإنه لم تكن في هذه المناهج مواد عن فلسطين أو عن السياسة الفلسطينية ، إذ ان الاسرائيليين حظروا ذلك . ومنذ احتلال قطاع غزة ، خلال حرب الأيام الستة ، حاولت الدولة اليهودية أن تحول دون وجود هوية فلسطينية مستقلة ، بل انها شجعت الاصوليين الاسلاميين على بناء المساجد كوسيلة لاضعاف وتقويض م. ت. ف. غير ان لا شيء من ذلك مهم الآن . في هذا اليوم الرطب الدافىء في مطلع شهر كانون الأول ١٩٨٧ ، كانت مدرسة خالد بن الوليد مغلقة ، وكان وليد يريد الوصول الى أصدقائه في المسجد . وخلال ركضه في الزقاق القذر الضيق التقى وليد مع عدد من زملائه ، فركضوا جميعاً مع بعضهم باتجاه المسجد الذي يختبئون في ساحته للاستعداد من أجل التظاهر .

ابتدأت المعركة مبكرة في ذلك الأسبوع ، فعند ظهر يوم ٦/ ١٢/ ١٩٨٧ تم طعن شلومو ساكال ـ وهو بائع بلاستيك اسرائيلي ـ حتى الموت في الشارع الرئيسي في

غـزة ، بينما كـان يفـرغ بضـاعـة من سيارته ، وكان ذلك على يد عضو في منظمة الجـهـاد الاسـلامي ، وهي مجمـوعـة مـيليـشيات سرية اتخذت من ثورة آية الله الخميني في ايران نموذجاً لها . وبعد مرور يومين على ذلك ـ بعد ظهر يوم الثلاثاء الواقع في ٨/ ١٢ ـ اصطدمت شـاحنة اسرائيلية بسـيارة تقل مجموعة من العمال العـرب الذين يعـملون في اسرائيل وهم في طريق عودتهم الى بيوتهم في قطاع غزة . وقـد قـتل في هذا الحادث أربعة عرب من ركاب السيارة ، في حين أصيب الآخرون بجـراح بليغة وكان أحد هؤلاء الجرحى (محمود) والد وليد وهو بدوي ، يعمل منذ نحـو عشرين عاما كعامل بناء في المستوطنة الاسرائيلية الواقعة بجوار غزة . وسرت شـائعـات في غـزة مـفادها ان «الحادث» لم يقع عرضا ، وانما كان عملا مدبراً من أجل الانتـقـام ، قامت به عائلة التاجر الاسرائيلي الذي قتل طعنا في السوق الرئيسي قـبل يومين . وحـينما عـاد المشـيـعون من الجنازة ، انضم اليهم آلاف من سكان مخيم جـبـاليـا ، وأخـذت هذه المجـمـوعة الضخمة من اللاجئين ترشق بالحجارة الجنود الاسرائيليين الذين وقـفـوا داخل مـواقعهم الأمامية المحصنة المحمية بسياج من الأسـلاك الشـائكة . وأطلق الجنود الرصـاص في الهواء ، غير ان ذلك لم يعمل عـلى الحـد مـن غـضب ذلك الحـشـد من الناس ، وأخـذ المتظاهرون يصرخـون : «سـتـحترق الأرض من تحت أقـدام الكافـرين» و «الجهاد ! الجهاد !» ومع حلول صـباح اليوم التالي ٩/ ١٢ قـامت مجمـوعـة جـديدة غير معروفة بتوزيع منشور تشـجب فيه مقتل الفلسطينيين الأربعة وتدعو الى ثورة جماهيرية . في الوقت نفسه قـرر الاسرائيليـون انهم لن يتـسـاهلوا اتجـاه أي أعمال شغب واضطراب أخرى ، وأصـدروا تعليماتهم الى ناقلتي جند مـدرعـتين ـ تسـبقهما سيارة جيب ـ بدخول مخيم جباليا لاستعادة الأمن والنظام .

وصل وليـد الى المسـجد في الوقت الذي وصلت فيه مجموعة من الجنود تتكون من خمسين شـخـصـاً . والتـقط وليـد حـجـراً ورشقه باتجاه أحد الاسرائيليين . وخـلال ثوان أطلق الغـاز المسـيل للدموع نحو نافذة المسجد ، وتحول هتاف «الله أكبر» الى صرخـات ، ووقـفت النسـوة ـ اللواتي كن يغطين رؤوسهن وكانت هناك بعض المحـجـبـات ـ على أبواب بيـوتهن وبدأن الصراخ والعـويل بشكل هستيري . هرب الشـبـاب نحو سطح المسجد ، وهناك أخذوا يرشقون الاسرائيليين الذين كانوا قـد تعـرضـوا لهجمات بالقنابل الحارقة . ثم أخذ الصبية العرب يقذفون الحجارة مـن (نـقّافـاتهـم) ويـرمـون الزجـاجـات المكسـورة عليـهم ، في حين القى بعض

الفلسطينيين بأنفسهم فوق الناقلات ، وأجبروا سائقيها على تغيير مسارهم ، في حين حاول آخرون انتزاع الرشاشات من أبراج العربات المدرعة . وهرب وليد من سطح المسجد نحو بيت صديق له ؛ وهناك أدرك أن باستطاعته الحصول على منديل مبلل بالعطر من أجل التخلص من التهيج المثير الذي تسبب به الغاز المسيل للدموع في عينيه . غير ان باب بيت صديقه كان موصدا .

لكن الاسرائيليين الذين كانوا يستخدمون الرصاص المطاطي تحولوا الآن نحو استخدام الذخيرة الحية ، ويستذكر وليد : «كان باستطاعتك رؤيتهم وهم يجثون على ركبهم ويصوبون نحو هدفهم ... كانوا يجلسون على أوراكهم ويطلقون النار وكانوا يريدون اطلاق النار مباشرة باتجاهنا» . ولكن رغم احتفاظهم بتعليماتهم العسكرية ، الا انهم كانوا يطلقون النار على أرجل أولئك الذين كانوا يعتقدون انهم زعماء ويقول وليد : «لم أشعر بالطلقة الأولى ... كان الجنود عند الزاوية ... لم أرهم ... ثم ، بينما كنت أركض ، أحسست وكأنني فقدت رجلي اليمنى ، وكأنها قد شُلت . نظرت اليها ، وفجأة رأيت الدم يسيل من ركبتي» . وسقط على الأرض فالتقطه اثنان من أصدقائه ، وحملاه الى منزل طبيب المخيم . وهناك قامت المرضة بإجراء الاسعافات الأولية له ، واتصلت هاتفيا من أجل إحضار سيارة اسعاف من الهلال الأحمر . كان وليد قد أصيب في أحد الشرايين ، الأمر الذي تسبب في حدوث نزف كثيف في فخذه ، إذ دخلت الرصاصة في النسيج الرقيق في احدى ساقيه ، لتخرج منها وتدخل في الساق الأخرى ، محطمة عظم الفخذ ، ولتكسر رضفته (العظم المتحرك في رأس الركبة) .

في اليوم نفسه ـ الذي جرح خلاله وليد في مخيم جباليا ـ تجمع مئات الطلبة في ساحات المدارس في رفح وفي مخيمات اللاجئين الأخرى يهتفون ضد الاسرائيليين بطريقة ساخرة من خلال شتمهم باللغة العربية، ومن خلال فتح قمصانهم ، معرين صدورهم ، متحدين الجيش اليهودي لاطلاق النار عليهم . وفي وقت متأخر من مساء ذلك اليوم ٩/ ١٢/ ١٩٨٧ أعلن ناطق عسكري في راديو اسرائيل عن مقتل ثلاثة شبان عرب ، وعن جرح عشرين آخرين . وقد سجلت أحداث تلك الأيام الأربعة من شهر كانون الاول في تاريخ النزاع العربي الاسرائيلي المؤلم بداية الثورة الشعبية المعروفة بالانتفاضة .

كـان على الاسرائيليين ان يكونوا قـد توقـعـوا حـدوث مـشـاكل . فـقبل بضعة أسـابيع فـقط ـ في شـهـر تشرين الثـاني ـ إزدادت حـدة التأييـد لحـركة الجهاد الاسـلامي في الجـامـعـة الاسـلامية (الأزهر) بشكل دراماتيكي ، اذ حصل مؤيدو الحـركـة السرية المسلحـة على غـالبية مقاعد مجلس الطلبة . وقبل بضعة أيام من اليـوم الذي وقـعت فيه أحداث شهر كانون الأول ، كانت هناك مظاهرة حاشدة في غـزة تأييـداً للجـهـاد الاسـلامي . وحينما قامت اسرائيل فيما بعد باعتقال زعيمها الـشـيخ عـبـد العـزيز عـودة هاجم مـا يزيد على ألفي فلسطيني الموقع الاسرائيلي الموجود في جباليا .

يقـول عـبـد العـزيز الرنتـيسي مـتـباهيا : «في اليوم الأول للانتفاضة الواقع في ٩/١٢/١٩٨٧ كنت وخمسـة آخـرين مع الشـيخ أحمد ياسين وقـررنا تأسـيس حماس في ذلك الوقت» . ويتـابع طبـيب الأطفـال البـالغ من العمر خمسة وأربعين عـامـا : ان حـركـة حماس ـ وحماس هي الحـروف الأولى من : حـركـة المقاومة الاسـلامـيـة ـ قـد أنشئت عن قصد من أجل تأكيد ان الاخوان المسلمين كانوا بين المبـادرين الرئيسين للانتفاضة : «غيّـرنا الاسم من [الاخوان المسلمين] الى حماس لأن الاخـوان المسلمين ليسوا كلهم مشاركين في حماس ، اذ انها فرع من الاخوان».

ويدعي الرنتـيسي ان حركة حماس أصدرت منشورها الأول يوم ٩/١٢ ، وهو اليـوم الأول للانتـفـاضــة . ويضـيـف : «كان القرار هو بدء الانتفاضة تحت اسم حماس ، وكنا نعدّ لذلك منذ فترة طويلة» . وعلى الرغم من انه ليس هناك من دليل ثابت لدعم رأيه ـ اذ ان المناشير الثـلاثة الأولى لا تحـمل توقيعا ـ فان الاسرائيليين ليس لديهم أي شك فـيما يتعلق بهوية عبد العزيز الرنتيسي . فهم يعرفون انه كان أحـد المؤسسين الاوائل لحركة حماس ، ففي شهر آذار ١٩٨٨ حكم عليه بالسجن بسـبب اتهامـه بتأسـيس المجـموعة وبكتابة منشورها الأول . وقضى عبد العزيز الرنتـيسي مـدة سنتين ونصف في السـجون الاسرائيلية ـ بما في ذلك ثمانية شهور في مخيم أنصار ٣ ـ قبل ان يطلق سراحه في ٤/٩/١٩٩٠ . وبعد مرور شهرين ، حكم عليه مرة ثانية بالسجن لمدة سنة .

حينما يجلس في مكتبه في الجامعة الاسلامية في غزة ، فان هذا الفلسطيني يشبه رجل اعمال أكثر منه رجلا عالما باللاهوت . وهو يحتفظ بنسخة من القرآن الكريم

على مكتبه ، ويرتدي بذلة زرقاء اللون وربطة عنق ، وبالكاد يبدو عليه انه متعصب دينيا . وفي الجامعة ، يدرّس عبد العزيز مساقات في العلوم ، وعلم الوراثة ، وعلم الطفيليات ، ويعترف انه لم يتوقع أن يعيش هذا النوع من الحياة . ولكن بالنسبة اليه ، كما هو الأمر عليه بالنسبة الى ثلاثة أرباع سبعمائة وخمسين ألف نسمة من أهالي غزة ، فان الحياة لم تمنحه أي خيار آخر . ومثل ما يزيد على نصف مليون فلسطيني آخر في غزة ، فانه لاجىء أيضاً .

إن حياته تشبه حياة وليد ، ذلك الطالب في المدرسة الثانوية ، البالغ من العمر ستة عشر عاماً . وقد ولد عبد العزيز في شهر تشرين الأول ١٩٤٧ في يبنا ، وهي بلدة صغيرة تقع بين عسقلان ويافا ، وكان في الشهر السادس من عمره حينما هربت عائلته الى غزة . ومثل كل اللاجئين بعد حرب ١٩٤٨ ، كانت عائلته تعتقد انها ستعود الى موطنها خلال فترة وجيزة . ولكنهم عوضا عن ذلك ، انضموا الى مائتي ألف عربي آخرين تم ترحيلهم حينما أنشئت دولة اسرائيل ، والى الثمانين الف عربي الذين كانوا يعيشون في القطاع . وأقامت عائلة الرنتيسي في خان يونس ثاني أكبر المخيمات الثمانية التي أقامتها الأمم المتحدة في قطاع غزة .

في مساحة أقل من سبعة أميال عرضاً في الجنوب ، وتضيق الى أربعة أميال فقط في الشمال وعند قسمها الأوسط ، فان الثمانية والعشرين ميلا من الرمال المشبعة بالبخار لم تكبح على الاطلاق انفعالات السكان . ويحد غزة من أحد جوانبها البحر ومن الجانب الآخر سياج من الأسلاك الشائكة مع اسرائيل . وقد شُبِّه القطاع بزجاجة طويلة ضيقة . والثغرة (المنفذ) الوحيدة فيها هي الحاجز المزدحم دوماً حيث تراقب اسرائيل حركة المرور من وإلى الشوارع القذرة المغبرة المشبعة بالشمس في المدينة الرئيسة . ان هذه الثغرة الضيقة ، ولسانها هما الطريق الوحيد الى الخارج ، فهي مغلقة عند حدها الجنوبي بالحدود مع مصر . ولذلك ، فانه كلما وُجِّه تهديد للأمن الاسرائيلي ، يتم اغلاق غزة ، وبشكل يجبر ما تحويه تلك الزجاجة من الحقد والفقر على التحول الى حالة هستيرية من العنف والموت .

هنا ، وسط البالوعات (المجاري) المفتوحة ، والحشرات التي تئز باستمرار ، وبالقرب من أكوام الزبالة الضخمة ، والبالوعات التي تصب في الأنهار الشتوية القذرة ، نشأ عبد العزيز . كان واحداً بين أحد عشر طفلاً ، تسعة صبيان وابنتان

لعـائلة لاجئة ، وهو الحجم النموذجي للعائلة في مخيم اللاجئين . وفي الوقت الذي أصـبح فيه عبد العزيز في طور المراهقة ، كان عدد سكان غزة قد تضاعف الى نحو سـتمائة وخمسين ألف فلسطيني ، بمـعـدل ألف وثمانمائة نسمة للكيلومتر المربع الواحـد ، الأمر الذي جعل قطاع غزة أكثر المناطق كثافة سكانية عل وجه الأرض .

ولكن على الرغم من ظروف الازدحـام والضـيق ، فان عبد العزيز سيخبرك ان عـائلتـه كـانت باستمرار تعمل على الحفاظ على هويتها . وفي الواقع ، فان مصطلح (المخـيم) بالنسـبـة الى عـبد العزيز واللاجئين الآخرين هو استعمال مغلوط اذ انه يشـتمل على «المؤقت» . وعلى الرغم من الاستعمال المؤقت في المظهر ، فان المخيمات أثبـتت انها قـادرة على التحمل . انها عامل تذكرة دائم ، وشوكة في ضمير العالم ، تذكّـر بأن مـا بين أربعة الى خمسة ملايين نسمة من الشعب الفلسطيني مايزالون بدون وطن وبدون دولة . وفي المخـيمات ، فـان العـائلات تتوسع بشكل داخلي لا خـارجي ، فكل جـيل يبني فوق الذي سبقه ، وترتفع الأبنية الصلبة الى الأعلى ، لا لأن هذا هو الأسلوب العـربي في البناء فـقط ، ولكن أيضـاً بسـبب انه ليس هناك مكان آخر للذهاب اليه .

ولك ان تسأل اليـافـعين في خان يونس أو جباليا أو رفح من أين هـم ، وستجد انهم لن يعطوك اسم الشارع الذي يقطنون فيه أو رقم صندوق بريد ، ولن يقولوا لك انهم من المبنى رقم ٣ أو ج أو حتى من المخيم في خان يونس أو جباليا أو رفح بل انهم سـيـقـولون لك انهم من يبنا ، أو من مـدينة أخرى في فلسطين حتى ولو انهم لم يروها .

ان والدة عبد العزيز الرنتيسي ما تزال تعيش في خان يونس : بعد مرور أربعين سنة على هروبها من اسرائيل . فـبـالنسـبـة اليها والى آلاف آخرين ، فان المخيمات حققت هدفاً : الحفاظ على الوجود الذهني لفكرة الوطن . ان العائلات التي هي من قـرية أو مـدينة معينة ، ماتزال تعيش مع بعضها ، ويتم ترتيب قضايا الزواج بين أبنائهـا وبناتها . وحـتى السلطة القـديمـة مـا تزال مـوجودة : المختار . فالزعيم التقليدي ليبنا ، أو قراطيا ما يزال مختار المجمع السكني ج أو المجمع رقم ٣ وذلك كله أمر مقصود من أجل الحفاظ على تلك الذكريات حية .

نشأ عـبـد العـزيز الرنتـيسي في المخـيم ، ولعب وسط أزقـته الرملية ، وقنوات

المجاري الضحلة المكشوفة ، وحصل على الرعاية الصحية من خلال التسهيلات الطبية التي تقدمها (الأونروا) . وقد عاشت عائلته في خيمة ، ويستذكر انه حينما كان في الرابعة من العمر ، كان الشتاء قارسا جداً حتى انهم اضطروا للانتقال الى مدرسة قديمة هربا من البرد . ونتيجة لذلك ، قامت (الأونروا) ببناء بيوت طينية للاجئين ، غير ان بيت الرنتيسي لم يكن يشبه في شيء البيت الجميل الذي أخبره والداه بأنهما تركاه في يبنا . وحينما كان في السادسة من العمر ، كان عليه أن يعمل خلال فصل الصيف ، مقابل أجر يعادل سنتا واحداً في اليوم ، يعطيه لوالده للمساعدة في شراء الطعام للعائلة : «لن أنسى أبداً انه لم يكن لديّ حذاء ، وكان عليّ أن أذهب الى المدرسة حافي القدمين وبملابس ممزقة . ولم يكن لديّ على الاطلاق ما يكفي للأكل» . وخلال أزمة السويس التي وقعت في شهر تشرين الأول ١٩٥٦ ، حينما كان عبد العزيز يبلغ التاسعة من العمر ، قام الاسرائيليون بقصف خان يونس لمنع الفدائيين الفلسطينيين من استخدام مخيم اللاجئين كقاعدة عمليات لشن غارات فدائية على اسرائيل . ويتذكر انه اختبأ في ملجأ وكان خائفاً : «حينما عدت الى البيت ، سمعت والدتي ووالدي يصرخان ، وقيل لي ان الاسرائيليين هاجموا منزل عمي وانه قتل» .

لكن أكبر أزمة في حياة الشاب عبد العزيز حدثت سنة ١٩٥٧ ، فقط بعد عيد ميلاده العاشر ، إذ يستذكر : «استقرضت بعض المال من أقاربي واشتريت شيئاً من البضائع من أجل بيعها في مصر» . كانت خان يونس تبعد عن الحدود المصرية بضعة أميال ، وكان من السهولة بمكان في تلك الأيام عبور الحدود والعودة في اليوم نفسه . ومع ذلك ، فان عبد العزيز لم يصل الى الحدود أبداً : «لقد سرق بعض اللصوص بضاعتي ، وهربوا بها ، وكان عليّ أن أعود الى البيت صفر اليدين . كنت أبكي لأنني كنت أعرف ان والديّ فقيران جداً ، وأنهما لايملكان بالطبع أي أموال لسدادها لأبناء عمي» .

انتظم عبد العزيز في المدرسة الثانوية في خان يونس التابعة للاونروا حيث ارتدى وشقيقاته الزي الموحد الأزرق والأبيض الذي أوصت به المنظمة العالمية . وفي عام ١٩٦٥ تخرج من المدرسة الثانوية ، يقول مفتخراً : «كنت من عائلة فقيرة جداً وكان علينا أن نكافح ، لكنني كنت الأول في صفي» . ويوضح ان التعليم كان

دائما الطريق الوحـيـد للهرب من واقعه . فحينما غادر خان يونس في وقت متأخر من تلك السنة من أجل البـدء بالدراسـة في جـامعة الاسكندرية في مصر ، كان يعد العـدة لحـياة مهنية في مجال الطب ، ولم يكن يشغل ذهنه لا الدين ولا السياسة : «كنت منكبا على دراساتي الطبية» .

خـلال سنوات طفـولتـه ، وحـتى قـبل أن تقـوم مصر بادارة قطاع غـزة سنة ١٩٤٨ ، كـان للقـاهرة عـلاقة خاصة مع غزة . ويعود ذلك بشكل جزئي الى قرب البلدين من بعـضــهما ، والى سهولة تنقل الفرد ذهابا وايابا عبر الحدود عند رفح . ولكن كـان هناك مـا هو أكـثـر من حـركـة الانتقال البشري : فقد تبودلت تجارة البـضـائع بين مصر وغـزة ، كما تبـودلت الايديولوجيات . وأصبح أهالي غزة على ألفـة بالتفزيون وبالكتب ، وبالثقافة ، والطعام ، واللهجة المصرية . وعلى الرغم من أن مصر لم تعـمل على ضم غـزة اليـها أبداً ، أو حتى منح سكانها جوازات سفر ، الا ان المصريين حـسّـنوا وعلى نحـو واسع النظام التـعليـمي في غـزة ، وذلك من خـلال فتح مدارس جديدة عديدة ، وفرض الزامية التعليم على كل طفل يزيد عمره على ست سنوات . كما فـتـحت مصر أبواب جـامـعاتها للطلبة الموهوبين أمثال عبد العزيز الرنتيسي ، مقدمة التعليم الجامعي لآلاف عديدة من الفلسطينيين كل سنة ، والذين لم تكن غالبيتهم قادرة على دفع الرسوم الجامعية .

وحـينما يفكر مليا في تلك السنوات المبكرة ، فان عبد العزيز يقول انه تأثر بقوة ـ على الرغم من أنه لم يكن واعـيـاً لهذا الأمـر في ذلك الوقت ـ بشـيخ التقاه لأول مرة حينما كان في العاشرة من عمره ، عندما بدأ بالتردد على المسجد في خان يونس. كـان اسم الشيخ محمود عيد ، ويستذكر عبد العزيز : «كنت أشعر دائمًا انه كان رجـلا حكيما وذكيا جداً» . وحينما بدأ عبد العزيز دراسته الجامعية في الاسكندرية التـقى مـرة ثانيـة بالشيخ عيد ، وبدأ الشاب والشيخ العجوز يلتقيان خلال أوقات الصـلاة . ويستذكر عبد العزيز : بالطبع ، فان محموداً كان شيخ الجامع هناك . وكـان عيد هو الذي حدثه عن الاخوان المسلمين ، وهو الذي ملأ عقله الحساس بـ «الحـقـيـقـة» عن الرئيس المصري جمال عـبد الناصر وعن فلسفته المؤيدة للوحدة العـربيـة ، ويقـول : «بدأت أفهم سبب اخفاق النظام في العالم العربي ولماذا يوجد عند العـرب مثل هؤلاء الزعماء السيئين . وفي الوقت نفسه ، كان الاخوان المسلمون يقـولون ان بامكان الاسـلام أن يحل المشـاكل كلها في البلاد العربية . وبسبب من

محمود عيد أصبحت في نهاية المطاف من الاتباع المخلصين للاخوان» .

ويقول عبد العزيز انه ، وحينما كان يدرس في الاسكندرية ، عاش «صدمة نفسية» سببها الانتصار الاسرائيلي السريع والمفاجىء على القوات العربية في حرب عام ١٩٦٧ . فقد كان يبلغ العشرين من العمر آنذاك ، وكان يستمع الى التقارير المستمرة ساعة بساعة عن القتال من راديو الترانزستور ، ويشاهد الملخصات الاخبارية التلفزيونية . لم يستطع تصديق ما سمعه وما رآه . فخلال ستة أيام خسر العرب مرتفعات الجولان ، وقطاع غزة ، والضفة الغربية لنهر الأردن ، والقدس ثالث مدينة مقدسة في الاسلام . وكان للهزيمة أثرها العميق فيه ، اذ يقول : «جلست وحدي فترة طويلة ، ولم أكلّم أحداً لأسابيع . فقط جلست وحدي، ولمدة ستة شهور عانيت من ضيق تنفّس نفسي المنشأ ، واحساس ثقيل يضغط على صدري . كنت سريع الانفعال جداً . قضيت الليالي كلها وأنا غير قادر على النوم وبعد ذلك أصبحت مهتمًا بالدين» .

وأشار الشيخ محمود عيد الى ان عبد العزيز قرأ أعمال عالمين اسلاميين كبيرين، أولهما : الشيخ حسن البنا الذي أسس جماعة الاخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٩ وكان «المرشد الأعلى» لها الى ان قتل بعد ذلك التاريخ بعشرين سنة ، وأما الثاني فهو سيد قطب ، وهو منظّر وكاتب ، أُعدم شنقا عام ١٩٦٦ بسبب مؤامرة مزعومة لاغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر .

لم يكن بالأمر المألوف بالنسبة الى طالب جامعي مثل عبد العزيز ان يتجه نحو الاخوان المسلمين ، وعلى نحو خاص بعد الهزيمة التي حاقت بمصر في حرب الأيام الستة . ومع حلول منتصف سنوات الستينات ، كان الاخوان المسلمون في مركز السياسة المصرية لفترة جيل تقريبا . وخلال الفترة التي كان فيها عبد العزيز في الاسكندرية ، احتلت سيطرة الاخوان عناوين الصحف المحلية .

ومع أن عبد الناصر مدين بدين كبير من العرفان بالجميل لزملائه «الضباط الأحرار» الذين أطاحوا بالملك فاروق ، ونصبوه رئيساً للسلطة ، الا انه كان أقل اقرارا بالجميل للاخوان المسلمين الذين ساعدوا أيضاً على الاطاحة بالنظام الملكي هناك . فبعد مرور ستة عشر شهراً على تولية السلطة ، حظر جمال عبد الناصر جماعة الاخوان ، وتلا ذلك صراع على السلطة مع محمد نجيب القائد المصري ـ

الذي كان قد ساعد على هندسة انقلاب عام ١٩٥٢ ـ والذي ضغط على عبد الناصر من أجل اقامة اتصال بسيط مع الاخوان . وفي شهر تشرين الأول عام ١٩٥٤ ، حمّل عبد الناصر الاخوان المسلمين مسؤولية مؤامرة استهدفت حياته ، واتهم تسعة عشر شخصاً من قياداتهم بتهمة الخيانة في محكمة علنية ، تم على اثرها اعدام ستة منهم ، الأمر الذي اضطر الاخوان للتوجه نحو العمل السري مرة ثانية.

لم يكن الاخوان المسلمون حينما وصل عبد العزيز الى الاسكندرية ، وحتى منتصف سنوات الستينات ، قد عاودوا الظهور كمحرّض رئيس . ففي سنتي ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ـ بعد الاعلان عن محاولة أخرى للاعتداء على حياة عبد الناصر ـ تم اعتقال الآلاف من مؤيدي الاخوان المسلمين ، وحوكمت عدة مئات منهم ، وتم تنفيذ حكم الاعدام شنقا بثلاثة من زعماء الاخوان ـ من ضمنهم سيد قطب ـ في خريف عام ١٩٦٦ . وباعدام قطب البالغ من العمر واحداً وستين عاماً ، بعد ان قضى ما يزيد على العقد من الزمن في السجن ، فان عبد الناصر منحه وبدون قصد مكانة الشهيد . وبعد ذلك أشعل عبد الناصر لهيب الأصوليين باصدار حكم بالسجن لمدة طويلة على الشيخ حسن اسماعيل الهضيبي الذي خلف حسن البنا كمرشد أعلى للاخوان . ويعتقد ان الهضيبي مات في السجن بعد ذلك بفترة قصيرة.

في عام ١٩٦٨ ـ بعد الهزيمة المصرية في الحرب مع اسرائيل عام ١٩٦٧ ـ كانت هناك موجة جديدة من أعمال الاضطراب التي قام بها الطلبة في مختلف أنحاء مصر . ومرة أخرى وجّه عبد الناصر ـ الذي كان يقف موقف الدفاع ـ اللوم والمسؤولية للاخوان المسلمين ، ومع ذلك ، فان عبد العزيز حمّل عبد الناصر المسؤولية : لقد خسر العرب الحرب لانهم لم يكونوا مسلمين صالحين : «بالتأكيد فان الاسلام منتصر ليس لأن الله يقف الى جانب المسلمين فقط ، ولكن لأسباب أخرى عديدة» . ان عبد الناصر وحكومته قد انحرفوا وفسدوا كلية ، وكانوا معتمدين أيضاً على النماذج السياسية والاجتماعية الأجنبية ، وعلى نحو خاص الاشتراكية العربية : «لا شيء يمكن أن يطلق عليه الاشتراكية العربية ... لقد كانت ماركسية مع شيء من التجميل لخلق الانطباع بأنها تناسبنا . وفي الواقع ، كانت الاشتراكية بذرة غريبة زرعت في العالم الاسلامي . ان حكومة عبد الناصر لم تكن

مخلصة حتى بالنسبة الى المصريين» .

ويوضح عبد العزيز ان الاسلام «يعني ان تكون مخلصا في كفاحك ، ان تكون مخلصا من أجل وطنك . انه يعني ان تعدّ نفسك من الناحيتين : الدينية والعسكرية» . لكن عبد الناصر فشل في اعداد جنوده للتضحية من أجل مصر ، وأساء تقدير قوة العدو ، وغالى في تقديره لقدرة القوات العربية الأخرى على مواجهة التحدي . ويؤكد عبد العزيز : «ان الجندي في الاسلام مستعد للتضحية من أجل الاسلام ... ان يتقبل ويعتقد ويشعر ان تضحيته سوف تدخله الجنة في العالم الآخر» و ان الجندي المسلم «يثق بقائده ولذلك فانه سيبذل جهده لاحراز النصر» . لكن لا أحد وثق بعبد الناصر وصدقه ولا بحكومته ، ولذلك فان الحكومة المصرية كان محكوما عليها بالفشل : «لقد سمعنا طوال الوقت ان كل الذين كانوا حول عبد الناصر كانوا لصوصا ، فكيف يمكنني ان أثق بهم ؟ كيف يمكنني ان أضحي من أجل بلادي ، وأواجه احتمال أن أُقتل حينما أرى زعيمي لصا ؟» . ويستنتج أن مصر عبد الناصر لم تكن فقط «بعيدة عن الاسلام» ولكنها أخطأت حينما حاولت أن تقحم النماذج السياسية المستوردة من الشرق والغرب - الايديولوجيات الاشتراكية والقومية - في الثقافة الاسلامية ، ويقول موضحا ذلك : «ان القومية كانت محاولة غريبة لحرفنا بعيداً عن الاسلام كشعب . والاشتراكية أيضاً ، كانت غير ملائمة كلياً للشعب الاسلامي في بلادنا» .

ان الاسلام فقط - بوعده لتحقيق الثقة الالهية في كل فروع حياتنا : في البيت ، والمدرسة ، والطب ، والهندسة ، وفي كيفية التعامل مع الآخرين - يمكن ان يمنح قوة للشعب العربي . ويقول عبد العزيز مستشهداً باقتباس من كتاب سيد قطب (معالم في الطريق) : «ان الاسلام يعني العلم والتطور ... يعني كل السلوكيات الجيدة في حياتك ، وفي المقدمة : القيم» .

وبالنسبة الى عبد العزيز ، وكما هو الأمر عليه بالنسبة الى سيد قطب من قبله ، فانه لا الشرق ولا الغرب يمتلك الاجابة . وخلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٤٨ - ١٩٦٧ ، كما يقول ، فشل القوميون العرب في تحقيق أي مكتسبات ملموسة . وخلال العقدين التاليين ، فان الجماعات القومية المسلحة اللادينية ، مثل م. ت. ف. بما فيها الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية لتحرير

فلسطين ، والفصائل الموالية للشيوعية ، فشلت في نضالها لتحرير فلسطين . وفي سنوات التسعينات ، أضعف زوال الماركسية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية الثقة بالايديولوجيات اليسارية .

ولا يشعر عبد العزيز ـ المخلص في ايمانه بالاسلام ـ بالدهشة ، اذ يتساءل : «ماالذي تتوقعه حينما لا يكون في المنطقة زعيم اسلامي واحد ؟ ... لقد فشل الشيوعيون ، وكذلك القوميون ، وفشل العلمانيون كلية . ان الميدان فارغ الآن من كل الايديولوجيات ، إلّا الاسلام» . ومرة ثانية ، يستشهد هذا الطبيب بمعلّمه سيد قطب الذي كتب في منتصف سنوات الستينات ان «كل الايديولوجيات الفردية والجماعية قد فشلت ، وانه في هذا الوقت الحرج جداً حيث يعم الاضطراب والارتباك ، يجيء دور الاسلام ، دور الأمة . لقد جاء وقت الاسلام» .

ويقول عبد العزيز ان المصداقية الحقيقية لليقظة الدينية تعود الى حسن البنا : «لقد كان [المجدِّد] . فقبل حسن البنا كنت لا ترى شخصا واحداً متدينا في الشارع أو في المسجد . كنت ترى فقط الرجال المسنّين . كنت لا ترى على الاطلاق شابا واحداً في المسجد . ولكن بعد حسن البنا اختلف الأمر . فقد دخل الاسلام في مختلف فروع حياتنا» .

بعد أن قضى سبع سنوات في مصر ، عاد عبد العزيز الى غزة عام ١٩٧٢ ، وكان الكثير قد تغير : فغزة الآن تحت الاحتلال الاسرائيلي ، وحرب الأيام الستة أجبرت آلاف اللاجئين الجدد على التوجه نحو غزة ، وكانت غالبية الناس ما تزال تعيش في ظل ظروف المخيم البائسة ، وكان اغراء م. ت. ف. المحظورة لا يقاوم ، اذ انضم آلاف الشباب الى جناحها العسكري ـ بما في ذلك فتح ـ والتحق العديدون بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يترأسها حبش ، والتي نشأت كنتيجة لحركة القومية العربية .

ومع عدم وجود أي أمل بحل سياسي يمنح الفلسطينيين وطناً ، وقعت أعمال عنف في مختلف أنحاء العالم ، كانت تستهدف الاسرائيليين ، غير انها قتلت وجرحت عشرات المدنيين الأمريكيين والأوروبيين . وبدعم من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، قامت مجموعات ارهابية باختطاف الطائرات في أوروبا والشرق الأوسط ، واحتجاز ركابها كرهائن . وقد نفذت منظمة فتح ستين عملا تخريبياً

مختلفاً داخل اسرائيل . وفي غـزة نفسـهـا ، قـام نشطاء م. ت. ف. بسلسلة من عـمليات الارهاب ، اذ قتلوا الكثيرين من العرب الذين اعتبروهم متعاونين . وسادت الفـوضى : فـقد كانت حوادث اطلاق النار بين الشباب العرب والجنود الاسرائيليين تقع كل أسبوع تقريبا في أزقة مخيم اللاجئين الضيقة .

ان هزيمـة حرب عام ١٩٦٧ زادت مـن لجـوء الاخـوان المسلمين الى فلسطينيي غـزة ، ولكنهـا أيضـاً راقت للاسرائيليين الذين واجـهـتهم المهمة الصعبة المتمثلة في وجـوب حكم المناطق التي لا يسـودها القـانون ، والذين اعتبروا الأصولية الدينية ثقلاً موازنا مفيداً ضد منظمة التحرير الفلسطينية .

في عـام ١٩٧٤ عـاد عـبـد العـزيز الى جامعة الاسكندرية للحصول على درجة الماجـسـتير في طب الأطفـال ، والتي حـصل عليها بعد سنتين من ذلك ، وعاد عام ١٩٧٦ الى غـزة وبدأ العـمل كطبـيب مقيم في مستشفى ناصر ، وهي المرفق الطبي الرئيسي في خان يونس : المخيم الذي نشأ فيه .

ان الاحـبـاط الذي أصـاب الفلسطينيين في غـزة لم يبلغ ذروته الا عـام ١٩٨٦ حـينما وقـعت مصر واسرائيل اتفـاقـيـات كامب ديفيد ، اذ تعهدت الدولتان بانهاء حـالة الحـرب بينهما ، والتـفـاوض على اتفـاق سلام رسمي . اما الذين تركوا في وضع حـرج فـقـد كانوا المليون ونصف المليون فلسطيني في المناطق ، الذين قُـدم اليـهم مـا اعـتـقدوا انه فقط شكل مذل من الحكم الذاتي ، والذي سيبقي الاحتلال الاسرائيلي فترة غير محددة . وبرغم ذلك ، فـان الخـاسر الحـقـيقي كان فلسطينيو قطاع غزة .

لم يكن أنور السـادات ـ الذي خلف جمال عـبد الناصر سنة ١٩٧٠ ـ يريد أن يواجـه النوع نفـسـه من المشـاكل التي خبرها سلفه وجربها مع الأصوليين . فقد أدان الاخـوان المسلمـون اسـتـعداده لاقامة سلام مع اسرائيل ، ووصفوا ذلك بأنه اسـتسلام كلي للوجود الصهيوني . ولذلك ، فان السادات تصرف بحزم ، اذ أغلق الحـدود مع قطاع غـزة ، واضـعاً بذلك الفلسطينيين تحت رحمة الاسرائيليين . ولم يعـد بوسع الطلبة الفلسطينيين متابعة تعليمهم العالي في الجامعات المصرية . كذلك قـام السـادات بطرد أعـضـاء جماعة الاخوان المسلمين الذين عرفت عنهم اثارتهم للمـشاكل ، وأرسلهم الى غزة . وكم هو مثير للسخرية انه بعد مرور ثلاث سنوات

على ذلك ، فان السادات نفسه سيقتل على أيدي أحد المتعصبين الاسلاميين .

ويستذكر مسؤول اسرائيلي خدم في غزة : «الآن ، وفي عام ١٩٧٨ ، حضر أولئك النشطاء الذين أبعدوا من مصر ومعهم آخرون الى الادارة المدنية وطلبوا تسجيل الجماعة على انها جمعية غير عنفية ... قالوا لنا انهم يريدون القيام بمحو الأمية وانهم يريدون بناء روضة لأطفالهم ، ومجموعة جديدة من المحال التجارية لشعبهم ، وانهم يريدون تشجيع النشاط الاجتماعي بين أوساط الجيل القديم . وبدأوا بالازدهار ... بنوا مسجداً واحداً ، ثم ثانيا ، فثالثا . وحاولنا اكتشاف مصدر الأموال . كانت الأموال تأتي من العربية السعودية والأردن ومن تحصيل الضرائب الداخلية ومن الزكاة» .

كان الشيخ أحمد اسماعيل ياسين هو المهندس الرئيس لحركة الانبعاث الاسلامي . وهو رجل نحيل ، ذو وجه مستدير ، ومشلول كلية تقريباً ، نتيجة لمرض أصابه في الطفولة .. وياسين ـ وهو عالم بالقانون الاسلامي ـ لم يُخف إيمانه بأن اسرائيل دولة غير شرعية ، ولكنه يحث أتباعه على عدم الاندفاع نحو الجهاد قبل ان يتحققوا من أن بامكانهم الانتصار . وعوضا عن ذلك ، فها هو يحثهم على الانهماك في التربية والدعوة .

ان شعبية الانتفاضة ـ كما يوضح ذلك كل من زئيف شيف وايهود ياعاري في كتابهما [الانتفاضة : القصة السرية للثورة الفلسطينية] ـ كانت الى حد ما حركة ارتداد ضد المادية والاباحية التي امتد الى غزة قادمة من اسرائيل ، ونتيجة ـ الى حد ما ـ للحاجة الى التواصل من أجل مشاركة الآخرين معاناتهم . وكان ياسين بمثابة الأب لأنصاره على حد زعم المؤلفين . يقول هذا الشيخ المقعد : «حينما تغلق الأبواب كلها ، فان الله يفتح باباً» . لكن المجموعات الأصولية أيضاً «قدمت نوعاً خاصا من النشاط والفعالية مزج الوطنية بالنقاء الأخلاقي ، والعمل الاجتماعي بنعمة الوعد الالهي ... لقد قدم الشيخ ياسين الى الشباب الفلسطيني شيئاً أبعد مما يمكن لعرفات أن يدركه : ليس فقط تحرير الوطن ، وانما خلاص الروح التي تشعر بالقلق » كما يقول المؤلفان .

وليس لدى الشيخ ياسين سوى الازدراء والاحتقار لعرفات ولقيادة م. ت. ف. الذين يشتمهم واصفاً إياهم بأنهم «أكلة لحوم الخنزير وشاربو نبيذ» . ولذلك ،

حينما اتصل الشيخ مع السلطات الاسرائيلية ـ باعتباره المرشد الأعلى للاخوان المسلمين في غزة ـ من أجل تسجيل جمعيات خيرية لنشر الاسلام وتجنيد مؤيدين للايمان ، وافقت الدولة اليهودية عن طيب خاطر على تسجيل الجمعية ، وقدمت لهم اعفاءات مناسبة من الضرائب . وحصل أحد عشر رجل دين اسلامي بقيادة الشيخ ياسين على ترخيص لاقامة «المجمّع الاسلامي» في غزة ، وانشئت في نابلس «التضامن» وفي جنين «جمعية المسنّين» وفي الخليل «الجمعيات الاسلامية» وفي القدس والخليل «جمعيات الشباب المسلم» . لكن الأكثرها أهمية الى حد بعيد كان المجمّع الاسلامي في غزة ، الذي وصل عدد اعضائه الى ما يزيد على ألفي عضو ، وسيطر على مساجد غزة .

يقول أوري نير مراسل صحيفة هآرتس الذي قام بتغطية أخبار المناطق خلال سنوات عديدة ان السياسة الاسرائيلية في غزة كانت واضحة : «ففي منتصف سنوات الثمانينات كان لدى اسرائيل سياسة واضحة تمثلت بالسماح بتدفق الأموال لبناء المساجد ، ولبناء مؤسسات اسلامية ، وباعطائهم نوعاً من سياسة عدم التدخل في بيئتهم ، واقامة شبكات مكتبات ، ومساجد ، ومدارس ، ورياض أطفال» . ومن خلال شبكة المساجد كان الاسلاميون قادرين على توزيع كتب وأشرطة مسجلة ، موسعين من خلال ذلك نطاق تأثيرهم . ومن خلال دور الأيتام والعيادات ، والمكتبات ، قدموا تسهيلات اجتماعية ، وصحية ، وتربوية ، وبذلك يكونوا قد تحدّوا سلطة ومصداقية الفصائل الفلسطينية اللادينية . ويستذكر نير قول احد الاسرائيليين سنة ١٩٨٧ وهو مسؤول رفيع المستوى في الادارة المدنية في غزة: «لدينا علاقة طيبة مع المجمّع الاسلامي ، ونعمل بشكل جيد جداً معهم» .

وتكشف دراسة سرية قامت بها الحكومة الاسرائيلية وصدرت في تقرير سري في شهر نيسان ١٩٨٧ عن المدى الذي ضللت الدولة اليهودية فيه نفسها باعتقادها ان الاخوان المسلمين لم يشكلوا تهديداً أمنياً مباشراً لها . وقد فشلت الدراسة ـ التي أنجزت قبل ثمانية شهور من بدء الانتفاضة ـ في التنبؤ بامكانية وجود أي احتمال لثورة عنف ، او في أن الانتفاضة الفلسطينية ستشتعل على أيدي الاسلاميين الأصوليين . وقد شاركت في هذه الدراسة التي تحمل عنوان [قطاع غزة نحو العام ٢٠٠٠] عشرون هيئة ، بما فيها جيش الدفاع الاسرائيلي ، والموساد والشّين بيت . وأشارت مقدمة الدراسة التي وضعها الحاكم العسكري لغزة

الجنرال شايك ايرز الى انه كان هناك تصاعد في الحماسة الدينية في مختلف أوساط الفصائل الاسلامية الثمانية ، وأن طموحاتهم السياسية «تركزت حول اقامة دولة اسلامية مثل ايران على أنقاض مناطق اسرائيل الكبرى كلها» . لكن الدراسة توصلت الى ان كل «الحركات الاسلامية تريد التركيز أولاً على عملية كسب قلوب وعقول المعسكر الاسلامي ، وفيما بعد فقط تبدأ النضال الفاعل ضد اسرائيل . والاستثناء الوحيد هنا هو منظمة الجهاد الاسلامي التي تؤكد أسبقية النضال لتحرير فلسطين ، جنباً الى جنب مع عملية هداية المسلمين» .

ويوضح نير قائلاً : «المدهش في هذا هو انه على الرغم من أنهم كانوا مدركين لحقيقة ان هذه الجماعات هي ذات ايديولوجية راديكالية ، وانه هناك على الأقل احتمالية لبدء تنفيذها في لحظة ما ، الاّ انهم اختاروا سياسة تشجيع هذه الجماعات من أجل ان يكونوا ثقلاً موازناً لمنظمة التحرير الفلسطينية التي تنتهج سياسة معارضة ، تتمثل في ايديولوجية أكثر براغماتية ، ولكن مع القيام بأعمال العنف . لقد كان هذا الأمر متسما تماما جداً بقلة التبصّر» . ويتوصل البروفيسور الفلسطيني إميل ساحلية في كتابه [البحث عن قيادة : سياسات الضفة الغربية منذ عام ١٩٦٧] الذي نشره معهد بروكينغز الى النتيجة نفسها : «ان الحركة الاسلامية التي كانت معادية لتوجه م. ت. ف. العلماني ، وكانت تعارض اقامة دولة فلسطينية علمانية قومية ، أكملت سياسة اسرائيل الرامية الى ضرب كل مظاهر الوطنية الفلسطينية» .

وخلال العقد الممتد بين كامب ديفيد وبداية الانتفاضة ، جعلت الحركة الاسلامية أثرها ملموسا في غزة ، فالنسوة لم يعدن يظهرن في الشوارع بدون حجاب أو نقاب على رؤوسهن ووجوههن ؛ وتم بناء عشرات المساجد الجديدة لتستوعب العدد المتزايد من المؤمنين ؛ وقام الرجال باطلاق ذقونهم ، وعلى الشواطىء أصبح من النادر رؤية أي من الجنسين بملابس السباحة أوروبية الطراز ، فإذا ما تجرأوا على ارتدائه ، فانهم بذلك يجازفون بامكانية تعرضهم للضرب على يد المتعصبين .

حينما أغلق السادات الحدود مع غزة سنة ١٩٧٨ ، تعززت استقلالية الاخوان المسلمين في غزة ، ولكن مع اغلاق تلك الحدود ، أصبح الاخوان المسلمون أكثر

اعـتماداً على الأردن ، وأصـبح جسر اللنبي المخرج الوحيد الى العالم العربي ، الأمر الذي كـان يعني انّ على فلسطينيي غزة ان ينفذوا عبر اسرائيل والضفة الغربية .

لكن الانفـصـال عن مصر ، والاقتراب من الأردن خلق مـشـاكل غير مـتـوقعة بالنسـبـة الى الاسرائيليين . يقـول مسؤول اسرائيلي : في عام ١٩٨٤ «اكتشفنا أكبر مخزن أسلحـة من بين المخازن التي اكتشفناها في المناطق ... كان فيه ستون نوعاً من أنواع الأسلحة» من ضمنها بنادق م ـ ١٦ ، ورشاشات عوزي ، وقنابل يدوية وقـد تم شراء ذلك كله بواسطة عـالم الجريمة في اسرائيل . وفي منزل الشيخ ياسين وحده ، وجد الجنود الاسرائيليون مخبأ فيه ستون بندقية .

وحكم على قـيادات الاخوان المسلمين بالسجن لفترات طويلة ، في حين حكم على الشـيخ ياسين بثـلاث عشرة سنة . وخـلال فترة الاعـتـقـال «تبين لنا أن الأموال المخـصصة لشراء تلك الأسلحة قد وصلت من الأردن ، وأتذكر قيمتها : ٢٢,٠٠٠ دنيـارا . وقد وصلت من قبل اثنين من القادة البارزين في جماعة الاخوان المسلمين احـدهما عـضـو البرلمان الأردني ، وهو [... ...] الذي مـا يزال عضواً حتى اليوم . كـانت تلك هي المرة الأولى التي حـصلنا فـيـها على الضوء الأخضر بان الاتجاهات كـانت تتـغير ، وان الاخـوان المسلمين لم يعـودوا على ارتباط بالمصريين ، وانهم في الأردن أصـبحوا مصدراً حقيقياً لقوة أهالي غزة ، وكذلك لأهالي الضفة الغربية » .

الأكـثـر اثارة للدهشـة من هذا بالنسـبة الى الاسرائيليين هو حقيقة «انهم كانوا يمـتلكون السـلاح منذ أكـثر من سنة ولم يطلقوا نهائياً أي طلقة علينا . فقد كانت لديهم سـيـاسـة تتمثل في عدم مواجهتنا الاّ حينما يكونوا قد استعدّوا » على حد قـول ذلك المسـؤول الاسرائيلي : «لقـد قالوا ان ايديولوجيتهم كانت ترتكز في المقام الأول على تنظيم انفسـهم داخليـاً لمحـاربة الفئات الأخرى ، مثل : فتح ، والجبهة الشـعـبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، اليسار بشكل رئيس ، ومن ثم ، وعند الانتهاء من ذلك ، تجنيد الجماهير لمحاربة الصهاينة . لكن المهم عدم التوجه نحو القتال بدون استعداد» .

بعـد ان اعـتـقل ياسين ، تسلم عـبـد العزيز زمام القضية ، فساعد على تنظيم المجـمـوعـة الاسـلامـيـة لخـوض انتـخـابات مجلس الطلبـة في الازهر (الجامعة

الاسـلامية) . وأطلق سراح ياسين عام ١٩٨٥ كـجزء من عملية تبادل الأسرى التي قـام بها أحمد جبريل زعـيم الجـبـهـة الشعبية ـ القيادة العامة ، والتي تم خلالها مـبـادلة سـتة من الجنود الاسرائيليين الذين أُسروا في لبنان بألف سجين فلسطيني لدى اسرائيل . ولما كـان غير مـتلهف للعـودة الى السجن ، فان الشيخ ياسين تخلى عن رئاسـة المجـمّـع الاسلامي ، والذي اشتبه الاسرائيليون بانه كان غطاء للأعمال المسلحـة . وعـوضاً عن ذلك ، تولى قيادة الاخوان المسلمين ، مكرسا وقته وبشكل رئيس لتحسين الأمور الصحية والتربوية .

وسرعان ما توضحت أسباب تكديس تلك الترسانة من الأسلحة . فبتوجيه من الشـيخ ياسين ، ولكن بدون مـشـاركـة مـبـاشرة منه ، شن عبد العزيز الرنتيسي واثـنـان آخـران مـن أتبـاع الشـيخ حملة في ربيع سنة ١٩٨٦ لتـخليص الجامعة الاسـلامـية من م. ت. ف. وعلى مرأى من عيون الاسرائيليين ، إذ استهدفوا مؤيدي الجـبهة الشعبية والشيوعيين الذين لم يكونوا ملحدين فقط ، بل ويعملون على نشر الايديولوجـيـة الماركـسـية الملحدة . وكان الشيوعيون أيضاً في طليعة الفلسطينيين الجـدد المسـتـعدين لقبول حل دولة مزدوجة ، الضاغطين على فتح للاعتراف بحق اسرائيل في الوجـود مـقـابل اقـامـة دولة فلسطينيـة . وقـد كان ذلك أمراً مـحرّما بالنسبة الى المؤمنين الاسلاميين .

مـسـتـغلين المجـمّـع الاسـلامي كغطاء ، قام الأكاديميون الثلاثة ـ عبد العزيز الرنتـيسي ، ومحـمـود زهار ، ومحمود صيام ـ بتشكيل جيش ديني صـغير يتألف من سـبعمائة مدرس وطالب في الجامعة . وللمرة الأولى كانوا مستعدين للدفاع عن أنفسـهم ضد فتح وفصائل م. ت. ف. الأخرى التي سخرت من الاخوان المسلمين بسـبب رفـضـهم المشـاركة في الكفاح الوطني ، ووصفوهم هازئين بانهم «مُدَلَّـلوا الصـهـاينة» بسبب حصولهم على تراخيص اسرائيلية ، وهو أمر لا تقره م. ت. ف. وقـد كانت المشاجرات الناجمة عن ذلك تشبه الحرب الأهلية في بيروت : اذ ضُـرب الـنـاس وقـتلوا ، وكـانت هناك مـوجـة من الطعن الوحشي ، والرشق بالأسـيـد . واسـتـمـر الشـجـار الوحشي بين الفصائل لشهور عديدة ، قبل ان تتدخل القوات الاسرائيـليـة لايقـافـه . وفي الوقت الذي تدخل الاسرائيليـون فـيـه ، كـان المجـمع الاسلامي قد كسب ٨٠٪ من تأييـد الرجال والنساء الذين صوتوا حسب الشريعة

الاسـلامية بشكل منفصل في الأزهر . وثنى الأصوليون عضلاتهم وكسبوا معركة حـاسـمـة ضـد م. ت. ف. وبدون ان تتـدخل اسرائيل الاّ حينما كانت المعركة على وشك الانتهاء .

لكن في منتـصف سنوات الثمانينات ، قـامت مجمـوعـة أخـرى ، هي مجموعة الجـهـاد الاسـلامي ، بثني عضلاتها ، اذ ان أعضاءها لم يكونوا سعداء بأن يتبنى الاخـوان المسلمـون النضـال التحرري ، في حين يحتلون هم مقعداً خلفياً في عملية إعـادة أسلمـة المجـتـمع الفلسطيني ، وكان الاخوان المسلمون يستنزفون مواردهم وهم يقـاتلون م. ت. ف. من أجل السـيطرة . كان على منظمة الجهاد الاسلامي أن تتـبع انمـوذج الجماعـات القـومـيـة التي كانت تمارس الكفاح المسلح ، بل وحتى التنسـيق مـعهم . ان النضال ضد اسرائيل يجب ان يكون «حرباً مقدسة» . وتقول عـقـيـدة منظمة الجهاد الاسلامي انه لن تكون هناك على الاطلاق ولادة ثانية تامة للاسـلام حتى يتم تدمير الدولة اليهودية ، فلماذا العمل من خلال جمعيات خيرية أو مـؤسـسـات موجودة ؟ ان التربية العامة والدعاية الجماهيرية عقيمتان ، ولذلك فـان الطريق الوحيد لاثارة ثورة ايرانية الطراز في فلسطين هو من خلال شبكة من الخلايا السرية تكون مخفية جيداً عن الاسرائيليين ، وتضرب أكثر رموزهم قداسة.

وقـد اسـتـمـدت حركة الجهاد الاسلامي الهامها من اثنين من خريجي جامعة الزقـازيق في دلتا النيل ، وهي مستنبت الاصولية الاسلامية وهذان الرجلان هما : فـتـحي عـبـد العزيز الشقاقي ، وهو طبيب من رفح ، والشيخ عبد العزيز عودة ، وهو خـبير بالقـانون الاسـلامي ، وكان يعظ في مسجد الشيخ عز الدين القسام في قـرية بيت لاهيا ، بالقرب من غزة . كان الرجلان قد عادا من مصر سنة ١٩٨١ ، وفي عام ١٩٨٥ حكم الاسرائيليـون على عـودة بالسجن لمدة أحد عشر شهراً بسبب تحـريضــه الرأي العام على الكفاح المسلح خلال خطبه التي كان يلقيها في المسجد . وبعـد مـرور فترة قـصيرة على إطلاق سراحــه ، أودع الشـقاقي السجن مرة ثانية لقيامه بتهريب أسلحة ، ولاثارة أعمال العنف . لكن الوقت كان متأخراً .

فـالهجـوم الارهابي الأول الذي نُـسب علانية الى منظمة الجهاد الاسلامي وقع بعد مرور بضعة شهور على سجنه . ففي شهر تشرين الأول ١٩٨٦ ، قام أعضاء المنظمـة بالقـاء قنبلة يدوية على مجمـوعـة من أقارب أفراد مجندين في لواء المشاة

الاسرائيلي كانوا يحضرون مراسم حلف اليمين عند حائط المبكى في القدس . وقد حدث الهجوم في موقف للسيارات مجاور للحائط ، لكن هذا لم يُخفِ حقيقة ان منظمة الجهاد وجهت ضربتها بالقرب من واحد من أكثر المواقع اليهودية مهابة ، أو ان ذلك الهجوم كان ضد المدنيين لا العسكريين . وقد نجم عن الحادث مقتل والد أحد الجنود ، كما جرح أحد عشر آخرون . وكان هناك شيء آخر مختلفاً فيما يتعلق بهذا الهجوم ، اذ ان منظمة فتح ومنظمة الجهاد الاسلامي خططتا له معاً : فقدمت م. ت. ف. الأموال والسلاح ، في حين قدمت منظمة الجهاد الاسلامي الرجال .

بين عامي ١٩٨٦ ـ ١٩٨٨ صعّدت منظمة الجهاد الاسلامي أعمالها الارهابية. وعلى النقيض من الاخوان المسلمين ، فان الجهاد تعاونت مع م. ت. ف. على الرغم من انها ليست عضوا في القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة . ففي عام ١٩٨٨ اتهم يغآل كارمون مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي لشؤون الارهاب احدى الوحدات العسكرية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، والمعروفة بـ «لجنة الـ ٨٨» انها كانت المسؤول المباشر عن عمليات الجهاد الاسلامي في المناطق . ويقول المسؤول الاسرائيلي : «لم تكن المنظمة الأولى التي انضمت الى الانتفاضة منظمة فتح التابعة لعرفات ، وانما منظمة الجهاد الاسلامي ، فقد كانوا أول من عرف بها ، وأول من قفز الى عربة الموسيقى ، وأول من شجعها» .

في الواقع ، ومن أجل تعزيز ودعم ادعائها بأنها فجرت الانتفاضة ، فان منظمة الجهاد تدعو أصحاب المحلات لاعلان الاضراب واغلاق حوانيتهم في يوم يختلف عن اليوم الذي تحدده م. ت. ف. وحماس ، اللتان تحتفلان بيوم ٩/ ١٢ كيوم ذكرى انطلاق الانتفاضة ، في حين ان منظمة الجهاد تطلب من الناس الاحتفال في اليوم السادس من كل شهر بذكرى الانتفاضة ، لأنها تعتبر السادس من تشرين الاول ١٩٨٧ اليوم الاول لبدء الانتفاضة . ففي ذلك اليوم ، قتل اربعة من الفلسطينيين في حي الشجاعية في مدينة غزة . وقد زعمت السلطات الاسرائيلية ان القتلى الاربعة كانوا أعضاء في منظمة الجهاد الاسلامي ، وقد عثر بحوزتهم على بندقيتين من طراز م ـ ١٦ ، ومسدسين ، وقنبلتين يدويتين ، وعدد من مخازن الذخيرة ، ومواد متفجرة ، وادعى الجنرال يتسحاق مردخاي قائد المنطقة الجنوبية

ان الخلية كانت تستعد لشن عملية عسكرية واسعة النطاق ضد اهداف اسرائيلية في المنطقة .

لكن عبدالعزيز الرنتيسي يفند ادعاء منظمة الجهاد الاسلامي ، اذ يقول مؤكدا : «ان القرار كان بان تبدأ الانتفاضة تحت اسم حماس ، وكنا نستعد لذلك منذ مدة طويلة» . ومع ذلك ، فان لدى المسؤولين الاسرائيليين رواية اخرى ، فهم يعتقدون ان كلا من فتح وحماس كانتا تلعبان (الزقطة) مع الجهاد الاسلامي . فخلال الاسابيع التي وقعت فيها الحوادث في شهر كانون الاول ١٩٨٧ ، أدركت فتح الخطر الذي يمكن ان ينجم عن عزل شبيبتهم لحركة الجهاد الاسلامي وإنْ لم يسمحوا لهم بالمشاركة في معارك الشوارع . في البداية كان هناك رشق الحجارة ، ثم قنابل المولوتوف .

ويوضح المسؤول الاسرائيلي : «ثم شاهدنا عام ١٩٨٨ تغيرا دراماتيكيا في سياسة الاخوان المسلمين . لقد اعتقدنا انهم تعلموا من درس سنة ١٩٨٤ حينما قمنا بسجن زعمائهم . وبعد مرور سنة ونصف على اطلاق سراحهم ، لم تكن هناك أي محاولة لاعادة تنظيم انفسهم مرة ثانية كجماعة ارهابية . وكل ما رأيناه كان نشاطات دينية ومدنية في المساجد» . ولكن مع بدء الاستعداد للانتفاضة كما يقول هذا الاسرائيلي «قالوا ـ فجأة ـ في شهر شباط ١٩٨٨ [لحظة واحدة ، دعونا نبني فرعا مسلحا ، ذراعا عسكريا مثل فتح] . وكما تعرف ، فان منظمة فتح لها فرع سياسي ، وآخر عسكري . وفي بعض الاحيان فان الاشخاص انفسهم يقومون بالعملين ، وخير مثال على ذلك ابو جهاد [قائد م. ت. ف. داخل المناطق] وقالوا : [دعونا نقيم نظاما يكون مسؤولا عن اعمال العنف : العنف المدني والعنف الارهابي]» . ويدعي الاسرائيلي هذا ان الشيخ ياسين أُجبر في شهر شباط ١٩٨٨ على الخضوع لمطالب أتباعه بانشاء جناح عسكري بعد أن اوجدت الجماعات القومية القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة التي أكدت حقها في ادارة شؤون هذه الانتفاضة . كان ذلك خلال اجتماع عقد في ذلك الشهر في منزل الشيخ ياسين حينما تم وضع البنية الاساسية للحركة السرية الجديدة التي كان اسمها (حماس).

في البداية ، حاول الاسرائيليون تشجيع هذه المنظمة ، معتقدين ان حركة حماس

الجديدة ذات الشعبية سوف تساعد على تقويض م. ت. ف. ويشير شيف وياعاري في كتابهما [الانتفاضة : القصة السرية للثورة الفلسطينية] إلى ان الجيش الاسرائيلي نادراً ما كان يتدخل لدى منظمي الاضرابات التي تدعو حماس اليها ، والذي رأى فيها ان أصحاب المتاجر يبقون متاجرهم مغلقة خلال الأوقات التي تأمر فيها القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة بابقائها مفتوحة . كذلك ، يكشف المؤلفان النقاب عن أنه في الوقت الذي كانت فيه م. ت. ف. ممنوعة من الحصول على الأموال من خارج المناطق ، فان الادارة المدنية لم تتدخل في تدفق الأموال من الأردن الى حماس «بل حتى انها كانت تسمح لمبعوثين من الاخوان المسلمين على مستوى عال بالحضور من عمان من أجل التشاور» . ويستنتج المؤلفان ان الاسرائيليين نجحوا في زرع الشكوك والشبهات في أوساط زعماء القيادة الوطنية الموحدة ، الذين اعتقدوا ان حركة حماس مسموح لها بشكل مقصود بأن تزدهر وان تقوى وبذلك تتمكن من الانطلاق ضد م. ت. ف. «محولة الانتفاضة الى حرب أهلية» .

واستمرت السياسة الاسرائيلية المبدئية المتساهلة نحو حماس . وحينما بدأت السلطات الاسرائيلية اتخاذ اجراءات صارمة ضد الاصوليين بدأت مع حركة الجهاد الاسلامي . ففي شهر تشرين الأول ١٩٨٧ اتهم الحُكْمُ العسكري الشيخ عبد العزيز عودة بالتحريض والاثارة خلال صلاة الجمعة في قرية بيت لاهيا الواقعة إلى الشمال من مدينة غزة . ووجهت التهمة اليه رسميا بعد مرور شهر على ذلك ، وتم ابعاده في شهر نيسان ١٩٨٨ .

ولم تتخذ الاجراءات الصارمة ضد حركة حماس الاّ عند منتصف فصل الصيف حينما لم يُترك أمام الاسرائيليين أي خيار آخر .

عند تلك المرحلة ، أدركت اسرائيل للمرة الأولى ان مساعيها الرامية الى إيجاد بديل غير عنفي لمنظمة التحرير الفلسطينية في غزة قد باءت بالفشل .

فالفقاعة انفجرت ، ولم يعد هناك أي مجال للتوهم أو للانخداع فيما يتعلق بالاصوليين الاسلاميين . يقول المسؤول الاسرائيلي : «في شهر آب ١٩٨٨ اعتقلنا المجموعة الأولى من الاخوان المسلمين بتهمة الارهاب في غزة ، فقد قاموا بوضع متفجرات في منطقة تقع الى الشمال من غزة» . كذلك اكتشفت الشين بيت انه تم

تأســيس ذراع عسكري جديد يحمل اسم «مجاهدو فلسطين» ويتألف من أكثر من مــائتي شــاب ، وكـانوا يجهّـزون مخازن من الأسلحة والمتفجرات . ان الفارق بين حماس وبين الاخـوان المسلمين ان الشـيخ ياسين حاول بجد ان لا تكون له علاقة بالموضوع على الأقل في غزة .

وبدءاً من شــهر تموز وحتى أيلول ١٩٨٨ تمت محاكـمة وسجن ما يزيد على مــائة من زعماء حماس . وقـبل عـدة شــهـور ، واذ تشكلت هناك قناعة بانه كان واحــداً من زعماء الثورة الرئيسين ، قامت السلطات الاسرائيلية باعتقال عبد العزيز الرنتـيسي . ففي ١٥/١/١٩٨٨ حـكم عليـه بالســجن لمدة سنتين ونصف السنة ، قـضى ثمانيـة شــهور منها في معتقل أنصار ٣ (مـركـز الاعتقال في كتسيوت) في الـنـقـب والـبـاقي في ســجن غـزة ، وفي ســجن كـفـار يوحنا . وأطلق سراحــه في ٤/٩/١٩٩٠ لكنه لم يلبث أن أعـيـد الى الســجن بعـد مـرور شهرين على اطلاق سراحه . ولم يبد ان أي خطوة قد عملت على اخماد الحماس لدى المنظمة الأصولية الجديدة .

وبســجن قيادتها في معسكر انصار ٣ ، اسـتمرت حماس بالعمل وفقا لميثاقها المعلن في ١٨/٨/١٩٨٨ ، والذي حـدد في صـفـحاته الأربعين الموقف الايديولوجي للجماعة . فقد أعلن الميثاق ان الجهاد «التزام شخصي» وان التحرير يجب ان يكون كـامـلا «من البـحـر الى النهر» . ويؤكد المسؤول الاسرائيلي ان الميثاق أشار الى ان «حركة حماس هي فرع حركة الاخوان المسلمين في فلسطين ومسؤولة عن النشاط العـسكري . ان هذا يعني ان كل [حماسي] هو أخ مـسلم ولكن ليس كل أخ مـسلم حماســياً !» ويشير الى الشيخ بسام جرار ، وهو زعيم اسلامي في رام الله ، كمثال على ذلك : «فهو يقف على السياج بين الطرفين ، وهذا هو السبب في انه ، حتى هذه اللحظة ، لم يسجن أو يعتقل» .

لكن مـيـثاق حماس ـ كما يوضح شيف وياعاري في كتابهما ـ قد مثّـل ما هو أكـثـر من صرخـات تظاهر من القـيـادة المسجونة . فقد كان ، كما لاحظا «معادلاً للتلويح بعلم أحمر أمـام القـومـيين ، الأمـر الذي كـان يعني التـخلي عن الميـثـاق الفلسطيني الموجـود منذ مدة طويلة ، والوقوف الى جانب المأسسة الشكلية لحركة المقاومة الاسلامية كوجود سياسي مستقل ذي عقيدة خاصة به على نحو محدد» .

وفي ٢١/٩/ ١٩٩٠ وقعت فتح وحماس «ميثاق شرف» يتعهد بانهاء الاقتتال بينهما . وما كاد الحبر يجف ، حتى وصلت من غزة التقارير التي تتحدث عن وقوع أعمال العنف بينهما .

في غضون أقل من شهرين ، في ١٤/١٢/ ١٩٩٠ ، حكم على عبد العزيز الرنتيسي بالسجن لمدة سنة أخرى بتهمة التحريض على العنف ، وأعيد الى معتقل أنصار ٣ . وهناك ـ كما يقول ـ اشترك في زنزانة ضيقة مع معلّمه الشيخ أحمد اسماعيل ياسين الذي كان قد اعتقل مع مائتين وستين شخصاً من نشطاء حماس في شهر أيار ١٩٨٩ . ويستذكر عبد العزيز انهما كليهما فُصلا عن السجناء الآخرين لأن الاسرائيليين «شعروا انني كنت فاعلا جداً بين أوساط السجناء ، أعلّمهم و ... الخ» . وخلال الفترة الواقعة بين شهري تشرين الأول وكانون الأول من عام ١٩٩١ وضع في الحبس الانفرادي . يقول عبد العزيز بمرارة عن ذلك : «رفضت الوقوف لأمر سجن أنصار ٣ بسبب قناعاتي الدينية ، فديننا يمنعنا من الوقوف لأي شخص باستثناء الله . هذه هي العدالة اليهودية» . وأطلق سراحه في ١٢/١٢/ ١٩٩١، وبعد مرور شهرين على ذلك انتخب لعضوية اللجنة الطبية في غزة .

ولا يخفي عبد العزيز حقيقة ان تأييده لحماس مستمر حتى انه ليصبح ضريبة شخصية . فكمعارض لأي محادثات سلام مع اسرائيل ، يشعر عبد العزيز بمزيد من القلق اليوم تجاه سعادة أبنائه أكثر مما يشعر بالقلق تجاه الخطر الموجود دائمًا بأن يُسجن ، اذ يقول : «أخشى من أن يقوم شخص ما بمهاجمة أطفالي أو أن يجبرهم على أن يصبحوا مخبرين ... انه لأمر سهل جداً بالنسبة الى الموساد أو الشين بيت ... ولذلك فانني طوال الليل والنهار أضع أولادي تحت مراقبة دقيقة : أراقبهم ، أصطحبهم الى المدرسة وأعيدهم منها . ثم بعد ذلك ، أقفل أبواب غرفهم بنفسي . هل يمكنك ان تتخيل أي نوع من الحياة هذا ؟ انه أمر شاق جداً جداً . ان والدتي تقضي الليالي بدون نوم لانها تسمع أصوات سيارات الجيب وهي تعبر الطريق» معتقدة انهم قادمون لاعتقاله مرة ثانية . «أي وجود هذا الذي يُقتل فيه الأطفال ، ويطلق فيه الرصاص على الناس المسنّين ، وتدمَّر فيه البيوت دائمًا ؟» لكن المعاناة الشخصية لم تضعف حماسته للقضية الاصولية .

ويوضح عبد العزيز ان الخلاف مع م. ت. ف. يتمحور حول قبولها بحل لدولة مزدوجة ، ويقول : «أرض فلسطين وقْـف اسلامي ، وغير مسموح بالتخلي عن أي جـزء أو جماعة أو جيل منه على الاطلاق ... ان اقامة دولة فلسطينية على جزء من فلسطين أمـر مـقـبـول لدى حماس شريطة ان لا يكون ذلك على حـسـاب الأجزاء الأخـرى ... ان حـركـة حماس لا تقـبل الاعتراف باسرائيل» . وهو يقـول ذلك على النقيض من حركة الجهاد الاسلامي التي تتعاون مع الجماعات القومية العلمانية ، والمواليـة لايران . ويضيف عبد العزيز ان الهدف بعيد الأمد بالنسبة الى حماس هو «دولة اسـلامـية ، لكن الهدف الحالي هو فضح التصرفات غير الانسانية للسلطات الاسرائيلية» .

ويضـيف محمـود زهار الباحث الاسلامي في الأزهر : «نحن نعيش في دوائر ... الدوائر الأصـغـر داخل الدوائر الأكبر ، وكلها مُتَضَـمَّـنَة في دائرة اسلامية كبيرة . ليس هناك من تناقض بين ان يكون الانسـان فلسطينيـاً ، وعـربياً ، واسلاميا لأن فلسطين كـانت دائمًا جزءا من الأرض العربية الأكبر . وعلى امتداد ألف وأربعمائة سنة ، كان العرب جزءاً مهما جداً في قلب الأرض الاسلامية» .

ويقـول عـبـد العـزيز ان نظام عبد الناصر سقط لأنه كان نظام الجاهلية ، وان الدول العـربيـة كلهـا ـ باسـتـثناء السـودان التي يوجد فيها نظام اسلامي ـ تقع ضـمـن هـذا التـصنيف . ان ولادة الاسـلام من جـديد سـوف تتم حـينما «تبني الحـركـات الاسـلامـيـة في مختلف أنحـاء العالم ـ في مصر ، والأردن ، والجزائر ، واليمن ـ قاعدة شعبية عريضة ، وحينما تنجح في نشر الاسلام على امتداد مختلف قطاعـات المجـتـمع العـربي على الرغم من وجـود الشـيـوعيين ، والقادة القوميين وغيرهم» . ويقـول : ان التـاريخ يقف في صف الاسـلام «فـالنواة الأولى كـانت في السـودان ، والثانية في الجزائر . ان هذه [النوايا] سوف تلتحم وتندمج ببعضها» . ويضـيف ان الديمـقـراطية تشكل خطراً على الزعماء العرب ، وإنها لو انتصرت في الجـزائر في مطلع عام ١٩٩٢ ، لأصـبح ذلك الشـعب دولة اسلامية . ويتكهن عبد العـزيز بان الديمـقـراطيـة سـتـوصل القادة الاسلاميين الى السلطة حتى في مدن الضـفـة الغربية المسيحية تقليدياً . ويشير الى انتخابات غرفة التجارة التي أجريت في رام الله في شـهر آذار من عام ١٩٩٢ اذ فـازت قائمة حماس بعشرة مقاعد من أصل أحـد عشر مـقـعداً . ان ذلك الانتصار ـ الهزيمة الأكثر خطورة بالنسـبة الى

القــومــيين الموالين لمنظمة التحرير الفلسطينية في مدينة كانت تعتبر دائمًا معقلهم ـ عكس مــعــدل النمــو المتــزايد بين اوســاط المسلمين في الضفة الغربية ، والزيادة في هجرة المسيحيين . لكن النتائج تصادق أيضاً على القوة المتنامية لحركة حماس على امــتــداد المناطق . وحــتى نشطاء فــتح يعترفون ان الجماعة الاسلامية تحتل اليوم المرتبــة الثــانيــة من حــيث الشعبية ، وانها تتقدم بسرعة . ولعل احد المؤشرات الى سلطتها المتنامية هو اتفاق الصلح الذي شعرت م. ت. ف. انه يجب عليها التفاوض عليــه مع حماس بعد عدة أيام من العنف المتجدد في غزة والتي ذهب ضحيتها قتيل في مخيم الشاطىء ، وهددت بالتحول الى حرب أهلية . وقد قام حيدر عبد الشافي ـ رئيــس الــوفــد الــفــلــســطيني المفــاوض مع اسرائيل ، وهو رجل جليل ، ويحظى بالاحترام ـ بتــوقــيع اتفاق شهر تموز ١٩٩٢ نيــابة عن م. ت. ف. كما قــام عــبد العــزيز الرنتــيسي بالتوقيع نيابة عن الاصوليين الاسلاميين ، وقد كان ذلك اشارة واضحة الى سلطاته الشخصية المتنامية .

تعــتــقــد حماس ان المحــادثات الفلسطينيــة ـ الاسرائيليــة سوف تفشل في منح الفلسطينيين اســتــقــلالاً حقيقياً أو دولة ، وبالتالي فان المناطق سوف تبقى أرضاً خــصــبــة لحــشــد التأييد لها [لحماس] ، بل ان محــمــودا الزهار يتنبأ بأن عملية الســلام الحالية سوف تعاني من المصير نفسه الذي عاناه نظام عبد الناصر ، وان «الصــدمــة [حــينما تفشل] ستكون بحجم صدمة هزيمة ١٩٦٧» . ويــقــول : ان الحكم الذاتي «ليس مقبولا لدى غالبية الفلسطينيين» ويضيف : انه اقتراح اسرائيلي يهدف ببــســاطة الى إدامة الحكم الاسرائيلي : «فهم يعتبرون أرضنا أرض اسرائيل ، فكيف يمكنهم ان يعطونا فترة انتقالية حقيقية [نحو دولة فلسطينية] ؟»

وبالنســبــة الى الأصــوليين ، فــان اتفــاقــا اسرائيليا ـ فلسطينيا هو مصدر همّ حــقــيقي اذ انه سيعمل فقط على اعاقة وتأخير هدفهم الأساسي ، وعلى نحو خاص اذا بدأ الفلسطينيــون يشــعــرون ان حياتهم تغيرت وتحسنت على الصعيد المادي . ويتكهن عــبــد العــزيز ان القــضــيــة ليــست قــضــية كم سيحصّــل الفلسطينيون ويكســبــون من السلطة حــينما يتــسلمون حكمًا ذاتياً ، لأن النتائج ستكون كارثة بالنســبــة الى الشــعب العــربي ، اذ سيتم انهاء الانتفاضة ، ومئات من المستوطنين اليــهــود سيبقون في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ولن يكون أمام الأنظمة الضعيفة في الوطن العربي أي خيار سوى اقامة «علاقات طيبة» مع اسرائيل .

ومن خلال عملية السلام الحالية ، فان الفلسطينيين سوف يُـخدعون مرة ثانية اذ يصرح محمـود زهار «نحن أصحاب الأرض الحقيقيون ، والحل الوحيد بالنسبة الينا هو الحـصـول على حـقوقنا ... وسنعمل على اقامة دولة اسلامية» . ويضيف عـبـد العزيز الرنتيسي انه حتى لو نجحت محادثات السلام ، فان ذلك سيعمل على تعـمـيق عـدم التـوازن الموجود بين الشعبين اليهودي والعربي : «ستكون اسرائيل قـوية وسـيكون الفلسطينيـون ضـعـفـاء» . وبرغم ذلك ، فـان محادثات السلام ستكون مرحلة مؤقتة لأن الله وعد في القرآن بان المسلمين سوف يتحدون في دولة اسـلامـيـة وبعد ذلك فقط ستعود فلسطين . انها ليست نبوءة ، ولكنها كلمة الله ، كما يقول عبد العزيز الرنتيسي .

رياض المالكي



● رياض المالكي يناقش مشروعا في الهندسة المدنيه مع احدى طالباته .



● رياض المالكي جالسا على مكتبه في احد الصفوف في جامعة بيرزيت ، حيث يقوم بتدريس الهندسة المدنية وتخطيط النقل .

رياض المالكــي

لدى وصــولك الى مكتب رياض المالكي ، تفاجأ برؤية مجموعة من الاسرائيليين وهم يودعـون الناطق غير الرسـمي للجـبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، كما تفاجأ ايضـا لسماعك الاسرائيليين وهم يشكرون بحـرارة ذلك الشـاب البـالغ من العـمر سـبـعـة وثلاثين عـامـا لاتاحـته الوقت للقائهم في شقته الواقعة في شارع الزهراء الهادىء في القـدس الشرقـية . هناك يلتقي رياض زوّار (البانوراما) مركز البحوث الذي أقـامـه للصـحـافـيين والدبلومـاسـيين الأجـانب . ولدى مـغادرتهم ، يقول الاسرائيليـون لرياض انهم يرغـبون في الالتقاء مرة ثانية ، ويطلب منهم ان يتصلوا به بعـد اسـبـوعين أو ثلاثة ، بعـد ان يعـود من جنيف حيث من المقرر ان يحضر مـؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتعاون . تصافحوا بالأيدي ، وذهب رياض وزواره كل في طريقـه : المجـموعة الصغيرة من مواطني الدولة اليهودية ، وعضو الجماعة التي تؤيد حـرب الفـدائيين لتـدمير اسرائيل ، الشعب الذي تسميه الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين «الكيان الصهيوني» .

ويتأكـد رياض من ان الصـحـافي الذي يقف منتظرا يسـمع عن نيته للسفر الى جنيف . ولسنوات عـديدة ، وبالفعل حتى شهر كانون الاول ١٩٩١ ، كان رياض ممنوعـا من السـفـر الى أي مكان من قـبل السلطات الاسرائيلية ، اذ قالوا انه كان عـضـوا بارزا في القـيادة الوطنية الموحدة التي تدير الانتفاضة وتوجهها ، وقياديا بارزا في الجـبـهـة الشـعـبـيـة لتـحـرير فلسطين في المناطق ، وقد ساعد في كتابة المنشـورات السرية التي تعطي التـعليمات اليـومـية للشبيبة المتعلقة برشق الجنود بالحـجـارة في الميدان . ولمدة شهر ، في تشرين الثاني ١٩٩٠ ، اعـتقل الاسرائيليون رياضا ، وأودعوه في الحبس الانفرادي في سجن المسكوبية في القدس .

لدى النظرة الاولى ، فـانه من الصـعـوبة بمكان التوفيق بين مظهر البروفيسور المـهـنـدس حـسـن المظهـر ، الواثق بنفسـه ، دمث السلوك وبين أعمال الارهاب الدرامـاتيكيـة للجـبـهـة الشعبية لتحرير فلسطين : خطف ثلاث طائرات مدنية الى الاردن في ايلول ١٩٧٠ (طائرة بان اميركان ٧٤٧ ، ترانس وورلد اميركان ٧٤٧ ، وطائرة جامبو BOAC) وقتل ستة عشر يهوديا منهم ثمانية من أطفال المدارس في

بلدة كريات شمونا في شمال اسرائيل ، وقتل رئيس بلدية نابلس ظافر المصري في شهر آذار ١٩٨٦ ، وقتل سبعين فلسطينيا مؤخرا بتهمة التعاون مع العدو ، على يد مجموعة «النسور الحمر» وهي فرقة الاغتيال التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

ان هذه الجبهة لم تخف على الاطلاق تأييدها «للكفاح المسلح» وكانت عنيدة ومتصلبة في مطالبتها باستعادة فلسطين كلها : من النهر حتى البحر . وحينما تجرأ المجلس الوطني الفلسطيني على الاعلان عام ١٩٧٤ عن قبوله بدولة مصغرة على أي جزء من فلسطين يمكن «تحريره» انسحبت هذه الجبهة من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية احتجاجا على ما اعتبرته خطوة نحو حل لاقامة دولة مزدوجة ، وشكلت جبهة الرفض ، ولم تعاود الانضمام الى المنظمة الا في عام ١٩٨١ .

واليوم ، تبدو هناك شخصيتان تسميان رياض المالكي : واحدة خاصة ، والثانية عامة . على الصعيد العام ، فان رياضا أحد الناطقين باسم المعارضة الفلسطينية لعملية السلام الجارية ، اذ يقول لوسائل الاعلام انه ليس من المعقول بالنسبة الى الفلسطينيين ان يتفاوضوا حينما تكون كل الاوراق مكدسة ضدهم : فمنظمة التحرير الفلسطينية معزولة سياسيا واقتصاديا ، والعرب منقسمون فى أعقاب هزيمة العراق في حرب الخليج ، والاتحاد السوفييتي والكتلة الشيوعية محطمان ، والقوة العظمى الوحيدة الموجودة ـ الولايات المتحدة الامريكية ـ قادرة على فرض ارادتها ورغبتها : «انه الوقت الافضل بالنسبة الى الامريكيين والأسوأ بالنسبة الى الفلسطينيين» هكذا يقول رياض ، مشيرا الى انهم اضطروا الى تشكيل وفد واحد مع الاردن «وكأننا غير ناضجين بما فيه الكفاية لتمثيل أنفسنا» . ويضيف انه لايعتقد ان هناك زمنا منذ الحرب العالمية الثانية كان الفلسطينيون خلاله في وضع ضعيف اكثر مما هم عليه الان بعد حرب الخليج ، ويقول ان امريكا أملت الشروط وهي شروط مذلة : فقد استبعدت م. ت. ف. من العملية ، ولم يسمح لأهل القدس الشرقية بالمشاركة ، ويعامل الفلسطينيون على انهم شعبان منفصلان ، موصدين الباب في وجه ثلاثة ملايين ونصف المليون من فلسطينيي الشتات ، والأسوأ من هذا كله ان النتائج مقررة سلفا . يقول رياض :

في كـتاب التطمينات الرسمي الذي قدمته ادارة بوش الى الفلسطينيين والاسرائيليين «قـال الامـريكيـون ان الحل الافضل هو الاتحاد الكونفدرالي مع الاردن . وقالوا لا لدولة فلسطينيـة مـسـتقلة ، كما قالوا لا لحق تقرير المصير للفلسطينيين» . وحتى اعـضاء الوفد الفلسطيني المفاوض البالغ عددهم أربعة عشر شخصا كان يجب ان توافق اسرائيل عليـهم مقدما ، كما يقول رياض : «ان هذا شيء لم يحدث اطلاقا في التاريخ : عدوك يختار وفدك المفاوض» .

ان الفلسطينيين يريدون حـلا ، ولكن ليس مجرد «أي حل» كما يؤكـد رياض . لقـد قـتل مـا يزيد على الألف شـخص خـلال فترة الانتفاضة ، كما جرح عشرات الآلاف ، والعـديدون منهم شُوهوا وأصيبوا بالشلل وأُقعدوا مدى الحياة . ويوضـح ان هذه التـضـحـيـات لم تكن ناشئة عن فـراغ ، وانها بالتأكـيـد لم تكن من أجل الحـصول على شكل معين من الحكم الذاتي المحدود الذي يعمل على إبقاء الاحتلال الاسرائيلي: «انهم لم يقـدمـوا حياتهم من أجل الحكم الذاتي ... ان ابني أو ابنتي أو شـقـيـقـي أو والـدي مـات وهـو يـرفع العلم الفلسطيني من أجل ان يبنوا فـوق أجسادهم دولة ، دولة فلسطينية مستقلة !» .

وفي المقـابلات التلفـزيونيـة والصحافية ، يظهر هذا العنف والاتقاد ، والترحيب بقـبـول أي شيء لا يقل عن حل واضح تام ، أو كما يقـول ، فـقط «سـلام شامل وقـوي يحقق العدل بالنسبة الى الفلسطينيين» . هذا ما يحكم موقف رياض المالكي المبـدئي المعـارض لمحـادثات السـلام العـربية الاسرائيلية . ويتساءل : لماذا يُجبَـرُ الفلسطينيـون على قبول ما هو أقل مما تقبله أي جماعة قومية أو عرقية أخرى في العـالم؟ «ان نظام الأبارثيـد يتـفكك ، وها هي ناميبيا تحصل على استقلالها ... ان الحـروب في انغولا ، وموازمبيق ، وأفغانستان» قد عملت على تحرير هذه الشعوب «والـشـعـب الـوحـيـد الـذي مـا يزال يناضل من أجل الاسـتـقـلال هو الشـعب الفلسطيني». ويحذر رياض بنزعـة مميـزة من ان «يبـقى الفلسطينيـون آخر تلك الشعوب . سنكون شوكة في جنب كل شخص» .

هذا هو رياض المالكي (العـام) والعلني (الجـبـهـة الشعبية لتحرير فلسطين) . وسرا خلف الكواليس ، هناك رياض مـالكي ثان ، يظهـر في اماكن أقل لفتا للنظر ، مـثل صـالونات القـدس حـيث يتم اتخاذ القـرار الفلسطيني للجـولة القـادمة من

المحادثات مع اسرائيل . والمثير للدهشة ، أن رياضا المالكي هناك ايضا . ان ما يتحدث به رياض الى فيصل الحسيني في جو السرية الذي يحيط بمناقشاتهما المتكررة يختلف بشكل ما عن موقفه المعلن ضد محادثات السلام . ويقول عضو بارز في الوفد الفلسطيني : «يقول لنا انه سينضم الينا اذا تغيرت الظروف ... ان رياضا يحضر اجتماعاتنا كلها ، تلك الاجتماعات التي نبحث فيها قضايا سياسية . انه هنا ، وحنان [عشراوي] هنا ، وغسان [الخطيب] هنا ، وفيصل هنا» . ومع ذلك ، فان رياضا حذر ، فهو يتجنب الرهان ، ويبقي خياراته مفتوحة ، ويقول بتهذيب : «لا أعتقد ان هذا سيجدي» أو أنه يقول : «ان تفعل هذا ، ربما يجدي الامر نفعا ، لكن لا تفعل ذلك» .

ولا يعمل رياض المالكي (الخاص) على الحد من المشاركة في جلسات ما قبل التفاوض التي تعقد في منزل فيصل الحسيني . ووفقا لمصادر من الوفد الفلسطيني ، فقد طلب رياض ـ الناطق باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وتسلم بشكل منتظم ـ ملاحظات حرفية لمن تكلم ، وبماذا تكلم كل شخص حينما التقى الوفد الذي يقوده الحسيني مع وزير الخارجية الامريكي بيكر ، وتسلم وقائع كل جلسة من جلسات الحسيني ـ بيكر «اجتماعا فاجتماعا» . وبعد ذلك ، أطلع رياض زملاءه في الجبهة على مضامين المحادثات الرسمية مع الولايات المتحدة الامريكية ، ومن ثم أصدر بيانا عاما كان شديد الانتقاد . ويقول احد اعضاء الوفد : «ولكن حين نجلس مع بعضنا ، فانه [رياض] كان يقول : [حسنا أي شيء تستطيع الحصول عليه ، احصل عليه ! لن نشارك ، بالطبع، ما لم تحدث ظروف جديدة لمحادثات السلام لاننا وعدنا أناسنا بذلك]» . ويوضح أن دور الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ليس الاسود والابيض . دعني اوضح لك : «انهم يمتلكون قوة سلبية ، فبامكانهم ان يثيروا المتاعب في وجه أي شخص . انهم لا يستطيعون ايقافها [عملية السلام] ولكن يمكنهم خلق متاعب» .

حتى الاسرائيليون يلاحظون وجود تغيير . فرياض المالكي (العام) يظهر كثيرا في مؤتمرات صحفية ومحاضرات مشتركة مع فتح ، ومع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين/جناح عبد ربه ، ومع الفصائل الاخرى التي تؤيد عملية السلام . يقول قيادي من فتح : «نحن مهتمون بالظهور معاً منذ مدريد وبشكل اكثر من ذي قبل ... لدينا ايديولوجيتان مختلفتان ، ولكننا نظهر على منصة واحدة» .

وبرغم هذا ، وعلى النقـيض من فتح ، فان البرنامج المعلن للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ كما أوضحته قيادتها في دمشق ـ يبقى متصلبا ضد الاسرائيليين :

* وافـقت فـتح ، التيار السائد داخل م. ت. ف. والتي يترأسـها ياسر عرفات ، على وجـود اسرائيل وكـان ذلك في شـهر كانون الاول ١٩٨٨ ، في حين ان الجـبهة الشعبية لتحرير فلسطين لا تعترف بوجود دولة يهودية مستقلة .
* وافـقت فـتح على قراري مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ اللذين يعترفان باسـتقلال وأمن اسرائيل ضمن حدود عام ١٩٦٧ شريطة تخلي الدولة اليهودية عن مناطق في مـرتفعات الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة . ان تفسير القرار ٢٤٢ يسـمح بتعديلات في المناطق تتطلبها حماية الامن الاسرائيلي . وقد رفضت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القرار ٢٤٢ كأساس وحيد للتفاوض ، مؤكدة على ان الوثيـقـة تلك تعـامل الفلسطينيين كـلاجئين ولا تضمن لهم حق تقرير المصير . وبالتـالي ، فـان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تطالب بتنفيذ قرارات الامم المتـحـدة الاولى كلها بما في ذلك القرارين رقم ١٨١ و ١٩٤ المتخذين قبل عـدة عـقـود ، واللذين الزما المنظمة الدولية باعطاء الفلسطينيين دولة ضـمن ما يشكل اليـوم جـزءا من اسرائيل ، ووعدا الفلسطينيين «بحق العودة» الى بيوتهم في فلسطين . وتسـمي الجـبهة الشعبية لتحرير فلسطين القرارات الثلاثة (١٨١ ، ١٩٤ ، ٢٤٢) بـ «الشرعية الدولية» .
* شـجـبت فـتح عـلانيـة الكفاح المسلح لتدمير اسرائيل . ومن مقرها في دمشق ، تواصل الجـبـهـة الشـعبية لتحرير فلسطين التمسك بالعقيدة القائلة ان الكفاح المسلح ـ وبشكل رئيس اسـتـخـدام العنف ضـد الاهداف المدنية والعسكرية في اسرائيل ـ يبقى الوسيلة الوحيدة لتحرير فلسطين كلها في نهاية المطاف .

ويعـتـقد مسؤول اسرائيلي رفيع المستوى أن أهالي الضفة الغربية أمثال رياض المالكي قـد تعـبوا من طرح الشعارات ، ويبحثون عن أسس جديدة لبرنامج الجبهة الشـعبية لتحرير فلسطين . ويشير الاسرائيلي الى مقالة كتبها رياض في شـهر تموز عام ١٩٩٢ ونشرت في صـحيفة القدس ـ الصحيفة الفلسطينية الوحيدة في الضـفة الغـربيـة ، وواسـعـة الانتـشـار والتوزيع ـ ترفض الانحياز الى جانب أي فصيل فلسطيني . وقـد كـتب رياض المقـالة خـلال عـملية الحسم بين الجيش الاسرائيلي

وستة من ارهابيي «الفهود السود» المسلحين الذين كانوا يعملون على تعطيل انتخابات مجلس الطلبة في جامعة النجاح . فعملية الحصار التي استمرت مدة اربعة أيام تم حلها حينما وافق الجيش الاسرائيلي على رفع حصاره عن الاربعة آلاف طالب والفدائيين الستة ، على ان يقوم هؤلاء الفدائيون بالموافقة على :

١ ـ مغادرة حرم الجامعة في نابلس .

٢ ـ الاستسلام للصليب الاحمر الدولي .

٣ ـ ابعادهم الى الاردن (بعد تسليم اسلحتهم) لمدة ثلاث سنوات .

ويقول هذا السياسي الاسرائيلي : «لو لم تكن المقالة كتبت بخطه ، لاعتقدت انها كتبت من قبل وزير الاعلام الاسرائيلي ... انها مقالة مهمة جداً» .

ففي المقالة ، يدين رياض النشطاء الذين هربوا الاسلحة الى داخل الحرم الجامعي ، كما يدين مؤيدي فتح الذين ساعدوهم على ذلك . ويشجب المجموعتين لقيامهما بتهديد الفلسطينيين المنظمين للانتخابات ، بالاضافة الى الطلبة الذين كانوا يحاولون الاقتراع . ويتساءل رياض : «كيف يمكن لنا ان نسمح لاناس مسلحين بخوض الانتخابات؟ .. كيف يمكن لنا ان نطالب بالاعتراف بنا كدولة مستقلة اذا لم نكن قادرين على اثبات اننا قادرون على اجراء انتخابات حرة ، سلمية ، وديمقراطية؟» . وفي مقابلة مع مجلة الوسط ، يعيب رياض على الفلسطينيين الذين سمحوا للاسرائيليين بابعاد الفدائيين الستة ، متهما اياهم بانهم مشاركون في جريمة منفاهم الاجباري . ويخص فيصلا الحسيني متهما اياه انه ساعد رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين «على النزول من أعلى الشجرة [بتزويده] بسلّم» . وتمضي المقالة قائلة ان الصفقة قد جردت م. ت. ف. من ورقة رئيسة استغلتها لحشد الرأي العام العالمي ضد سياسة الابعاد الاسرائيلية . لكن رياضا يؤكد ايضا ان الحرم الجامعي ـ من بين الامكنة كلها ـ يجب ان يكون حراً من كل قوى وتهديدات العنف .

ويقول المحلل الاسرائيلي : «حسنا ، ان المالكي ينتمي الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ويستمتع بمهاجمة فتح ، لكن هناك ما هو اكثر من ذلك لانك تتوقع ان تتخذ الجبهة الشعبية موقفا اكثر تأييدا للنشطاء ، وعلى نحو بارز [للاعلان] عن أنه طالما ان هذه الاسلحة هي أسلحة فلسطينية فدعها هناك» . وعوضا عن ذلك ،

فـانه «يعترف انه كـان هناك اناس مـسلحون داخل الحرم الجامعي ، وانه لا يلوم فـقـط اولئك الـذين دخلوا بأسلحـتـهم ، ولكن ايضـا اولئك الذين سـمـحـوا لهم بالدخـول» . ان هذا الامـر يكاد يتـسق بصعوبة مع تأييد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للكفـاح المسلح . ويضـيف الاسرائيلي : «حتى لو انه كان يتحدث عن مبدأ [عـدم اسـتـعمال القـوة] فان ذلك مَعلَما هاما ... اعتقد ان رياضا المالكي سينحو منحى جـديدا . لا أريد القول ان هناك انقساما في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ولكن بدون شك هناك اتجـاه جديد يمكن ان يؤدي مستقبلا الى انقسام والى نشوء فصيل اكثر براغماتية حتى من فتح نفسها» .

ان التـغير والتـحـول عن الايديولوجية الماركسية ـ اللينينية التقليدية لم يحدث بين عـشـية وضحاها ، فقد كانَ هناك تطور تدريجي نحو سياسة اكثر براغماتية منذ بدء الانتفاضة سنة ١٩٨٧ . وقد كان التغير الرئيس يتمثل في ادراك حقيقة انه على الرغم من ان النزاع الاسرائيلي الفلسطيني وجـودي بالطبـيعة ـ أي ان فلسطين مـستقلة يجب ان توجد بدلا من دولة اسرائيلية ـ فان هناك اعترافا جديدا بان هذا النوع من الحل المطلق لا يمكن ان يُنفَّـذ الآن .

ويوحي الصـحافي الاسرائيلي اوري نير ان التغير يمكن ان يكون اكثر لفتا للنظر حـينما تدرس تصريحات جورج حبش زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قبل وبعد بدء الانتفاضة . ففي عام ١٩٧٦ قال حبش «لن يوجد هناك سلام ما دامت الدولة الصـهيونية موجودة» . وفي عام ١٩٨٣ طرح الاسئلة المنمـقة التالية : «هل يمكننا ان نعـيش مع الصـهـيـونيـة ، حـتى لو أردنا ذلك؟ هل يمكننا الفصل بين اسرائيل والحـركـة الصـهـيـونية ؟ أليست اسرائيل التجسيد المادي ، والعسكري ، والاقـتـصـادي ، والسـيـاسي للحركة الصهيونية ؟ هل نستطيع هزيمة الصهيونية بدون هزيمـة اسرائيل؟» . وفي معرض إجابته عن أسئلته يتساءل حبش : «هل هزم النازيون بدون ان يهزم نظام هتلر ؟» . في عام ١٩٨٥ ـ بعد توقيع اتفاق بين الملك حـسين وعـرفـات ـ توصل حـبش الى «اننا لن نكون قادرين على ضمان مستقبل جـيلنا اذا اسـتـمـرت البـذرة الصهيونية بالوجود على التراب العربي» . وفي شـهر تشرين الثـاني من عام ١٩٨٨ ـ مـع الاقـتراب مـن نهاية السنة الاولى من عـمـر الانتـفاضة ـ بدأ حبش يفرق بين «الحل العادل» و «الحل الشامل» . فقد قال أمام مؤتمر صحفي «آمل انكم تشعرون انني لا أتحدث عن تسوية [عادلة] لانني أعتقد

انه لا توجد هناك تسوية [عادلة] للمشكلة الفلسطينية في هذه المرحلة ، طالما ان التسوية [العادلة] فقط ان تصبح فلسطين عربية مرة ثانية ، مثلما هي مصر عربية ، وسورية عربية . ومع ذلك ، فان تسوية شاملة ستسمح باقامة دولة فلسطينية وبعودة اللاجئين الى وطنهم» . ويشير نير الى ان هذه هي المرة الاولى التي يقبل فيها حبش ضمنيا حقيقة وجود اسرائيل من خلال الايحاء بان على الفلسطينيين ان يقبلوا بدولة . ان حبش لا يقول اين يجب ان تكون الدولة ، وبالتالي تترك مسألة الحدود مفتوحة للمفاوضات المستقبلية . ان اقامة هذه الدولة ومن المحتمل ان يكون ذلك في الضفة الغربية وغزة ، ستكون كافية لتحقيق حل شامل ، كما يقول .

ويتوسع حبش في هذا الموضوع خلال مقابلة أجرتها معه في شهر كانون الثاني ١٩٨٩ مجلة الهدف الناطقة باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ؛ اذ برر الحاجة الى اقامة دولة فلسطينية حتى ولو أنها لم تشمل فلسطين كلها : «ان الظروف العربية والدولية لا تمكننا من تحقيق ما هو اكثر من اقامة دولة فلسطينية على جزء من الارض الفلسطينية ... اننا نرى ذلك انجازا يمكننا الاعتماد عليه لمواصلة كفاحنا . نرى ذلك انجازاً من ناحية ، وبداية انتحار المشروع الصهيوني من ناحية ثانية ... فخلال السنوات الاربعين الماضية ، عمقت الصهيونية جذورها في ارضنا الفلسطينية ، فهل نستطيع تدميرها بضربة واحدة ؟ إن كان الجواب سلبيا ، فعند ذاك يجب ان نتحلى بالشجاعة وان نقول للجماهير انه في حين ان من الصحيح ان فلسطين عربية ، وانه لا يمكن ان يكون هناك على الاطلاق تعايش مع الصهيونية او الكيان الصهيوني ، فانه من الصحيح ايضا اننا لا نستطيع تدمير هذا الوجود الصهيوني بضربة واحدة» .

بالطبع ، فان ايديولوجية تسعى الى تدمير الدولة اليهودية على مراحل ليست اكثر من احتكام الى صناع السياسة الاسرائيليين . ولكنهم يعتقدون ان القضية قضية وقت فقط قبل ان يؤكد زعماء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين داخل المناطق استقلالهم عن القيادة في الخارج ، واتباع انموذج الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التي انقسمت الى فصيلين : الاول ويؤيد عملية السلام ، والثاني الذي يعارضها . ويمثل رياض المالكي وراجي الصوراني ـ احد النشطاء في مجال

حـقـوق الانسان ، والحاصل على جائزة روبرت ف. كيندي لحقوق الانسان بسبب تأسـيسـه لمنظمـة الحق ، وهي هيئة تراقب خـروقـات حـقوق الانسان في غزة ، والعـضـو البـارز للجـبـهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في غزة ـ جيلا جديداً من المثـقـفين المفكرين ، كما يقول مسؤول اسرائيلي بارز : «انهما يلعبان لعبة مزدوجة ... فـداخل غـرفـهم المغلقـة يقـولان انهما مـعها [عملية السلام] لكنهما يواجهان ضـغـوطات الخارج . ان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منظمة جداً ، اذ لا يمكن ان تـكون لك آراء مـعـارضـة وتبـقى في الجـبـهـة . لكن إنْ تسألني ، أقُلْ : انهم يستلقون وهم ينتظرون موت الدكتور . انهم لا يجرؤون على القيام بأي شيء قبل ان يعرفوا ان حبش توفي» .

لم يكن رياض المالكي قـد وُلد بعد حينما أسس جورج حبش ـ وهو مسيحي ، من بلدة اللد ، وتخرج من كليـة الطب في الجـامـعـة الامـريكية في بيروت ـ حركة القـومـيين العـرب في مطلع سنوات الخمسينات ، وقد كانت حركة سرية راديكالية عـارضت الانظمـة العـربية التي كانت قائمة ، وتبنت العقيدة الماركسية ـ المادية . ومع حلول نهاية سنوات الخـمسينات ، كانت الثورة المصرية قد غدت انموذجهم ، تـلـك الثـورة التي أطاحت بنظام الملك فـاروق الموالي للبريطانيين ، وأوصلت جمالا عبد الناصر ، قومي التفكير الى السلطة في القاهرة . وقد أيدت الحركات الجماهيرية كلها الشعارات التي طرحها عبد الناصر المتعلقة بمعادات الامبريالية ، وبالاشتراكية العـربيـة . وكانت حركة القوميين العرب التي أسسها حبش مظلة مناسبة بالنسبة الى غـالبـيـة الفلسطينيين . ولكن قـبل الانفصال الوحدوي بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ أصـبـح من الواضح اكـثـر فـاكـثـر ان شعار عبد الناصر المتعلق بالقومية العـربيـة كـان على خـصـام مع الطمـوحات الوطنية للفلسطينيين من أجل تحرير أرضهم .

أسس جـورج حبش الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في شهر كانون الاول من عام ١٩٦٨ ، بعـد مـرور بضـعـة شـهـور على الهزيمة العربية في حرب حزيران ١٩٦٧ . ولكن لم يمض طويل وقت ، حـتى انفـرط عـقـد تحالف حركة القوميين العـرب الذي كـان وحّد جورج حبش ، ونايف حواتمة ، واحمد جبريل . وقد حدث الانشـقاق ذلك في شهر آب ١٩٦٨ ، حـيث أسس ثلاثتـهم منظماتهم المستقلة عن

بعضها ، وتحت غطاء م. ت. ف. كان حبش يرى ان على الثورة ان تبدأ باثارة مواجهة مع الاردن ، لأن قبول الاردن بقرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ الذي أنهى حرب الايام الستة قد تضمن اعترافا اردنيا باسرائيل داخل حدود ما قبل عام ١٩٦٧ ، الامر الذي كان يعني بالنسبة الى حبش ان الحكومة الاردنية تعقد معاهدة سلام مع اسرائيل مقابل استعادة ٢٢٠٠ ميل مربع من المناطق المحتلة في الضفة الغربية وغزة . لقد استمدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تأييدها من بين أوساط الفقراء الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين ، وبالتالي فان رسالتها القائلة «بانّ على البروليتاريا ان تختار قيادة الحركات الوطنية» راجت بشكل واسع لدى الشباب الفقراء ايديولوجيا . وأخذ حبش ينادي بان الوحدة العربية هي الشرط الضروري المسبق لتحرير فلسطين ، ولكن فلسطينا تلك يمكن ان تحرر فقط بعد ان تكون الجماهير قد ثارت واستبدلت بالانظمة العربية الفاسدة الديكتاتوريات الماركسية .

وعلى الرغم من ان احمد جبريل لم يكن ميالا لشعار حبش المنادي بسياسات عربية راديكالية ، الا انه لم يؤمن ان الوحدة العربية كانت ضرورية قبل ان يتم تحرير فلسطين ، اذ يقول : «لقد حاولت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ان تكون جزءاً من العرب كلهم في كل مكان ... لقد كنا فصيلا فلسطينيا وطنيا ... وكنا بحاجة الى ان تكون لنا علاقات جيدة مع سوريا والعراق» . ولذلك ، أسس احمد جبريل في شهر تشرين الاول ١٩٦٨ جبهته المنشقة المسماة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين/ القيادة العامة .

لقد كان الانشقاق بين حبش وحواتمه ـ الذي أسس الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والتي عرفت فيما بعد باسم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ـ عميقا جداً . يقول ياسر عبد ربه ، وهو احد قياديي الجبهة الديمقراطية : «لقد اعتبرنا عبد الناصر والانظمة العربية المسماة بالتقدمية مسؤولين عن هزيمة ١٩٦٧ . ولكننا شعرنا ان الرد على ذلك كان يتمثل في اقامة منظمة جديدة ، ترتكز على المبادىء الماركسية ، والتي يمكن ان تكون بديلا للناصرية من ناحية ، وللاحزاب اليسارية العربية الارثوذكسية التقليدية من ناحية ثانية» . ولم تؤيد الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين رغبة حبش في

اسـقـاط الانظمـة العـربيـة الموجـودة ، ويوضح ذلك عبد ربه قائلا : «في حين ان التـعامل مع البرجوازيات أمر رديء ، فان هناك شيئا أسوأ ، وهو الاحتلال ... لقد آمنا بان الوحدة كانت ضرورية ، ولذلك تحالفنا مع فتح وسوريا» .

كان رياض المالكي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما حينما وجدت هذه الفصائل ، لكن مـواقـفه اتجاه الاسرائيليين بدأت تتشكل من خلال أحداث حياته . كان رياض جزءاً من أقلية منذ البداية ، وقد ولد في ٣١/ ٥/ ١٩٥٥ فيما يقول عنه انه كان من عائلة مسلمة من «الطبقة الوسطى الدنيا» في بلدة بيت لحم المسيحية . وقد أصبح والده ـ الذي كـان مـعلّما في مدرسة ابتدائية ـ مديرا لمدرسة خاصة في بيت لحم ، وفـيما بعد عُين من قبل الادارة المدنية الاسرائيلية في منصب في دائرة التربية المحلية وكـانت التربيـة تحظى دائما بالاولوية لدى عـائلة المالكي ، اذ يقول رياض مفتخرا عن شـقـيـقيه وشقيقاته الثلاث ؛ «جميعنا ذهبنا الى الجامعات ، وتخرجنا ، بل ان اثنين منا اتيـحت لهما فرصة العمل الجامعي» . ان توفير كل دينار لمساعدة الاسرة لزيادة الامـوال من أجل تعليمـهم ، كان الاولوية القصوى بالنسبة اليه ، وبشكل خاص لانه كان اكبر الابناء كما يقول .

ويسـتـذكـر انه حينما كان في العاشرة من العمر ، كان عليه ان يتخلى عن أثمن ممتلكاته ، وهي مجمـوعـة من آلاف الطوابع الاجنبـيـة جمعـهـا بمساعدة أعمامه الثـلاثة ، الذين كـانوا يكتبون اليه بشكل منتظم من حيث كانوا يعيشون في امريكا الجنوبيـة . يقـول رياض : «كـانت الطوابع بالنسـبـة الي ذات مـعنى خاص جدا ، لكنني كنت مضطرا الى بيعها من أجل الحصول على بعض المال من أجل أسرتي!» . وقـد عـملت تلك التـجربة على إنضاجه اذ يقول : «لقد أعطتني احساسا جيدا جدا بالمســؤوليـة . كنت قادراً على مشاركة والدي في أعبائه لتزويد الاسرة بدخل معين . ان هذا الامر يجعلك تكبر بسرعة ، بأسرع مما هو مألوف» .

بعـد عـودته الى البـيت من المدرسـة ، وخـلال أيام العطل ، كـان رياض يبيع بطاقـات البريد (المعايدة) التي تحمل صور مذود المسيح ، والاماكن الدينية الاخرى الى الآلاف من الحـجـاج المسيحيين والسياح الذين كانوا يزورون مدينة بيت لحم . وحينما أتم الصف السادس ، كان رياض قد جمع مبلغ مائتي دينار . وساعد هذا المبلغ والده على ارســاله الى أفـضل مـدرسة ثانوية في بيت لحم ، كلية تيراسانتا ،

وهي اكاديمية مسيحية خاصة ، تدار وفق النظام الرهباني الايطالي ، الأخوة الفرنسيسكان . وهناك ، اختلط مع أبناء وبنات عائلات أغنى من عائلته ، اذ يقول الآن عن تجربته تلك : «لم يكن ذلك بالأمر السهل وبخاصة اذا عرفت حدود عائلتي» .

ويقول رياض انه كان يبلغ الثامنة من العمر حينما بدأ قراءة المجلات والصحف ، ومن ضمنها : التايم ، والنيوزويك . كان يقضي ساعتين أو ثلاثا وهو يقرأها من الغلاف الى الغلاف . لقد أصبحت المنشورات نافذة له يطل من خلالها على العالم الخارجي ، وحركت شهيته نحو التاريخ والجغرافيا ، وساعدته على تعلم اللغة الانكليزية ، وعَرَّفَته بالثورات السياسية والاجتماعية التي كانت تحدث في كوبا ، والجزائر ، واندونيسيا . يقول رياض : «لقد ساعدتني على ادراك حقيقة لماذا لا تستطيع عائلتنا النهوض بأعباء احتياجاتنا الاساسية ، ولماذا لم يكن باستطاعة والدي ان يكون غنيا مثل أي شخص آخر ، ولماذا كان عليّ ان أعمل للحصول على أموال إضافية» .

لم يكن والد رياض شديد الاهتمام بالسياسة على الاطلاق ، ونادرا ما تناقشا بقضايا الساعة . وبرغم هذا ، فان والده كان مسلما جيدا ، ويمارس شعائر الصلاة يوميا ، وأدى فريضة الحج ، غير ان رياضا لم يكن مهتما على الاطلاق بالدين . كان المسلم الوحيد الذي يدرس في مدرسة التيراسانتا ، ولذلك فانه لم يحضر الدروس الدينية ، وكذلك الأمر بالنسبة لدروس اللغة الفرنسية «بدون أي سبب حقيقي» بل انه رفض حينما اصر والده ـ وكان رياض قد بلغ الرابعة عشرة من عمره ـ على ان يرافقه الى المسجد لاداء الصلاة . غير انه فيما بعد كان يذهب كل يوم جمعة إلى الصلاة ، واستمر في ذلك لمدة عام كامل ، ثم توقف عن ذلك ذات يوم . وحاول والده اقناعه «لكنني أصريت على موقفي ، وانتصرت. كانت تربيته الدينية محدودة ، وتستهدف حشو دماغه بالمعلومات التي تمكنه من اجتياز امتحان التوجيهي ، وبالتالي التخرج من المدرسة . ورياض لايعرف على وجه التحديد السبب الذي جعله يطورمثل هذا الكره للدين ، وان كان يعتقد ان سبب ذلك هو قراءته عن القمع الذي تعرض الفقراء له في بلدان امريكا الجنوبية حيث كانت الكنيسة الكاثوليكية غنية وقوية . ويستذكر : «كنت مهتما بالمشاكل

الاجـتماعـيـة ، وبما كـان يحدث في كل مكان في العالم ، اكثر من اهتمامي بقضاء الوقت في الصـلاة من أجل الصلاة ... ربما كان ذلك بسبب اننا كنا نعيش في بيت لحم ... الجـو في المدرسـة كان مسيحيا ، ورفاقي كانوا مسيحيين ، والجو كله كان مـسـيـحـيـاً» . ومع ذلك ، فـان والده لم يتوقف أبداً عن الضغط عليه للعودة الى الاسلام «لكنه يعرف انه كان يتحدث مع الحائط» كما يقول رياض .

بعـد أن تخرج رياض من المدرسة الثانوية ، أصر الوالد على ان يلتحق رياض ـ البـالغ من العـمـر سبعة عشر عاما ـ بمدرسة سانت جورج في القدس كي يستعد لاجتياز امتحان BCE البريطاني ، والذي يحتـاجـه من أجل الالتـحـاق بالجامعة . وخلال هذه الفترة ، كان انموذج رياض وبطله الزعيم العربي الذي سحر الجماهير في ذلك الوقت : جمال عـبـد الناصر . يقـول رياض : «حـينما كان يلقي خطابا كنا نلتـزم الصـمت» . لقد جذبت فلسفة عبد الناصر المتعلقة بالقومية العربية رياضا ، ولكن على العكس من اليـافعين الآخرين «لم أحاول على الاطلاق ان أحفظ عن ظهر قلب ما قال» . ويسـتـذكـر انه اعتاد الايمان «بقدرة الجماهير بان تعبأ وان تتمرد ضد الانظمة ، وبانه من خلالها يمكننا ان نوحد الشعب العربي كله . لكنني أصبت بخـيـبـة أمل بسبب مستوى استعداد هذه الجماهير . لقد فكرت في انه اذا انتظرت هذه الجماهير حـتى تصل النقطة التي يمكننا عندها البـدء بتـحرك جماهيري نحو تحرير فلسطين ، فانني سانتظر طويلا جداً جداً . كان ذلك حينما بدأت البحث عن بدائل» .

وقد كان هناك حدثان أثرا بعمق في حياة رياض . ففي سن التاسعة عشرة كان عليـه ان يسـافـر الى أمـريكا الجنوبيـة لمتـابعة تعليمه ، وليقضي السنوات الخمس التـاليـة في كـولومـبـيـا ، في وقت كـانت فيه حركات المقاومة هناك وفي الارجنتين وتشـيلي تعـمل على حشد جماهير الفلاحين الذي كانوا ـ على النقيض من العرب ـ يثورون ضد أنظمتهم الحاكمة .

أمـا الحـدث الثـاني ـ الذي وقع مـبكرا ـ والذي عمل على تشكيل مواقفه ، فقد كـان حرب حزيران ١٩٦٧ حـينما وقـعت مـدينة بيت لحم وبقـيـة الضفة الغربية وغـزة تحت الاحـتلال الاسرائيلي إذ تركت أيام الحرب الستة انطباعا عميقا في نفس رياض الذي كـان يبلغ الثـانيـة عشرة من العـمر آنذاك . ويقول ان الحرب ودوره

الصــغير فــيـها علمته درساً مذهلا ، وهو انه ليس من الصحيح ان الاسرائيليين لا يقــهــرون . ويســتــذكــر : «لقد اعتدنا ان نسمع عن الاسرائيليين ، وان نحلم بهم ، لكننا لم نرهم أبدا ... لقــد صــورناهم دائما على انهم مختلفــون عنا» مــوضحا ان غــالبــيــة الفلسطينيين كــانوا يعــتقدون انهم من نوع السوبرمان الذين لا يعرفون الخــوف في المعركة ، ولا يعرفون الشفقة تجاه أعدائهم . وقد وجد رياض ان الامر مختلف . فحينما بدأت الحرب ، وحينما احتل الجنود الاسرائيليون مدينة بيت لحم أمروا سكانها برفع الاعلام البيضاء فوق منازلهم ، وكان عدم القيام بذلك يحمل مجازفــة بتــعــريض البيت للقصف . لقد كان التهديد والخطر جديا : فطوال النهار كان رياض يسمع صوت هدير الطائرات وهي تطير فوق أسطح منازل بيت لحم .

وحــينما دخلت القــوات الاسرائيليــة الى ســاحــة المهــد ، أعلنت مكبرات الصوت الاوامــر الى الناس لرفع الاعــلام البــيــضــاء ، ومــغادرة منازلهم ، وان يتجهوا الى الطريق المؤدي الى أريحا . وقال جد رياض : «لن أذهب» . كانت عائلة المالكي كلها قد تجمعت في بيته . وتابع الجد : «اذا كانوا يريدون قتلنا ، فعندئذ أُفَضِّل ان أُقتل داخل البــيت . لن أغــادر . لا نريد ان نرى مأساة عام ١٩٤٨ تتكرر مرة ثانية» . ويقــول رياض ان العــائلة قــررت البــقــاء هناك . كــان ذلك أول عــمل من أعمــال التحدي ، او ما يسميه الصمود الذي شهده .

لــكــن قــبل ان يمــر طويل وقت ، بدأت الشــائعــات بالانتــشــار ومــفــادها ان الاسرائيليين قــد بدأوا بقصف كل بيت لا يرفع علما أبيض . وخشي والد رياض على بيــته لانه لم يكن هناك أي شخص ليرفع العلم . ويستذكر رياض : «ولكوني اكبر الأبناء ، طلب الــيّ والدي الذهاب الى البــيت ورفع العلم في حــال حــدوث شيء ما . كان علــيّ أن أسير ـ عبر مدينة بيت لحم ـ لمدة عشرين الى خمس وعشرين دقيقة» . كــان يعــرف شــبكة الأزقــة التي تفضي الى بيت والده ، ولكن من أجل الوصول الى تلك الازقــة ، كــان عليــه الهرب حتى لا يراه الاسرائيليون . لم يكن قد سار مسافة قــصيرة حين اكــتشفته سيارة جيب اسرائيلية : «صرخوا علــيّ طالبين مني التوقف أصــبت بالذعــر ، ولذلك ركــضت . وصرخوا علــيّ مرة ثانية ، وتبعوني» . وركض بأسرع مــا يستطيع ، متواريا في الممرات وفي الشوارع الضيقة «متوقعا طوال الوقت رصــاصــة تصــيــبني في ظهــري» . ويتابع رياض قائلا : «لا أدري من أين أتتني الشجاعة» . ووصل الى منزله ، ورفع العلم . لكن الوقت كان متأخراً ، وبدأ الظلام

يحـلّ ، ولم يكن تواقا الى العودة «لذلك بقيت وحدي مدة يومين وليلتين في البيت ، أراقب النيران المتبادلة بين الطرفين ليلا» . ويقول انه كان مروعا بما شاهده . لكنه بقي هادئا ، بلا حراك ، ينتظر انتهاء الحرب .

فـقط بعـد انتـهـاء القتال ، علم رياض أن أحد أصدقائه ـ ويكبره هذا الصديق بعـامين فقط ـ قتل بعد ان اطلقت النار على رأسه . ويقول رياض انه أراد رؤية ما حـدث ، فـسار الى الموقع الذي قتل صديقه فيه ، آملا «ان يجد أي شيء يخصه» . وكـان كل مـا رآه عـبـارة عن بركة من الدماء في الشارع . كان رياض يعمل دائما على ان يبـقي مـسـافة بينه وبين الاسرائيليين ، ولكنهم الآن فتنوه . وحينما حولت فـرقـة من الجنود مـدرسته الابتدائية الى معسكر مؤقت ، لم يستطع رياض البقاء بعـيـدا : «اعـتـدت ان انظر بعناية لأرى مـا كـانوا يفـعلونه ... بقـيت بعـيدا لان باسـتطاعـتـهم ان يضربوا فـعلا ... كانوا يستطيعون قتل أي شـخص سواء أكانوا يعرفونه أم لا وبسبب أو بدون سبب على الاطلاق» . وقد تركت أحداث تلك الايام الصـيـفـية أثرها فيه : «وكأنني كنت أشعر ان هناك قوة في داخلي تدفعني باتجاه النشاطات السياسية» .

حينما كان يبلغ السابعة عشرة من عمره ، اتيحت لرياض فرصته الاولى للسفر الى الخـارج . فـقـد طلب أحد أصدقائه منه ان ينضم اليه في النمسا حيث كان ذلك الصـديق يدرس في جـامـعـة غـراز ، وهي ثاني أكبر مـدينة في ذلك البلد المحايد . والتـحق رياض بكليـة الهندسـة المدنية ، لكن تنظيم الوقت لديه كان عملا صعبا ، وكـانت اللغـة الالمانيـة بالنسـبة اليه لغة يصعب تعلمها ، وبدا المجتمع النمساوي مجتـمـعـا منغلقا ومنعزلا بالنسبة الى الفلسطيني الشاب . فحينما حاول استئجار شـقـة ، تم تذكيره بوضـعـه كشخص لا جنسية له . والاسوأ من ذلك ، نُظر اليه بعين الريبة والشبهة . فقبل بضعة أسابيع ، قامت مجموعة ارهابية فلسطينية ذات علاقة بمنظمة ايلول الاسود باحتجاز مجموعة من الرياضيين الاسرائيليين كرهائن خـلال دورة الالعاب الاولمبية في ميونيخ عام ١٩٧٢ ، وقتلت منهم أحد عشر لاعبا خـلال عـمليـات اطلاق النار . وقـد قـالت صـاحـبة الفندق انها آسفة جداً ، فهو فلسطيني ولا تسـتطيع ان تخاطر بذلك . وفي النهـاية وجد شقة ، وعمل لفترة من الزمن في مـعـمل للتـقطير ، وزار يوغـسـلافيا المجاورة ، حيث تأثر بقضية «كيف يعيش الناس في بلد اشتراكي» . لكن رياضا استمر يشعر انه يعيش في غير مكانه ،

ولذلك حـينما اقترح عليـه عـمـه وعمته ـ حينما زاراه قادمين من قطر ـ ان يعود معهما الى بيت لحم ، شعر رياض بالسرور بان أتيحت له تلك الفرصة .

ومع هذا ، وبعـد عـودته الى وطنه ، اندلع نزاع عـربي ـ اسرائيلي آخـر ، حرب اوكتوبر ١٩٧٣ ، وأغلقت الجـامـعات في الضفة الغربية مرة أخرى ، فكتب رياض الى أعمامه في كولومبيا ، وأقنع والده بالسماح له بالسفر الى هناك لمتابعة دراسته . ويعترف رياض ان والده «كـانت لديه نقطة ضـعف حـينما يتـعلق الامـر به» . في بوغـوتا التـحق رياض بكليـة الهندسـة المدنيـة في (بونتـيـفـيـسيا يونيفيرسيداد خـافـريانا) وهي جـامـعة يسوعية . وقد دفع أحد أعمامه ـ والذي كان قد أصبح مـوسرا هناك ـ الرسـوم الدراسـية لرياض . وبسرعة ، أصبح رياض طليقا باللغة الاسـبـانيـة . وعلى العكس من تجـربتـه في النمسا ، وجد انه قُبل بسهولة في ذلك المجتمع ، أقلية ممثلة بشخص وسط العشرات من القبائل الاثنية والاقليات المحلية.

ومما يبـعث على السـخرية ، انه على بعد آلاف الأميال عن وطنه ، أخذت هويته كـفلسطيني تتـشكل على نطاق واسع «لقـد رأيت أشـيـاء كثيرة من خلال نظرات اقـتصادية واجتماعية ، وليس سياسية فقط ... لقد رأيت كيف يعيش الناس فعلا ، الاغنيـاء والفـقـراء ، وكـيف تستغل الشركات متعددة الجنسية ثروة هذه البلدان ، والفـروقـات بين ألوان الكائنات البشرية ... ان حـجم الظلم» كـان له أثر عـميق في نفـسـه . ويقول انه لن ينسى على الاطلاق رؤية أسلاف امريكا الجنوبية ، الهنود الفـقـراء ، وهـم يسـتجدون الطعام . انهم اليوم «مواطنون من الدرجة الخامسة في بلادهم . انظر الى الحـضـارة التي بنوها وانظر اليـهم في شـوارع كـيـتـو ، ليما ، ولابـاز وهم يسـتـجـدون الصـدقـات» . وبدأت تتـشكل في ذهنه مـقـارنتـهم مع الفلسطينيين : «لا تجـد فـرقـا كبيرا في ان تكون في كولومبيا ، أو في البيرو ، أو في بوليفيا أو الاكوادور أو اسرائيل» .

لقـد آلف نفسه مع مختلف أشكال حرب العصابات ، اذ يقول : «اعتدت ان أقرأ عن كل مجـمـوعة من مجموعات حرب العصابات» . فقد قرأ عن «مجموعات حرب العـصـابات المدنيـة والريفـيـة» مثل (شاييننغ باث) في البيرو ، و(القوات المسلحة الثورية) في كولومبيا و(التوباماروس) في الاورغواي ، و(حركة اليسار الثوري) في تشـيلي . وأراد مـعرفة لماذا «أشهرت السلاح ومن أجل أي هدف» كل مجموعة من

هذه المجموعات ، وتوصل الى قناعة مفادها انه بدون وجود برنامج للعدالة الاجتماعية والاقتصادية فان الفصائل الفلسطينية ـ مثل فتح ـ التي شنت بشكل أساسي كفاحا سياسيا لن تكون قادرة على الاستجابة الى احتياجات الناس . ويوضح : «اذا كنت تريد الوصول الى مستوى الناس ـ حيث يمكنهم ان ينسجموا مع ما تفعله ـ فان من الواجب عليك ان تمضي في ذلك عميقا» .

ويقول رياض انه تعلّم أيضا انه من أجل ان تنجح حرب العصابات ، فان من المفروض ان يكون لديها تأييد شعبي حقيقي . ان استخدام الارهاب لاكراه الناس وتخويفهم منتج عكسي . ويقول عن المذابح التي نفذتها (شايننع باث) والمجموعات الأخرى : «لست مع نظامهم المتعلق بفرض ايديولوجيتهم أو وجودهم بالقوة . واقصد (بالقوة) الحالات التي يذهبون فيها الى قرية ويذبحون كل شخص . انني أمقت هذا» . ويشعر رياض بالمرارة فيما يتعلق بذبح الفلسطينيين المتعاونين في الضفة الغربية وقطاع غزة . ويوضح ان النضال التحرري يكسب تأييدا لأن الناس يشعرون انهم محميون بواسطته «وليس بسبب انهم خائفون منه» . والتأييد يجب ان يوجد من خلال برنامج سياسي ، واقتصادي ، واجتماعي «الايديولوجية ، الفكر الذي تنقله والذي يتم قبوله لان الناس يؤمنون به ، ولانك مطلوب فانك تحظى بالتأييد والمحبة» . ان الشعب الفلسطيني يعتبر م. ت. ف. ممثله الشرعي والوحيد «ليس لأنها كانت مفروضة عليهم ، ولكن لأنهم أرادوها هكذا . وم. ت. ف. حققت مكانتها نتيجة للتضحيات ، وللنضال من أجل الدفاع عن حقوق الشعب ومواصلة ذلك النضال لفترة من الوقت» . ويتابع رياض قائلا: في امريكا الجنوبية «تتحدث عن وضع مختلف كلية» .

بعد أن تخرج عام ١٩٧٩ ، غادر رياض كولومبيا ليقضي سنة أخرى للحصول على درجة الماجستير في الهندسة المدنية والنقل والتخطيط في برنامج مشترك تديره جامعة نيويورك وبوليتكنيك بروكلين . وفي الوقت الذي عاد فيه الى بلاده ليبدأ حياته التدريسية في جامعة بير زيت عام ١٩٨٠ ، كان قد تشرب حماسة الكثيرين من العرب الذين كانوا يعيشون في مانهاتان ، والذين تعرضوا للآراء والافكار العاطفية القوية الموالية لاسرائيل من قبل سكانها اليهود الكثيرين . لقد شاهد تشابها جزئيا بين القمع في أمريكا الجنوبية وبين ما هو موجود في وطنه ، كما يقول . ويعترف ان تلك التشابهات الجزئية ليست دقيقة ، لكن «الظواهر هي

نفسها» .

ويؤكد رياض ان الولايات المتحدة تدعم اسرائيل من خلال تزويدها بعدة بلايين من الدولارات على شكل مساعدة عسكرية واقتصادية سنوية ، معظمها من أجل قمع الفلسطينيين واضطهادهم . وحينما تقع اساءات فاضحة لحقوق الانسان فان الولايات المتحدة ، واسرائيل ، والدول العربية المجاورة ـ مثل مصر ، والعربية السعودية ، والتي تعتمد بشكل كبير على الاسلحة الامريكية ـ ينظرون الى الناحية الأخرى ، مثلما فعلت حكومة الولايات المتحدة حينما صادرت الشركات الامريكية ثروة أمريكا اللاتينية ، واستغلت مواردها الطبيعية ، والقوة العاملة ، وزودت الانظمة العسكرية هناك بالسلاح من أجل تعزيز انظمتها الديكتاتورية . ويقول رياض : «اذا كانت الولايات المتحدة راغبة ، فان بامكانها ايقاف اسرائيل عن قمع الفلسطينيين من خلال تعليق المساعدة المالية وتوريد الاسلحة ... ان الناس الذين يضطهدونك هم أناس محليون ؛ لكن المعدات ، والآلات ، والأوامر تأتي من الخارج . وحينما نظرت حولي وسألت لماذا لم تأتِ الدول العربية لانقاذي ، اكتشفت انها ايضا مقيدة . كان الامريكيون يقولون لهم لا يمكنكم القيام بذلك ، لان الولايات المتحدة أرادت ترك اسرائيل تتمتع بتفوقها العسكري» .

اما التشابه الآخر الذي يراه بين الفلسطينيين وبين فلاحي امريكا الجنوبية فهو ارتباطهم الصوفي الغامض بالارض ، لان الارض والانسان شيء واحد : «فالأمر ليس كما هو عليه في الولايات المتحدة ، فقد تكون من كاليفورنيا وتعيش في تكساس ، أو تشتري منزلا وتقيم في اركنساس . هنا ، جذورك في هذه القرية ، وتصف نفسك دائما بانك شخص من تلك القرية ، وتعلّم ابناءك وأحفادك بأنك تنتمي الى تلك القرية . وإنْ تتحدث للفلاحين الذين يعيشون على قطعة من الأرض، سترى ما الذي تعنيه هذه الارض بالنسبة اليهم . انها حياتهم ؛ انها ثقافتهم ، وبقاؤهم ، وأسلافهم ، وتقاليدهم . وفي بعض الاحيان ، فان الفلاح ـ وبخاصة الفلاح الفلسطيني ـ يقضي مع الارض وقتا اكثر من ذلك الذي يقضيه مع اسرته ؛ فلديهم علاقة خاصة مع شجرة الزيتون ؛ انهم يتحدثون معها ؛ انهم يعرفون تاريخها» .

ويقول رياض ان الارض في الثقافة وفي الاغاني وفي الفولكلور الفلسطيني

مساوية للقوة البدائية للطبيعة : الأمومة . وفي التراث ، فان العِرض ، شرف المرأة وشرف الارض متشابهان ، وهناك قول بما معناه ، ان اكثر شيئين يهتم العربي بهما : هما الارض والعِرض . ويقول رياض : «اذا اعْتُدِيَ على امرأة فان ذلك نهاية العالم بالنسبة الى العربي . واذا صودرت ارضه ، فالامر نفسه ... كأنك تحاول قتل ذلك الشخص» . وهذا هو السبب الذي يفسر لماذا لم تقسم قطعة الارض التي تمتلكها عائلة المالكي ، على الرغم من ان كل واحد من الذكور في هذه العائلة ـ والد رياض، واعمامه الثلاثة ، وكل واحد من ابناء الابناء الثلاثة ـ يمتلك جزءاً منها . ويوضح رياض ذلك قائلا : «يجب ان نكون موحدين كقطعة واحدة من الارض» وهذا يفسر لماذا حينما يبيع أي شخص أرضه «فكأنك تبيع حياتك وعائلتك ... ان آخر شيء يمكن ان يفعله الفلسطيني هو ان يبيع أرضه» .

في عام ١٩٨٣ عاد رياض الى جامعة نيويورك لبدء التحضير للحصول على درجة الدكتوراة ، وقد حصل عليها عام ١٩٨٦ ، اذ عاد في ذلك الخريف لمواصلة التدريس في جامعة بير زيت . ان بدء الانتفاضة بعد مرور ما يزيد على السنة من عودته جعل حياته موضع الاهتمام ، منذ اليوم الذي باع فيه مجموعة الطوابع التي يمتلكها ، مروراً بجرحه متجنبا الاسرائيليين في بيت لحم ، وانتهاء بالمعاناة والالم اللذين شاهدهما بأم عينيه في أحياء الفقراء في امريكا الجنوبية . لقد سجلت الانتفاضة بالنسبة الى رياض مرحلة مهمة في الحتمية التاريخية للشعب الفلسطيني، اذ تلاشى خوفهم من الاسرائيليين ، وبذلك اتخذوا الخطوة الاولى نحو تسلق الجدار النفسي الذي أبقى الاحتلال مدة طويلة ، ويقول رياض : «ان ذلك الطفل ، الطفل الفلسطيني ، الذي يجابه الجندي الاسرائيلي وهو يدرك انه من المحتمل ان يُقتل ، ومع ذلك يستمر في مجابهة الجندي» كان اختراقا معنويا للاجزاء الضخمة . لقد أعطى ذلك الفلسطينيين كبرياء ، وأعطاهم أيضا إحساسا جديداً بالمساواة مع خصمهم : «لقد كان الفلسطينيون قادرين على ازالة الحواجز المصطنعة كلها التي وُجدت نتيجة للعديد من الهزائم العربية . لقد كان الافراد قادرين على تحقيق ما فشلت الحكومات والجيوش العربية في تحقيقه ، وفعلا ، كانوا قادرين على إبطال ما خلقه العرب بشكل غير مباشر كنتيجة لهزائمهم : الاحتلال الاسرائيلي» .

وعلى مستوى آخر ، يقول رياض ان الانتفاضة علّمت الفلسطينيين ان الاسرائيليين ليسوا (سوبرمانات) : «ليست لديهم ارادة للقتال اكثر من الفلسطينيين . في هذه اللحظات يجابه الجنود الاسرائيليون الاطفال لانهم يدركون انهم يمتلكون الاسلحة الرشاشة وانهم على استعداد لاستخدامها للقتل . ان الجندي الاسرائيلي يدرك ان الفلسطيني يجابهه وهو أعزل ، كفلسطيني ، أعطني السلاح نفسه ، وأنا أضمن لك ان الاسرائيلي سيفر هاربا حينما يراني . ففي اللحظة التي يرى فيها الاسرائيلي فلسطينيا مسلحا ، فان سلوكه ـ واستجابته ـ سيكون مختلفاً» . ان الطبيعة لم تجعل الاسرائيليين أقوى أو أشجع أو أكثر تصميما من الفلسطينين . ويقول رياض : «لا أعتقد انهم يمتلكون ارادة اكبر ليحاربوا أو يقتلوا أو يعيشوا» وبالتالي فانه من غير المنطقي الاعتقاد ان شعبا يتكون من اربعة ملايين نسمة سيكون باستطاعته دائما ان يهزم مائتي مليون عربي . انها الظروف المصطنعة ـ بما فيها ترسانة الاسلحة التي تقدمها الولايات المتحدة الى اسرائيل ـ التي أوجدت الفرق بين المجتمعين . لقد جعلت الانتفاضة الفلسطيني يدرك ان اسرائيل «مارد مضخّم ، فإن تضغط على هذا المارد تستطيع تصغيره الى حجمه الحقيقي . هذا أمر غير مألوف» هكذا يقول رياض مؤكدا ان مبدأ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يؤكد دائما ان اسرائيل سوف تعود ذات يوم الى حجمها الحقيقي ، ويضيف رياض : «لقد عرفنا أن السبب الوحيد الذي يجعل اسرائيل ماردا هو ان الآخرين يريدونها كذلك . لقد ضخموها ، ولذلك فان معركتك ليست مع هذا المارد فقط ولكن مع الآخرين الذين يقفون خلفه ، الذين نفخوه ... هكذا أرى الوضع» .

ويعتقد رياض انه بالانضمام الى المحادثات وفق الشروط الاسرائيلية ، فان الفلسطينيين بددوا الكثير من المكاسب التي حققتها انتفاضتهم ذات السنوات الخمس ، يقول : في اللحظة الاولى ، حينما قرر الفلسطينيون الاجتماع مع السيد بيكر ، قبل ان يذهبوا الى مدريد او الى واشنطن ، كان يجب عليهم ان يكونوا قد فكروا في وضعهم وان لا يقبلوا الشروط الاسرائيلية . لقد قالها السيد بيكر بوضوح تام : [بدون الفلسطينيين لن تكون هناك عملية سلام] . ويوجه رياض اللوم الى م. ت. ف. والى قيادة فتح في داخل المناطق بسبب الاستسلام والاذعان لضغط من العرب الآخرين ، اذ يقول هازئا : «انني لا أنتظر العرب كي يحضروا

ويحررونا» . وعـوضـاً عن الاسـتسلام للشروط الاسرائيلية المذلة ، يقول رياض : كان يجب على م. ت. ف. الاعتراف بأن «وجودنا حيوي وهام من أجل بدء العملية ولذلك فـان مشاركتنا يجب ان تكون مهمة بقدر أهمية وجودنا . وكان يجب علينا ان لا نقبل على الاطلاق بمجرد الحضور فقط ، بل كان يجب ان نصر على المشاركة الحـقـيـقـة» فـاذا كـانت الولايات المتـحـدة الامـريكية واسرائيل وبقية العرب غير مستعدين للاستجابة لهذه المطالب ، فانه كان من الواجب على الفلسطينيين القول : «حسنا ، اذا كنتم لا تريدوننا ، فاننا لن نذهب ، و[خلاص] تلك هي النهاية» .

وباللجـوء الى رؤيتـه الكبرى للعالم ، وجذورها الماركسية ، يقول رياض الموالي للجـبـهـة الشـعبية لتحرير فلسطين : انه حال الموافقة على تلك الشروط ـ لا يمكن للفلسطينيين ان يمـثلوا انفسـهم كوفد مستقل ، وم. ت. ف. مستثناة ولا مشاركة لاهل القـدس، وفلسطينيـو الشـتـات ممنوعون من المشاركة ـ فان النرد يكون قد القي ، ويضـيف بازدراء : «العرب مهزومون ، والدول الاشتراكية اختفت ، وم. ت. ف. مـعـزولة سياسيا واقتصاديا ونأتي ونتفاوض ! ... لقد اخترنا أسوأ وقت على الاطلاق لدخـول عـمليـة السلام» . ويرفض رياض الفكرة القائلة بان الفلسطينيين في المناطق المحـتلة يمكنهم تحسين ظروف حياتهم اليومية ، وتخليص انفسهم من المظاهر الخـارجية للاحتلال ، مثل : وجود الجنود الاسرائيليين في مدنهم وقراهم ، والحـصـول على حق اخـتـيار قادتهم المحليين ، وادارة قضاياهم المحلية . ويقول : «هذه عـمليـة سياسية تعتمد كلية على ميزان القوى في العالم الذي يميل بقوة ضد الفلسطينيين» . ويضـيف : ان النظام العالمي الجديد هو في الواقع «النظام الامريكي الجـديد» وبالتـالي ، فـان النتائج مقضية . ويعترف : «ادرك ان النتيجة ستكون لا شيء باستثناء الحكم الذاتي ... بنفس الطريقة التي يريدها الاسرائيليون» .

ويقـول ان دخول المفاوضات أنعش من جديد منظمة فتح التي تقود م. ت. ف. مـن خـلال إعطائهـا للفلسطينيين داخل المناطق سلطة لإمـلاء شروط المحـادثات . يقـول رياض : «تجلس القيادة هناك في القصور والفيللات في تونس على بعد آلاف الامـيال وتقود النضال من هناك ... الثقل في الخارج والنضال في الداخل . ان الثقل يجب ان يكون حيث يكون النضال ... الاحتلال يومي ، والنضال يومي ، والمعانـاة يومـيـة ، ولديك أناس يعـيـشـون في الخـارج براحـة تامـة» . ونادراً مـا يخفـي

احتقاره للصراع المستمر على السلطة داخل فتح ، والذي يذكره بانهماك الحزب الحاكم في اليابان في الحفاظ على ائتلاف كبير بما فيه الكفاية من أجل الحكم : «دائما صراع ، دائما تنافس ، ودائما هناك أناس يحاولون حشد أناس آخرين الى جانبهم للحصول على السلطة لأنفسهم . هذه هي فتح . انها حركة مبنية على الافراد الذين يمكن أن يصبحوا أقوياء جدا خلال فترة قصيرة من الزمن . انها عملية ليست من النوع المنظم» .

ان ايجاد عملية من شأنها ان تمنح فلسطينيي الداخل أمثاله سلطة سياسية شرعية ـ من خلال انتخابات حرة وعادلة ـ هي واحدة من المكتسبات القليلة التي يعتقد رياض انها يمكن ان تبرر محادثات السلام الاسرائيلية الفلسطينية . وهي واحدة من جملة الاسباب التي تفسر لماذا عدّل موقفه ولطّفه تجاههم . ويوضح : في هذه الآونة ، في الضفة الغربية وفي قطاع غزة «كل شيء غير قانوني : فالنشاطات السياسية غير مشروعة ، والاحزاب السياسية غير مشروعة ، وكل شيء سري . يجب علينا ان نعمل في غياب بنية تحتية حقيقية» .

ويقول رياض : اذا نجح الفلسطينيون في انتزاع مسؤولية حقيقية من أجل انتخاب قادتهم في المناطق فان من الممكن ان يغير رأيه في نهاية المطاف . ومع ذلك، فانه لا يضيع أي وقت . فمؤسسة (بانوراما) التي أسسها عام ١٩٩١ تقدم ورشات عمل عن الديمقراطية و«المشاركون هم قادة القاعدة» السياسيون المحليون الذين يأمل رياض بانهم سيشكلون نواة انصار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مستقبلا . ويقول ان مؤسسة بانوراما تخطط ايضا للبدء في اجراء استفتاء للرأي العام . ويدافع عن أحاديثه المنتقدة لمحادثات السلام ، مشيرا الى انها جزء من العملية الجديدة الهادفة الى تثقيف الجماهير حول كيفية حل نزاعاتهم سلميا عوضا عن اللجوء الى العنف ، ويقول : «من أجل القيام بذلك ، فانني شخص مسالم جدا . انني انسان أمقت العنف والعنف المضاد ، وسفك الدماء لانني لا أومن انه يحق لأي شخص ان يقتل شخصا آخر» . ويضيف : بين الفينة والأخرى يجب على حركة التحرر الوطني ان تبتعد عن قواعد السلوك المعترف بها «ولكنني شخص مؤيد للسلام ، وما أزال اعتقد انه في يوم من الايام سنتوصل الى تسوية في هذه المنطقة ، وهذا هو السبب الذي يوضح لماذا اقف الى جانب عملية سلام ،

ولكن يجب علينا ان نحدد تلك العملية» ويوضح ذلك قائلا : «ان تكن عملية تفضي الى إنصاف الفلسطينيين ، وان تكن متينة وشاملة» فانها تستحق تأييد كل شخص ويضيف : «أود الوصول الى نقطة حيث يكون هناك تحديد واضح جدا للسلام الذي يمكن قبوله من قبل كل شخص» .

ومثل آخر المقابلات العديدة ، وكل واحدة منها تستغرق ساعات طويلة ، وتأتي الى النهاية ، فان رياضا يريد ان يكون متأكدا من ان محاوره يفهم موقفه ، فيقول: «لا أقول إنتظر ، إنتظر واجلس ولا تفعل شيئا» . ويبقى رياض المالكي نهبا للشكوك حول عملية التفاوض الجارية . ففي مقابلة أجريت معه في شهر كانون الاول من عام ١٩٩١ حذّر من انه بدون وجود إجماع داخلي على تحديد مفهوم السلام العادل والقوي ، وبدون وجود الشرعية التي تستمد من خلال انتخابه من قبل الشعب ، فان الوفد الذي يمثل الفلسطينيين حاليا «يمكن ان يصبح حزب [الوفد] الخاص بنا ، بكل معنى الكلمة» . ففي عام ١٩١٨ شكّل البرلمان المصري وفدا [واطلق عليه اسم الوفد] لعرض قضية استقلال مصر على مؤتمر محادثات السلام الذي انعقد في باريس ، وانهى الحرب العالمية الاولى . وقد عاد الوفد الى بلاده وهو لا يحمل اكثر من وعود أطلقها البريطانيون . ان الوفد الفلسطيني المفاوض يمكن ان يعاني المصير نفسه اذا فَقَد الاتصال مع الجماهير ، كما يقول رياض .

وفي الوقت نفسه ـ كما يعترف رياض ـ فقد كانت هناك تحولات مشجعة في سياسات ادارة بوش نحو الشرق الاوسط ، اذ يقول : «بدأت السياسة الخارجية الامريكية تأخذ بالاعتبار العنصر الفلسطيني . لقد أصبح عاملا دائما في صياغة السياسة ، وهذا شيء جديد كلية ... لكنني أعتقد أن الادارة الامريكية ما يزال أمامها شوط بعيد عليها ان تقطعه قبل ان تصل الى وضع يمكن فيه للامريكيين ان يحظوا فعلاً بثقة الآخرين ـ وبخاصة الفلسطينيين ـ او ان يقدموا انفسهم كوسيط عادل» . وبالنسبة الى رياض المالكي ـ الاستاذ في جامعة بير زيت ، والبالغ من العمر سبعة وثلاثين عاما ـ فان الشيء الهام هو تذكّر موقف جده لأبيه المتمثل في البقاء متصلبا من أجل عدالة وأحقية قضيته ، حتى حينما تهدد الضغوطات الخارجية ، والنفعية الداخلية باضعاف عزمه وتصميمه . ويقول في معرض وصفه

لموقف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المعارض لمحادثات السلام : «بدون عناصر الصـمـود هذه فـانك تتـحـدث عن انتحار ، ولا أعتقد أنني أؤيد الانتحار ... وعلى النقـيض من ذلك، فان أسوأ شيء يمكن ان تقوم به هو ان تقدم على الانتحار لانك تنهي حـيـاة بدون أي هدف ومـعنى» . ويلمّح الى انه يجب على الجـبـهة الشعبية لتحرير فلسطين ان لا تقدم على الانتحار من خلال بقائها معارضة لتسوية سلمية مع اسرائيل . ويأمل رياض المالكي على نحـو واضح بان يكون ذات يوم جـزءاً من مفاوضات مُشَـرِّفَة ، مفاوضات تعطي حياته ماضيا وحاضرا معنى حقيقياً .

غسان الخطيب



● غسان الخطيب (على اليسار) في الثامنة من عمره مع شقيقه .



● غسان الخطيب يتحدث إلى أهالي قرية (كفرعين) بحثا عن تأييد لمحادثات السلام الفلسطينية ـ الإسرائيلية .



● غسان الخطيب في منزله في مدينة رام الله مع نجليه : ابنته رشا ، وابنه عبد .

غسان الخطيب

بعـد ظهر يوم مشرق من أيام شهر أيار عام ١٩٩٢ ، وقـبل فترة قصيرة ، من موعد بدء الجولة الخامسة للمحادثات العربية ـ الاسرائيلية ، كان غسان الخطيب ، عـضـو الوفد المفاوض ، يعد نفسه لالقاء محاضرة في الضفة الغربية يمكن ان تُعد أصـعب مما يواجهه على طاولة المفاوضات الرسمية . بعد ان ارتدى سترته ، غادر شـقـته الكائنة في مدينة رام الله ، متوجها للقاء سكان قرية (كفرعين) . بدأ رحلته بسـيارته الخاصة ، بيضاء اللون ، من طراز فولكس فاجن ، ولدى وصوله اعتذر عن وسـيلة النقل البسيطة الصدئة ، وأشار الى انه كاد ان يلغي اجتماعا مقررا مع وزير الخـارجية الكندي لأن المسؤول عن المرآب في القنصلية رفض ان يصدق بانه أحـد الضـيـوف المدعـوين . وبينما كـان غسان يقود سيارته عبر المناطق الريفية الجـبليـة ، استذكر انه عبر هذه الطرق صعودا وهبوطا مرات عديدة ، ليتحدث الى العشرات من الجماعـات القـروية المحلية عن عملية السلام . ويقول انه حينما عاد من مدريد شارك في اربعة عشر اجتماعا مختلفا خلال ثمانية عشر يوما .

لدى وصـوله الى بلدة كـفـرعين السـاحرة ـ الواقعة بالقرب من قمة متن جبلي صـغير مطل على الوادي ـ اسـتـقـبله ممثل اللجنة المنظمـة لاجـتماع ذلك اليـوم . وتوجـه الى منزل مـضـيـفه ، وجلس الرجلان لاحتساء الشاي الحلو ، واكل اللوز الأخضر . وعلم غـسـان من مـضيفه ان القرية قد زارها بعض الزوار غير المرغوب فـيـهم في ذلك الصباح : جنود اسرائيليون أخبروهم انه خلال ثمان واربعين ساعة سـيـتم تدمير منزلين في القـرية بسـبب مـزاعم عن ايواء احـد الارهابيين . وانتهى الرجـلان من تناول المنعـشـات ، وسـارا في القـرية البسيطة ، فمرّا ببعض البيوت الحـجـرية المتناثرة هنا وهناك ، وببعض اشجار الزيتون متجهين نحو المبنى الذي يعـتبر مـركـز حـيـاة القرية : المسجد . في ساحة المسجد ، وكما هو الأمر عليه في العـديد من مناطق الضـفـة الغـربية ، كانت الجدران مطلية بالكتابات . فقد كانت هناك كلمات مثل : (الله أكبر) وشعارات مختلف الفصائل ، بدءاً من حماس وانتهاء بالجـبـهـة الديمـقراطية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وفي وسط الساحة ، كانت هناك أغصان شجرة ثُبِّـتَ عليها علم فلسطيني بال ، في حين ان علما آخر ـ ممزقا ايضا ـ كان يخفق على عمود .

شيئا فشيئا ، وواحدا تلو الآخر ، بدأ الرجال بالتوافد الى ساحة المسجد ، حتى اجتمع نحو خمسة وعشرين رجلا تتراوح اعمارهم بين سن المراهقة وسن الستينات . في البداية ، بقيت النسوة في الخارج ، مجتمعات مع بعضهن ، في حين كان الرجال يدخلون ويجلسون على المقاعد الحجرية المبنية على جوانب الساحة ، وبعد ان يجلسوا ، تنضم النسوة اليهم . ومع دخول المزيد من الناس ، كان البعض يقوم بوضع الكراسي ، مشكلين شبه دائرة حول غسان الذي كان يجلس الى جانبه مختار القرية .

حينما هَمّ غسان بالقاء المحاضرة ، لاحظ وجود صبيين لا يزيد عمرهما عن عمره حين توفي والده . كان أحدهما يرتدي (تي شيرت) مطبوعة عليه كلمة (غالي) العبرية وهو اسم شركة اسرائيلية مصنعة للملابس الرياضية . فمثل العديدين من الصبية الفلسطينيين ، كان هذا الصبي قد اشترى لنفسه هذا القميص الرخيص بدون ان يفهم معنى الكلمة المطبوعة عليه ، بل ان بعض الصبية يرتدون قمصانا رياضية وقد كتب عليها (بيتار يروشلايم) غير مدركين انهم انما يشجعون فريق القدس لكرة القدم الذي يرعاه حزب حيروت الاسرائيلي المتشدد . لكن الصبي الآخر الذي رآه غسان كان يرتدي (تي شيرت) اكثر خطورة ، اذ يظهر صورة لناصر ابي حامد ، عضو القوة الضاربة لحركة فتح المسماة الفهود السود . وتحت صورة ناصر كانت هناك كلمات تقول ((مطلوب ميتا)) اشارة الى حقيقة ان حامدا أحد ارهابيي م. ت. ف. الذين تجري مطاردتهم .

يبدأ غسان محاضرته بالحديث عن انتهاء الحرب الباردة ، وعن الحقائق الجيوسياسية الجديدة التي تراكمت لتعمل على اضعاف الموقف الفلسطيني : فالولايات المتحدة الامريكية هي الآن القوة العظمى الوحيدة ، ولم يعد الاتحاد السوفييتي حقيقة قائمة ، وقد قبل الفلسطينيون شروطا مذلة لان وضعهم كان ضعيفا . ويعترف غسان ان هناك منظمات فلسطينية تعارض محادثات السلام ، لكنه يقلل من حجم الاختلافات بينهم ، موضحا انهم يختلفون حول الوسائل ـ شروط الدخول في المفاوضات ـ لا على الهدف . فكل شخص يتفق على ان المحادثات يجب ان تؤدي الى حق تقرير المصير ، والى قيام دولة فلسطينية مستقلة، ويمتدح القرار الامريكي المتضمن تجميد ضمانات قروض للاسكان

البالغة قيمتها عشرة بلايين دولار الى ان تجمد اسرائيل النشاط الاستيطاني ، اذ يشير غسان الى ان هذا القرار لا سابقة له .

ثم يفتح غسان الباب امام الاسئلة ، فيوجه اليه فلسطيني مسنّ سؤالاً يبدو في ظاهره بسيطا : هل ستنجح محادثات السلام ؟ لكن السؤال محفوف بالخطر . فما المقصود بكلمة «تنجح»؟ كم سيستغرق الأمر من الزمن قبل ان يحصل الفلسطينيون على حق تقرير مصيرهم ؟ وكم سيستغرق الأمر من الزمن قبل ان تكون لهم دولة خاصة بهم ؟ وعدّل غسان من إجابته ولطّفها ، اذ لم يفرط في التفاؤل ، ولم يقدم استشرافا كئيبا ، فيقول ان النجاح غير مضمون ، ولكنه يستحق المحاولة من أجله . ثم طرح عليه سؤال عن الانتفاضة ، فأجاب ان الانتفاضة لن تتقدم الى الأمام ما لم ترافقها مفاوضات . وهو يدرك ان العنف وحده متنفس للغضب الشديد ، ولن يجلب معه الا البغض والثورة فقط . فرشق الحجارة والاضراب وتوجيه الضربات للعدو تكون مفيدة اذا قادت الطرفين للجلوس مع بعضهما والتفاوض .

انه أداء لطيف ، رغم وجود قلق شديد ، ولكنه غير متحمس ، فليس هناك جعجعة أو أي وعود محددة بتحقيق أحلام جامحة . لم يتحدث غسان بغلوّ ، ولم يبحث عن الشهرة ، كما انه لم يطالب بان يكون قائدا سياسيا . لقد أتى الى هذه القرية ليبحث علانية الوضع الحالي وبأمانة ، وبدون ان يترك انطباعات زائفة أو آمالاً ضخمة ، فكسب احترام الجمهور ، وها هم يغادرون وهم يشعرون بالرضى من ان اهتماماتهم هي قيد البحث حتى وان لم تتحقق كاملة . وحينما كان في طريق عودته بسيارته الفولكس فاجن ، كان يقول لنفسه ان من المهم بالنسبة الى الوفد المحافظة على تأييد القاعدة له : «سأقول لك شيئا ، انني من نوعية الناس الذين يعطون اهتماما كبيرا لردود الفعل ـ وبخاصة ردود فعل الشباب ـ لما أقوم به» . ان صورة اليافعين الغاضبين المرتدين (تي شيرت) لا يمكن ان تغيب عن باله وهي تستدعي صورة غسان الخطيب الاكبر منهم ، الذي أحس انه أقرب الى غضبهم اكثر من قربه من استجابته الاكثر اعتدالا . ولن ينسى غسان على الاطلاق انه هو ايضا ، مثل ارهابي فتح «المطلوب» كان يعتبر في فترة ما ارهابيا ، ويحتقره ويتجنبه الاسرائيليون العاديون .

كـان غـسـان يبلغ الحـادية عشرة من عمره حينما توفي والده ، وكان في الرابعة عشرة من عـمـره حـينما ضربه الجنود الاسرائيليون ، وفي التاسعة عشرة من عمره حـينما كسر الاسرائيليـون فكّه ثم حكمـوا عليه بالسجن مدة خمس سنوات . كانت جريمته الانتماء الى فصيل مسلح تابع للحزب الشيوعي السري الذي يقود ائتلاف الجـبهة الوطنية الفلسطينية . اما الشيء الاكثر ايلاما من ذلك كله ـ ولا شيء يذوي ذاكـرة غـسـان البـالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاما ـ فقد كان هو ذلك اليوم من أيام شـهر كانون الاول ١٩٧٩ حـينما القي القـبض عليه وهو يتظاهر بالقرب من جـامـعـة بير زيت ، ثم [سحبه] الاسرائيليون من السكن الداخلي للطالبات ، ويداه مـقـيـدتان خلفـه ، وضربوه بكعب البندقـية ، وبالعصي ، ورفسوه . يقول غسـان : «اذكـر سماع صـوت صراخ الفـتيات ... كان الجنود يواصلون تحريكي من مكان لآخـر من أجل جـعلي عبرة أمام الطلبة» . لكن الوحشية ليست وحشية الضرب أو حـتى الجـروح التي أكـد انها مـا تزال تسـبب الألم ، وانما مـا حـدث بعد انتهاء الحـادث ، حينما حاول الاسرائيليون احتجازه في سجن رام الله .

جرت العادة انه كلما وفد سجين جديد ، كان يتعين على طبيب اسرائيلي ان يقدم شهادة تثبت ان حياة السجين او السجينة ليست في خطر . لكن المسؤول الذي قام بفـحص غسان رفض تقديم مثل هذه الوثيقة قائلا عوضا عن ذلك وفق ما يرويه غـسـان : «من المحتمل ان يموت هذا الرجل في أي لحظة ، ولا أستطيع قبوله وهو بهذه الحـالة» . وبدأ الضـابط العـسكري بالصراخ على الطبـيب ذاك ، ولكن عبثا . لذلك ، أعـيد غسان الى عربة الدورية ونقل الى بيت إيل ، وهو مجمع عسكري كبير يسـتـخدم ايضا كمقر للادراة المدنية لمنطقة رام الله . وقام طبيب عسكري بفحصه في العـيادة ، وكان الاسرائيليون يأملون منه ان يسمح في نهاية الامر بادخال غسان الى السجن . ويتذكر الفلسطيني ان الطبيب كان يسأله عن التخصص الذي يدرسه في الجـامـعـة ، وحينما قال له غسان انه يدرس الاقتصاد ، قال له الطبيب انه اذا كـان يريد ان يبـقى مـتـمـتـعـا بالصحة فمن المفروض عليه ان يبقى بعيـدا عن السـيـاسـة . ولكن بعـد أن أتم الطبـيب فحصه رفض الاستجابة لطلب الضابط ، واقترح نقل غـسـان الى مـسـتـشـفى حداش في جبل سكوبس ، موضحا انه حال إصدار المستشفى تقريرها بامكان الجيش نقله الى السجن .

حينما وصلوا الى مستشفى حداش ، كانت صالة الانتظار مليئة بعشرات المرضى الذين ينشدون المعالجة الطارئة . أمسك جنديان اسرائيليان بغسان من تحت ذراعيه ، محاولين مساعدة الفلسطيني المنهك على السير خطوة فخطوة . كان معصماه مقيدين ، وهناك علامات زرقاء وسوداء تغطي مختلف أنحاء وجهه والدم ينزف من عنقه . وقد بعث منظر الجنديين اللذين يقتادان السجين وسط المرضى الموجودين هناك انذارات فورية في انحاء الغرفة للرجال والنساء والاطفال الذين كانوا ينتظرون بعصبية دورهم عند الأطباء . وحينما تحرك غسان نحو الأمام وكما يقول : «بدأوا يهمسون : مخرب ، مخرب ، وتنحى كل شخص جانبا» . أُمر غسان بالجلوس على مقعد (بنك) طويل ، وجلس الى جانبه جندى اسرائيلي في حين ذهب الآخر الى مكتب الادخال . كان هناك طفل يجلس عند الطرف الآخر من المقعد ، اذ تركته امه وذهبت من أجل ان تسجّل دورها . وفجأة ، لاحظ اثنان من رجال أمن المستشفى الطفل ، فهرعا نحو غسان وهما يصرخان على الأم: «كيف تتركين طفلا بالقرب من هذا الارهابي؟ من المحتمل ان يقتله» . بالنسبة الى غسان ، ما تزال تلك اللحظة تؤلمه ، اذ يقول : «كان الامر صعبا جدا بالنسبة اليّ . كنت في الخامسة والعشرين من العمر ، وشعرت انني شخص غير طبيعي وغير عادي». وجاء في تقرير الطبيب ان هناك ثلاثة أضلع مكسورة ، وان هناك جروحا في الساق والرقبة ، وانه يحتاج الى بضعة ايام من الرعاية الطبية ، ولكن ليس هناك خطر على حياته . وأعيد غسان الى سجن رام الله ، وحكم عليه فيما بعد بالسجن لمدة ستة شهور .

لم تكن هذه هي المرة الاولى التي يقبع فيها غسان الخطيب وراء القضبان . ففي ٤/ ٥/ ١٩٧٤ حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات نتيجة مزاعم بانه عضو في خلية سرية تابعة للجبهة الوطنية . كان يبلغ التاسعة عشرة من العمر آنذاك ، ويقول : «لقد جندت في الجناح العسكري للحزب الشيوعي ... كانت مهماتي نشاطات عسكرية فعلا .... وقد دُربت على استخدام الاسلحة والمتفجرات» لكن المسؤولين الاسرائيليين يؤكدون انه على الرغم من التدريب فانه لا الجبهة الوطنية ولا غسان الخطيب قاموا بأي عمل من أعمال العنف على الاطلاق . وفي الحقيقة ، فوجىء الاسرائيليون حينما اكتشفوا في ربيع عام ١٩٧٤ ان الحزب الشيوعي قد شكل فصيلا مسلحا ، فالشيوعيون كانوا يمجّدون اللاعنف .

خلال سنوات العشرينات ، حينما تأسس الحزب الشيوعي ، كان عبارة عن حركة سرية يهودية هدفت الى مقاومة كل من الصهيونية والاستعمار البريطاني ، وكان من الطبيعي ان تحصل على تأييد عربي واسع بسبب موقفها العقلاني القائل بأنه يجب ان يعيش اليهود والعرب في دولة علمانية ديمقراطية واحدة . ويستذكر أحد الاسرائيليين وقد كان عضوا في الحزب ، فيقول : «كانت الفكرة هي النضال على المستويات الاجتماعية ضد المُضطَهِدين ، الذين كانوا الاستعمار البريطاني ، بل انه كانت هناك خطة لانشاء كيبوتس مشترك» . وحينما اقرت الامم المتحدة عام ١٩٤٧ خطتها لتقسيم فلسطين الى دولتين : عربية ويهودية ، حذا الشيوعيون حذو انموذج الاتحاد السوفييتي ، الذي كان الدولة الثانية التي صوتت الى جانب اقامة اسرائيل وتوسيع الاعتراف الدبلوماسي بها . وعلى الرغم من ان زعماء عربا شيوعيين عديدين أصبحوا هم أنفسهم لاجئين ، الا ان الحزب قوّى موقفه المبدئي ضد استخدام القوة . فقد عارض حرب عام ١٩٤٨ ، والتي من خلالها (الحرب) دخل في نزاع مباشر مع الدول العربية التي أعلنت عن هدفها المتمثل في تدمير الدولة اليهودية التي أقيمت حديثا . ونتيجة لذلك ، انشىء الحزب الشيوعي الاسرائيلي في اسرائيل ، وهي الدولة الوحيدة في الشرق الاوسط حيث لا يخضع الحزب الشيوعي لاي حظر ، بل ويشارك في الانتخابات .

وقد كرس غسان الخطيب غالبية سنوات حياته في البحث عن بدائل للعنف . فهو يلقي محاضرات بشكل منتظم في الجامعات الاسرائيلية ، وعمل عن قرب مع حركة السلام الآن الاسرائيلية على تنظيم مسيرات الى قرى الضفة الغربية ، وساهم في عمليات الاعتصام التي كانت ناجحة جدا ، والتي ما يزال المسؤولون الامنيون الاسرائيليون يستخدمون اللغة العسكرية لوصفها ، اذ يقول أحد هؤلاء المسؤولين : «لقد قام **بعمليات** عديدة مع حركة السلام الآن» . كذلك ، كان لغسان دور رئيس في تشكيل سلسلة بشرية عشية عيد الميلاد عام ١٩٨٩ حينما قام عشرات الآلاف من الناس بالوقوف الى جانب بعضهم متشابكي الايدي حول الجدران الاثرية لمدينة القدس القديمة . وبعد مرور سنة على ذلك ، نظم حملة من أجل منع ترحيل وابعاد فلسطينيين والاستيلاء على بيوتهم في سلوان ـ وهي بلدة فلسطينية صغيرة مجاورة لمدينة داود ، اذ أراد وزير الاسكان الاسرائيلي أرئيل

شارون إقامة مستوطنة يهودية جديدة ـ حتى ان تيدي كوليك رئيس بلدية القدس شارك في الاحتجاج الذي نظمه غسان ضد خطط شارون .

لكن هناك دوراً جديداً لغسان في هذه الايام ، فهو عضو بارز في الوفد الفلسطيني ـ الاردني المفاوض ، وهو أحد اثنين ينتميان الى حزب الشعب الفلسطيني ويشاركان في الوفد الفلسطيني ، في حين ان الآخر هو سمير عبد الله . وغسان صديق حميم لفيصل الحسيني ، ومتواضع ، ومولع بالبحث والدراسة ، واكسبه سلوكه المقنع ، واسلوبه غير الأناني ، والعمل الجاد الذي يمارسه ، ثقة اعضاء الوفد كلهم .

وعلى الرغم من ان الحزب الشيوعي بحد ذاته انتهى من الوجود ـ إذ انه انقسم الى مجموعتين : حزب الشعب الفلسطيني والذي يتزعمه بشير البرغوثي ، والجمعية الديمقراطية الفلسطينية التي يترأسها جورج حزبون ـ الا ان غسانا لا يخفي اعتداده بالحزب أو بانجازاته التاريخية ، فيشير الى ان الدكتور حيدر عبد الشافي البالغ من العمر سبعين سنة ـ رئيس الوفد الفلسطيني المفاوض ، والذي ألقى الخطاب المثير باسم الفلسطينيين في مؤتمر مدريد للسلام ـ كان يوما ما العضو الاعلى رتبة والاكثر احتراما في الحزب الشيوعي السابق في غزة ، بل ان مندوبي فتح المنافسين يشيرون الى ان الشيوعيين يلعبون دورا في محادثات السلام اكبر مما يسمح به عدد مؤيديهم . ويوضح أحد زملاء غسان في الوفد : «يقومون بدور عقلاني قوي داخل الوفد ، وهم جزء من مجموعة اتخاذ القرار ... انهم يحضرون الى كل اجتماع ومعهم قائمة جاهزة بالمطالب وبالمقترحات وبالخيارات ... اما الآخرون فيأتون ليتحدثوا فقط ولوضع جدول أعمال» .

ويضيف المنافس ان الشيوعيين السابقين سيحصلون على أقل من عشرة بالمائة من الاصوات في أي انتخابات تجرى في الضفة الغربية ، اذ تضررت مصداقيتهم بسبب انهيار الاتحاد السوفييتي ، ولم يعد لهم على الاطلاق الكثير من القوة في الشارع الفلسطيني ، ويتساءل : «حينما نقول [الشارع] ما المقصود بذلك ؟ انه يعني السيطرة على الارض من خلال المؤسسات ، والاعضاء ، والبنية التحتية . انهم لا يمتلكون ذلك . وأين تجدهم ؟ ثلاثة أو أربعة اساتذة في جامعة بير زيت ، ثلاثة أو أربعة اشخاص في مكتب الادارة ، اثنان او ثلاثة في صحيفة . لكنك لا

تجدهم على الارض على نحو واسع مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، أو حماس ، أو فتح . وهناك أسباب لذلك : ان مجتمعنا مجتمع ديني ، وحينما تقول [شيوعي] فان ذلك يعني شخصا لا يؤمن بالله ! الشيوعية شيء ما ياخذك بالقطار السريع الى جهنم !» . ويتابع هذا المؤيد لفتح : «ان الشيوعيين قصاصة من ورق ، ومدرسة وافكار ، وكتب!» . ويشير الى ان مكتبتهم في رام الله تدعى [المكتبة الحمراء] وتدعى كتبهم [الكتب الحمراء] وقوتهم مستمدة من حقيقة أنهم «دائما يعتنقون مبادىء كبيرة مثل المساواة والديمقراطية . لقد كانوا أول من أيد الحل الذي ينادي بدولة مزدوجة» .

ولكن عليك ان لا تستخف أبداً بالشيوعيين ، كما يحذر مسؤول اسرائيلي ، اذ يقول صانع السياسة المحنك هذا : «لا تَزِنْهم بعددهم ، ولكن من خلال نشاطاتهم ... ان حزب الشعب مهم جدا ، فهم يعرفون كيف ينظمون حملات العلاقات العامة ويعرفون كيف ينظمون النقابات . وهم يعرفون كيف يكتبوا المنشورات . انهم اذكياء جدا ، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نقول [ان شيوعيا واحدا يساوي ستة من منظمة فتح!]» .

نشأ غسان الخطيب في الضفة الغربية التي كانت تحت السيادة الاردنية ، وقد ولد عام ١٩٥٤ في قرية بيت ايبا بالقرب من نابلس ، وهو اكبر أشقائه الستة : ثلاثة صبيان وثلاث بنات . أما والده عبد الوهاب فقد كان يعمل موظفا ، اذ كان مشرفا تربويا في منطقة الضفة الغربية . ويستذكر غسان ، فيقول : «لأنه كان مستخدما حكوميا ، فانه كان علينا ان ننتقل بشكل مستمر من مدينة الى أخرى ، الأمر الذي كان يمزقنا الى حد بعيد ، ولم أعش بشكل متواصل لاكثر من ثلاث سنوات في مكان واحد» . وبالطبع ، فان ذلك كان يعني الالتحاق بمدارس حكومية جديدة ، والاضطرار دائما الى اقامة علاقات صداقة جديدة ، ولم يكن لغسان أبدا مكان دائم يطلق عليه اسم وطن ، ويقول ان ذلك جعله يتعرف على العديد من المدن والقرى في الضفة الشرقية لنهر الاردن .

مع هذا ، فان الحدث الذي غَيَّرَ مجرى حياته كان موت والده ، حينما كان يبلغ الحادية عشرة من عمره . لم يكن عبد الوهاب قد ورث شيئا عن والديه ، ولانه لم يوفر شيئا ، ولم تكن لديه قطعة أرض يمكن بيعها ، كان على العائلة ان تعيش على اعمال الخير ، فكانت تتلقى المعونة التقاعدية من الحكومة الاردنية ،

بالاضافة الى الحسنات المقدمة اليهم من أقاربهم . اما التأثير الكبير في غسان فقد كان من عمه حافظ الذي يقول غسان عنه : «كان الوحيد الذي اعتنى بنا» . كان حافظ الخطيب نشيطا ، اذ كان من بين الاعضاء المؤسسين لمؤتمر العمال العرب ، ولمنظمة الجبهة الشيوعية التابعة له : رابطة التحرر الوطني التي ساعدت على تشكيل النقابات العربية في الاردن . وحتى عام ١٩٥١ كان اعضاء الرابطة من ابناء الضفة الغربية يؤيدون اقامة دولة فلسطينية متمتعة بالحكم الذاتي ، وعارضوا توحيد الضفة الغربية مع الضفة الشرقية تحت السيادة الاردنية ، فأعلنت الحكومة الاردنية ان الرابطة غير مشروعة وكان ذلك في سنة ١٩٤٩ ، وحُظر الحزب الشيوعي الاردني بعد سنتين من ذلك .

بقي حافظ الخطيب نشطا في العمل السري الشيوعي في الضفة الغربية ، مؤيدا لحزب سليمان النابلسي (الحزب الاشتراكي الوطني) الذي كان في طليعة المعارضين لنظام الحكم الاردني خلال سنوات الخمسينات ، والذي كان داوود ميخائيل والد حنان عشراوي من مؤسسيه . وفي الواقع ، كان حافظ موجودا مع غسان حينما دخلت الدبابات الاسرائيلية مدينة نابلس بعد مرور أقل من اثنتين وسبعين ساعة على بدء الحرب . ويستذكر غسان : «كانت هناك اشاعات بان هذه الدبابات إما انها عراقية أو جزائرية» . ولذلك فانه خرج من البيت مسرعا الى الشارع لتحيتهم غير ان رجلاً مسناً كان يعيش في جوارهم ويعرف الكثير رآه ، فانقض على الفتى البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وحمله عائدا به الى البيت وهو يقول له : «هؤلاء اسرائيليون . إبقَ في الداخل !» . كانت عائلة الخطيب تعيش عند الشارع الرئيسي في مدينة نابلس ، والتي كانت معقلا لقوات الجيش الاردني ، ولذلك حينما دخلت الدبابات الاسرائيلية المدينة ، وبدأت اطلاق النيران في مختلف انحاء المكان ، بحث حافظ وفاطمة [ام غسان] عن مخبأ للاطفال الستة . يقول غسان : «كنا نحو خمسة وعشرين شخصا نقف في ممر ضيق» حينما عبق البيت كله بالدخان . فقد أشعلت رصاصة طائشة النيران في فرشة كانت ملقاة في شرفة الطابق الثاني : «كنت أزحف على الارض آخذا دلوا تلو الآخر من الماء لاخماد النيران» .

وعلى امتداد الشهر التالي ، فرض حظر التجول في انحاء الضفة الغربية كلها . وحينما تم رفعه ، توجهت عائلة الخطيب إلى بيت إيبا ـ القرية التي ولد غسان

فيها ـ للتأكد من أن أحداً من عائلتهم الكبيرة لم يصب بأذى . وفي الطريق ، اختبر غسان أول واحدة من فظائع الحرب ، اذ يستذكر قائلاً : «مررنا عبر أحد الوديان والذي كان ميدانا للقتال ، وشاهدنا جثثا عديدة لجنود اردنيين معلقة على الاشجار وأجسادا محترقة ، وأشجاراً محترقة . لقد كان ذلك منظراً يبعث على الصدمة بالنسبة اليّ وأنا في ذلك العمر» . وفي بيت إيبا ، شاهد غسان للمرة الاولى وعن كثب الجنود الاسرائيليين ، إذ كانوا يفرضون بشكل منتظم حظر تجول محلي ، ويأمرون كل شخص يزيد عمره على ست عشرة سنة بالتجمع في ساحة المدرسة حتى يمكن القيام بعمليات التفتيش عن المخازن السرية للاسلحة من بيت الى بيت. وعلى نحو تقريبي ، كان على شباب القرية كلهم البالغ عددهم نحو ألفي شاب ان يتجمعوا في مدرسة بيت إيبا : «لقد استيقظت عند منتصف الليل على مكبرات الصوت الاسرائيلية . كنت هناك مع شقيقتي الأصغر سنا ومع عمتي العجوز . كنت تحت سن السادسة عشرة ، ولذلك بقيت في البيت . لقد روعنا فعلا ، اذ لم نكن نعرف ماذا نتوقع . وعند الساعة العاشرة تقريبا وصل الجنود ، ودخلوا البيت ، وأمروني ان أقف ووجهي نحو الحائط ، في حين قاموا بتفتيش المكان كله . وبالطبع ، لم يجدوا شيئاً» .

حينما عادت العائلة الى نابلس ، شجع العم ابن أخيه ، الذي كان ما يزال في طور المراهقة ، على الانضمام الى مجموعة من الشباب كانوا ينتقلون من بيت الى آخر لجمع الطعام والمال من أجل معالجة ضحايا القصف ، وللفلسطينيين الذين لا مأوى لهم ، الذين تدفقوا نحو الشمال قادمين من المناطق الغربية للمنطقة المحتلة حديثا ، وكانوا يعيشون في مراكز اللاجئين المؤقتة . يقول غسان عن نفسه حينما شارك في تظاهرة احتجاج مرتجلة في الشارع الرئيسي في نابلس : «كان أول تماس شخصي مباشر لي مع الجنود الاسرائيليين بعد مرور بضعة أشهر على الاحتلال ... لقد طاردوني دونما سبب ، وأمسكوا بي وبدأوا يضربونني ، ونُقلت الى المستشفى ثم أعادوني الى البيت» . كانت فاطمة غاضبة ، وحذرت غسانا طالبة اليه ان يبقى بعيدا عن مثل تلك المظاهرات ، لانه وإنْ كان في الثالثة عشرة من عمره ، الا انه مسؤول عن بقية أفراد العائلة . ويقول : «لقد بذلت والدتي جهدها لمنعي من الانخراط في الحياة السياسية» . وحاول جهده أن يطيعها ، وان يبقى بعيدا عن

المشـاكل . ومـثل غـالبـيـة الشباب ، كلما زادت والدته من محاضراتها عن مخاطر العمل السياسي ، بدا هذا النشاط اكثر جاذبية بالنسبة اليه .

مع بلوغ غـسان سن السادسة عشرة من عمره ، كان يتجاهل نصيحة والدته ، فـيـقـوم بتـوزيع منشـورات معادية لاسرائيل ، ويشترك في المظاهرات ، اذ يقول : «كـان مـصـدر الجـذْب حـيـاة الطلبـة ... كان هناك بعض النشطاء الشيوعيين في المدرسـة .... كان الشيوعيون نشطاء وأقوياء بين أوساط العمال والطبقات الدنيا ، وقـد كنت على اتصال معهم .... وانخرطت معهم ... لقد انجذبت الى الخط السياسي اكـثـر من انجـذابي نحـو الايديولوجـيـة [الماركسية]» . وبعد الاحتلال الاسرائيلي انشق الحـزب الشـيـوعي في الضفة الغربية عن منظمته الأم في عمان ، لأن الحزب الشـيـوعي الاردني كـان يضـغط من أجل إعادة توحيد الضفة الغربية مع المملكة الاردنيـة الهاشمية . ومع هذا ، فان الكثيرين من أعضاء الحزب الشيوعي الاردني بقـوا في الضـفة الغربية ، وأخذوا يعملون سرا من أجل اقامة علاقات مع رفاقهم في قطاع غزة .

مع مطلع سنوات السـبعينات ، احتدم التنافس بين الفلسطينيين الموالين للاردن وبين الفلسطينيين ذوي الاتجـاه الوطني في الضـفـة الغـربيـة ، فانعكس ذلك على السـياسة الصحفية في الصحف الفلسطينية : فصحيفة القدس اليومية التي تصدر في القـدس ، اتخذت خطا مـواليـا للاردن ، في حين ان صـحيفة الفجر سارت وراء منظمـة فتح والتيار السائد في م. ت. ف. كذلك فان حزب العمل الحاكم في اسرائيل أخـذ يطرح بقـوة ما يسمى بـ «الخيار الاردني» وهي خطة كانت تهدف الى اعادة السلطة الاردنيـة في آخـر الامـر على الفلسطينيين شريطة مـوافـقـة حكومة المملكة الارنيـة الهاشمية على اجراء تعديلات اقليمية على حدود ما قبل عام ١٩٦٧ واقامة عـلاقـات دبلومـاسـيـة بين الاردن واسرائيل . وفي الوقت نفسه ، كان الملك حسين يقـدم مـقترحـاته لاقـامـة المملكة العربية المتحدة ، التي ستعمل على إعادة توحيد ضـفتي نهر الاردن بعد الانسحاب الاسرائيلي النهائي من الضفة الغربية وغزة .

وعلى الرغم من الرواتب المالية السـخـيـة المدفوعة من عمان ، فان فلسطينيي الضـفـة الغربية كانوا يديرون ظهورهم للملك حسين ، بسبب كبحه لجماح منظمة التـحـرير الفلسطينيـة ، وبسـبب ان عـرفات كان قد أخذ بالظهور كقوة سياسية

بارزة على المسرح الدولي . وفي اسرائيل ، كانت سياسة «الجسور المفتوحة» التي نادى بها موشيه دايان - والتي سمحت للمؤسسات الفلسطينية بالعمل ضمن الحد الأدنى من التدخل بها ، وعلى أمل ان يواصل الاردن القيام بدور في ادارتها - آخذة بالضعف . وبمواجهة تهديدات وأخطار ارهابية جديدة في أعقاب ذبح أحد عشر رياضيا اسرائيليا في اولمبياد ميونيخ ، غدت الادارة المدنية اكثر صرامة تجاه مختلف مظاهر الحياة الفلسطينية ، فزادت من حدة مراقبة الكتب المدرسية والصحف ، وشددت الرقابة على كل شيء ، بدءاً من الامور الصحية ، وقضايا الحكم المحلي ، وانتهاء بشؤون اللاجئين . وفي الوقت نفسه ، كان يتم طرد المزيد والمزيد من الفلسطينيين لأسباب سياسية . ومع حلول عام ١٩٧٣ - وحتى قبل حرب اوكتوبر ١٩٧٣ - كانت الاتجاهات هذه كلها تتجمع لخلق احساس جديد قوي بالوطنية الفلسطينية ، وحقد متزايد تجاه النخبة المقربة من الاردنيين .

وقد برزت أولى مظاهر هذا الموقف الفلسطيني الجديد في صيف عام ١٩٧٣ حينما أرسلت أكثر من مائة شخصية بارزة تمثل الطيف السياسي كله في الضفة الغربية وقطاع غزة مذكرتين الى الامم المتحدة ، شاجبة فيهما الاحتلال الاسرائيلي، ومطالبة «بحق تقرير المصير ، وبالسيادة الفلسطينية على أرضهم بالنسبة الى سكان الضفة الغربية وقطاع غزة» . وقد كانت الرسالة واضحة بالنسبة الى م. ت. ف. في بيروت : فمن الآن وصاعدا ، من الأفضل ان تفكر المنظمة جديا في وجهات نظر فلسطينيي الداخل . اما الاولوية بالنسبة الى من هم خارج المناطق ، فيجب ان تركز على انهاء الاحتلال ، وايجاد نوع من التكيف مع اسرائيل من شأنه ان يقود الى دولة مصغرة للفلسطينيين . وقد لعب الحزب الشيوعي دوراً رئيسا في تنظيم فلسطينيي الداخل ؛ ففي شهر آب ١٩٧٣ أُجبِرَت م. ت. ف. على الاذعان والقبول بايجاد اول منظمة داخلية أقيمت كقاعدة سياسية لدولة فلسطينية مستقبلية ، والتي دعيت الجبهة الوطنية الفلسطينية ، وتشكلت من ائتلاف ضم : الشيوعيين ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والصاعقة . وقد قالت تلك الجبهة الوطنية عن نفسها : «انها جزء لا يتجزأ عن الحركة الوطنية الفلسطينية الممثلة في م. ت. ف.» . وقد تزامن انشاء هذه الجبهة مع طرح مقترح جديد قدمه الزعيم الماركسي نايف حواتمه امين عام الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، وجاء فيه ان تحقيق تحرير فلسطين كلها ليس

«أمـرا واقـعـيا بلغة ميزان القوى الحالي» كما قال ، وبالتالي ، فان م. ت. ف. يجب ان تركـز على «فن الممكن» أي الهدف الممكن احـرازه اكـثر من حيث اجبار اسرائيل على الانسـحـاب من الضـفـة الغـربيـة وقطاع غزة ، وبالتالي امكانية قيام «سلطة وطنية» جديدة على أي جزء من المناطق يتم «تحريره» .

ورغـم انهم اعلنوا بسرعـة ان الجـبـهـة الوطنيـة غير مشروعـة ، الا ان بعض المسـؤولين الاسرائيليين كـانوا يجادلون في وجوب السماح لها بالعمل ، مؤكدين ان تلك الجـبهة التي يقودها الشيوعيون يمكن ان تصبح في نهاية الأمر منافسا لقيادة م. ت. ف. الموجـودة في الخـارج ، اذ يقول مسؤول اسرائيلي رفيع المستوى : «كان هناك نقـاش قـوي صريح حـول هذا الأمـر في مجلات الجـبـهـة الشعبية لتحرير فلسطين والحـزب الشـيوعي ، والتي حاول فيها اليسار اقناع منظمة فتح بالسماح لهم بانشـاء قـيادة في الداخل .... وقالوا : لا تخشوا من هذا الامر ، فهم سيعملون فـقط على ادارة النضـال وتوجـيهه يوما بيوم . انهم لن يكونوا بديل القيادة الكلية لمنظمة التحرير الفلسطينية . اننا نريدها . لكن المنظمة لم تستجب . لماذا ؟» ويجيب عن تسـاؤله : «لان منظمة فتح لديها دائما هذا الخوف اللاواعي من انها اذا تركت مجمـوعـة صـغيرة كـهذه تدير الحياة اليومية فانها ستتطور مع مرور الوقت الى قـيـادة بديلة . امـا التـخوف الثاني فقد كان يتمثل في انه طالما ان غالبية النشطاء الذين يشكلون قـيـادة الداخل كـانوا من اليـسـار لا من فتح ، فانهم [فتح] كانوا يتـخوفون من ان تصبح لهم اليد الطولى في الميزان الحساس جدا بين فتح واليسار في النضال اليومي» .

لكن المواقف الاسرائيليـة المتـسـامحة بشكل مبدئي تجاه الجبهة الوطنية تغيرت بشكل درامـاتيكي بعد حرب اوكتوبر ١٩٧٣ ، اذ كـان ينظر الى الحرب في مختلف انحـاء العـالم العـربي على انها انتصار عربي ، بل الانتصار الأول للشعب العربي على اسرائيل . ويسـتـذكـر هذا المسـؤول الاسرائيلي : «ان العـرب كـانوا يشعرون بالحـيـوية» وقـد قـالوا لانفـسهم «يمكننا التغلب على اسرائيل . لقد فقدت اسرائيل مـصداقيتها» . وترجمت هذه الحالة النفسية داخل المناطق الى اعتقاد جديد مؤكد ، مـفـاده بأن الدولة اليـهـودية يمكن في النهاية ان تُـجْـبـَرَ على الدفاع عن نفسـها . وقـد كـانت الجـبهة الوطنية العربة المثالية لتنظيم الحملة الجديدة . فاجهزة الامن

الاسرائيليـة كانت لها لغتها الخاصة بها . وقد أطلقوا عليها اسم (خالابنيكس) وهو اسم يتكون من الحروف الاولى لعبارة (الجبهة الوطنية الفلسطينية) باللغة العبرية. ويقول المسؤول الاسرائيلي : «في البداية قالوا [دعونا نَقُـمْ باعمال شغب] ما أسميه [عنفـا خـفيفا] : رشق حجارة ، اضرابات ، وعمليات احتجاج في الشوارع ... كانت المشكلة أن أجـهزتنا الأمنية لاحظت بسرعة فائقة ان ذلك كان يتطور الى ماهو أكثر من العنف : الجناح المسلح للجـبـهـة الوطنيـة . كـان بامكانك ان ترى كيف بدأت الاجـهزة الامنية بابعادهم ، واحدا بعد الآخر ، فقد ابعدنا الـ [خالابنيكس] كلهم ... ابـعـدنـا سـمـك القـرش الاكبر الى الاردن» . وفي الوقت نفـسـه ، فـان المئات من الفلسطينيين المماثلين القي القـبض عليهم ، وأوقفوا ومن ضمنهم غسان الخطيب . لكن المحاولة الهادفة الى تحطيم الجبهة الوطنية الفلسطينية لم تعمل الا على إشعال الـعـاطـفـة الفلسطينيـة ، الأمـر الذي أدى الى اجـراءات قـمـعـيـة أشـد من قـبل الاسرائيليين .

كان بشير البرغوثي ـ الفلسطيني الماركسي البالغ من العمر خمسين عاما ، وهو من قـرية دير غـسّانة الواقعة بالقرب من رام الله ـ هو الذي عمل على انقاذ الحزب من النسـيـان تقـريبا . فقد عاد البرغوثي الى رام الله سنة ١٩٧٤ ، ويصفه زئيف شـيف وإيهود ياعـاري في كـتـابهما الذي يحمل عنوان (الانتفاضة) بانه «أصلع ، مولع بالتدخين ، متوقد الذكاء بشكل غير عادي ، وذو قلم حاد» كرس غالبية وقته من أجل الاشراف على صـحـيـفـتـه الاسبوعية الصادرة في القدس الشرقية ، والتي تحـمل اسم (الطليـعـة) . وتحت قـيادة البرغوثي ، كما يشير هذان المؤلفان ، فان الحـزب الشـيـوعي «عـاد الى فلسفته التقليدية ، مُبعدا نفسه عن الارهاب ، مؤكدا المبـدأ الذي طالما ميزه عن التنظيمات الفلسطينية الأخرى : الاعتراف بدولة اسرائيل ضمن حدودها لعام ١٩٦٧ . ان هذين المعـتـقدين قد رددهما الرفاق في اجتماعات الخلايا ومن خلال جريدة الوطن السرية الناطقة باسم الحزب» . ويصف مسؤول اسرائيلي رفـيع المسـتـوى البرغوثي ـ الذي أصبح في الستينات من عمره الآن وما يزال له تأثيره القـوي ـ بانه «العـراب الشـيـوعي ، حـيـدر عـبـد الشـافي الضفـة الغربية» .

في شهر حزيران عام ١٩٧٤ اعلن المجلس الوطني الفلسطيني الذي تسيطر عليه فتح ، والذي كان منعقدا في القاهرة ، موافقته على الاستراتيجية السياسية الاكثر براغماتية ، والتي كان نايف حواتمة ـ زعيم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ـ وحيدر عبد الشافي وبشير البرغوثي يعملون على اقناع ياسر عرفات بها . وعلى الرغم من ان تلك الهيئة الفلسطينية الحاكمة كررت هدفها المتمثل في انشاء دولة علمانية ديمقراطية في فلسطين كلها ، الا ان برلمان المنفى دعا ايضا الى اقامة «سلطة عسكرية وطنية شعبية مستقلة فوق كل جزء من ارض فلسطين يتم تحريره» . وقد فشل ذلك القرار التاريخي الذي اتخذه المجلس الوطني الفلسطيني ـ والذي قصد منه ان يكون اشارة إلى ان م. ت. ف. كانت تعتنق استراتيجية سياسية اكثر منها عسكرية ـ في التأثير في الحكومة الاسرائيلية ، التي شجبت الخطوة لانها تحول تكتيكي فقط نحو استراتيجية تدريجية لتدمير الدولة اليهودية على مراحل . كذلك ، شجب جورج حبش خطوة المجلس الوطني الفلسطيني ، والتي رآها على انها خطوة نحو الموافقة النهائية على دولة فلسطينية مصغرة في الضفة الغربية وقطاع غزة . ومع حلول نهاية شهر ايلول ، انسحبت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يتزعمها حبش من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وشكلت «جبهة رفض الحلول الاستسلامية» .

في ٤/ ٥/ ١٩٧٤ القي القبض على غسان الخطيب ، ووجهت اليه تهمة الانتماء الى خلية مسلحة سرية . لقد اعتُقِل العديد من أصدقائه أيضا ، ويعتقد ان من المحتمل ان يكونوا قد ذكروا اسمه امام الاسرائيليين ، اذ يقول : «ليس من السهولة معرفة ما الذي دفعهم لاعتقالي .... لقد اعتقدوا ان هناك اسلحة مخبأة أعرف عنها» . ولمدة اربعين يوما ، احتُجز غسان في الحبس الانفرادي ، وكان يُستَجوب كل ساعة تقريبا عن اماكن وجود هذه الاسلحة المزعومة : «جربت مختلف انواع التعذيب كلها ، الى حد انهم كسروا فكّي خلال ضربهم لي بقبضات أيديهم ... واعتادوا الطلب اليّ ان اخلع ثيابي كلها ، وفي بعض الاحيان كانوا يضعوني تحت دوش من الماء البارد ، ثم يبدأون جلدي بخرطوم مياه بلاستيكي رفيع» . وفي نهاية المطاف اعترف غسان بانتمائه الى الجبهة الوطنية ، وبانه كان يتدرب على استخدام الاسلحة والمتفجرات ، لكنه انكر باصرار ان يكون قد تورط

على الاطلاق باي نشـاطات ارهابية او أعمال عنف . ولم يغير ذلك كثيرا من موقف السلطات الاسرائيلية التي حكمت عليه بالسجن مدة خمس سنوات قضاها في سجن نابلس المركزي .

وغسان فلسطيني فيما يتعلق بتجربته ، اذ يقول : «انها أعطتني درساً في المعاناة» وان كانت خلقت إحساسا بالمشاركة ـ والذي يعترف بانه لم يشعر به من قبل ـ مع مئات الفلسطينيين الذين كانوا مشاركين في النضال السري اكثر منه. لقد عكست التوأمة السياسية للستمائة معتقل الفروق القائمة في الفكر السياسي الفلسطيني في المجتمع بصورة عامة . وقد كان بين النشطاء مؤيدو : فتح ، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، الجبهة الوطنية ، الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، بل وحتى بعض التنظيمات الصغيرة ، مثل : الصاعقة ، ومنظمة احمد جبريل المسماة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين/القيادة العامة .

ويقول غسان ان السجانين الاسرائيليين قساة ومُذلّون ، ولذلك ، سواء أكانوا متعمدين لذلك ام بدون قصد ، فان «ذلك زاد من بغضنا لهم» . ويقول انه لن ينسى حارس السجن الذي أجبر أحد القادة الفلسطينيين في السجن على الاستلقاء أرضا ، ثم وضع قدمه فوق عنقه قائلا له بصوت عال «لقد كان آباؤك وأجدادك خدما لنا في أرض اسرائيل هذه ، وسوف تبقون ايضا كذلك !» . ويقول غسان : عوضا عن ان يعمل السجن على ردع الفلسطينيين عن مقاومة الاحتلال ، فانه خلق روابط رفاقية قوية ، أصبحت مهمة تقريبا قدر أهمية الروابط العائلية التي تقيد هؤلاء اليافعين في سنواتهم الاولى : «لقد كان مكانا له التجربة الاجتماعية الاكثر تركيزا والتي يمكنك ان تتخيلها ... فها انت تعيش نهارك وليلك مع عدد كبير من الناس ، جميعهم من مناطق مختلفة ، ومن أعمار مختلفة ، ومن طبقات مختلفة» . ولان الاسرائيليين يحاولون احباط السجناء ، ومنعهم من الاختلاط ببعضهم ، فانهم كانوا ينقلونهم باستمرار من مكان لآخر ، الامر الذي يعني مع مرور الوقت بالطبع ، ان شخصا كغسان اكمل فترة سجنه الطويلة ، يعرف كل شخص من السجناء . وخلال السنتين الأخيرتين من فترة سجنه ، اختير هذا الشاب الفلسطيني البالغ من العمر واحدا وعشرين عاما ليمثل السجناء في المفاوضات مع مديري السجن الاسرائيليين . فكلما كان هناك اضراب عام ، كان غسان هو الذي يساهم في نقل مطالب السجناء وايجاد تسوية للمشاكل . كذلك ، فانه عمل في لجنة

التنسيق المسؤولة عن «تنظيم حياة السجناء» اذ كان يعمل على ترتيب النشاطات الثقافية لهم ، ويساعد على حل المنازعات والخصومات الناشبة بين الافراد وبين الفصائل في داخل السجن . ويقول عن ذلك : «لقد كانت تجربة غنية جدا جداً ... ولو لم أمتلك هذه التجربة ، فانني أشك كثيراً في ان اكون قد انخرطت في الحياة السياسية» .

ان التحديات الفكرية العقلية في السجن كانت تتغلب على الملل والسأم ، وتنتصر على الاسرائيليين : «كنا نقسّم انفسنا في الغالب الى مجموعات وخلايا ، ونجلس مع بعض لنتحدث في القضايا التنظيمية ، والسياسية ، والثقافية . وبعد فترة قصيرة ، كان الاسرائيليون يدخلون الغرفة ويفصلوننا عن بعض . كانوا يواصلون تغيير نظام ترتيب الغرف والسجناء ، ويعملون باستمرار على نقلنا من مكان لآخر في السجن كلما أحسوا ان مجموعة معينة قد أصبحت تمتلك القوة والسيطرة» . كان الحراس ، وباستمرار ، يقومون بعملية تفتيش من زنزانة لأخرى بحثا عن أي مادة مكتوبة يمكن ان تمدهم بمعلومات عن مجموعة معينة . وكلما وجدوا شيئا يمت بصلة «للمظاهر التنظيمية لحياتنا» تتم مصادرته ، ويوضع مرتكبه في الحبس الانفرادي . لكن الوضع كان مضحكا . ويقول : في سجن حجمه كحجم سجن نابلس ، من العبث محاولة تجنب حدوث اي نقاشات سياسية ، أو ظهور زمر وجماعات . ويوضح غسان ان ذلك المأزق «لم يكن بامكان الاسرائيليين تجنّبه. فمن ناحية ، كانوا يريدون اعتقال الناس ، ومن ناحية أخرى لا يستطيعون منع مثل ذلك العدد الكبير من السجناء من الاختلاط ببعضهم وتنظيم انفسهم . ولذلك كان عليهم ان يدفعوا الثمن» .

لقد كانت زنزانته البالغة مساحتها عشرين قدما طولا وثلاثة عشر قدما عرضا كبيرة مقارنة بغيرها ، على الرغم من انه كان يشترك فيها مع عدد من السجناء الآخرين . كانوا ينامون على الارض لانه لم تكن هناك أسرّة ، وكانت النافذتان محاطتين بالقضبان الحديدية ، وغير مغطاتين . وكذلك الامر بالنسبة الى الباب . وفي فصل الشتاء ، يكون الجو بارداً بشكل قاس ومؤلم . كانت الارضية الاسمنتية ـ كما يقول غسان ـ مناسبة وجيدة لظهره ، لكن البرد المستمر جعله يشعر «وكأنك تنام في الشارع» . كان كل سجين يعطى خمس بطانيات في الصيف

وست بطانيـات في الشـتـاء ، وكـان غسان يضع اثنتين أو ثلاثا منها تحت جسده كـفـرشة ، ويغطي نفسه بالبطانيات المتبقية . عند الساعة السادسة من صباح كل يوم يذرع الحـراس الممـرات جـيئة وذهوبا وهم ينادون على السجناء للاستيقاظ ، ويقـرعـون الابواب المعدنية الباردة للزنزانات بمفاتيحهم . وخلال الدقائق الثلاثين التـاليـة يُتـوقع ان يكون السـجناء قـد ارتدوا مـلابسـهم وطووا بطانياتهم ، وان يكونوا قـد وقـفـوا على اهبـة الاسـتـعداد لتقوم سلطات السجن بتعدادهم . وعند السـاعـة السـادسـة والنصف تمامـا ، يبـدأ الراديو المركـزي ببث نشرة الاخـبار الاسرائيليـة باللغة العربية عبر مكبرات الصوت الموجودة في السجن ، ويتم احضار طـعـام الـفـطور اليـهم وهم في زنازينهم . وبعـد ذلك «ننتظر دورنا لحلول فترة العشرين دقـيقة التي يسمح لنا فيها بالخروج الى الشمس» . ويقول ان هذا الجزء من الروتين اليـومي كـان امـرا سـورياليـا تقريبا : «فكل شخص يسير في دائرة ، ولذلك فان ما تراه هو سجناء من مختلف الغرف يسيرون بشكل دائري» .

ويتم قـضـاء الساعات الثلاث أو الاربع التالية بالقراءة او الحديث مع السجناء الآخـرين في زنزاناتهم . عند السـاعة العاشرة هناك عملية تفقّد أخرى ـ هي الثانية من بين خمس يومـيـا ـ وعند السـاعـة الواحدة يتم احضار طعام الغذاء ، واجراء التـفـقـد مـرة أخرى . وبعد الغذاء كان غسان ينام أو يقرأ . وعند الساعة الرابعة هناك عملية تفقّد ثالثة . لكن الساعات الثلاث التالية ـ من الرابعة وحتى السابعة ـ تصـبح هي الاكـثر غنى من بين الاوقات كلها ، اذ يقول غسان : كانت تلك «جزءاً مـهمّا جـداً من اليـوم» لانها كـانت الوقت الوحـيـد الذي يسـمح فـيـه للسـجناء بالاخـتلاط ببعضهم . ففي يوم يقدم أحد السجناء عرضا لكتاب ، وفي اليوم الثاني تكون هناك مناقـشـة صريحة وعلنيـة لبعض القضايا المتعلقة بالاحتلال ، او يقوم شـخص مـا بتسلية الآخرين من خلال العزف على آلة موسيقية أو الغناء أمامهم . كـان ذلك الوقت فـرصتهم الوحيدة لقراءة الصحيفة ، اذ كان الاسرائيليون يعطون كل زنزانة نسـخـة واحـدة من صـحـيفة الانباء «ذات الخط الحكومي ، والصادرة باللغة العربية» كما يقول غسان . في كل يوم كان يأخذ الموضوعات المهمة ويقرأها بصـوت عـال لنزلاء زنزانته . ويقول : «خلال هذه الفترة ، نحصل أيضا على آخر وجـبة طعام لذلك اليوم» والتي تتألف من : «الحساء ، بيضة ، والحمص ... كنا لا

نأكلها في ذلك الوقت ، لاننا اذا أكلناها عند الساعة الرابعة أو الخامسة ، سنشعر بالجوع الشديد فيما بعد . لذلك كنا نحتفظ بها حتى الساعة السابعة أو الثامنة ثم نتناولها» .

وحينما خرج من السجن أخيرا ، قبل انتهاء مدة محكوميته بسنة ، كان يتوق الى الانضمام ثانية الى زملائه في الحزب الشيوعي ، ويقول : «ان غالبية الشباب الفلسطينيين الذين اطلق سراحهم من السجن انخرطوا في العمل السياسي» . لقد كانت تجربة السجن ـ بالنسبة الى غسان ـ هي المدرسة الاكثر نفعا وقيمة التي انخرط فيها على الاطلاق ، اذ يقول : «لقد تعلمت خلال السنوات الاربع غالبية الاشياء التي أعرفها في حياتي» . كان العالم الذي عاود الانضمام اليه عام ١٩٧٧ يختلف عن ذاك الذي تركه منذ اربع سنوات خلت ، اذ شنت الحكومة الاسرائيلية خلال فترة سجنه معركة جديدة للتغلب على الشعب الفلسطيني . ففي شهر تشرين الاول ١٩٧٥ قدم شمعون بيريز وزير الدفاع خطة «الادارة المدنية» التي وعدت بمنح سلطة أوسع للبلديات المحلية ، بما في ذلك تسمية فلسطينيين لادارة المناصب الادارية ، واقترحت خطة بيريز نقل كل سلطة تتعلق بالقضايا المدنية الى رؤساء البلديات والى مسؤولي المدن والقرى الآخرين في المناطق المحتلة ، وكان رد الفعل المبدئي عدائيا على نحو ساحق . يقول حكمت المصري ـ رئيس بلدية نابلس السابق ـ متهما : «ان فكرة [الحكم الذاتي] في المناطق المحتلة إهانة لكرامة الشعب الفلسطيني ، ونحن نرفضها بكل قوتنا» .

من أجل تنفيذ الخطة ، ولنقل سلطات محدودة الى الفلسطينيين ، كان على الحكومة الاسرائيلية ان تجري انتخابات بلدية . وللمرة الاولى ، قررت م. ت. ف. انه يجب على الجبهة الوطنية ان تطرح مرشحين ، من أجل ان تظهر قوتها داخل المناطق بشكل رئيس ، ومن أجل حرمان التجار والوجهاء الموالين للاردن من الحصول على مناصب في السلطة . ونتيجة لذلك أصبحت انتخابات شهر نيسان ١٩٧٦ موضع خلاف بين ممثلي م. ت. ف. ـ الذين قاموا بحملة تحت الشعار الوطني القائل (لا للادارة المدنية ، نعم للجبهة الوطنية) ـ وبين المرشحين الآخرين الذين أضمروا ولاءاتهم للمملكة الاردنية الهاشمية . وحينما تم فرز الاصوات ، حصل الوطنيون الموالون لمنظمة التحرير الفلسطينية على انتصار مقنع ، اذ حازوا

السلطة في الخليل ، وبيت جالا ، ونابلس ، ورام الله ، والبيرة ، وطولكرم ، وبيت ساحور ، وأريحا . لقد كان انتصار م. ت. ف. مكتملا تماما لدرجة ان الحكومة الاسرائيلية سعت خلال السنوات العديدة التالية لتقويض سلطتهم .

لقد تم إبعاد العديد من هؤلاء الفلسطينيين المنتخبين حديثا ، لكن ذلك زاد من شهرة الجبهة الوطنية وقد كان ذلك - في نظر الفلسطينيين - بداية القيام بسلسلة الاحداث السرية ، اذ يستذكر مسؤول اسرائيلي ، متعجبا : «لقد رفضوا قبول فكرة ان الأمر لن يستمر طويلا ... لقد كنت في الادارة المدنية في الحكومة المؤقتة عام ١٩٧٧ ... واذكر انني كنت أقرأ في مجلة الهدف الصادرة عن الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين كل اسبوع ، وكيف ان عندنا هيئة في المناطق تسمى الجبهة الوطنية . ذهبت لرئيسي وقلت له : «[ما الذي يجري هنا ؟] فقال [لا أعرف لقد أوقفوا نشاطهم منذ مدة طويلة]» . وبعد القيام باستقصاء سري من قبل الاجهزة الامنية توصل الاسرائيليون الى ان الشيوعيين وحلفاءهم من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ومن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين حاولوا فعلا اعادة بعث وتجديد نشاطهم ، ويقول مصدر امني رفيع المستوى «انهم اتخذوا الخطوات الاولى لاحياء الجبهة الوطنية ... ثم اكتشفنا ان ذلك كان هدف اليساريين فقط ، فمنظمة فتح لم توافق على ذلك ، وبالتالي لم يعد هناك جبهة وطنية» . لكن مع نهاية عام ١٩٧٨ ، أثبت اليساريون مرة أخرى عزمهم على حمل الراية الوطنية في الداخل ، فعملوا على انشاء منظمة جديدة هي (لجنة التوجيه الوطني) لمعارضة اتفاقيات كامب ديفيد المبرمة بين مصر واسرائيل ، والتي كانوا يعتقدون انها ستحرم الفلسطينيين من حق تقرير المصير من خلال فرض نسخة معدلة قليلا وبشكل محدود ، من خطة بيريز للحكم الذاتي على الضفة الغربية وقطاع غزة .

كان من بين مؤسسي اللجنة فلسطيني بارز ويدعى ابراهيم الدكاك ، وهو مهندس مدني . في اليوم الذي سبق الاول من شهر تشرين الاول - وهو يوم تأسيس لجنة التوجيه الوطني ، وكان ذلك خلال اجتماع سري عقد في مبنى اتحاد العمال في بيت حنينا - ساهم الدكاك في الدعوة الى عقد اجتماع للحزب الشيوعي ، صدر عنه بيان طالب فيه الحزب باقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية

وقطاع غـزة ضـمن حـدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧ . وقـد أُقر ذلك الموقف بـشكل رسـمي في ١٩٧٨/٩/٢٧ حـينما صـدر اعـلان ـ خـلال اجـتماع حاشد للوطنيين الفلسطينيين في القـدس ـ بانه «لا يمكن تحـقـيق سـلام مـستقر في هذه المنطقـة بدون فرض السيادة العربية ـ الفلسطينية على القدس ، والضفة الغربية ، وقطاع غزة تحت قيادة م. ت. ف. الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني» .

وعلى الرغم من ذكـر م. ت. ف. الا انه تم اتخاذ خطوة جـريئة اخـرى من قبل فلسطينيي الداخل كـانت بمـثـابة اشارة الى انهم يطالبون على الاقل بصوت مماثل لتـقـرير مـصيرهم . ان تأييـد لجنة التوجيه الوطني تم الاعلان عنه حينما ـ بعد مـرور فترة قـصيرة على اقامتها ـ نظم ثلاثة آلاف شـخص ـ من بينهم شـخصيات مـواليـة للاردن مثل حكمت المصري ـ تظاهرة في نابلس ضد اتفاقيات كامب ديفيد المقترحـة . وقد رفعت في هذه المسيرة مئات الاعلام الفلسطينية المصنعة في البيوت وهـي اشـارة تنذر بان الاسرائيليين لن يكونوا قـادرين على احـتـواء الطمـوحـات الوطنيـة للشـعب الفلسطيني ، والتي ستنفجر بعد مرور عقد من الزمن على شكل انتفاضة .

ولم يكتب للجنة البـقـاء طويلا ، فـثـلاثة من أعـضائها ـ بسام الشكعة رئيس بـلـديـة نابلس ، وكـريم خلف رئيس بلدية رام الله ، وابراهيم الطويل رئيس بلدية البيرة ـ كـانوا هدفـا لمحـاولة اغـتيال جرت سنة ١٩٨٠ من قـبل مجمـوعة سرية مـسلحـة من المسـتـوطنين الاسرائيليين من بينهم صـهر الحاخام الأصولي موشيه ليـفنغـر وزوجـتـه ميريام . ونتيجة لتلك المحاولة ، أصيب كل من الشكعة وخلف بـجـراح خطيرة ، أدت الى بتر أرجلهما ، في حين تم ترحـيل عـضـوين آخـرين الى الأردن ، وهما : فـهـد القـواسـمة رئيس بلدية الخليل ، ومحمد ملحم رئيس بلدية حلحـول ، كما تم وضع قياديين آخرين ـ بما فيهم ابراهيم الدكاك ـ تحت الاقامة الجبرية المنزليـة . وللمـرة الثـانية ، عمل الاسرائيليون على قمع وحظر هيئة وطنية شرعـيـة ، والتـخلص من تهديد مـبـاشر لأمنهم . لكن ثمن تعزيز وابقاء الاحتلال العـسكري والمدني للسكان اليـائسين الحـرونين سـيـواصل ارتفـاعه حتى أصبح العنف المتـواصل للثورة الفلسطينية الرد الوحيد على الهيمنة الاسرائيلية .

في عام ١٩٧٧ عـاد غـسـان الخطيب الى جامعة بير زيت ليكمل دراسته ، التي انقطعت حينما شارك في شهر كانون الاول ١٩٧٩ في مظاهرة بالقرب من الكلية ،

حيث عانى من كسور في ثلاثة أضلع ، وحكم عليه بالسجن مدة ستة شهور . ويقول غسان : «لا يمكنك تخيل الوحشية التي شاهدتها في بير زيت ، فقد قتلوا طلبة عديدين حينما كنت هناك ، بل انهم ضربوا غابي برامكي رئيس الجامعة عند الدرج المؤدي الى مكتبه» . وقد حصل غسان على درجة البكالوريوس في الآداب سنة ١٩٨٢ .

وفي عام ١٩٨٣ تقدم الى جامعة مانشستر في بريطانيا لمتابعة دراسته للحصول على درجة الماجستير في اقتصاديات النمو . وما يزال يذكر فرحته حينما تلقى الانباء : «فبعد أربع سنوات من السجن ، وبعد خمس سنوات في جامعة بير زيت ، كانت تلك هي المرة الاولى في حياتي التي كنت خلالها قادرا على مغادرة البلاد ... لم أكن صغيرا» . وبالفعل ، كان غسان في التاسعة والعشرين من العمر حينما بدأ دراساته العليا . كانت السنوات التالية ايضا مثيرة للدهشة بالنسبة اليه اذ كان يعتقد ان كل شخص في العالم على دراية ومعرفة بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وانه يؤيد حق الشعب الفلسطيني في اقامة دولة مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة . لكنه اكتشف انه لا يستطيع حتى تقديم نفسه على انه شخص من الضفة الغربية المحتلة ، ويستذكر : «كانت الاجابة الانموذجية : [ضفة غربية ماذا ؟]» .

وفي انكلترا اكتشف ان سمعة العرب قد تضررت على نحو سيء بسبب «بعض الخليجيين الاغنياء الذين اعتادوا السفر الى اوروبا ينفقون الأموال ويسعون وراء المومسات ... لقد شعرت بالخجل بسبب تصرفاتهم» . واذا لم ينظر الاوروبي العادي الى العربي على انه مستهتر خليع ، فانه كان يراه ارهابيا ، ويقول غسان : «أدركت ان هناك الكثير مما يجب القيام به لتحسين صورة الشعب الفلسطيني في عيون العالم الخارجي» . ويوجه اللوم الى التشويهات المتعمدة التي تقوم بها المجموعات المجهولة المسؤولة عن نشر «دعاية معادية عنا» . لكنه أيضا يخطيء الفلسطينيين انفسهم ، وبخاصة «الأفراد الفلسطينيين الذين هم خارج المناطق» الذين لطّخوا صورتهم ، اذ يقول : «لقد أدركت اننا نعيش في بلد صغير جدا وضعيف في العالم واننا لن نكون قادرين أبدا على الحصول على استقلالنا ما لم يتفهم العالم حقوقنا ومعاناتنا . وفكرت في انه يجب علينا ـ كفلسطينيين ـ ان نحاول ترسيخ سمعتنا ، رؤيانا ، وشخصيتنا ، وان نغير نظرة العالم الخارجي

الينا» . واعلن غسان انه حين عاد الى المناطق المحتلة ، جعل الاولوية الاولى لديه تحسين صورة شعبه ، ويقول : «لقد راودتني فكرة تأسيس مركز القدس للاتصال والاعلام حينما كنت أدرس في بريطانيا» .

واليوم ، فان هذا المركز واحد من اكثر المؤسسات احتراما في الضفة الغربية ، اذ يقدم اكثر مما يمكن لوسائل الاعلام الغربية ان تحصل عليه من محيط فندق اميركان كولوني . ان المكوث في مقر اقامة الباشا السابق ، ومقابلة المفكرين والمثقفين من جامعة بير زيت اثناء الجلوس في ساحة الفندق وبما تحويه الساحة من البوغنفيليه [نبات امريكي معترش] المزهر وبركة السمك ، يترك المرء في حالة من نفاذ البصيرة المشوهة ، وباحساس زائف من الطمأنينة بان الامور ليست فعلا سيئة الى هذا الحد . مع هذا ، وفي الواقع ، يرى غسان فندق كولوني اميركان على أنه مأوى للفلسطينيين الأثرياء ، ويعتقد ان الاحتلال ـ بالنسبة الى العديد من الصحافيين ـ يصبح شيئا عقيما ، شيئا لفظيا ، ولكن ليس مجربا .

وقد اعتقد ان بامكانه القضاء على شيء من هذه العزلة والتعصب من خلال اصطحاب الصحافة الى الميدان لزيارة مخيمات اللاجئين ، والقرى النائية ، ومن خلال تقارير باللغة الانكليزية عن السياسات الاستيطانية الاسرائيلية ، وعن التعليم ، وعن الزراعة ، وعما هو منشغل فيه من استعادة الحقوق المتعلقة بمصادر المياه الثمينة في الضفة الغربية . ان مركز القدس للاتصال والاعلام ـ ولانه بمثابة جسر بين المجتمع الفلسطيني ووسائل الاعلام الخارجية ـ قد زاد أيضا من ظهور غسان أمام شبكات الصحافة الغربية ، والذي حاز على شهرة بانه مصدر حسن الاطلاع وفاعل . فحينما اعلن رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين عن تجميد النشاط الاستيطاني الجديد في شهر تموز ١٩٩٢ ، اجريت مقابلات عديدة على نطاق واسع مع غسان في تقارير اخبارية بثتها شبكات التلفزة.

وحينما لا يكون غسان في مهمة للتفاوض مع الاسرائيليين ، او لا يقوم بزيارة القرى الفلسطينية النائية ليتحدث عن عملية السلام ، او لا يعمل مع مجموعات مثل حركة السلام الآن لانهاء العنف ، فانه يقوم بالتدريس في جامعة بير زيت ، ويرئس الشركة الزراعية المتحدة ، وهي هيئة غير ربحية ، تتلقى مساعدة من المجموعة الاقتصادية الاوروبية ، وتقدم قروضا للمزارعين الصغار لمساعدتهم على

تسـويق منتـجـاتهم في الخـارج ، مـثل : البطاطا ، والبندورة ، والخيار، والفواكه ، وغيرها من المنتـجـات التي ينتـجـونها «وبشكل رئيس في منطقـة وادي الاردن» . ويقـول غـسـان : على الرغم من ان عمر الشركة أربع سنوات فقط ، الا انها تعمل برأسمال قدره ١,٥ مليـون دولار امـريكي «وقد سمح لنا مؤخرا فقط بالتصدير مـبـاشرة لدول المجـموعة الاقتصادية الاوروبية . على الصعيد الجغرافي ، فاننا كنا نصـدر من خلال اسرائيل ؛ اذ اننا اعتدنا التصدير من خلال الشركات الاسرائيلية ، ولكن للمـرة الاولى ، تم السماح لنا الآن بالتصدير مباشرة بدون وكلاء اسرائيليين» وللمـرة الاولى توقع اتفـاقـية رسمية من قبل هيئة من المصدرين الفلسطينيين من المناطق المحتلة وبين مجموعة من الدول المعروفة (المجموعة الاقتصادية الاوروبية) وكـانت المشكلة التـاليـة كـيـفـية ادخال المنتجات الى الاسواق الاوروبية ، اذ كانت اسرائيل تصر دائما على وجـوب تصـدير منتـجـات المناطق المحـتلة كلها من خلال (أغـركـسكو) وهي شركـة حكومـية اسرائيلية رسمية لتصدير المنتجات الزراعية . يقـول الاسرائيليون : «لدينا البنية التحتية اللازمة لذلك : لدينا شاحنات وطائرات ، وسـفن . اسـتـخدموا تسهيلاتنا وصدِّروا باسمنا ... سنحميكم من الفشل ... واذا رفـضتم العمل معنا ستسقطون على وجوهكم !» . وأجابهم الفلسطينيون : «دعونا نجـرب» . وشـهدت الشهور التالية مفاوضات مكثفة حول ما سيكتب على أقفاص الشحن البحري التي ستوضع فيها بضائع الضفة الغربية: هل سيقال «انتاج دولة فلسطين» ام «انتـاج الضـفـة الغـربيـة ـ اسرائيل ؟» أو «انتـاج الضـفـة الغربية ـ فلسطين ؟» . وفي النهـاية تم التـوصل الى تسـوية ، حـيث تقرر وضع علامة على الاقـفـاص تقـول : «انتـاج الضـفـة الغـربية» . ويقول أوري نير مراسل صحيفة هآرتس : «لقد كان انتصارا مهما للفلسطينيين ، اذ أعطاهم نوعا من الاستقلال» .

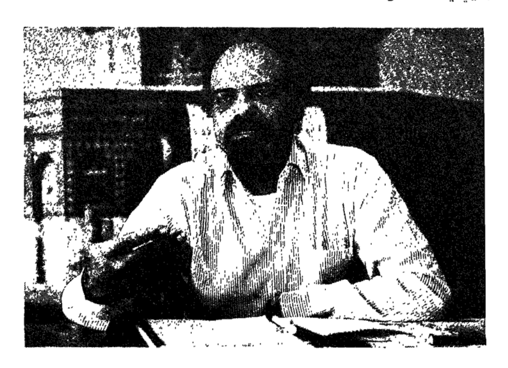
لكن ذلك ايضـا كـان تقـدمـا بالنسبة الى غسان فيما يتعلق بانموذجه الخاص بالاسـتـقـلال الاقتصادي المستقبلي : نوع من الخطوة التي ستساعد على اثبات ان دولة فلسطينيـة في الضـفـة الغـربية وقطاع غزة يمكن ان تكون وجودا اقتصاديا قـابلا للتطبـيق ، بل وربما دليلا على عهد جديد من التعاون الاردني ـ الاسرائيلي ـ الفلسطيني. ومع ذلك ، فإن الـمُنْتَجَ الذي يسوّق من خلال قروض تمنحها الشركة الزراعـيـة المتحدة ، ينمو على الارض التي كانت ذات يوم مرتبطة بالاردن : الشركة

فلسطينيــة الملكية ، واسرائيل تسمح بشحن منتجات الشركة الى اوروبا عبر الموانيء الاسرائيليــة الواقــعة على البحر المتوسط . وبالنسبة الى غسـان ، فان هذا النوع من البراغماتيــة على وجـه الدقــة ، هو الذي سيمكن الفلسطينيين في نهاية الأمر من ان يصــبـحــوا مــتــمــتعين بالاكتفاء الذاتي . ويقول : «في العصر الحديث ، فان الموارد الطبـيـعـيــة وكل المظاهر التـقليـدية الأخرى للثروة يجب ان لا تبقى بعد هذا هي الاشــيــاء التي يجب على المرء الاعتماد عليها ... اليوم ، يعتمد الاقتصاد على الموارد البشرية ، وهناك رؤوس أمــوال كـامنة» . ويحذر من توقع حـدوث مـعجزات بين عـشية وضحاها نتيجة عملية التفاوض : «ستكون المفاوضات صعبة وستستغرق وقــتا ... ولكنني أعتقد أنها ممكنة الآن . اننا لا نقترح سلاما يجب ان يتم حالا .... بل نقترح مــراحل انتــقــاليــة تهدف أولاً الى خلق ثقــة ، وثانيا الى اختبار كل طرف للآخــر . سنقــوم بخطوة واحــدة في وقت مــا . وكلما اقتنعنا ان الطرف الآخر جاد فــعــلا ، سنقــوم بخطوة أخــرى . هذا هو النوع من الفــهم والتربيــة الذي يستحق الاعتماد والاتكال عليه» .

رضوان ابو عياش



● رضـوان ابو عـيـاش مع ابنتـه شـذى ، بعد ان تم انقاذ عينيها على يد جراح عيون اسرائيلي في مستشفى هداسا .



● رضوان ابو عياش في مكتبه في المركز الاعلامي العربي في القدس الشرقية .

رضوان ابو عياش

لو أنهم كـانوا في هوليـوود ، يختـارون ممثلا للقيام بدور ياسر عرفات ، لكان رضـوان أبي عـياش البالغ من العمر اثنين وأربعين عاماً أكثر الناس ملاءمة للقيام بهذا الدور . فـمثل عرفات ضئيل الجسم ، فان رضواناً قصير (حتى ولو انه أكثر نحولاً من عرفات) وله لحية (على الرغم من ان لحيته أنيقة ومشذبة أكثر من لحية زعـيم الفـدائيين الخـشنة) كما أن رضـواناً ذا البشرة داكنة اللون له شاربان وان كـانا كثيفين ، وله عينان ثاقبتان . ومع هذا ، فان عيني رضوان لا توحيان بانهما تتـهـددان وتومـضـان ومضة أذى . والرجلان كلاهما مشاكسان ، متحمسـان في انفـعـالهما من أجل قـضـيـة شـعـبهما ، وكلاهما يستمدان تأثيرهما من الانسان الفلسطيني العادي الذي أجبر على مغادرة بيته ووطنه حينما أُقيمت دولة اسرائيل.

ورضـوان ، أيضـاً ، لاجيء من الطراز البدائي للاجئين ، ولد في خيمة في مخيم عسكر للاجئين في نابلس سنة ١٩٥٠ . لكن جـيله كان أول جيل من عائلة عياش يولد فقيراً . فـأجـداده هـربـوا مـن بيـوتهم في جماسين ، وهي قـرية مـوسرة ، وأصـبـحت الضـاحية الغنية التي تسمى اليوم رامات أفيف ، وتقع الى الشمال من تل أبيب . ان المزارع الموجـودة هناك تبـاع اليوم بنحو مليون دولار تقريبا للدونم الواحـد ، ويمـتلك جـداه عـبـد الله ونايف خمسين دونما هناك تشكل «نحـو ثلث مـسـاحـة القـرية» كما يقـول رياض . كـذلك ، فانهما كانا يمتلكان مئات بسـاتين البرتقـال والكلأ حـيث اعـتـادت قطعان الماشية العائدة لهم (الأحصنة والأبقار) أن ترعى هناك ، وكـذلك ـ المصـدر الطبـيـعي الأكـثـر قيمة ـ الينابيع الطبيعية تحت الأرض .

حـينما فـرت والدته عـائشة مع زوجها ابراهيم خلال حرب ١٩٤٨ ، كـان من المفـروض انهما يعـرفان انهما لن يعودا على الاطلاق ، ولذلك فان أمه أخفت مئات القطع الذهبـيـة في ثيـابها كما يقول رضوان . وكانت تنفقها بعد ذلك حينما يكون زوجـهـا أو أحد أبنائها التسعة بحاجة الى الرعاية الطبية ، أو حينما لا يكون هناك طعـام يكفي العـائلة . ويقـول رضـوان ان والدته أرادت منه أن يعرف أن أجداده كـانوا أثرياء : «كانت والدتي غنية جداً ، وقد اعتادت ان تخبرني انها تمتلك العديد

من القطع الذهبـيـة في يديها الاثنتين . وحتيما بلغتُ الرابعة عشرة من العمر أنفقتْ آخر قطعة» .

ومـثل عـرفـات ، فـان رضوانا أيضاً نشيط ، مقاتل في الشوارع ، وجنوده من الشـبـاب الذين يشكلون حـجم سرية من راشـفي الحـجارة الموالين لفتح ، والذين يسـمـون الشـبـيـبـة . وهو يقـوم بانتظام بزيارة مخيمات اللاجئين والجرحى في مـسـتـشـفـيـات الضـفـة الغربية ، وقد استغل سلطته كصحافي لايقاظ ـ ويقول الاسرائيليـون لاشـعـال ـ العواطف الفلسطينية . ومثل آخرين كثيرين جداً ، قضى فترة في السـجن: شهر عام ١٩٨٢ ، سـتة شهور عام ١٩٨٧ حـينما القي القبض عليـه عـشـيـة الانتفاضة ، وخمسة شهور خلال حرب الخليج . لكنه ـ كما يقول مسؤول اسرائيلي ـ اذكى بكثير من أن يقوم بأعمال عنف بنفسه .

ولا ينكر رضـوان انه نقل أمـوالاً من م. ت. ف. بشكل خـفـي الى داخل المناطق كما أنه لا ينفي انه التقى مع عرفات سراً حينما كان في الخارج ، بل انه يعترف ان له سَـرِيّة سِـرّية من المقـاتلين في الضـفـة الغـربيـة ، وانه فخور على نحو واضح بلقـائه مع عـرفـات . ويقـول : حـينما تحطمت الطائرة التي كـان على متنها ياسر عرفات في الصحراء الليبية ، كان هو الشخص الوحيد الذي تلقى مكالمة هاتفية عند السـاعـة الثـالثـة والنصف صباحاً لاعلام قيادة فتح في الضفة الغربية بالحادث : «كنت الوحـيـد الذي أخبر فيصل [الحسيني] ... باستطاعتي الاتصال معه مباشرة [عـرفـات] دون الرجوع الى مستشارين آخرين ... ان قربه مني يعود الى قوتي في الشـارع ، فـهو يعرف ان باستطاعتي القيام بالكثير في الشارع . استطيع ان اكوّن جيشاً من الشباب» .

ولكن ، مثل عرفات ، فان لرضوان أبي عياش أعداؤه ، فهم يوجهون اتهاماتهم قـائلين انه يشـترك في مـيـزة مع زعيم م. ت. ف. : هي الفساد . ويؤكدون انه بدد آلاف الدولارات على نفـقـاته الخـاصـة ، ويشـيرون الى رحـلاته المتكررة الى رومـا وباريس ولندن ، ويقـولون انه يقود سيارة باهظة الثمن من شركة جنرال موتورز وانه مـدمن على الشراب ، ومكروه في أيام الاصولية الاسلامية هذه . كذلك ، فانهم يتـهـمـونه بانه على علاقة وثيقة بالاسرائيليين ، لكن التهمة الأكثر حداثة وتخريبا من بين التـهم تلك كلها ، هي ان رضوانا أبي عياش يقوم ببناء منزل جديد ، ليس

منزلا عـادياً ، وانما فـيـلا مترفة فوق التلة الواقعة عند سفح الجبل المطل على رام الله ، وان هذه الفيلا مزودة بمسبح . ويروى ان امرأة ـ منذ مدة ليست بالبعيدة ـ اتصلت مع زوجـتـه سلمى وقـالت لها : «سـمـعنا ان لديكم حـوضا للسباحة في منزلكم» فـفـوجئت سلمى وقـالت مـتسائلة : «في أي بيت ؟ هل يقوم زوجي ببناء بيت دون علمي ؟ هلاً أريتني اياه ؟ بامكاننا الذهاب والانتقال الى هناك بدلاً من ان نبقى محصورين في شقتنا الصغيرة» .

ان بيتهم المكوّن من غرفتي نوم ـ وهو ضمن مجمّـع يتألف من سبع وسبعين شـقـة يقع في شـارع الاذاعـة في رام الله ـ صـغير جداً وضيق ، لدرجة ان ابنهم شـادي البـالغ من العـمـر أربعة عشر عاماً يتوجب عليه النوم على صوفا في غرفة المعيشة ، ويقول : «ليس هناك مكان لغرفة الطعام» .

ولذلك فان العائلة تأكل على طاولة صغيرة محشورة في مدخل ضيق ، ويشترك رضـوان مع زوجـته في غرفة نوم ، في حين تنام بناته الثلاث ـ سونا وتبلغ ثمانية عشر عـامـا ، وصـمـود وتبلغ اثنتي عشرة سنة ، وشـذى وتبلغ من العـمر ست سنوات ـ في الغـرفـة الأخـرى . ويقـول رضـوان أن ابنه شـادي أصـيب بجروح مـؤخراً حينما سقط رف من الكتب عليه اثناء الليل ، ويضيف : «ان متُّ غداً ، فان أولادي سيقعون في مشكلة كبيرة ، لانه منذ سنتين ـ كما يقول ـ لم يُدفع الايجار الـشـهـري الـبـالغ مـائة دينار أردني» . ويشـير الى ان زعماء فلسطينيين آخـرين يـمـتلكون فـيـلات ، وبامكانهم الاسترخـاء في بيت «وأنا ليس لدي بيت .. لا شيء أملكه باستثناء أطفالي وايماني واعتقادي بما أقوم به» .

ويقـول رضـوان ان الشـائعـات المسـتـمـرة من الاتهامات الموجهة ضده حول الفـسـاد ، والانفـاق على الشراب والمسـتـوى المرتفع من الحياة انما هي «جزء من الحـرب التي تشن لتـشـويه سمعتي» وان معارضيه ـ كما يقول ـ لم يتمكنوا من العـثـور على «أي باب في مـيـدان السـيـاسة لمهاجمتي من خلاله ، لأنني شـخص عـقـلاني وعـملي ، ولذلك فانهم بدأوا بنشر الاشاعات. إن اذهب الى مطعم وأتناول الطعام ، وأتناول أي نوع من المشروبات فانهم يقولون [سِـكّـير !] . انهم يريدون ان يسلبوني أكثر القيم التي أملكها أهمية [السمعة] . ان هذا الرجل صديق الفقراء وصديق هذه الطبقة الاجتماعية» .

ومنذ ان كـان رضـوان أبي عياش صبيا ، احتال على عيشه ، اذ يقول : «بدأت أعـمل حـينما كان عمري تسع سنوات» . وخلال العطل المدرسية ، كان يقوم ببيع البطيخ الأحمر ويعمل حـمّـالاً ، اذ كان يقوم بنقل مؤن الطعام من شاحنات وكالة الغـوث (الاونروا) الى الأكـواخ الطينية والاسمنتية في مخيم عسكر . ويقول : «كنت آمل الحـصول على بخشيش قيمته نصف قرش للحصول على شيء من المال لشراء قميص أو بنطلون أو لشراء كتبي للسنة الدراسية القادمة» .

ولكن «حـتى هذه القـروش القليلة ، فـان والدي لم يكن قادراً على توفيرها من أجلي» ويتـذكر انه كان يخوض حافي القدمين في برك الوحل ويسير مسافة خمسة أمـيـال الى المدرسة ، وينظر جائعاً الى الآخرين الذين كانوا يأكلون الساندويشات . وقد أرسله والداه الى مدرسة الجاحظ الثانوية في نابلس ، التي بدت عالما بعيداً عن مخيم اللاجئين الفـقير . وحتى لو أنّ المدرسة تقع على بعد أميال قليلة من بيته الا انه صـبـاح كل يوم كـان يمـر عبر أشـجـار النخـيل المورقة الموجودة على جانبي الشـوارع ، وكـان يرى البضائع الطازجة في المحال التجارية . وفي المدرسة ، كانت لديه مأدبة عقلية لقراءة الكتب الجديدة كلها .

حـتى مـا قـبل حـرب الأيام الســتة ، كان باستطاعة رضوان الالتحاق بإحدى جـامـعات الضفة الغربية . غير ان تلك الجامعات أُغلقت بعد الحرب ، وكان السفر الى الخـارج مكلفـاً للغاية ، ولذلك ، وبعد إكمال الدراسة الثانوية في نابلس ، التحق ذلك الشـاب البـالغ من العـمر ثمانية عشر عاماً بكلية تدريب المعلمين في رام الله ، وهـي مـعـهـد تـشرف عـليـه (الأونروا) ويزعم الاسرائيليـون انه «مكان لتـدريب المحـرِّضين» . في عام ١٩٦٩ انتـخب رضـوان رئيسا لطلبة مدرسته ، وبعد مرور سنة تخرج من المعـهد حاصلاً على شهادة الدبلوم التي مكنته من البدء في تدريس مادة اللغة الانكليزية في مدرسة سلواد الثانوية للذكور . ويقول ضاحكاً : ان طلبته كـانوا في مثل سنه تقريباً ، وقد علّـمه ذلك أهمية التعليم ، لكنه أيضاً فتح عينيه ـ كما يقـول ـ على جـرعـات الدعاية الاعلامية التي اعتاد الزعماء العرب استخدامها لتخدير الشعب الفلسطيني .

ويتـذكـر رضـوان ذلك اليـوم من أيام الصيف الحارة في شهر حزيران ١٩٦٧ حـينما طافت دبابات أجنبـيـة في أرجـاء نابلس . كان وقتها في السابعة عشرة من

العمر ، ومع ذلك استطاع ان يلتقط انفاسه حينما كان يركض من مخيم اللاجئين الى الشارع العام . توقف عند سياج اسطبلات الجيش الأردني ليراقب الجنود وهم يتحركون من جبال وادي الأردن نحو المدينة العربية القديمة البالغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة . كان الناس الموجودون يركضون ويمرحون بصخب ، فانضم الى الاحتفال ، يغني ويرقص للجنود معتقداً انهم جاؤوا لتحرير فلسطين .

لم يعرف أحد من أي بلد كان هذا الجيش : عراقي ؟ أم جزائري ؟ أم مغربي ؟. لم تكن تلك قضية . لكن رضوانا أصيب بالارتباك والحيرة حينما لمح العلم الأزرق والأبيض المرسوم على المدافع ، فليس هناك دولة عربية لها مثل هذا العلم ، ولكنه سيعود الى الاطلس ليتأكد من ذلك . ورجع مسرعاً الى مخيم عسكر ، ونظر في الأطلس ، لكن شيئاً مما شاهده في تلك الصفحات الملونة لم يكن يشبه ما رأى على الدبابات . وفجأة أدرك : ان هذا الجيش ليس الجيش العربي الذي أتى ليحررهم ، انه جيش عدوهم : اسرائيل. وفي الخلف كان باستطاعته سماع اصوات تدوي عبر مكبرات الصوت . كانت أصوات العدو وهو يطلب الى المواطنين رفع أعلام بيضاء فوق بيوتهم . وخلال دقائق ، أصبح مخيم عسكر بحراً أبيض . خلال الأيام الأولى من الاحتلال الاسرائيلي تنقل رضوان بخوف ، مروعاً كلما أزت طائرات سلاح الجو الاسرائيلي فوق مدينة نابلس ، وهي ترمي منشورات من الجو. وبعد ظهر ذات يوم ، حلقت الطائرت على علو منخفض جداً لدرجة ان أصوات محركاتها صدّعت الجدران الاسمنتية للاكواخ ، فما كان من رضوان الا ان نادى بصوت عال على شقيقه عدنان ، الأصغر منه ، للذهاب معه والاختباء تحت شجرة ، معتقداً ان الموت في الخارج أفضل من الموت في الداخل .

ومع مرور أيام الاسبوع ، أصبح رضوان غاضباً ، أولاً بسبب الاحتلال ، وثانيا على العرب بسبب عوزه للتعليم ، وتساءل : لماذا يجب ان أبقى جاهلاً ؟ لماذا لم أُعلَّم عن هذا البلد القوي : اسرائيل ؟ . ففي المدرسة ، تجب عدم الاشارة الى اسرائيل .

وفي الكتب العربية ، كان الاسرائيليون عبارة عن حفنة صغيرة من قطاع الطرق الذين باستطاعة مجموعة صغيرة من الشباب الفلسطينيين وضعهم في قارب ودفعهم نحو البحر . لقد أصيب بخيبة الأمل من الزعماء العرب ، ويقول : «بدأت

اكتشف انهم قاموا ببناء جدران في عقلي ، وان كل جدار كان يسقط . يجب ان نتخلص من هذه الشعارت الدموية كلها ، التي كانت تشبه مورفينا يعطينا اياه الزعماء العرب . يجب أن تكون عقولنا منفتحة» .

وعلى امتداد السنوات العديدة التالية ، قام رضوان بتعليم شبيبة رام الله ، وأصبح معروفاً للمرة الأولى لعائلات كان باستطاعته بشكل ما ان يحافظ على ثروتها . وتعلم العبرية ، وطوّر علاقات صداقة بين جيل الفتيان الذين كانوا يأتون اليه طلباً للنصيحة والدعم المعنوي .

في عام ١٩٧٠ التقى رضوان بفتاة ، وبعد التودد اليها لمدة تزيد على سنتين ، قرر - وقد بلغ الثانية والعشرين من العمر - الزواج منها . كانت الفتاة ابنة طبيب ثري ، سليل اسرة مشهورة ، عائلة من العائلات الفلسطينية البارزة . ورغم ان رضوانا طلب يدها ، ورغم انها وافقت ، الا ان التقاليد العربية تتطلب من والده ووالدته أن يطلبا يد الفتاة رسمياً من والديها . والى حين موافقة الوالدين على طلبه فانه ليس بامكان رضوان الظهور معها على الملأ ، ويوضح : «حتى بعد الخطبة ، فانه لايسمح لك بالانفراد معها» .

حينما استجمع شجاعته ، طلب الى والديه : عائشة وابراهيم ، الذهاب الى رام الله لطلب يد الفتاة . وما يزال رضوان يذكر كلمات والدته وكأنها قيلت بالأمس : «انهم من طبقة اجتماعية مختلفة . يجب عليك ان لا تفعل ذلك» وذكّرته بالمثل العربي القائل : «من طينة بلادك لُطّ خدادك» . وحينما احتج على ذلك ، أوردت له أمه مثلاً آخرا مشهورا : «على قدّ فراشك مدّ إجريك» فقال رضوان «أمي ... اريدك ان تذهبي» . وفي النهاية وافقت ، غير انها قالت له : «أخشى ان لا تكون قادراً على دعوتي لحضور حفل زفافك ... هؤلاء الناس لديهم قواعد مختلفة . انهم سيشعرون بالخجل لرؤية امرأة من طبقتي . لن أحضر» .

وذهبت الى رام الله ، وقال لها والدا الفتاة انهما سينظران في أمر طلب يد الفتاة. ويقول رضوان وهو ما يزال يشعر بشيء من الألم عند سرد القصة : «لم يرفضا في الحال ، وقالا [حسنا ، سنعطيكم الجواب فيما بعد] كان هذا يعني مع السلامة ... لقد ذهبت والدتي الى هناك ، ورفض طلبها ... والسبب كان انني لاجيء» .

كانت مخطوبته منزعجة قدر انزعاجه ، ويستذكر رضوان : «كانت تريد الزواج مني ، وقالت لي انه يجب عليّ ان أحضر اليها ونتمّ خطبتنا بأي شكل ، بل انها عرضت الهروب معي ، ولكنني قلت لها : لا» . ولم ينس تلك الحادثة أبداً : «لقد كانت إحدى المراحل البارزة في حياتي حينما اكتشفت انه سواء اكان بوجود النضال التحرري أم بعدم وجوده ، فان الطبقية موجودة» مشيرا الى اختيار أعضاء الوفد المفاوض مع اسرائيل «بغض النظر عن النضال التحرري ، وبغض النظر عمّن هو في المناطق المحتلة ، فان الوفد مؤلف وفق ميزان قبلي ... اننا بحاجة الى ثورة اجتماعية» .

وخلال السنوات التي تلت ، مزج رضوان بين التدريس والكتابة ، ومثل كل شيء فلسطيني ، دمجهما بالسياسة . وحينما يُسأل متى أصبح نشطا على الصعيد السياسي ، فانه يجيب : «انضممت الى الصحافة عام ١٩٧٥» . كانت تلك السنة هي السنة التي بدأ فيها العمل كمترجم لدى صحيفة الشعب اليومية الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وثالث اكبر صحيفة في الضفة الغربية وغزة . ومثل الصحف الفلسطينية كلها ، كانت صحيفة الشعب تخضع للرقابة الاسرائيلية كلما ارتأت تلك الرقابة في مقالات الصحيفة انها عامل تحريض على اعمال العنف . وفي عام ١٩٧٦ ، وباعتباره رئيس اللجنة العامة للمدرسين في مدرسة البيرة الثانوية ، نظّم رضوان اول اضراب للمعلمين في المناطق المحتلة .

وفي أواخر سنوات السبعينات درس رضوان مساقات أخرى في جامعة بير زيت في الضفة الغربية ، على أمل الحصول على درجة البكالوريوس في الآداب ، غير انه لم يتخرج أبداً ، اذ كان مشغولا جدا كنشيط سياسي . وبدأ بتشكيل مجموعات (الشبيبة) وهي اندية للشباب الموالين لمنظمة فتح ، شكلت من أجل القيام بالعمل الاجتماعي الفلسطيني وللتحريض ضد الاسرائيليين . لكنه الآن يتقن اللغة العبرية بما فيه الكفاية ، وبما يمكنه من الحصول على شيء من الدخل الاضافي من خلال عمله كمترجم . فقد قام بترجمة كتاب (الاختراق) وهو الكتاب الذي ألفه موشي دايان ، ويتحدث عن الدور الاسرائيلي في المساعدة في مفاوضات اتفاقية السلام المصرية الاسرائيلية عام ١٩٧٩ ، بالاضافة الى كتاب آخر معاد للاسرائيليين ويحمل عنوان (سادة التجسس في اسرائيل) . كذلك ، الف كتبا عديدة مثل المجموعة الشعرية (الحان كمان) وبدأ يكتب زاوية يومية في صحيفة الشعب .

في عام ١٩٧٩ ، بعد اكمال عدة شهور من المساقات في جامعة بيروت العربية ، حيث التقى بياسر عرفات لأول مرة ، ترك رضوان مهنة التدريس ليصبح صحافيا متفرغا في الضفة الغربية ، ومساهما في تأسيس اتحاد جديد ، هو اتحاد الصحافيين العرب . وقد سمح له عمله التالي مع مركز الخدمات الصحفية الفلسطيني - وهو مركز موال لمنظمة التحرير الفلسطينية ، اسسته ريموندا الطويل وزوجها ابراهيم قراعين - ومع مجلة العودة الاسبوعية التي يصدرها المركز الصحفي ، بتقوية دوره القيادي بين أوساط الشبيبة . وفي عام ١٩٨٢ سجن رضوان للمرة الاولى لقيامه بنشر كتيب يحتج فيه على اجراءات الرقابة التي تمارسها الادارة المدنية الاسرائيلية . وقضى في السجن فترة تقل عن الشهر ، الا ان الحادثة وصلت الى اهتمام ياسر عرفات الذي أرسل اليه رسالة تهنئة من رفاق بيروت على اتخاذ هذا الموقف الشجاع ضد الاحتلال .

وفي شهر آب عام ١٩٨٢ خاض رضوان انتخابات الهيئة الادارية لاتحاد الصحافيين العرب ، وكانت أول انتخابات تجرى ، فحصل على أصوات أكثر من الاصوات التي حصل عليها الفلسطيني الذي انتخب رئيسا للاتحاد ، لكنه وافق على ان يكون رئيسا للجنة العلاقات العامة .

كان النادي الصحافي والى حد بعيد هو الأقوى بين التنظيمات المماثلة له في المناطق المحتلة . فمن بين أشياء أخرى ، كان هذا النادي بمثابة نقطة ارتباط مع الصحافة الأجنبية التي كان رضوان يمدها بشكل منتظم بالمواد الصحفية . وكمثال على ذلك ، انه في عام ١٩٨٥ ، حينما وُجد أحد الفلسطينيين ميتا في حقول بيت هورون ، نظّم رضوان حملة إخبارية هادئة ، وجدت طريقها الى الصحافة الرئيسة في دول عديدة . وقد قال للصحافيين الأجانب ان القصة تتلخص في ان ذلك الرجل كان يعاين قطعة أرض كان عربي «متعاون» قد قام ببيعها الى اليهود ، وان ذلك الفلسطيني قتل في الحقل على أيدي المستوطنين اليهود . لكن عملاء اسرائيليين علموا فيما بعد ان القصة لا تنطبق مع الواقع ، فالفلسطيني كان عضوا في شبكة معقدة تعمل على تهريب السلاح الى الضفة الغربية . فالمتفجرات أُدخلت الى البلاد من قبل شخص ، ثم خبئت في الحقل من قبل شخص آخر ، وحينما توجه رجل ثالث لاخراجها عند المنحدر ، قتل : اذ انفجرت قنبلة يدوية من طراز F - 1 روسية الصنع في يده .

وخـلال السنوات الثـلاث التـاليـة ، اسـتـخـدم رضوان مجلة العودة من أجل تشـجـيع (الشبيبة) وتعزيزها . ويعترف : «اعتدت ان يكون لدي ما يشبه المنظمة السرية» والتي تم فـيـهـا تجنيـد مـؤيدين تتراوح أعمارهم بين الثـامنة عشرة الى العشرين سنة ، ويتـابع «لقـد نظروا إلـيَّ على انني مـعلّمـهم ، على انني الشخص الذي يسـتطيع ان يسدي المشورة اليهم ، ويستطيع الذهاب الى المدارس ، والذهاب الى الجـامـعـات ، والـذهاب الى المخـيمات ، والى القـرى ، وحل مـشـاكلهم المادية والمعنوية» . ولا يخفي رضـوان حـقـيقة ان نشاطاته كانت تحظى بدعم من خلال هبـات ومنح سـخـية يقدمها صديقه ياسر عرفات الذي كان قد أُجبر على نقل مقر قـيـادته الى تونس . ويقول رضوان : «بالطبع ، فقد اعتدت على تسلم اموال من م. ت. ف. من أجل عملي ، وهذا يعني انني كنت قويا» .

كـان رضوان ناجحا جداً في التعامل مع الأخبار ، وكان يبني أتباعا مخلصين له بين أوسـاط الشبيبة ، حتى انه قرر عام ١٩٨٥ منافـسة أكرم هنية رئيس تحرير صـحـيـفـة الشـعب ، وكـذلك رئيس اتحـاد الصحافيين العرب . وانتخب رضوان بالاجماع في جـولة الاقتراع الاولى ، ومـبـاشرة شرع في تحـويل الجـمـعية الى نظير لـنادي الصـحـافـة الوطنيـة في واشنطن دي. سي. فـقـد هدف الى اعطاء المراسلين الفلسطينيين الحـقوق والامتيازات نفسها التي يتمتع بها الصحافيون الموجودون في الولايات المتـحـدة الامـريكيـة حـيث حـرية الصـحـافة محمية ومصونة بموجب الدسـتـور. كان ذلك الهدف هدفا طموحا ، وبخاصة ، ان وزير الداخلية الاسرائيلي رفض بشكل مبدئي منح الاتحاد اجازة لاعتماد مراسلين أجانب .

لكن رضـوانا كـان عـاقـد العزم . ففي عام ١٩٨٦ ـ من خـلال دوره الجـديد كـرئيس لنادي الصحافة ـ سافر الى أمريكا ، حيث قضى شهرا كضيف على وكالة المعلومـات الامـريكيـة ، ذراع حكومـة الولايات المتـحـدة وسـلاحـهـا . زار مدينة نـيـويـورك ، وواشنطن دي. سي. ومـيـامي ، ومـواقع عـدة في نبراسكا ، وسـان فـرانسـيـسكو ، مطلعـا على الكثير من جـوانب الاعـلام الامـريكي ، وبخاصة قوة التلفزيون . وقد أحبّ تلك البلاد . غير ان اكثر ما جعله يُشعر بالصدمة هو كَم من القليل يعـرف أولئك الناس أو يهتـمـون بقـضية شعبه ، اذ يقول : «انهم يهتمون بآخـر أغاني مادونا ، ويهتمون بمباريات كرة القدم ، وبقمحهم . لكن أحداً منهم ـ

باستثناء قلة قليلة من الناس ـ لا يهتم بالشرق الاوسط» .

ومع بدء السنة الثانية لرئاسته ، كان رضوان يزداد قوة اكثر فاكثر ، اذ أصبح رئيس لجنة التنسيق الفلسطينية للمنظمات غير الحكومية التابعة لمنظمة الامم المتحدة ، والتي تمثل المؤسسات المحلية كلها في الضفة الغربية في تلك الهيئة الدولية . ويقول رضوان : «ليست لدينا حكومة ، ولذلك فانني المسؤول عن ذلك . انها سلطة ضخمة» . وأصبح نشطا في مجال زيادة الاموال الخاصة بدعم رفاه السجناء الذين أُدينوا بالارهاب ؛ ونظم اضراب جمعية المدرسين ضد الادارة المدنية بل انه ساعد على تأسيس فرقة مسرحية عملت ـ وفق ما يقوله الاسرائيليون ـ على تمثيل مسرحيات اعلامية تحرض على استخدام العنف .

وفيما بعد ، في عام ١٩٨٧ ، وجهت اتهامات الى معلّمه الخاص ، اكرم هنية ، بانه حلقة الوصل الرئيسة مع م. ت. ف. في تونس ، وتم ابعاده من المناطق المحتلة إثر ذلك . كما تم الحكم بالسجن علي ابن الداخل المؤيد لمنظمة فتح : فيصل الحسيني. وقد خلق ذلك الأمر فجوة في قيادة م. ت. ف. في الضفة الغربية وغزة . ويقول الاسرائيليون ان رضوانا ـ الذي نظر اليه في ذلك الوقت على انه في أعلى التسلسل الهرمي للسلطة ـ تقدم لملء الفراغ . وقد تضمنت واجباته نقل الاموال من تونس وأوروبا الى المناطق المحتلة ، وتشجيع الشبيبة على التظاهر والاحتجاج ضد الاحتلال بمختلف الوسائل المتاحة لهم .

في يوم الثلاثاء الواقع في ٧/ ١٢/ ١٩٨٧ عشية الانتفاضة ، القي القبض على رضوان أبي عياش في منزله في رام الله . وقد أبقي قيد التوقيف الاداري خلال الشهور الستة التالية ، وطالب وزير الاسكان الاسرائيلي أرئيل شارون بابعاده من المناطق المحتلة . ونقلت صحيفة الجيروزاليم بوست عن مصادر عسكرية اسرائيلية قولها ان ذلك الفلسطيني البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاما كان «نشطا فتحاويا على مستوى عال في الضفة الغربية والقدس» وانه كانت لديه اتصالات مكثفة مع نشطاء م. ت. ف. في المنطقة وفي الخارج . وقال المصدر للصحيفة ان نشاطاته اشتملت على «تلقي التعليمات والأموال من أجل تعزيز هدف المنظمة المتمثل في خلخلة النظام العام» .

أودع رضـوان في سـجن جنيـد ـ السجن المركزي للضفة الغربية ـ في نابلس ، ويقـول : «انه فندق خمسة نجوم بالمقارنة مع سجن انصار ٣ في منطقة النقب» . ومع كـون السـجن يقع على مـسافة ميل أو ميلين من مخيم اللاجئين الذي قضى طفولته فيه ، فان الشهور الستة التالية تحولت الى عودة روحية الى الوطن بالنسبة الى هذا النشط الفلسطيني الشـاب . ويضـيف رضـوان عن حـيـاة السجن : «كان مجتمعنا منظما جدا ، واذا قارنته مع الخارج ، ستجد انك في مدرسة حقيقية للفكر انها مـدرسة الثورة ، ومدرسة الروح ، ومدرسة الأمل ... لقد قرأنا الكثير ودرسنا الكثير ، فـالناس الذين أرادوا تعلّم اللغـة الانكليـزية أو العبرية أو الفيزياء ، وجدوا أحـد السـجناء ليـدرّسـهم . وكـانت لدينا جلسـات حـوار سياسي في الليل . كانت الاتصـالات ممتـازة . فـاذا أردت الاعـلان عن شيء مـا ، عليك ان تضـعـه في علبة سـجـائر ـ يا الهي ، فقد كانت السجائر شيئا رهيبا ـ ومن ثم تمررها من زنزانة لأخرى ، ثم من جناح لآخر ، ثم تنقل بواسطة العمال من فناء لآخر . وخلا خمس دقائق فقط ، كان باستطاعة السجن كله ان يعرف ما تريد . لقد كتبت اغنية طويلة عن الحـراس الذين يراقبوننا وعن حياتنا تحت الشمس . وخلال بضعة أيام ، كان كل شخص في السجن يعرف الكلمات ، وكانوا يغنونها طوال الوقت» .

ويتـحـدث رضـوان عن المعـاملة التي تلقاها من سلطات السجن ، فيقول : «في وقت مـا ، أخذوني الى القاضي العسكري ، واتهموني بانني نشط على مستوى عال في م. ت. ف. كان لديهم دليل موجود فيما يسمونه بالملف السري ـ قصاصات من ورق ، كـتابات ، تسجيلات لاجتماعاتي مع الناس ، البيانات العامة التي أصدرتها عن أشـيـاء مـثل الحـرب العـراقـيـة الايرانيـة ـ لكنهم لم يسمحوا لي ولا لمحاميّ بالاطلاع عليـه . وقلت للقاضي : [اسمع ، بحق الله أخبرني ما تهمتي ؟ ان تخبرني عن التـهـمـة فانني سأقبل بالعقوبة ، وعندما أخرج سأكون حمائميا جداً . ولكن دعني اعـرف التـهـمـة فقط] ولكنه قال [لا أستطيع إخبارك ... انها هذا سر] ولم يدينوني . وبعـد سـتة شهور حضروا إلـيّ ذات ليلة ، وجال في خاطري انه سيتم إبعـادي . أخـرجـوني من الزنزانة ، وكـان كل فرد يهتف . لم أعرف الى أين كنت ذاهبا أو ما الذي سيحدث ، ثم قالوا لي أنني أصبحت حراً]» .

مع حلول شهر أيار ١٩٨٨ ـ حينما اطلق سراح رضوان ـ كانت الانتفاضة قد استجمعت قوة دافعة ، وكانت توقع خسائر فادحة في أرواح الفلسطينيين . وفي الوقت ذاته ، كانت شبكات التلفزة ، والصحف ، والمجلات الاجنبية قد اكتشفت القصة ، وبدأت تتدفق مع مراسليها على الضفة العربية وقطاع غزة ، وبخاصة من الولايات المتحدة واوروبا . اما اجهزة الرقابة العسكرية الاسرائيلية الصارمة فقد وقفت محبطة ؛ اذ مع اختراع الاطباق اللاقطة ، وكاميرات الفيديو المحمولة ، فان ثورة «معاصرة حقيقية» حدثت في الوقت نفسه الذي اندلعت فيه الانتفاضة تقريبا. فالقصة اليومية لرشق الحجارة ، والعدد المتزايد للقتلى والجرحى في اعقاب ذلك ، أصبح يبث الآن على الهواء مباشرة وبشكل فعلي في مختلف أنحاء العالم ، في حين ان الحكومة الاسرائيلية كانت تقف عاجزة عن الحيلولة دون ذلك .

وباستئنافه لمنصبه في النادي الصحافي ، سعى رضوان الى تحويل النادي إلى أداة للانتفاضة . فقد حصل على بطاقات صحفية من الاتحاد الدولي للصحافيين في براغ للعضوية الكاملة ، والتي تضاعفت الى ما يزيد على اكثر من ثلاثمائة عضوية ، وبدأ يطلب بان يصبح المراسلون الاجانب معتمدين من قبل اتحاد الصحافيين العرب قبل ان يتمكنوا من بدء العمل في المناطق . وقد كان ذلك اهانة مباشرة للاسرائيليين الذين يحكمون الضفة الغربية وغزة . ورفع وزير الشرطة الاسرائيلي حاييم بار ليف دعوى ضد الاتحاد ، ويقول رضوان : «كان يعتقد اننا كنا نؤسس وزارة اعلام لنا مثل الاسرائيليين ، مثل بيت آغرون ... لقد هددوا باحالتي الى المحكمة ، ولكنني تحديتهم ، وقلت لهم ان لديّ ترخيصا من وزير الداخلية ، وان أحداً لا يستطيع إجباري بما يجب ان أفعله أو لا أفعله» . وفي نهاية المطاف أسقط بار ليف الدعوى .

متشجعا بتحفظه الناجح ضد الاسرائيليين ، حوّل رضوان النادي الى ما يعترف بانه «الجهاز السياسي الحقيقي» . ووجه الدعوة الى مجموعة من الاجانب أصحاب المقامات الرفيعة لالقاء محاضرات في النادي ، عاملا على رفع صورته العامة وأهميته كرئيس . كان احد الدبلوماسيين الذين حضروا الى النادي وزير خارجية هولندا هانس فان دين بروك . وقد فاوض رضوانٌ على قضية تبادل برامج مع دول في اوروبا الشرقية ، ومؤتمرات صحفية منتظمة مبرمجة لوسائل الاعلام

الاجنبية ، بل انه أقنع الحكومة الايطالية برعاية برنامج مدته ثلاثة شهور لتدريب اثني عشر فلسطينيا في مجال الانتاج التلفزيوني ، كما اقنع التلفزيون النرويجي باستضافة ثلاثة مصورين للاقامة عندهم . كذلك ، تمكن من اقناع حزب الخضر الالماني والاتحاد الدولي للصحافيين بالتبرع بمختبرات تصوير باهظة الكلفة ، بلغت قيمة أحدها ثمانية آلاف دولار . ويقول رضوان مفتخرا : «كنت أحاكي نادي الصحافة الوطني في واشنطن» .

لكن النشاط الاكثر أهمية على جدول الأعمال الجديد للنادي كان ذلك النشاط الذي قاده رضوان بنفسه : التأكد من ان طواقم التلفزة الأجنبية موجودون في الموقع الصحيح في المدن والقرى النائية قبل ان تقع حوادث رشق الجنود الاسرائيليين بالحجارة . ان مثل هذا الأمر يتطلب تنسيقا دقيقا وحذراً مع القيادة الوطنية الموحدة التي تدير الانتفاضة وتوجهها ، وآلية منتظمة لتنبيه طواقم الكاميرات والتأكد من انهم في الموقع الصحيح عند الوقت الملائم . وكان ذلك كله يتطلب القيام به من وراء ظهر الاسرائيليين ، وفيما عدا ذلك ، فان رضوانا سوف يقبع مرة أخرى خلف القضبان ، اذ يقول : «لقد وجدت ان الحركة الصهيونية فعلت الكثير من خلال وسائط الاعلام ، وشعرت - ضمن حدود قدراتي - ان باستطاعتي عمل شيء ما . ففي أعماق شعوري ، أردت محاكاتهم ... لانني أومن بالكلمة ، وأومن بالصورة ، وأومن بالصورة الحية ، وأومن بالقولبة» .

وفي أعلى سلم أولوياته ، كانت هناك قضية فضح الخروقات الاسرائيلية لحقوق الانسان ، والتي كانت تحدث بعيدا عن عدسات الكاميرات . كان رضوان مدركا ان ما يقوم به يشبه لجنة عمل سياسي اكثر من كونه ناديا صحافيا . ولكنه يقول : «ان الوصول الى مسافة من الجنود الاسرائيليين المسلحين جيدا بملابس مكافحة الشغب ، وبخوذهم وبمقدماتها البلاستيكية التي تسحب لتغطية وجوههم ، وباطلاق النار على الشباب الفلسطينيين راشقي الحجارة ، كان ذلك ما تريده تلك الشبكات . وحينما لا تتمكن طواقم التصوير الأجنبية من الوصول الى أحدث مواقع رشق الحجارة فعندذاك تكون مسؤولية النادي ان يقوم بتسجيل الحادثة على شريط فيديو ، ومن ثم تزويد وسائل الاعلام الاجنبية بها» . ويقول رضوان : «كان ذلك هو المفتاح ، ومن أجل القيام بذلك كنت بحاجة الى صحافيين شجعانا ،

فـان لم تتـمكن الصـحـافة الاجنبية من الوصول الى القرية ، لماذا لا تصل القرية نفسها الى التلفزيون من خلال مصورين فلسطينيين ؟» .

ويعترف رضوان ان اتحاد الصحافيين العرب أصبح قوياً جداً ، وتطور الى نوع من الحـزب السـيـاسي الموالي لفتح ، من خلاله وبتوجيهاته . ويوضح ذلك قائلا : «لم يُنظر اليـه من خلال عدد الاعضاء مثلما يُنظر الى اتحاد العمال ، ولكن كجهاز سـيـاسي . لقد كان مجموعة المظلة الاكثر أهمية للعمل السياسي في المناطق المحتلة ، ولذلك قلت يجب ان يكون رئيس هذا الاتحـاد سـيـاسياً» . وفي شـهر آب من عام ١٩٨٧ ـ وبمـوجب النظام الداخلي ـ وُجهت الدعوة لانتخاب رئيس جديد للاتحاد، وقـررت الهيئة الادارية ان اجـواء الانتـفـاضة تجعل من الخطورة الشديدة بمكان اجـتماع الهيئة العـامـة كلهـا ، فطلبت من رضـوان البـقـاء سنتين أخريين رئيسا للاتحاد ، فوافق على ذلك بسرور .

وعلى نحـو مماثل ـ عند انتهاء مدة رئاسته الثانية ـ في عام ١٩٨٩ «لم نستطع جمع الصـحـافيين كلهم» فطلب الى رضوان مرة أخرى البقاء كرئيس للاتحاد لمدة سنة أخـرى . ومع هذا ، وفي ذلك الوقت ، بدأ بعض الناس بالتـذمـر من انه اخـذ يصـبح قويا جدا . كانوا يُكرِهونه على سماع وتذكر ان من المخالف للنظام الداخلي بالنسـبـة الى أي شـخص ان يبقى رئيسا للاتحاد لمدة تزيد على فترة واحدة وكحد أقـصى لفترتين مـتـتـاليتين . وكانوا يقولون : «حسنا ، بسبب الانتفاضة منحناك خمس سنوات» ولكن حـان الوقت الآن لتترجل . وبالطبع ، فان ذلك كان آخر شيء يفكر فـيه رضوان ، اذ يقول : «اخبرتهم ان هناك نوعين من الرجال : نوع الرجال الذين يبنون المؤسـسـات ونوع الرجال الذين تبنيهم المؤسسات ، وانني من النوع الاول . عـلاوة على ذلك ، فليس لأحـد الحق في ان يقـول لي ان المؤسـسة هي التي جعلتني نشطا» .

ويقـول رضوان انه مع جنوح الانتفاضة نحو الهدوء ، فانه خطط لدعوة الهيئة العـمومية للانعقاد من أجل إجراء انتخابات في خريف عام ١٩٩٠ ـ ويقسم انه لم تكن لديه أي نيـه لخـوض الانتـخابات ـ لكن شيئا آخر تَدَخَّلَ : الحرب في الخليج العـربي . فـفي ذلك اليـوم من ايام شـهـر آب حـينما غـزا العراق الكويت ، ابتهج الفلسطينيـون في الضـفـة الغـربية لما قام به صدام حسين . في البداية ، تسامحت

اسرائيل تجاه مشايعتهم له ، ولكن حينما بدأ الفلسطينيون بالوقوف فوق سطوح منازلهم مبتهجين بالزعيم العراقي ، بدأت السلطات الاسرائيلية باتخاذ اجراءات صارمة .

وفي رأس قائمة مثيري المشاكل المزعومين ـ كان هناك ـ رضوان ابي عياش ، الذي اعتقل في شهر تشرين الثاني ١٩٩٠ ، واودع مدة خمسة شهور قيد التوقيف الاداري ، في زنزانة واحدة مع الصحافي الفلسطيني زياد ابي زياد . وقال الاسرائيليون : «انه يهدد الأمن والسلامة العامين للدولة» ولكن ، وبشكل سري ، حذرته الشين بيت من انه اذا لم يتوقف عن تشجيع حملة كتابة الرسائل الدولية باسمه ، فانهم سوف يلقون بالمسؤولية عليه . ويقول ان الاسرائيليين حذروه قائلين : «نحن على استعداد للجوء الى القضاء حيث سنقدم لك الدليل بانك رئيس قيادة الانتفاضة ، وانك تقدم الاموال الى النشطاء الذين هم جزء من القيادة الوطنية الموحدة» . لم يكن التهديد فارغا ، والعقوبة الصارمة كانت مؤكدة .

تلقى رضوان صدمة قاسية حينما كان في السجن . فغمغمات السخط المتعلقة بمعارضته المستمرة لتحديد موعد لاجراء انتخابات اتحاد الصحافيين العرب تحولت الى مطالبة علنية باستقالته . وعلى الرغم من ان حفنة صغيرة فقط من قيادة الاتحاد كانت متورطة في تلك القضية ، الا انه كان من الواضح ان الحملة تلك نُظمت على يد عناصر اكثر قوة في فتح ، وكانوا يعملون سرا لخلعه . ويقول رضوان : ان ثلاثة أو أربعة اشخاص «يمثلون شخصا ما له سلطة فعلية» نظموا اجتماعا ضم نحو عشرين صحافيا ، وقرروا تحديد موعد لاجراء الانتخابات خلال وجود رضوان في سجن جنيد . ويقول : «ارسلوا لي رسالة بواسطة المحامي يطلبون مني ابداء رأيي» . وجاء في رسالتهم ان القرار الأخير سيكون عائداً له . ويعترف رضوان : «لقد آلمني ذلك ... وكنت غاضبا» . وأوعز الى محاميه بان يجيبهم بان يمضوا قدما وان يجروا الانتخابات وقتما يشاؤون ، مشيرا بسخرية واضحة الى ان «ثمة شخصا في السجن وان كل ما تستطيعون التفكير فيه هو اعادة ترتيب الكراسي !» . وقد جعلهم ذلك يشعرون بالخجل ، الامر الذي أدى بهم في نهاية المطاف الى التراجع .

وفي ١٩٩١/٥/١٢ اطلق سراح رضـوان . وقـد أحجم رئيس الوزراء الاسرائيلي اسـحق شامير متعمدا عن اطلاق سراحه الا بعد ان يكمل وزير الخارجية الامريكي جـيمس أ. بيكر ـ خلال زيارته الثالثة الى القدس ـ محادثاته مع زعماء فلسطينيين ويغـادر المنطقـة . ومع هذا «فـقد كان حدثا كبيرا حينما خرجت من السجن» كما يسـتـذكـر رضـوان لأن المؤسسات الصحفية أرادت معرفة رد فعله على محادثات بيكر مع الوفـد الذي كـان يترأسـه الحسيني . ويستذكر رضوان «قلت انني أؤيد فيصلا» حتى ولو انه كان يملك كل حافز للتصرف بطريقة أخرى .

وفي الواقع ، فـان رضوانا عقد مؤتمرا صحافيا مشتركا مع فيصل الحسيني في منزله في رام الله . وقـد أدرك انه اذا ظهـر ضـد المحـادثات «فـان أناسـاً كـثيرين سيؤيدونني . كنت سأحصل على شعبية اكثر لدى الشارع . لكن ذلك لم يكن أمراً مـعـقـولا ... وقلت [دعهم يمضون قدما ويجتمعون ، لان ذلك هو السبيل الوحيد لحل المشكلة]» بل انه ذهب خطوة أبعـد من ذلك : «قلت يجب ان نبـحث في قضية الفترة الانتـقـاليـة ، أي فترة انتـقـاليـة من شأنها ان توصلنا الى دولة فلسطينية مـسـتـقلة» . وأرسلت وكـالة الانبـاء الفـرنسية اشارة الى مندوبيها ، وخلال فترة قصيرة كان هاتفه يرن .

ومن بين المكالمات التي وردته ، كانت هناك عدة مكالمات من قيادة م. ت. ف. في تونس ، تريد مـعـرفة السبب الذي يقف وراء مثل هذا البيان التوفيقي . ويستذكر رضـوان : «كـان الأمـر وكأنني أحـدثت زلزالا» . ويوضـح : «لكنني أومن بموقف ديفـيـد بن غوريون ... بوصة اثر أخرى ، ومهاجرا بعد آخر ، وشيئا فشيئا يمكن ان يتم الأمـر ... من الاهمية بمكان ان تكون على الطاولة للبحث في المحتويات التي وضعت على الطاولة . ليس من المهم التحدث عن شعارات كبيرة ونحن خارج اطار الطاولة ، المهم هو ان نكون مـشـتركين في شيء مـا وان نتـحدث عن التفاصيل . ان الاسرائيليين يسـمـونه الحكم الذاتي ، ونحن نسـمـيـه فترة انتقالية . لست مهتما بالتعابير ، ولكنني أهتم بالظروف التي ستنفذ هذه الاشياء خلالها» .

وحـال اطلاق سراحـه من السـجن ، بدأت رحى الشائعات تدور مرة ثانية لتنزّ قـصـصـا عن اسلوب حـيـاة رضوان التبذيري ، متهمة اياه بادارة الاتحاد وكأنه اقطاعـيـة خـاصة به . يقول رضوان : «كانوا يقولون [رضوان فردي ، فهو يفعل

كل مـا يريده ، شـهرته سببها الاتحاد فقط ، انه يسيّسنا ، وهو لا يعطينا أي وقت لمهنتنا] كل هذه الاعـذار والمبررات» . ويعـتقد رضوان ان هؤلاء الذين قادوا الحملة ضـده قـد ظنوا انه أصـبح ضـعيفا جدا ، وبالتالي فانه يعرض للخطر هيمنتهم في فـتح : «قـالوا لأنفـسـهم [دعـونا نستقصي الأمر . ان اتحاد الصحافيين واحد من أدواته القـوية] فـباستطاعتي الظهور امام كل شـخص تحت هذه المظلة ، والتحدث بالطريقـة التي أرغب فـيـها [لا نستطيع ان نعطيه سلطة قوية جدا لانه سيكشف طريقـة عـملنا . وعلاوة على ذلك : لماذا يتوجب علينا ذلك ؟] . انهم يعرفون ان لي جـذورا قـوية . هذه هي قوتي . انني أتحدث عن الشارع ، عن الناس في الشارع . ولذلك قالوا [دعونا نجري انتخابات]» .

وتم ترشـيح ثلاثة لخـلافـة رضـوان : حـاتم عـبد القادر نائب رئيس تحرير صـحـيـفـة الفـجـر ، وراضي الجراعي من صحيفة الفجر ايضا ، ونعيم الطوباسي مـراسل سـابق في صـحيفة الشعب . ويسخر رضوان قائلا : «نعيم ليس صحافيا في الواقع ، فـقـد اعـتاد بيع الصحف في الشارع وصنع القهوة لاكرم هنية» . وكل واحـد من هؤلاء الثـلاثة له مـؤيدوه في الداخل والخـارج : فـيصل الحسيني يدعم حـاتم عـبـد القـادر ، واكـرم هنيـة يدعم نعيم الطوباسي ، وجبريل رجوب ـ احد المبـعدين ـ وهو مشهور ، ومساعد عرفات ـ يدعم راضي الجراعي . وحتى ابراهيم قـراعين ـ رئيس رضـوان السـابق في مـركـز الخـدمـات الصـحفية الفلسطيني ـ وزوجـتـه ريـمـوندا الطويل كـان لهم دورهم . يقـول رضـوان : «رأيت خمسـة أشـخـاص يتقاتلون على لا شيء ... كل شخص كان يريد السيطرة على الاتحاد من خـلال دفع مـرشحه . وقلت [حسنا ، انها كعكة . صحتين ! خذوها ! تمتعوا بها ! انني مستقيل !]» .

وقـام مؤيدوه بالتوقيع على عريضة لاقناعة بتغيير رأيه ، وجمعوا تواقيع كافية لمطالبـتـه بخـوض الانتـخـابات ، ووعـدوا بان يعـاد انتخابه باغلبية كبيرة ، لكن رضـوانا أراد إمـا ان يتم اخـتـيـاره بالاجماع او انه لن يخوض الانتـخـابات على الاطلاق . ويوضح قـائلا : «لم اوافق على ذلك لانني أردت كل واحد من جمهوري ان يقـول نعم ... بامكاني دخول معركة ضد الفصائل الأخرى ولكن ليس في داخل

مجموعتي (فتح) لان ذلك يعني ان داخل قبيلتي بعض المعارضين . انني لا أتحدث عن وزارة المطبخ ... انني اتكلم عن الحمّام» .

وفي ١/٨/١٩٩١ اجريت انتخابات لاختيار رئيس جديد لاتحاد الصحافيين العرب ، وانتخب نعيم الطوباسي رئيسا من خلال التصويت التهليلي . وبعد الاعلان عن النتائج ، اعطيت لرضوان الفرصة للحديث ، فقرأ التقرير المالي ، ثم أخرج من جيبه ورقتين : الاولى ، وكانت العريضة التي وقعتها غالبية الاعضاء ، والتي يطلبون منه فيها البقاء في منصبه . والثانية رسالة من ياسر عرفات . كان رضوان قد اجرى اتصالا مع عرفات بعد مرور فترة قصيرة على اطلاق سراحه من السجن وحينما تلقى الاجابة أخفاها . والآن ، فانه قدم الرسالة المكتوبة بخط اليد : «وعرضت الرسالة على المجموعة ، على [عصابة المائة !] لقد جاء في رسالة عرفات [يجب ان تُنتخب مرة ثانية] . كان كل واحد منهم في حالة صمت» . فلماذا لم يكشف عن وجود الرسالة في وقت مبكر ؟ ويجيب رضوان قائلا : «أردت اثبات شيء ما ، وهو : لو انني كنت أريد الرئاسة لكان باستطاعتي الحصول عليها ولو أنني خضت الانتخابات لكنت سأكسب . لكنني شخص ديمقراطي . أردت ان أثبت ان باستطاعتنا بناء مؤسسة» .

ومع هذا ، فان لدى رضوان مفاجأة في جعبته . فعلى الرغم من تأييده الشفوي لعملية السلام ، الا انه لم يطلب ان يكون عضوا في الوفد الفلسطيني المفاوض الذي يرئسه حيدر عبد الشافي ، أو في لجنة التوجيه التي يرئسها فيصل الحسيني. ان التجاهل كان مثيرا للسخط لان رضوانا ، على العكس من الفلسطينيين الآخرين الذين هم من القدس ، كان من نابلس . ولذلك فانه كان مرغوبا فيه ـ بموجب القواعد الاساسية التي اتفقت عليها الولايات المتحدة مع اسرائيل ـ ليكون عضوا في الوفد الذي سيجلس على الطاولة امام الوفد الاسرائيلي . ويقول رضوان: ان الفلسطينيين الثلاثة الذين نسّبوا لعرفات «أسماء الناس الذين يرغبون في العمل معهم» هم اكرم هنية ، وفيصل الحسيني ، ونبيل شعث .

كذلك تم تجاهل رضوان ايضا حينما تم تشكيل الوفد الفلسطيني للمحادثات متعددة الاطراف مع اسرائيل . وهو يشعر انه كان سيكون مفيدا جدا للمحادثات

المتـعلقـة «بحق العـودة» لفلسطينيي الشـتات التي عقدت في أوتاوا في أواخر ربيع سنة ١٩٩٢ . ومع ذلك ، فـانه لاجيء ويحظى بتأييد واسع بين الفقراء . ويقول : «حـينما يتحدثون عن المخيمات ، فانني الشخص المناسب لذلك ... لقد عملت كثيرا في القطاع العـام . وعملت في الشبيبة ، وانا الذي بنيت تلك المجموعات . أُبقي ابوابا مفتوحة لحل مشاكلهم ، ولدي اتصالات دقيقة جدا مع القيادة ، ولا أنحاز لأحد».

ربما بسـبب عـلاقـاته الوثيقة مع م. ت. ف. أو بسبب ان فلسطينيي «الداخل» أرادوا ان يبـقـوا انفسـهم بعـيدين الى حدّ ما عن القياديين الموجودين في تونس ، سمي رضوان لرئاسة دائرة ثالثة ، وهي مجموعة من الناس المعروفين بمساواتهم لمنظمـة التـحـرير الفلسطينيـة . ويقـول رضـوان ان الاربعة عشر شخصا في هذه «الـلـجـنـة الاسـتـشـاريـة» أُعـطوا هذا اللقب للعـمل «كنوع من دبابة التـفكير : فـبـاستطاعتهم تقديم توصية ولكنهم لا يستطيعون اعطاء أوامر» . ان المجموعات الثـلاث كلهـا ـ الوفـد المفـاوض ، لجنة التـوجـيـه ، واللجنة الاستشارية ـ تقدم تقـاريرها الى ياسر عـرفـات . ويقـول رضـوان : «هناك ايضا اجتماعات مشتركة منتظمـة بين (الداخل) و (الخـارج) من أجل اتخاذ القـرارات . أمام ياسر عرفات ، الجميع متساوون» .

وهو يرفض مناقـشـة مـا يمكن ان يكون حوافز محتملة لأي شخص من أجل احباطه عن العمل . ومع هذا ، فان ما هو مفهوم ضمنا هو ان استبعاده من الوفد المفـاوض ، وتجـريده من رئاسـة نادي الصـحـافـيين لهما جـذورهما في الصراع الطبـقي. يقـول رضـوان : «هناك طبقتان في مجتمعنا» . ان فيصلا الحسيني يمثل النخبة ، حلقة الوصل بين الماضي من خلال والده عبد القادر ـ بطل حرب ١٩٤٨ ـ وبين جـذور الوطنيـة الفلسطينيـة من خلال عمه الحاج أمين . ويؤكد رضوان من ناحية أخرى انه لم يقطع الاتصال أبدا مع الفلسطينيين العاديين : «لدي روابط مع أهل المخـيمات ، مع المقـاتلين ، مع الفـقـراء ، مع اولئك الذين لديهم آمـال كـبيرة وتوقعات كبيرة . يمكنني الذهاب الى أي مكان ، ويمكنني التحدث مع أي شخص».

لقـد تقـرب بحـيـاته كلها الى الشعب الفلسطيني . ويستذكر رضوان انه حينما كان في التاسعة عشرة من عمره ، كان طلبته في كلية تدريب المعلمين في رام الله مثل

أخـوته : «اعـتـدت الـحـضـور مبكراً في الصباح من أجل أن أعطي دروسا إضافية وللعب كـرة القـدم مـعـهم . وقـد زرتهم في المخيمات ، واعتدت النوم عندهم . كنا نخـرج ونتحدث تحت الأشجار . واستمعت الى كل شاب أو شابة وحاولت أن أحلّ مـشـاكلهم ... لقـد نُظر إلـيّ على أنني أب روحي : الايديولوجي يحاول تحـقـيق أهدافـهم» . ومـثل أي سياسي جيد ، فانه حصل على مشاريع الاونروا من أجلهم ، واقنع دول السـوق المشتركة في اوروبا من أجل تقديم تحسينات بما في ذلك انظمة مجاري حديثة للمخيمات .

واليـوم ، يعتقد رضوان ان هذه المجموعة نفسها هي مصدر غير متماسك ، وان منظمـة فـتح اذا لم تنصت لاحـتـيـاجاتهم ، فان م. ت. ف. ستخسر المعركة أمام الاصـوليين الاسلاميين . ويقول انه يقضي الليالي بدون نوم وهو يسأل نفسه المرة تلو الأخـرى لماذا حـققت حماس مثل ذلك الفوز في انتخابات غرفة تجارة رام الله ، في المدينة المسـيـحـية : «ان الناقوس قرع في رأسي» . ويسأل نفسه : «لماذا يتوجب على شـخص مـا ان يؤيدني لاني فقط م. ت. ف. ؟» . ان العديد من الناس يظنون ان م. ت. ف. منظمـة فـاسـدة لاننا «لم نثبت ان لدينا القدرة على القيام بأي شيء على الارض» لتـحـسين ظروف حياتهم . ويقول رضوان : «الناسُ عبيدُ حاجاتهم ، فاذا استطعنا تلبية هذه الاحتياجات فمن المحتمل ان ينضموا الينا» .

ويقـول : بعـد الانتـصـار الذي حـقـقته حماس ، أدرك انّ عليه «الاشتراك مع الجماعـة التي تقيم مآدب كبيرة للفقراء ، والتي تعطي أحاديث طيبة في المساجد كل يـوم جمـعـة ، الجماعـة الـتـي تـوصـلـني الى الله في قطار سريع!» . ولذلك ، في ١٩/٦/١٩٩٢ دعـا رضـوان الى عـقـد اجتماع عام في الكلية الابراهيمية ، الواقعة أمـام منزل فيصل الحسيني على جبل الزيتون في القدس . وهناك ، أعلن عن اقامة منظمـة جـديدة هي جمعـيـة التوحيد الفلسطينية . وبالطبع ، اعلن رضوان نفسه رئيـسـا . ووجـه الدعـوة الى الهيئات الدبلومـاسـيـة الاجنبـية ، ووسائل الاعلام للحـضـور ، وعيّـن شـخصيات من ضمنها فيصل الحسيني وسري نسيبة في هيئة الأمـانة . وقـد حضر الى الاجتماع ما يزيد على ثمانمائة شـخص ، حتى ان الشرطة الاسرائيـلـيـة عـمـلت على محاصرة الكليـة ، وأعـادت باصين مليئين بالفلسطينيين القادمين من الخليل ونابلس .

ويوضح رضوان ان هدف هذه المجموعة الجديدة هو اقامة روابط بين اولئك الذين يشكلون الطيف السياسي من أجل مساعدة الفقراء . ويقول ان هذا كان هو الهدف الأصلي للشبيبة قبل ان يقوم الاسرائيليون بحظرها . ويوضح «ان ذلك كان شللا لنا ... اعتقدنا ان باستطاعتنا القيام بذلك بطريقة اكثر تحضرا واحترافا ؛ وانه [اذا اجتمعنا مع بعضنا ، فانه يمكنني ان لا أتفق مع السيد س في موقفه السياسي ، ولكنني اوافق على العمل معه لحل مشكلة اجتماعية]» .

وتمت تسمية ثلاثة وعشرين شخصا لادارة مختلف المجالات ، بما في ذلك : الصحة ، التعليم ، العمل الخيري ، الصحافة ، الهندسة ، وحتى الدين . وطلب الى الاطباء تخصيص يوم واحد في الاسبوع للعناية باولئك الذين هم في المخيمات ، وطلب الى المدرّسين التبرع باعطاء دروس ، والى المهندسين المساعدة في بناء الشوارع ، والى الصحافيين كتابة مقالات عن أهمية عملية السلام ، والى الاغنياء اقامة لجان خيرية لتقديم الاموال الى من هم اقل ثراء. ويقول رضوان : «قمت بتسمية شيوخ ، وتجار ، ورجال دين ، ومقاتلين ، ووطنيين ، ومستقلين ... معتمدا بشكل رئيس على اولئك الذين يمكن ان يكونوا مؤيدي حماس في الغد قبل ان يصبحوا من مؤيديها» .

إن الاعتراف والاقرار بوجود فروقات طبقية هو الذي جعل من هذا الأمر ممكنا «نحن مجتمع قبلي سواء أكانت هناك ثورة أم لا . لقد أدخلنا القبلية الى السياسة ولذلك قلت : [حسنا ، هناك مكان للمتدينين ، يمكنك ان تخدم الفقراء ، وهناك مكان للتجار في مجال العمل الاجتماعي : ان أقوم بتنظيف الشوارع ، وان يراني عشرة آلاف شخص ، فانني اقدم بذلك مثالاً لسلوك المواطن الحقيقي]» . ويقول ان السياسة ليست هي حافزه الوحيد : «انني لا أطلب منك ان تصبح نشطا سياسيا ، ولكنني اطلب منك القيام بعملك . ان الناس متحمسون لهذا الأمر لاننا لا نطلب منهم أي شيء خارج حدود قدراتهم» .

ومع ذلك ، فان رضوانا لا يحاول اخفاء حقيقة ان هذا التحالف الجديد الواسع يساعده على استعادة سلطته وقوته في الضفة الغربية ، اذ يقول : «لقد كتب شخص ما الى عرفات بان هذا التحالف حزب سياسي ، وانه يحصل على دعم من

العربية السعودية وانه معارض لعملية السلام» . ووجه آخرون اتهامات مفادها ان هذا هو رد رضوان على استبعاده من الوفد المفاوض لاسرائيل ، وهذا هو بديله للمجموعة الرسمية التي يقودها الحسيني . ويعلن رضوان : أن لا شيء من هذه الاتهامات صحيح ، ويقول : «لا أخفي ان هناك هدفا سياسيا وراء هذا ... انه تقوية وضع م. ت. ف. في المناطق المحتلة . انني أحاول الرد على حماس ، وتحديهم على الارض ، ومنع حماس من الوصول الى هناك قبلنا وقبل أن نوحّد الناس» .

ويعترف رضوان انه ما يزال يشعر بالمرارة نتيجة تجاهله : «ليس لي دور في الوفد . ليس لي أن أقرر شيئا في الوفد . هذا امر رائع ... ولكن لنا دورا آخر للقيام به على الصعيد الداخلي . فاذا تمكن الوفد من اقامة دولة غدا ، فكيف يمكننا بناء الدولة هذه إنْ لم تكن لدينا بنية تحتية اجتماعية ؟ سأقول لك الحقيقة : ان اولئك الذين يحصلون على شرعيتهم من القيادة بدون حصولهم على شرعيتهم من القاعدة سوف يفشلون . ولكن اولئك الذين يحصلون على شرعيتهم من القاعدة ومن القيادة سوف ينجحون» .

لكن ما لم يُقل ، بالطبع ، هو ان رضوانا اكتشف طريقة للمقاومة . فهو يتوقع ان تزداد العضوية بشكل مضطرد في المنظمة الجديدة : «عشرة آلاف مواطن ليست نكتة ! سيصبحون خمسين الفا ... اذا تصرفنا بهدوء ، وبحذر ، وبذكاء ، وباسلوب منهجي . ان افضل رد على حماس هو اتباع تعاليمها» . ويوضح أوري نير من صحيفة هآرتس : «انه اسلوب لضرب حماس في ملعب حماس بالادوات نفسها التي تستخدمها» .

ويضع رضوان بنفسه فلسفته موضع التطبيق العملي . فبعد عودته من مؤتمر مدريد ، حيث رافق الوفد الفلسطيني ولكن بدون ان يشارك في المفاوضات ، ارتحل الى القرى النائية في الضفة الغربية باحثا عن التأييد والدعم لمسيرة السلام : «ألقيت سبعين محاضرة في اكثر الامكنة صعوبة ، في اماكن لا يستطيع أي شخص الذهاب اليها» . وفي كل مكان يتوقف فيه كان يعظ بالحاجة الى البدء في القيام بتقدم عملي على ارض الواقع ، حتى ولو كان ذلك يعني ان الامر سيستغرق

سنوات قبل ان يقيم الفلسطينيون دولتهم . ويتساءل : «ما الفائدة من المطالبة بدولة مستقلة والمناداة بشعارات راديكالية تتعلق بتحرير فلسطين انْ لم نكن قادرين على العيش بحرية في أريحا ؟ ... انْ كنا قادرين على العيش في أريحا ، فيمكننا على الاقل افتتاح مكاتب الدولة المستقلة ، وبعد ذلك يمكننا التفاوض على نابلس ، ورام الله ، والقدس ، وعلى قضايا أخرى» .

وقد قال لحشد من الناس ان البدء «بفترة انتقالية ، او بحكم ذاتي كامل طبقا لما وافق عليه المجتمع الدولي ، هو خطوة هامة نحو بناء الواقع الجديد» . وقال لجمهور مستمعيه : انه للمرة الاولى ستتاح لهم فرصة اتخاذ قرار يؤثر في حياتهم بشكل مباشر ، فإنْ يؤيدوا مسيرة السلام ، فان الجيش المحتل سينسحب من المدن والقرى الفلسطينية ، وستكون البلديات قادرة على اصدار صكوك ملكيات للاراضي العربية ، وسيتوقف اليهود عن بناء مستوطنات . ويبشر رضوان «بأن كلينا : الاسرائيليون والفلسطينيون يجب علينا ان نجرب بعضنا عمليا لا نظريا . اننا بحاجة الى وقت . دعونا نفعل ذلك على ارض الواقع ... اعتقد انه من الطبيعي ان تكون هناك فترة انتقالية . كيف يمكننا التحول من حالة السيولة الى حالة الغازية دون المرور عبر شيء من النار؟» .

وهو أيضا متفائل فيما يتعلق بالمستقبل ، اذ يقول : «ان كنّا نتحدث عن المستقبل القريب ، فانني أعتقد انه ستكون لنا دولة فلسطينية شبه مستقلة خلال سنتين أو ثلاث سنوات» . ويأمل ان يكون للحكم الذاتي مجلس تشريعي يعمل بمثابة البرلمان . ومع حلول عام ١٩٩٥ سيبدأ هناك تعاون يومي بين الاردن ، واسرائيل ، والفلسطينيين في «كيانهم» الجديد . ويتنبأ رضوان «بانه سيكون ايضا هناك نوع من التطبيع مع البلدان العربية» .

ورضوان لا يشعر بالقلق والخوف فيما يتعلق بخطر الاصولية الاسلامية ، فقوة حماس في المساجد كما يقول رضوان : «هناك ٣٦٢ مسجداً في الضفة الغربية وغالبيتها بأيدي حماس» لكنه يؤكد ان «معظم قوة حماس تأتي نتيجة الافتقار الداخلي للوحدة داخل فتح» . ويقول رضوان ان الاصوليين ليست لديهم جذور عميقة في النضال ضد الحكم الاسرائيلي : «فحماس ليس لها تاريخ . لقد بدأت

خـلال الانتـفـاضــة ، وفـتح بدأت في سنوات السـتـينات» . كـذلك ، فـان الشعب الفلسطيني يشـعـر بالشك والارتيـاب اتجـاه أي حـركـة تموّل من الخـارج : «ان الفلسطينيين يقـبلون بأي اتجـاه اذا كـان اتجـاها فلسطينيـا خـالصـا . فان كان مستوردا من مكان ما آخر ، فانه لن يُقبل ، وهذا هو السبب الذي يفسر سبب عدم استمرار [تعريب] القضية الفلسطينية الى الأبد . ان حركة حماس تحاول [تعريب] و [أسلمـة] القـضـيـة الفلسطينيـة ، وذلك يعني انه سيكون من الصعوبة بمكان بالنسبة الى حماس ان تعيش لفترة طويلة» .

ويسلّم رضـوان بانه من أجل ان تتنافس فـتح بفـاعليـة ، فـان على المجـموعة المسـيطرة في م. ت. ف. ان تخلّص نفـسـها من الصورة الفاسدة : «نريد الاصلاح . دعني اكـون واضـحا جدا : ان نسلك سلوكا حسنا . ولكن أن لا [نعرّب] قضيتنا . ان تـكـون لـنـا روابـط مع الاردن أو سـوريا أو لبنان أمـر يختلف عن ان نكون محكومين من قـبل الاردن أو سـوريا أو لبنان . ولدينا قول مأثور [الرئيس يدفع الفـاتورة] فـمن هو رئيس حماس ؟» . ويجيب عن السـؤال : «ان حـركـة حماس محكومة من قبل سلطات غير فلسطينية ، يعتقد البعض انها العربية السعودية ، في حين يعتقد آخرون انها بعض الدوائر في الاردن . ويعتقد فريق ثالث ان ايران تقف خلفـهـا» . لكن سلطة حماس وقـوتها سوف تضعف اذا حصل الفلسطينيون على سـيطرة حـقـيـقـيـة على حـيـاتهم . يقـول رضوان : «اعطني شيئا من النجاح في المفـاوضـات ، نجـاحـا عـمليا حقيقيا ، وسيتبعني الشعب . ان تتحدث عن إحلال السـلام في الشرق الاوسط ، في حين مـا تزال خـروقات حقوق الانسان في المناطق المحـتلة آخـذة بالازدياد ، فـان من الطبـيـعي ان تكون هناك فـجـوة بين النظرية والتطبـيق . وهذه الفـجوة ستُملأ بالراديكالية . فما الذي أوجد الراديكالية ؟ ... لقد اكتشف الناس اننا نتحدث عن السلام دون ان نُحلّ السلام ، نتحدث عن الغد لكن الغـد لا يأتي أبدا ، نتحدث عن فترة انتقالية من شأنها ان تخفف معاناتهم ، ولكن ليس هناك شيء من هذا القـبـيل . فكيف يمكن لي ان أؤيد شـخـصا ما يتحدث عن شيء ما بشكل تجريدي ؟» .

ويقـول ان الطريقة الوحيدة لالحاق الهزيمة بالاصوليين هي من خلال تحسين ظروف حـياة ١,٧ مليـون فلسطيني في الضـفـة الغـربيـة وقطاع غزة : «الناس

يعرفون الله من خلال مخلوقاته على الارض . فلو لم يكن قد خلق شيئا على الارض ، فان أحداً لن يؤمن به ! وهذا هو السبب الذي يجعلني اقول انه في اللحظة التي يؤمن فيها الفلسطينيون ان الوضع يتغير على الارض ، فانهم سوف يؤيدون عملية السلام» .

ان ردم الهوة بين الأمل والواقع هو اكبر تحد تواجهه فتح والفصائل الأخرى التي تؤيد المحادثات ، كما يقول رضوان الذي يستذكر اجتماعا انعقد في غرفة في أحد الفنادق في عمان لدى عودة الوفد في طريقه الى الضفة الغربية قادما من مؤتمر مدريد . هناك ، في التاسع من شهر تشرين الثاني عام ١٩٩١ ، اجتمعت وفود الفلسطينيين الثلاثة التي يقودها حيدر عبد الشافي وفيصل الحسيني من أجل وضع استراتيجيتهم لليوم التالي : «كنا نحاول اتخاذ قرار بشأن ما كنّا سنقوله للناس حينما نعود الى الوطن ... لقد كان الخطاب الذي ألقاه عبد الشافي ممتازاً ، وكان المؤتمر رائعا ، ولكن ما الذي كنا سنقوله لهم عن المستقبل ؟» .

ثم حدث شيء ما كان له أثره العميق في نفس رضوان . فبعد عبورهم جسر اللنبي قادمين من الاردن يوم ١٠/ ١١ ، كانت الوفود الفلسطينية الثلاثة في حافلتين مكيفتين تنتظر الانتهاء من اجراءات التفتيش عند نقطة تفتيش اسرائيلية اقيمت عند مدخل مدينة أريحا ، وهي أول مدينة فلسطينية تقع في المناطق التي تحتلها اسرائيل . كان آلاف الفلسطينيين مصطفين على جوانب الشوارع ، واقفين خلف الحواجز الخشبية التي أقيمت على عجل بهدف ضبط ذلك الحشد من الناس. كان بعض الناس يحملون أغصان الزيتون ، في حين حمل آخرون طاقات الورود وأمسك عجوز فلسطيني بحمامة بيضاء فوق رأسه . وعندما بدأت الحافلتان التحرك ببطء عبر نقطة التفتيش ، اندفعت الجماهير عبر الحواجز المقامة ، واطلقت سيارات التاكسي أصوات أبواقها المنبهة (الزوامير) وعلقت اغصان الزيتون على القضبان المعدنية الموجودة على زجاج سيارات الجيب العسكرية الاسرائيلية ، في حين أخذ جندي اسرائيلي شاب ينظر بدهشة الى ما يحدث ، وأخذ الناس يهتفون باسماء أعضاء الوفد ، ولوّحوا لهم بأيديهم وهم في حالة من الاهتياج . يقول رضوان : «استُقبلنا وكأننا كنا ابطالا عائدين الى وطنهم من الانتصار» . في الوقت نفسه ، وثب صبي يبلغ التاسعة من عمره الى نافذة الباص حيث كان رضوان

جـالسـا . واذ تخوف رضـوان من ان يسـقط الصـبي من نافذة الباص الذي كان يسير ببطء ، عـمـد رضوان الى رفعه من خلال فتحة النافذة ، وادخله الى الباص ، واجلسـه في حـضنه . ثم قـبّل رضـوان الصبي ، الا ان الصبي ابتعد عن رضوان قـائلا : «ابو عياش ، هل صحيح ان فلسطين حرة الآن ؟ وهل صـحيح ان فلسطين عـادت لنا ؟» . كانت الكلمات قد خانت رضوانا . وأخيرا ، أجاب رضـوان الصبي : «نعم ، سـتكون فلسطين حـرة ! ولكن علينا ان ننتظر حـتى تصـبح كبيرا بما فيه الكفـاية لتسـتمتع بذلك !» . وطلب رضـوان الى سائق الباص ان يتوقف ، وبلطف وعناية أنزل الصـبي من النافـذة . واذ عـاد الى الاسترخاء في مقعده ، أخذ يفكر في السـؤال الذي طرحه الصبي ، غير واع لما يحدث حوله من جلبة . ويقول رضوان : لقـد كان ذلك السؤال بمثابة صدمة كهربائية ، ودعوة غليظة للاستيقاظ من أحلام مـدريد : «انني افكر في ذلك السـؤال كل يوم تقـريبـا ... وأسأل نفسي : [ما الذي نفـعله؟ هل سنحـرر فلسطين فـعلا من خلال المحادثات]؟» . ويعترف رضوان ان الصـبي البـالغ تسع سنوات من العـمـر «قد هزّ مفاهيمي ، وبدأت أعيد تقييم كل شيء» .

ويقـول رضـوان ان الصـبي هو انموذج لموقف الجيل القادم : «حيثما تمشي في الشـارع اليـوم ، يسألك الناس [هل تعـتـقـد ان هذا الأمـر جدي ؟] انه مزيج من الريبـة والأمل ، من الرغـبة والتردد . باستطاعتي الوثوب فوق هذه الحالة النفسية ان كـان هناك شيء مـا في يدي» . انه ليس الحل الأفـضل ، ولكنه الاجابة الوحيدة على الصـبي الذي وثب الى البـاص : «ان تكن لدينا فترة انتقالية ، فانه يمكنني ان اقـول للناس [انظروا ، لدينا مـرافـقنا الصـحـيـة ، ومـؤسـسـاتنا التـعليـمـية ، والاسرائيليـون لا يتـدخلون بنا ، انهم ينسـحـبون من المناطق المأهولة ، من غزة ونـابـلـس وأريحـا . تلك هي الخطوة الاولى» . ويضـيـف رضـوان ، ويبـدو كأنه يحاول اقناع نفسه بالاضافة الى اقناع أبناء شعبه : «ابدأوا ببناء ايديولوجيتكم من خـلال الاعمال . ولكن اذا كنتم تتـحـدثون عن أحـلام وردية ، والناس ما يزالون يرون ان السـجـون هي السـجون نفسها ، وان اطلاق الرصاص في الهواء ما يزال كما هو ، وان حظر التـجـول ما يزال كما هو ، واننا نظهر على شاشات التلفزيون بربطات العنق وببـيانات لطيفة ، فان لا أحد سوف يصدقنا . لقد ذهبنا الى مدريد ونحن نحمل جراحات عمرها سبعون عاماً» .

لقد تعلّم الفلسطينيون دروسا كثيرة منذ ان أُوجد الشرق الاوسط الحديث عند نهاية الحرب العالمية الاولى . فقد تحَطمت أحلام مستحيلة التحقيق بانهم ذات يوم سيدمرون اسرائيل ، ويعودون الى بيوتهم في فلسطين . ويقول رضوان : الاحلام ستستمر لكن حان الاوان من أجل جرعة كبيرة من الواقعية . ان كان ثمة شيء سيتغير الآن ، فانه لا يجب على أحد ان يعرض اكثر مما يمكنه/يمكنها ان يقدم . ورضوان أبو عياش على قناعة بان الحياة في الضفة الغربية وفي قطاع غزة ستتحسن شيئا فشيئا . لكن التحدي الذي يواجهه كزعيم فلسطيني مستقبلا واضح تماما . انه يختلف عن المهمة التي واجهها ياسر عرفات خلال السنوات الاربعين الاخيرة . ان رئيس م. ت. ف. وفصائل حرب العصابات التي قادها قد وضعوا الشعب الفلسطيني على خريطة الوعي الدولي ، وان على الجيل التالي ان يقيم الدولة ، وقبل كل شيء كما يقول رضوان : «يجب ان نكون جديرين بالثقة» والبقية الباقية تعتمد على الاسرائيليين «فهم الوحيدون الذين سيقررون فيما اذا كانت آمال تحقيق السلام ستصبح حقيقة» .



كتاب (الفلسطينيون الجدد) يلقي نظرة أقرب على جيل القادة هذا، وهو [illegible]